مثنوي جلال الدين الرومي

ترجمة وشرح ودراسة

الدكتور محمد عبد السلام كفافي

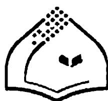
الجزء الثاني

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

مثنوي

جلال الدين الرومي

الكتاب الثاني



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مثنوي

جلال الدين الرومي

شاعر الصوفية الأكبر

الكتاب الثاني

ترجمة وشرح ودراسة

للدكتور محمد عبد السلام كفافي

أستاذ آداب الأمم الإسلامية بجامعة القاهرة
عميد كلية الآداب بجامعة بيروت العربية

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

الطبعة الأولى
الناشر
المكتبة العصرية
صيدا ـ بيروت
١٩٦٧

الإهداء

الى ذكرى والدي عبد السلام كفافي

١٨٩٠ _ ١٩٣٧

وشقيقي المهندس الشاب عصام كفافي

١٩٣٥ - ١٩٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

يسعدني أن أقدم الى الباحثين والدارسين ، والى قراء العربية عامة الكتاب الثاني من المثنوى . وقد سلكت في اعداده ذات النهج الذى سلكته في الكتاب الأول ، فكتبت له مقدمة ، وأعددت له شروحا ودراسات ، وزودته بما يعين على ايضاح معالمه من الفهارس والكشافات. وهذا نهج سآخذ نفسى به في بقية أقسام المثنوى ، ان شاء الله .

وكان هذا الكتاب قد قطع شوطا بعيدا في طباعته ، حين وقعت حوادث يونيو (حزيران) الأليمة ، وما تبعها من نكسة أصابت أمتنا العربية .

وأخذت كغيرى من المواطنين أتأمل أسباب ما أصابنا . والشدائد — حين تقع — توقظ الروح ، وتجعل الانسان أكثر احساسا بها ، وادراكا لجوهرها ، يحاول أن يسمع منها جوابا لما خفى عليه علمه .

وكنت أجد عند شاعرنا الحكيم — حين قيامى بمراجعة الكتاب في تلك الظروف — كثيرا مما يجيب على تساؤلى . وآمنت ايمانا لا يشوبه أى شك بأننا في أمس الحاجة الى بناء روحى جديد ، يكون أساسا لكل بناء حضارى أو مادى نسعى الى اقامته .

نحن في حاجة الى شيء من التصوف البناء ، الذى يعيد الحياة الى الروح العربى الأصيل ، ويكشف عن جوهره ما غشيه من غبار السنين . حينذاك نبلغ القوة المنشودة ، ولا تعصف بنا مخاوف الحرمان من ترهات الترف الزائف . فمن التصوف أن يتغلب المرء على شهواته . ومن التصوف أن يستهين المرء بالحياة في سبيل أسمى الأهداف . ومن التصوف أن يكون المرء مثاليا في ما يعتقد وما يقول وما يعمل . وكل أولئك ضرورى لنا في موقفنا الحالى .

ان عودة الروح هى العودة الحقيقية التى تتبعها بالضرورة عودة الكرامة ، وعودة الأرض .

ولو نجح هذا الكتاب في أن يسرى عن محزون ، أو يعين متفكرا ، أو يوقظ ضميرا ، أو يبعث همة ، فقد نجح في أداء مهمة لا تقل مكانة عن مهمته العلمية ، والله هو الهادي والموفق .

محمد كفافى

بيروت في ١٥ يوليو (تموز) سنة ١٩٦٧

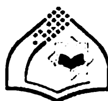
فهرس المحتويات

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة



المقدمة

القِصّة وَالحِوارُ
في المثنوي

يهدف هذا البحث الى تقديم دراسة موجزة لفن القصة والحوار في المثنوى . ومما يجعلنا نبادر بتقديم هذه الدراسة على سواها أن المثنوى ـ في ظاهره ـ يدور حول مجموعة من القصص التى يرويها الشاعر ، ويبث من خلالها نظراته الصوفية وفلسفته الأخلاقية .

ومن المستطاع أن يستخلص من كل قصة مضمونها الفكرى أو الأخلاقى ، واذ ذاك يتضح البناء الفكرى للمثنوى ، ذلك البناء الذى أراد الشاعر أن يخفيه وراء هذه المجموعة من القصص ، وبهذا عبر عنه تعبيرا رمزيا ، وجعل عمله يدخل بجدارة واصالة ضمن نطاق الفن ، الى جانب ما أسهم به من مضمون فكرى وأخلاقى نادر المثال .

ان جلال الدين قد أوتى مقدرة رائعة في الأداء القصصى ، وكذلك في صياغة الحوار . وقد استعان بهذه القصص في تصوير أفكاره وتقريبها الى مستمعيه . لكنه لم يترك في ذهن المستمع أو القارىء أى شك في أن هذه القصص انما سيقت من أجل مضمونها الفكرى أو الأخلاقى . ومن هنا لم يحرص الشاعر ـ برغم مقدرته في الأداء القصصى ـ على تماسك القصة ووحدتها ، بل كثيرا ما كان يوقف سرد القصة ليعلق على احدى

وقائعها ، ثم يعود من جديد فيستأنف رواية القصة . وربما توقف على النحو ذاته للمرة الثانية أو الثالثة ، كلما شعر بالحاجة الى هــذا التوقف ، للتعبير عن فكرة أو لتقرير معنـــى .

ومع ذلك فقد كان جمال الأداء دافعا الى اهتمام الدارسين بقصص المثنوى ، فحاول بعضهم فصلها عما أحاط بها من تفصيل وتحليـــل وحكمة بثها الشاعر في ثناياها . وممن فعل ذلك من الدارسين المحدثين المستشرقان نيكولسون وآربرى . فأما أولهما فقد نشر مختارات من هذه القصص في كتابه . Tales of Mystic Meaning (قصص ذات معنـــى صوفى) . وقد نشر في عام ١٩٣١ .

أما آربرى فقد نشر قصص المثنوى في مجلدين ظهرا بين عامى ١٩٦١ ، ١٩٦٣[١] ، وأدرجا ضمن مجموعة المؤلفات التى تنشرها هيئـة اليونسكو للتعريف بآداب الأمم المختلفة .

(Unesco Collection of Representative Works).

وفي عام ١٩٥٣ نشرت قصص المثنوى في ايران بعنوان : (بانك ناى : داستانهاى مثنوى مولوى) . وقد قام بهذا العمل محمد على جمال زاده[٢] .

لقد اشتمل المثنوى على نحو ٢٧٥ قصة ، نجح الدارسون فـــى رد كثير منها الى أصول سابقة . وتتضمن حواشى نيكولسون ، ودراسة فروزانفر[٣] ، وحواشى هذا الكتاب جهودا في هذا السبيل .

وما دمنا قد أشرنا الى الأصل القديم لهذه القصص ، فلعلنا نتساءل، من أي المصادر استمدها الشاعر ؟

---

(1) Arberry : Tales from the Masnavi, London, 1961.
Arberry : More Tales from the Masnavi, London, 1963.

(٢) من منشورات : انجمن كتاب ، طهران ، ١٩٥٢ .

(٣) مآخذ قصص وتمثيلات مثنوى ، طهران ، ١٩٥٤ .

لقد كانت مصادر الشاعر متعددة الى أبعد الحدود . ويرجع تعدد هذه المصادر الى تعدد المناسبات التى كان الشاعر يلجأ فيها الى ايضاح أفكاره بالقصص والتمثيل . ويمكننا أن نشير على سبيل المثال ، لا على سبيل الحصر ، الى بعض هذه المصادر .

أول هذه المصادر بدون شك هو القرآن الكريم ، وقصص الأنبياء. وقد كان الشاعر لا يتخذ أحد الرسل موضوعا لاحدى قصصه ، وانما يقتبس هذا الموقف أو ذاك من حياته ، ثم يصوغه في صورة قصصية ، ويستخرج بعد ذلك من الموقف ما شاء من فلسفة خلقية . فاختيار الموقف يبنى — قبل كل شىء — على صلاحيته لايضاح جانب من تفكير الشاعر . وقد يرد ذكر أحد الأنبياء في مواضع متفرقة ، وفي كل مرة يقص الشاعر حكاية مختلفة عنه . فاستخدام الشاعر لقصص الأنبياء يسير على نهج ما جاء في القرآن الكريم ، من ورود قصص الأنبياء فى مواضع مختلفة من الكتاب الكريم . فموسى قد ورد في مواضع متعددة من المثنوى ، وكذلك سليمان وغيرهما من الرسل والأنبياء . وليس من الضرورى أن يقتصر اقتباس الشاعر على ما ورد في القرآن عن هؤلاء الأنبياء .

وبعض هذه القصص يتعلق بطرف من سير كبار الصحابة أو الصوفية أو الزهاد . وكان هناك معين لا ينضب لمثل هذه القصص ، اشتملت عليه كتب التصوف والوعظ التى حفل بها العالم الاسلامى قبل جلال الدين . فنجد في مثل هذه القصص ما يتعلق بذى النون أو ابراهيم بن أدهم أو أو غيرهما من الصوفية .

وبعض قصص المثنوى يتعلق بسير الملوك والخلفاء . وقد يعين الشاعر اسم الملك ، وقد لا يذكر شيئا عن شخصه ، وانما يقتصر على تعيين مكانه . والى جانب قصص الملوك هناك قصص الوزراء وغيرهم من ذوى السلطان .

ومن بين قصص المثنوى ما يتعلق بسيرة الحكماء أو الفلاسفة أو

الأطباء . ومنها ما يتعلــق بالفقهاء والمتكلمــين ، وبخاصة في معرض المحاورات التى يناقش فيها أساليبهم في الفكر والنظر .

ومن القصص ما يتعلق بالجوارى والعبيد . ومنها ما هو مقتبس من كتاب كليلة ودمنة أو غيره من الكتب التى سارت على نهجه .

وكان للقصص الشعبى أيضا نصيبه في المثنوى حيث تناول الشاعر بأسلوبه بعض قصص ألف ليلة وليلة ، وبعض النوادر الشائعة على نطاق شعبى ، كنوادر جحا .

وكان بعض هذه القصص لا يعدو أن يكون مجرد رواية لاحـدى المعجزات ، ووصفا للصورة التى تمت بها هذه المعجزة . وربما اكتملت رواية القصة في أبيات قليلة ، ثم يتخذ منها الشاعر تمثيلا لفكرة يتحدث عنها ، أو تجسيدا لفلسفة يريد ايضاحها .

ولقد كان لتنوع المصادر التى اقتبس الشاعر منها قصصه ، ولتعدد المواقف التى عالجها ، أثر كبير في ربط المثنوى بالحياة ، وبالمجتمع البشرى ، فأصبح ملحمة خالدة ، توفر لها من عناصر البقاء ما جعلها مرآة لكـل عصر . فالغرائز البشرية ، والفضائل والمثالب ، والناس في أسمى صورهم وفي أحطها ، أو في أرفع درجاتهم وأدناها قد ظفروا بتصوير بارع ، جعل منهم نماذج وأنواعا تصدق أوصافها في كل عصر ، وتتحقق سمـاتهـا في كل زمان ومكان .

ولكن تناول جلال الدين لهذه القصص لم يكن مجرد رواية لهـا ، بل انه أضفى عليها جدة ، وعبر عنها بأصالـة ، فأصبحت القصص كأنها من صنعــه .

ان المادة القديمة التى تناولها جلال الدين ، قد كسبت بفنه حيـاة جديدة ، وقوة أداء ، ووضعت في اطار لم يسبـق لها أن وضعت فيه .

نذكر من ذلك على سبيل المثال قصة « معاوية والشيطان » . والأصل الذى يمكن أن تستند اليه هذه القصة نص صغير ورد في قصص الأنبياء للثعلبى على الوجه الآتى :

« يروى أن رجلا كان يلعن ابليس كل يوم ألف مرة . فبينما هو ذات يوم نائم اذ أتاه شخص فأيقظه وقال : قم فان الجدار ها هو يسقط . فقال له : من أنت الذى أشفقت عليّ هذه الشفقة . فقال له : أنا ابليس . فقال : كيف هذا وأنا ألعنك كل يوم ألف مرة . فقال : هذا لما علمت من محل الشهداء عند الله ، فخشيت أن تكون منهم فتنال معهم ما ينالون ». (عن قصص الأنبياء للثعلبي ، ص ٣٦ . انظر أيضا : فروزانفر : مآخذ قصص ، ٧٢ ــ ٧٣) .

لقد عالج الشاعر هذه القصة في أبيات تبلغ المائتين تقريبا ، تكاد تكون ملحمة صغيرة ، اختار لها الأشخاص وصاغ لها حوارا رائعا . وقد أقام جلال الدين عمله على حوار بين معاوية بن أبى سفيان والشيطان . يمثل معاوية المؤمن الذى يقاوم خداع الشيطان ، ويفلح في اكتشاف مكره بعد حوار طويل ، دافع فيه الشيطان عن نفسه ، وحاول أن يقدم تبريرا خلقيا لأعماله . ونلحظ هنا المقدرة الدرامية في اختيار الشخصية التى وضعها في مواجهة الشيطان .فاختيار معاوية لهذا الدور لم يكن لمجرد أنه واحد من الصحابة المؤمنين ، بل لما اتصف به من دهاء يجعله قادرا على متابعة الحوار مع الشيطان ، ويتيح القدر الضرورى من الصراع الذى ينبغى توفره في مثل هذا العمل الفنى . وقد أتاح الشاعر للشيطان كل امكانات الدفاع عن النفس ، وأورد على لسانه كل ما يمكن من الحجج لتبرير موقفه ، ولم يصل به الى موقف الهزيمة الا بعد أن أتاح له بيان أسباب سقوطه ومواقفه الأخلاقية .

ونحن نلمس كيف نجح الشاعر في صوغ الحوار ، وتصوير كل من طرفيه . ولن نستطيع هنا أن نورد كثيرا من نصوص هذا العمل الفنى ، ولا بد من الاكتفاء باقتباس قليل من أبياته .

تبدأ القصة في قصر معاوية ، حيث كان هذا الخليفة نائما ، والقصر موصد الأبواب ، فيوقظه رجل ، يعترف له بأنه ابليس . وحين يسأله معاوية عن السبب الذى دعاه الى أن يقطع عليه سباته يجيبه ابليس بقوله:

« ان ميقات الصلاة قد أوشك على الانتهاء ، فيجب عليك ان تهرع مسرعا الى المسجد[1] » .

حينذاك يردعه معاوية قائلا : ان الخير لا يكون من مقاصد الشيطان، فيدافع الشيطان عن نفسه بقوله :

« لقد كنت في بداية أمرى ملكا ، وما أكثر ما سلكت بالروح سبيل الطاعة !

لقد كنت أمين سر السالكين بهذا الطريق ، كما أننى كنت رفيقا لسكان العرش .

فكيف يخرج من قلب الانسان شغله الأول ، وكيف يفترق عن فؤاده أول حب ؟

وانك لو شهدت في سفرك بلاد الروم أو الختن ، فكيف يذهب من قلبك حب الوطن ؟

لقد كنت أنا أيضا من سكارى هذه الخمر ، وكنت في حضرته من العشاق !

واننى قد استقبلت الحياة على محبته ، كما أن عشقه كان قد غرس في روحى .

ولقد لقيت من الزمان أياما طيبة ، كما أننى احتسيت مياه الرحمة ابان ربيعى !

ألم تكن يد فضله هى التى غرستنى ؟ أليس هو الذى قد أخرجني من العدم ؟

وما أكثر ما كنت قد شهدت من ألطافه ! ولكم تجولت في بستان رضاه !

انه كان يضع فوق رأسى يد رحمته . وكم كان يفيض ينابيع اللطف منى !

---

(١) المثنوى ، ٢ : ٢٦١٢ — ٢٧٩٢ .

وفي وقت طفولتى ، حينما كنت رضيعا ، من ذا الذى كان يهز مهدى؟ انه هـو !

وأيان كان لى حليب أحتسيه غير حليبه ؟ ومن ذا الـذى رعانى غير تدبيـره ؟

وكيف يمكن أن تفصل عن المرء تلك الخليقة التى دخلت كيـانـه مع الحليـب ؟

فلئن كان بحر الكرم قد عاتبنى ، فمتى كانت توصد أبواب كرمه ؟

فأصل نقده عطاء ولطف وسخاء ، وما القهر فوق أولئك الا كالغبار الذى يغشى النقد ! »

وهكذا يمضى ابليس في الدفاع عن نفسه ، فيواجهه معاوية ، ويعدد له أعماله القبيحة التى اقترفها خلال القرون ، وما أدت اليه من هـلاك أصاب أجيالا من الناس .

يقول معاوية مخاطبا الشيطان :

« فأنت النار والنفط ، وانك لتحرق ، ولا حيلة لك في ذلك ! ومن ذا الذى لم تمزق يداك له ثيابه ؟

ان لعنة الله هى التى جعلتك تحرق ، وهى التى جعلتك أسـتـاذا لكافـة اللصوص .

لقد تحدثت الى الله واستمعت منه وجها لوجه . فمن أكون أنـا أمام مكرك أيها العدوّ ! »

ويدافع ابليس عن نفسه بقوله :

« ألا فلتحل هذه العقدة ! اننى أنا المحك للنقد الزائف والصحيح !

فالحق هو الذى جعلنى فيصلا بين الأسد والكلب . والحـق هو الذى جعلنى فيصلا بين صحيح النقد وزائفه .

ومتى كنت أنا الذى جعل الزائف أسود الوجه ؟ اننى أنا الصيرفى الذى حدد قيمته !

أنا الذى أظهر السبيل للطيبين ! وأنا الذى أستأصل ذابل الأغصان.

ومع أن الخير والشر مختلفان ، فانهما مشتغلان بعمل واحد .

وكيف أجعل من الخيِّر شريرا ؟ اننى لست الها ! ان أنا الا داع ، ولست خالقا لهما !

وهل أجعل من الجميل قبيحا ؟ اننى لست ربا ، وما أنا الا مرآة للقبح والجمال ! »

وحين يصرّ معاوية على مقاومة خداع الشيطان ، ويبدى شكه في قوله ، يقول له ابليس :

« ان الرجل السيّء الظن لا يستمع الى الصدق ، ولو كانت له مائة علامة !

فكل فؤاد أصبح متفكرا بالخيال يزداد خياله كلما أتيته بدليل !

فحينما يدخله الكلام يصير علة ، مثل سيف الغازى حين يصبح سلاحا للسارق !

فمثل هذا يُردّ عليه بالسكوت والسكون ، ذلك لأن التحدث الى فاقد العقل جنون .

فلماذا تضرع الى الحق منى أيها الغرّ ! اضرع اليه من شر تلك النفس اللئيمة !

فليس من ذنب ابليس ، بل من ذنبك ــ أيها الغوىّ ــ أنك كالثعلب تعدو وراء أذناب الخراف الدسمة !

فلا تطرح اثمك فوقى ، ولا تبصر الأمور معكوسة ، فانى برىء من الشر والحرص والضغينة !

لقد اقترفت الاثم ولكننى الآن نادم ! وانى لمنتظر أن ينبثق من ليلى نهار ! »

وهكذا يمضى الحوار ، ويصل الى مداه ، ويعترف ابليس في نهاية الأمر بما انتواه من الخداع .

ولكننا نلمس كيف أتاح الشاعر لابليس كل مجال للدفاع عن أفعاله وكيف جعله يقوم بدوره في الحوار على أكمل صورة .

فهذه الاسطر القليلة التى تمثل أصل القصة قد عبر عنها الشاعر بنحو مائتى بيت حوت كثيرا من الحوار الفكرى ، وتوفرت لها مواقف درامية لم تكن موجودة فيها ، ودار حول وقائعها كثير من التحليل النفسي والفلسفة الأخلاقية .

والى جانب البناء الفني الجديد يضيف الشاعر الى القصة ــ في غالب الأحيان ــ تفسيرا جديدا ، ويعرضها من وجهة نظر ربما لم تكن خطرت على بال واضع القصة من قريب أو بعيد . ومن أمثلة ذلك قصة الأسد والذئب والثعلب ، حين اصطحبوا للصيد[1] فصادوا ثورا ووعلا وأرنبا . فأمر الأسد الذئب بتقسيم الصيد فأشار بأن يكون الثور نصيب الأسد وبأن يختص هو بالوعل ، أما الأرنب فهو نصيب الثعلب . وهنا قتل الأسد الذئب ثم أمر الثعلب باجراء القسمة ، فما كان منه الا أن قال : أما الثور فهو لافطارك أيها الملك ، وأما الوعل فلعشائك ، والأرنب لمنتصف النهار . فلما أبدى الأسد اعجابه بقسمة الثعلب ، وسأله عمن علمه مثل هذه القسمة ، قال : « رأس الذئب الطائح عن جسده » . فحين تناول الشاعر هذه القصة جعل لها مغزى رمزيا . فالاسد رمز الله ، والذئب رمز لانسان أحس لنفسه وجودا ذاتيا أمام الله فكان جزاؤه الهلاك . أما الثعلب فرمز لانسان لم يستشعر وجوده في حضرة الخالق ، فكان أن غمره الخالق بالهبات . فالأسد ــ حين قضى الثعلب له بكل الصيد ــ وهب الصيد كله للثعلب . وفي هذا تعبير رمزى عن المضمون الذى يفهمه الصوفية من قول الرسول : « من كان لله ، كان الله له » .

اما قتل الذئب على هذا النحو ، ونجاة الثعلب ، فقد تطرق الشاعر منه الى الحديث عن معنى نجاة الأمة الاسلامية ، وهى ما عبر

---

(١) المثنوى ، ١ : ٣٠١٣ وما يليه .

عنه الرسول بقوله : « أمتى هذه أمة مرحومة » . فالرحمة ــ كما يرى الشاعر ــ جاءت من أن الأمة الاسلامية ، ظهرت على مسرح التاريخ بعد غيرها من الأمم ، ورأت ما حاق بهذه الامم القديمة لطغيانها وعصيانها ، فاتعظت بما رأت ، وكان هذا فضلا من الله ، ورحمة تحققت للمسلمين بوصفهم أمة خاتم النبيين .

واذا أخرجنا المضمون الدينى من تقديرنا لهذه القصة ، وقصرنا هذا التقدير على الجانب الفنى وحده ، فاننا نعجب بمقدرة الشاعر على وضع هذا المضمون في ثنايا قصة بسيطة ، قد تروى للاطفال في معرض الوعظ والتعليم .

هذا الاستخدام الأخلاقى للقصص ليس مما ابتدعه الشاعر فقد سبقه الى ذلك كثير من الكتاب والشعراء . ولكن فنّ جلال الدين يتجلى في البناء الذى يقيمه على قصة صغيرة شائعة فيجعل منها عملا فنيا ناضجا . انه يجدد شكل القصة ، اذ يرويها بأسلوبه الخاص ، ويخلق لها المواقف الدرامية ، ويضع لها الحوار ، ثم يخلع عليها مضمونا جديدا ، بأن يفسرها على طريقته ، ويخرج منها بمفهومات ومبادىء جديدة ، لم تكن من قبل مرتبطة بها ولا مفهومة منها .

وينبغى ألا يغيب عنا ونحن ندرس الفن القصصى عند الشاعر أنه لم يكن يهدف اليه كغاية ، وانما كان يستخدم القصص كوسيلة لايضاح آرائه وأفكاره . وكان هذا الأمر سببا في أن الشاعر استخدم المادة القصصية الشائعة من جهة ، وفي أنه لم يكن يسرد القصة كوحدة متماسكة ، بل كثيرا ما كان يصل الى نقطة منها ، ثم يستطرد من هذه النقطة معلقا عليها ، مستخلصا الحكمة التى تنطوى عليها ، ثم يعود من بعد الاستطراد لرواية القصة . بل ان الظاهر أنه كان يتخذ القصة وسيلة لتشويق المستمع لمتابعة آرائه . وفي بعض الأحيان عبر عن ضيقه لأن المستمع ينشغل قلبه بحوادث القصة عن متابعة مغزاها . ففى قصة « الصوفى والخادم والحمار » نراه يبدأ رواية القصة ، ثم

ينصرف عنها الى ذكر أخلاق الصوفية . ويطول به الابتعاد عن القصة ، فيتوقف عن متابعة الموضوع الذى كان ماضيا فيه ثم يقول :

« استمع الآن الى المانع الذى حدث ، فأصبح مدعاة للتوقف .ان قلب المستمع قد مضى الى مكان آخر !

لقد اتجه خاطره الى ذلك الصوفى المقيم ، وغرق في تلهفه على النفصة حتى عنقـه .

فوجب الآن أن نرجع من هذا المقال ، الى تلك الحكاية لنصف وقائعهـا .

فاستمع الآن الى صورة هذه الحكاية ، ولكن ، كن يقظا وافصل ما بها من قشر عن اللباب »[1] .

وعلى الرغم من هذا العيب في رواية القصص ، فقد استطـاع الشاعر أن يبعث فيها حياة جديدة بما كان يخلقه لها من مواقف وبمـا كان يصوغه لها من حوار بارع .

بل ان الشاعر تناول بسخريته من يتمسكون بظاهر القصص ، كما سخر من المتمسكين بالمعانى الحرفية ، الذين يقفون عند ظاهـر اللفظ ، ويغفلون عن حقيقة معناه ، وجوهر مفهومه . يقول :

(ولا تكن) كمن سمع بعض الأقاصيص ، فتمسك بحرفيتهـا تمسك « الشين » بلفظة « نقش » .

(قائلا) : كيف تكلم كليلة هـذا بـدون لسان ؟ وكيف استمع الى كلام دمنة ، وقد كان ذلك عاجزا عن البيان ؟

وهب أن كلا منهما كان يفهم لحن الآخر ، فكيف استطاع البشر أن يفهموا هذا ، وهو ليس بنطق !

وكيف استطاع دمنة أن يكون رسولا بين الأسد والثور ، ويسمع كلا منهما بيانـه ؟

---

(١) المثنوى ، ٢ : ١٩٦ ـ ١٩٨ ، ٢٠٢ .

وكيف صار ذلك الثور النبيل وزيرا للأسد ؟ وكيف صار الفيل وجلا من خيال القمر ؟

ان كليلة ودمنة هذا كله افتراء ، والا فكيف وقع الجدال بين الغراب واللقلق ؟

يا أخي ! ان القصة مثل المكيال ، والمعنى فيها مثل الحب في المكيال .

فالرجل العاقل يأخذ حصاد المعنى ، ولا ينظر الى المكيال ، وان كان (وسيلة) النقل .

فاستمع الى ما يدور بين البلبل والوردة ، مع أنه ليس هناك كلام صريح !

استمع أيضا لما يدور بين الشمعة والفراشة ، واقتبس معناه ، أيها المليح .

فمع أنه ليس هناك قول مسموع ، فهناك سر القول ، فتنبه وحلق نحو القمم ، ولا تتهاو كالبومة في طيرانك !

لقد قال لاعب الشطرنج : « هذا بيت الرخ » ، فأجابه (المتمسك بالحرفية) : « ومن أين له هذا البيت ، وكيف امتلكه ؟ »

« هل اشترى هذا البيت أم حصل عليه بالارث ؟ » فما أسعد ذلك الرجل الذى يسارع الى المعنى[1] !

ولقد تجلت عبقرية الشاعر في فن الحوار الى حد بعيد . وكان الحوار في قصصه متنوعا بتنوع الموضوعات . فبينما كان في بعض القصص يتناول أعمق المسائل الفكرية ، كالجبر والاختيار ، والقضاء والقدر ، اذا به في مواقف أخرى يتناول الحياة العادية ومشكلاتها .

---

(١) المثنوى ، ٢ : ٣٦١٦ – ٣٦٢٨ .

ومن أحسن الأمثلة على هذا اللون الاخير قصة الأعرابي وزوجه[1] . فالشاعر ـ في أغلب الظن ـ هو الذى أضاف الى القصة شخصية المرأة ، ذلك لأن القصة في مصادرها الأخرى لا تذكر شيئا عن زوجة الأعرابى . وكان هناك صراع بين الأعرابى وزوجه ، وكاد هذا الصراع يؤدى الى افتراقهما ، ثم نراهما في نهاية الامر يعودان الى الوفاق .

تبدأ القصة والزوجة تزجر زوجها بسبب ركونه الى حياة الفقر والمسكنة فتقول :

« اننا نعانى كل هذا الفقر والشقاء ، فجملة العالم سعداء ، وأما نحن فأشقياء .

وليس خبزنا خبزا ، فطعامنا الألم والحسد . وليس لنا كوز ، فماؤنا دمع أعيننا . ورداؤنا بالنهار حرارة الشمس ، وأما وسادنا ولحافنا بالليل فمن نور القمر . نظن قرص القمر قرصا من الخبز ، فنرفع أيدينا الى السماء .

ان مسكنتنا عار للدراويش ، وما نهارنا وليلنا الا تفكر في الرزق ... »[2] .

فيرد عليها زوجها بقوله :

« ... الى متى تنشدين الدخل والحصاد ؟ ما الذى بقى من عمرك ؟ ان أكثره قد مضى .

ان العاقل لا ينظر الى الزيادة والنقصان ، لأن كليهما يمران كما يمر السيل (المندفع) . ففى هذا العالم آلاف من الأحياء ، يحيون حياة طيبة لا هبوط فيها ولا صعود . فالفاختة تترنم بشكر الله على الشجرة ، في حين أن قوت المساء غير مهيأ لها .

والعندليب يحمد الله (قائلا) : أى مجيب (السائلين) ! ان اعتمادنا في الرزق عليك ... »[3]

---

(1) المثنوى ، ١ : ٢٢٥٢ وما يليه .
(2) المصدر السابق ، ٢٢٥٣ ـ ٢٢٥٧ .
(3) المصدر السابق ، ٢٢٨٨ ـ ٢٢٩٣ .

ونرى الأعرابى بعد ذلك ينتقل من هذا الأسلوب الهادىء الى أسلوب العتاب ، فيخاطبها بأسلوب يكاد يتفق ومستوى التفكير عند امرأة جاهلة حين يقول :

« انك زوجتى ، والزوجة لا بد لها أن تتفق (مع الزوج) في الصفاء ، حتى تجيء الأمور وفق مصلحتهما .

فالزوجان يجب ان يكون كل منهما على مثال الآخر . ألا فلتتأملى زوجين من الأحذية والنعال !

فلو أن واحدا من النعلين ضاق بقدمك ، فلا نفع لهذين النعلين عندك .

وهل بين مصراعى الباب واحد صغير ، وآخر كبير ؟ أم هل رأيت ذئبة اقترنت بأسد الغاب ؟[1]

وتزداد حدة الجدال بين الزوجين فتقول المرأة فيما تقول :

« لا تحدثنى بترهات من ادعائك ودعواك . اذهب ولا تخاطبنى بكبر وغرور !

ان الكبر قبيح ولكنه من الشحاذين أقبح ! فكبر الشحاذين كالثوب المبلل في يوم بارد ممطر » .[2]

ويجيبها الرجل ، مظهرا غضبه ، ويهدد بترك منزله ، وهنا تهدأ المرأة ويسود الوئام من جديد .

ومن هذه الأبيات القليلة التى ذكرناها يتضح كيف أن الشاعر كان قادرا على صياغة الحوار على مستوى الحياة اليومية ، وبأسلوب يبدو طبيعيا ملائما للموقف الذى أريد تصويره بهذا الحوار .

ومن القصص ذات الحوار الدينى المؤثر قصة موسى والراعى[3]. وهذه القصة تصور مدى رحمة الله ، التى وسعت كل شيء ، وتشير الى

---

(١) المصدر السابق ، ٢٣٠٨ — ٢٣١١ .
(٢) المصدر السابق ، ٣٣١٦ .
(٣) المثنوى ، ٢ : ١٧٢٠ وما يليه .

أن الرجل ينبغي عليه ــ مهما عظم شأنه ــ ألا يحتقر رأى سواه . وسننقل هنا أبياتا قليلة منها . تبدأ القصة على النحو التالى :

« رأى موسى راعيا على الطريق . وكان هذا الراعى يقول : أيها الاله المختار ! أين أنت حتى أصبح خادما لك ، فاصلح نعليك ، وأمشط رأسك . وأغسل ثيابك ، وأقتل ما بها من القمل . وأحمل الحليب اليك أيها العظيم !

وأقبل يدك ، وأمسح قدمك . وأهيىء لك المخدع حين يحل وقت المنام .

يا من فداؤك كل أغنامى ! ويا من لذكرك حنينى وهيامى !

وأخذ يردد هذا النمط من القول . ورآه موسى ، فناداه قائلا ، مع من تتحدث أيها الرجل ؟

فقال الراعى :

« مع ذلك الشخص الذى خلقنا . من ظهرت بقدرته هذه الأرض وتلك السماوات » .

حينذاك انبرى موسى معنفا هذا الرجل ، مبينا سفه قوله ،وضلال دعائه ، وخاطبه قائلا : « مع من تتحدث ؟ أمع العم أو الخال ؟ وهل الجسم والحاجة من صفات رب الجلال ؟ ان الحليب يشربه من هو محتاج للزيادة والنماء . والنعل يلبسه مع من هو بحاجة الى القدم .. »

ومضى موسى يحدث الراعى على هذا النحو حتى قال الراعى :

« يا موسى . لقد ختمت على فمى . وها أنت ذا قد أحرقت بالندم روحى » . واذا ذاك مزق الراعى ثيابه ، ثم انطلق مندفعا في غياهب البيداء .

حينذاك يهبط الوحى الالهى على موسى فيخاطبه الله بقوله :

« انك أبعدت عنى واحدا من عبادى !

فما استطعت لا تخط خطوة نحو احداث الفراق ، فان أبغض الأشياء عندي هو الطلاق . لقد وضعت لكل انسان سيرة . ووهبت

كل رجل مصطلحا للتعبير ، يكون بالنسبة له مدحا ، وبالنسبة لك ذما . ويكون في نظره شهدا ويظهر لك سما !

فأهل الهند لهم أسلوبهم في المدح . ولأهل السند كذلك أسلوبهم. ولست أغدو طاهرا بتسبيحهم . بل هم بذلك متطهرون ناطقون بالدرر. ولسنا ننظر الى اللسان والقال ، بل اننا ننظر الى الباطن والحال . فنظرنا انما هو لخشوع القلب حتى ولو جاء اللسان مجردا من الخشوع ! »

حينذاك يندفع موسى الى باطن الصحراء باحثا عن الراعي .ويزف اليه بشرى ما تلقاه من وحي ، ويطمئنه الى أن كل ما نطق به مقبول عند الله :

« لا تنشد قط أية آداب ولا رسوم ، واهتف بكل ما يبتغيه قلبك الملتاع !

ان كفرك دين . ودينك نور للأرواح . انك لآمن ، والعالم بك في أمان » .

ولكن الشاعر لا يقف عند هذا الحد ، بل يجعل لموسى شيئا من الفضل على الراعي . ويعبر الراعي عن امتنانه لموسى بقوله :

« يا موسى ! لقد جاوزت تلك الحال ! انني الآن سابح في دم القلب . لقد تجاوزت سدرة المنتهى ! وخطوت وراء ذلك الجانب مائة ألف من الأعوام !

لقد ضربت بسوطك حصاني فانطلق ، وصعد الى قبة السماء ، ثم تجاوز الأفلاك ! »

وتمضي القصة بعد ذلك الى غايتها التي أراد الشاعر الوصول اليها . فمهما مدح الانسان الخالق وسبحه فأقواله بالنسبة الى جلال الخالق لا تزيد عن أقوال هذا الراعي . ومهما بدت متفوقة في عبارتها على مثل تلك العبارات التي هتف بها الراعي ، فهي عاجزة أمام صفات الله .

ومما هو جدير بالذكر ان جلال الدين لم يحاب طائفة من الناس على حساب الأخرى . بل قد صور الفضيلة حيث كانت ، والرذيلة حيث كانت .

فبعض الصوفية أو أدعياء التصوف قد ظفروا منه بالسخرية . سخر من افتقاد بعض هؤلاء للأمانة ، كما يبدو ذلك في قصة الصوفية الذين باعوا حمار رفيقهم واشتروا بثمنه طعاما ، ثم أقاموا بعد ذلك حلقة للذكر . وسخر من شره بعض هؤلاء الصوفية ، وحرصهم المخجل على الطعام والمتع الحسية .

وقد ضمت بعض قصصه صورا ساخرة لنماذج مختلفة من بني البشر . من أمثلة ذلك تصويره للمفلس الجشع الأكول[1] وفيه يقول :

« كان هناك رجل مفلس ، لا سكن له ولا دار ، فاستقر في سجن ، وقيد لا فكاك منه .

وكان يأكل طعام رفقائه في السجن جزافا . فكان بطمعه ثقيلا على قلوب الخلق ، كأنه جبل قاف .

فما كان أحد يجسر على أن يتناول لقمة ، ذلك لان هذا الملتهم كان ينقض عليها .

لقد داس هذا الرجل كل مروءة بقدميه ، وأصبح السجن جحيما من جراء هذا الجشع الأكول . فذهب أهل السجن يشكون أمرهم الى وكيل القاضي وكان رجلا واسع الادراك .

قائلين : « لتحمل سلامنا الآن الى القاضي ، ثم لتبلغنه تأذينا من هذا الرجل السافل . فلقد أقام بالسجن على الدوام هذا الرجل المتلاف الشره المضر .

وهو كالذبابة حاضر في كل طعام ، يتصدى متوقحا بدون دعوة او سلام !

طعام ستين شخصا أمامه لا يعد شيئا . وهو يصطنع الصمم لو

---

(١) المثنوى ، ٢ : ٥٨٥ وما يليه .

قلت له « كفاك » . فليس يجد رجل من السجناء لقمه . واذا استطاع بمائة حيلة ان يجد شيئا يأكله ، غشيه في الحال هذا الجهنمى الحلق . وكل حجته ان الله أمر البشر بقوله : « كلوا .. » . فلتخلصنا من ذلك القحط الذى دام ثلاث سنين . وليدم الله ظل مولانا الى الابد . فاما أخرجت من السجن هذا الجاموس الأكول ، أو خصصت له مؤونة من أحد الأوقاف » . فنرى هنا مقدرة الشاعر علــى تصويــر الأشخــاص الذين يدير حولهم قصصه .

ومهما يوجه من النقد الى أسلوب جلال الدين في رواية القصص فاننا نجد أن هذه القصص التى يشتمل عليها المثنوى ــ لو جردت مما أحاط بها وتخلل حوادثها من استطرادات ــ يمكن ان تصبح اعمــالا فنية متماسكة . وقد تجلى هذا بشيء من الوضوح في ترجمة الاستاذ آربرى لهذه القصص ، وهي التي سبقت الاشارة اليها في بــدايــة هذا البحث .

ولم تقف عبقرية جلال الدين في الحوار عند حد القصة بل انه ــ في كثير من المواقف التى يشرح فيها آراءه الصوفية ــ قد اتخذ الحوار أسلوبا لعرض هذه الآراء ، فازداد العرض بذلك قوة وتأثيــرا .

وما اكثر المواقف التى أدار فيها الحوار بين الأفراد أو بيــن الأفكار . وما أكثر ما اتسم به هذا الحوار من براعة في الأداء ، وروعة في التصوير ، وروح فكهة قلما تخون الشاعر في موقف يدعــو الــى السخريــة .

ان قصص الشاعر ومحاوراته كانت في روعة بيانها وجمال صورها فيضا من عبقرية هذا الشاعر الخالد ، أضفت على المثنوى جــــمالا ، وأشاعت فيه لونا من المتعة المبهجة ، الى جانب ما حفل به من مواقف التأمل الجاد ، والحكمة الروحية ، والفكر العميق .

المثنوي[١]

الكتاب الثاني

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

بيان طرف من الحكمة في تاخير المجلد الثانى

لو أن الحكمة الالهية تكشفت للعبد بكاملها ، فان العبد في تأمله فوائد ذلك الكشف ، يقف ازاءه عاجزا ، وتدمر ادراكه حكمة الله التى لا حدود لها ، فلا يستطيع اكمال هذا العمل[1] . ولهذا فان الله تعالى يجذب عبده من أنفه بنفحة من حكمته التى لا حدّ لها ، ويقوده الى ذلك العمل . ولو أن الله لم يكشف لعبده أى علم بتلك الفائدة ، فانه لن يتحرك قط . فالعامل المحرك نوع من الرزق الانسانى ، فنحن نقبل على عمل معين من أجل مصلحة معينة . ولو أن الحق أفاض على المرء كل حكمة ذلك العمل ما استطاع حراكا . فالجمل لا يتحرك ان لم يكن في

(١) يقصد المثنوى .

أنفه مقود (يجذبه) . فان كان الرسن بالغ الكبر ، بقى نائما (ولـم يتحرك) . « وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم[1] ». ان التراب ــ بدون الماء ــ لا يتحول الى لَبِنات . واذا زاد مقدار الماء فيه فهو أيضا لا يصير لَبِنات . (قال تعالى) :« والسماء رفعها ووضـع الميزان[2] » فهو يعطى كل شيء بميزان ، وليس بدون حساب وميزان . (ولا يصدق) هذا على الأشخاص الذين تحولوا عن عالم الخلق ، وصاروا ممن (وصفهم الحق) بقوله : « والله يرزق من يشاء بغير حساب[3] » . ومن لم يذق لم يدر . ولقد سأل سائل : ما العشق ؟ فأجبت : « حين تصير مثلنا فسوف تعلم ! » .

ان العشق هو المحبة بدون حساب . فلقد قيل انه صفة حقيقية لله ، وأما اتصاف العبد به فمن قبيل المجاز . فكلمة « يحبهم[4] » يقين كامل ، وأما كلمة « يحبونه[5] » ، فمن ذا الذى يصدق عليه هذا الوصف .

---

(١) سورة الحجر ، ١٥ : ٢١ .
(٢) الرحمن ، ٥٥ : ٧ .
(٣) البقرة ، ٢ : ٢١٢ .
(٤) ، (٥) « يا ايها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » . (المائدة ، ٥ : ٥٤) .

المثنوى[١]

لقد تأخر هذا المثنوىّ مدة من الزمان ، فلا بدّ من مهلة لكى يصير الدم حليبا صافيا .

فما لم يلد بختك طفلا جديدا ، فان الدم لا يصبح حليبا حلوا ، فكن حسن الانصات !

(وهذا ما تحقق) حينما ثنى ضياء الحق حسام الدين عنانه عائدا من أوج السماء .

فهو ، اذ كان قد انطلق الى معراج الحقائق ، لم تكن — بدون ربيعه — تتفتح البراعم .

فلما أقبل من البحر نحو الساحل ، أصبح قيثار شعر المثنوى قرينا للمزمار !

ان المثنوى الذى كان صيقل الأرواح ، صارت عودته يوم استفتاح .

وكان مطلع تاريخ هذه التجارة وذلك الربح عام ستمائة واثنين وستين .

ان بلبلا قد انطلق من هنا ثم عاد ! ولقد أصبح بازا في اصطياد تلك المعانى .

فليكن ساعد الملك مسكنا لهذا الباز ! وليبق هذا الباب مفتوحا أمام الخلق حتى الأبد !

وما آفة هذا الباب الا الهوى والشهوة . والا فهناك مورد لا ينضب

من شراب الروح .

ان الفم والحلق هما الرباط الذى يحجب عن العين ذلك العالم الروحى . فلتغلق هذا الفم حتى تراه عيانا .

أيها الفم ! انك فوهة الجحيم ! أيتها الدنيا ! انك لشبيهة بالبرزخ !

والنور الخالد ملابس لهذه الدنيا ذات الشأن الوضيع ، فهــو كالحليب يجرى (في الجسد) بجوار أوعية الدماء .

فاذا ما خطوت ـــ نحو هذا (النور) ـــ خطوة بدون احتياط ، صار حليبك دما من جرّاء هذا الاختلاط .

لقد خطا آدم خطوة واحدة وراء شهوة النفس ، فأصبح لزاما عليه أن يفارق صدر الجنان .

وأصبحت الملائكة تفرّ منه كأنما هو الشيطان ! وما أكثر ما سكب من الدمع لقاء لقمة !

فمع أن هذا الذنب الذى سعى اليه كان شعرة واحدة ، فقد نبتت هذه الشعرة في كلتا عينيه !

لقد كان آدم عين النور القديم ، والشعرة في العين تكون كالجبل العظيم .

فلو أن آدم شاور في ذلك ربه ، لما كان عليه ـــ في ندامته ـــ أن يلتزم التماس العذر .

فالعقل لو أصبح قرينا لعقل آخر ، كان هذا مانعاً لسوء القول وقبح الفعال .

أما النفس فانها اذا اقترنت بغيرها من النفوس تعطل العقل الجزئى وصار بلا عمل .

فالجأ الى ظل رفيق مشرق كالشمس اذا أحسست باليأس فيوحدتك وانفرادك .

اذهب ، وسارع الى البحث عن هذا الرفيق الالهىّ . فانك ان

فعلت ذلك أصبح الله عونا لك ورفيقا .
فذلك الذى قصر نظره على الخلوه ، (كان عليه) أن يتعلم من الرفيق ، في آخر الأمر .

٢٥ الخلوة واجبة لتجنب الأغيار ، لا الأحباء . فالفراء يرتدى أثناء الشتاء وليس ابان الربيع .

ان العقل اذا أصبح متحدا مع عقل آخر ، زاد النور واتضح بذلك قصد السبيل .

أما النفس ، فهى ان غدت ضاحكة طربة مع غيرها من النفوس ، زادت بذلك الظلمات ، واختفت معالم الطريق .

ان الرفيق عينك ايها الرجل الصياد ، فاحفظه نظيفا من القذى ومن أقذار الطريق .

حذار ، ولا تثر الغبار بمكنسة اللسان ! ولا تحمل للعين هدية من تلك الأقذار .

٣٠ فالمؤمن ـ حين يكون مرآة للمؤمن ـ يغدو وجهه آمنا من أىّ تلوّث .

والرفيق مرآة للروح في وقت الحزن ، فلا تنفث ـ ايها الروح ـ أنفاسك في وجه المرآة .

بل ان عليك في كل لحظة أن تبتلع أنفاسك ، حتى لا تحجب وجهك بتلك الأنفاس .

فهل أنت أقل (احساساً) من التربة ؟ فهذه حين وجدت من الربيع رفيقا تزينت بمائة ألف من النور والزهر !

وتلك الشجرة التى أصبحت مقترنة بالهواء الحلو تفتحت من رأسها الى قدمها !

٣٥ وفي الخريف ـ حينما رأت رفيق الخلاف ـ سحبت رأسها ووجهها تحت اللحاف !

وقالت : « انرفيق السوء مثير للفتنة ، فاذا ما جاء فسبيلى هـو النوم .

فأنام وأكون من أصحاب الكهف . وان هؤلاء المحبوسين الخائفين لخير من دقيانوس .

فيقظة هؤلاء كانت مصروفة على دقيانوس ، وأما نومهم فكان ذخرا لشرف الروح !

ان النوم ــ حين يكون مع علم ــ فهو يقظة . وواهاً على اليقظ الذى جلس مع الجهلاء .

فالغربان اذا ضربت خيامها فوق شهربهمن[1] ، صارت البلابل محتجبة ولزمت الصمت .

ذلك لأن البلبل ــ بدون بستان الورد ــ يكون صامتا . وان غيبة الشمس لساحبة لليقظة .

أيتها الشمس ! انك لتتركين هذا البستان ، وذلك لتنشرى الضياء فيما تحت الأرض من عوالم .

أما شمس الروح فليس لها انتقال . وما لها من مشرق غير الروح والعقل .

وبخاصة شمس الروح التى هى من ذلك الجانب ، فان دأبهـا الاشراق في النهار وأثناء الدجى !

فان كنت اسكندرىّ المشرب فتعال الى مطلع الشمس ! وانـك لمصبح بعد ذلك ملكا طاهرا حيثما ذهبت .

بل انك لمصبح موضع اشراق أينما توجهت ، وكل المشارق ستغدو عاشقة لمغربـك .

---

(1) اسم لأحد شهور الشتاء في السنة الفارسية ، ويبدأ في ٢١ ينايـر (كانون الثانى) من السنة الميلادية .

ان حسك الخفاشي ينطلق مسرعا نحو المغرب ، أما حسك الذي ينشر الدرّ فمتوجه نحو المشرق .
فطريق الحس ، هو درب الحمير أيها الفارس ! فكن ذا حياء يا من أنت مزاحم للحمير !
فهناك حواس خمس غير هذه الحواس الخمس . فتلك مثل الذهب الأحمر وهذه مثل النحاس .
٥٠ ففي تلك السوق ـ حيث المتعاملون مهرة أذكياء ـ متى يشترى الحس النحاسي كما يشترى الحس الذهبي ؟
ان حسّ الأبدان يقتات من الظلمة ، وأما حسّ الروح فيتغذى من الشمس !
فيا من حملت بضاعة الحس نحو الغيب ، أخرج يدك من جيبك كما فعل موسى !
ويا من تحليت بصفات شمس المعرفة ، في حين أن شمس السماء أسيرة صفة واحدة ،
انك حينا تكون الشمس وحينا تكون البحر . وفي وقت أنت جبل قاف ، وفي وقت آخر أنت العنقاء !
٥٥ ولست في ذاتك هذا ولا تلك ، يا من أنت فوق الأوهام ، وأكثر من الكثرة !
ان الروح رفيقة للعلم وللعقل ، ولكن ما شأن الروح بالعربية أو التركية ؟
فيا من لا نقش لك مع تجليك في متعدّد الصور ! ان المشبه والموحد كليهما حائر الفكر ازاءك .
فحينا تجعل المشبه موحدا ، وحينا تقطع الصورُ الطريق أمام الموحد .
وحينا يهتف بك في سكره أبو الحسن : « يا صغير السن يا رطب

البدن » .

وحينا هو يعمل على تخريب صورته ، ويتخذ ذلك سبيلا الى تنزيه الحبيب .

ان مذهب الاعتزال هو عين الحس . وأما عين العقل فهى أن تكون سنّيا في الوصال .

فأهل الاعتزال مسخرون للحس . وهم لضلالهم يتظاهرون باتباع السنّة !

فكل من بقي أسير الحس فهو من المعتزلة ، وان قال لك : « انى سنى » ، فهذا من جهله .

وأما من انطلق من اسار الحس فهو السنى . ان أهل « الرؤية » هم عين العقل ، وقد بوركت خطاهم .

فلو أن الحس الحيواني يرى المليك ، لكان الثور والحمار يبصران الله !

ولو لم يكن لك خارج الهواء حس آخر ، غير هذا الحس الحيوانى ، فأنى تكون الكرامة لبنى الانسان ؟ ومتى يكونون بالحس المشترك موضعا للأسرار .

ان قولك بأن الله مصوّر أو غير مصوّر ، يكون باطلا ، ما لم يحقق خلاصك من الصورة .

انه غير مصور أو مصور أمام ذلك الانسان الذى انطلق من القشر وأضحى كله لبا .

فان كنت أعمى فليس على الأعمى حرج . والا فامض ، فان الصبر مفتاح الفرج .

فالصبر هو الدواء لحجب العين . فهو الذى يحرق تلك الحجب ، وهو الذى يحدث انشراح الصدر .

وحين تصير مرآة القلب صافية نقية ، فانك ترى نقوشا خارج هذا

الماء والتراب !
انك لتبصر النقش ، وكذلك النقاش ! وتشاهد فرش الدولة ، وباسط هذا الفراش !
ها هوذا خيال حبيبي قد أقبل مثل الخليل ! انه فاتن الصورة كالصنم ، ولكن معناه : محطم الأصنام .
٧٥ فالشكر لله ، فانه حينما تبدى لى ، أبصرت روحى صورتها في صورته .
ان تراب أعتابك كان فتنة لقلبى ، فليجلل التراب كل من تسلى عن ترابك .
لقد قلت لنفسى : « لو أننى مليح الصورة فانى أتقبل هذا منه ، والا فانه يهزأ منى ، أنا القبيح الوجه !
فسبيلى هو أن أنظر الى نفسى (لأرى صورتها) ، والا فانه يسخر منى . فأنى لى أن أشترى ؟[1] .
انه جميل ، محب للجمال . فهل يختار الشاب الفتى شيخة بالغة الهرم ؟
٨٠ ان الجميل يجتذب الجميل ، فاعلم ذلك . واتل عليه قوله تعالى : « الطيبات للطيبين[2] » .
فكل شيء في هذه الدنيا يجتذب اليه شيئا . فالحارّ يجتذب الحارّ والبارد يجتذب البارد .
وأهل الباطل يجتذبون أهل الباطل . وأما أهل الخلود فهم سعداء مع الخالدين .

---

(١) كيف يتسنى لى ان أشترى رضاه عنى مع اننى اتقدم اليه بنفس قبيحة .
(٢) انظر : سورة النور ، ٢٤ : ٢٥ .

ومن كانوا من أهل النار فهم جاذبون لنظرائهم . وأما من كانوا من أهل النور فهم طالبون لأمثالهم .
انك حين أغلقت عينيك تولاك الحزن ، ومتى كان نور العين يصبر عن نور النافذة ؟
٨٥ فما حزنك الا من اندفاع نور عينيك ، الذى يطلب الاتحاد العاجل بنور النهار .
فاذا تولاك الحزن وأنت مفتوح العينين ، فاعلم أنك أغلقت عينى قلبك ، وافتحهما !
ان هذا ما تتقاضاك اياه عينا قلبك ، لانهما تلتمسان نورا لا حدود له .
فاذا كان فراق هذين النورين الفانيين قد أصابك بالحزن ففتحت عينيك ،
فان فراق هذين النورين الخالدين (لا محالة) جالب لك الحزن ، فكن على حذر !
٩٠ وهو حين يناديني أنظر الى نفسى ، (لأرى) أأنا لائق بالانجذاب اليه ، أم أننى قبيح الصورة ؟
فلو أن لطيفا مشى في اثره قبيح ، يكون من السخرية أن هذا يصحب ذاك .
فواعجبا ، متى أرى وجه نفسى ؟ لأعرف لونى أهو مثل النهار أو هو مثل الليل !
ولقد بحثت كثيرا عن صورة روحى ، فلم يستطع انسان قط أن يبدى لى هذه الصورة !
فقلت : « ما آخر هذا ؟ ولأى أمر كانت المرآة ؟ » انها لكى يعرف كل انسان حقيقة حاله وكنه ذاته .
٩٥ ومرآة الحديد ليست الا لاظهار القشور . وأما مرآه ملامح الروح

فغالية الثمن .
وما مرآة الروح الا وجه صديق ! وجه ذلك الصديق الذى يكون من تلك الديار .
فقلت : « أيها القلب ! انشد المرآة الكلية . ولتذهب الى البحر ، فليس هذا الأمر بمتحقق من النهر » .
فمن أجل هذا الطلب جاء العبد الى جادتك . فالألم هو الذى اجتذب مريم الى جذع النخلة .
وحينما أصبحت عينك عينا لقلبى ، صار هذا القلب الأعمى غريقا في الرؤى .
١٠٠ لقد رأيتك المرآة الكلية حتى الأبد ، وابصرت فى عينيك صورة نفسى .
فقلت : « لقد وجدت نفسى آخر الأمر ! لقد وجدت في عينيه طريق النور ! »
فقال وهمى : « ان هذا خيالك فتنبه ! ولتعلمن حقيقة ذاتك من خيالها » .
فهتفت صورتى من عينك قائلة : « اننى أنت ، وأنت أنا (يجمعنا اتحاد !
ففى هذه العين المنيرة الخالدة ، أنى للخيال أن يجد سبيله بين الحقائق .
١٠٥ فان أنت أبصرت صورتك في عينى غيرى ، فاعلم أن تلك من الخيال ، وأعرض عنها !
فهاتان تكتحلان بكحل العدم ، وتحتسيان خمرا من تصوير الشيطان فعيون سواى منزل الخيال والعدم . فلا جرم أنها تبصر العدم وجودا !
وأما عينى فانها قد اكتحلت بنور من ذى الجلال ، ولهذا فهى

منزل الوجود وليست مستقر الخيال .
وما دامت شعرة واحدة منك تعترض سبيل ابصارك ، فان الجوهر يكون في خيالك مثل الخرز .
ولسوف تعلم كيف تميز الجوهر من الخرز حينما يتحقق لك خلاص كلى من الأوهام .
فاستمع الى تلك الحكاية ــ أيها العارف بالجوهر ــ فبها تميز العيان من القياس :

كيف توهم ذلك الشخص رؤية الهلال في عهد عمر ، رضي الله عنه

حلّ شهر الصوم في عهد عمر ، فهرع جماعة الى قمة أحد التلال، ليتفاءلوا برؤية الهلال الطاهر . فقال واحد منهم : « يا عمر ! هاك الهلال » .
فحين لم ير عمر الهلال على السماء قال : « ان هذا الهلال قد ظهر في خيالك !
والا فأنا أقدر منك على رؤية الأفلاك ، فكيف لا أرى الهلال الطاهر ؟
فبلّ يدك ، وامسح بها على حاجبك ، ثم انظر ــ بعد ذلك ــ الى الهلال ! »
فحينما بلل حاجبه لم ير الهلال ، فقال : « أيها الملك ! ليس هناك هلال ! لقد اختفى ! »
فقال عمر : « نعم ! ان شعرة من حاجبك قد تقوّست ، فسدّدت اليك سهما من الظن ! »
فحينما اعوجت شعرة سدت أمامه الطريق ، فاخذ يتشدّق بالقول،

مدّعيا رؤية الهلال !

١٢٠ فاذا كانت شعرة معوجة تصبح حجابا للفلك ، فكيف يكون الحال لو اعوجت كل أعضائك ؟

فلتقوم أعضاءك باقتدائك بأهل الاستقامة ، ولا تحوّل رأسك — يا طالب الاستقامة — عن أعتاب هؤلاء .

فكفة الميزان يكون لها ما يوازنها ، وكذلك يكون لها ما يخل بتوازنها .

فكل من أصبح متوازنا مع المعوجين ، فقد وقع في النقصان ،وصار عقله مشوش الادراك .

فاذهب ، وكن بالغ الشدة مع الكفار ، واحث التراب على التعلق بالأغيار .

١٢٥ ولتكن مثل السيف على رؤوس الأغيار ! كن أسدا ، وحذار من أن تلعب لعب الثعالب !

حتى لا تدفع الغيرة أحباءك الى الانقطاع عنك . ذلك لأن تلك الأشواك عدوّ لهذه الورود .

ولتشعل النار بالذئاب كما تشعلها بالبخور ! ان تلك الذئاب لهي أعداء يوسف .

وان ابليس ليخاطبك بقوله : « يا روح أبيك ! » حتى يخدعك بالقول هذا الشيطان اللعين ، فاحذره !

فلقد موّه على أبيك بمثل هذا الخداع . ان هذا الشيطان الأسود الوجه قد أهلك آدم[1] .

---

(١) في هذا البيت اشارة الى لعبة الشطرنج ، فكلمة « سيه رخ » التي يشير بها الى الشيطان ، معناها ، « أسود الوجه » ، كما ان الرخ ايضا قطعة من قطع الشطرنج .وأما القضاء على آدم فقد عبر عنه بقوله « مات كرد » وهو اصطلاح في الفارسية يدل على موت الملك في لعبة الشطرنج . والبيت التالى يزيد المعنى وضوحا .

١٣٠ فهذا الغراب ملاعب بارع أمام الشطرنج ، فلا تنظر الى اللعب بعين مثقلة بالنعاس .
ذلك لأنه يعرف كثيرا من الألعاب البارعة ، التى تعلق بحلقك وكأنها القش أو القذى .
وان قذاه ليبقى في الحلق سنين . فما هذا القذى ؟ انه حب الجاه والأموال .
ان المال كالقذى ــ يا عديم الثبات ! ــ وطالما هو في حلقك ، فهو مانع ماء الحياة .
فلو سرق مالك عدو بارع الحيلة ، فان قاطع طريق يكون قد اختطف قاطع طريق !

كيف سرق المشعوذ حية من مشعوذ آخر

١٣٥ ان لصا حقيرا سرق حية من أحد المشعوذين . وكان لبلاهته يحسب أنها غنيمة !
فخلص ذلك المشعوذ من عضة الحية ، على حين أن الحية قتلت سارقها على أشنع صورة .
ورآه المشعوذ فعرفه ، وقال : « ان حيتى هى التى أخلته من الروح!
لقد كانت روحى تطلب في ضراعتها أن أجده ، وآخذ الحية منه !
فالشكر لله أن هذا الدعاء لم يستجب ! لقد ظننت ذلك ضرا فاذا به قد غدا نفعا وخيرا !
١٤٠ فكم من دعاء يكون مضرة وهلاكا ، فيحول دون اجابته كرم الله[1] .

(١) حرفيا : « والاله الطاهر ــ لكرمه ــ لا يستمع اليه » .

رافق أحد البله عيسى على الطريق ، فرأى هيكلا عظميا في جبّ عميق .

فقال : « يا رفيق الاسم السنيّ ، الذى به تبث الحياة في الموتى !

علمني حتى أصنع الاحسان ، وأجعل تلك العظام ــ بهذا الاسم ــ ذات روح ! »

فقال عيسى : « اسكت ، فليس هذا من عملك ، ولا هو لائق بأنفاسك ولا بقولك !

فمثل هذا يحتاج الى نفس أنقى من المطر ، والى سلوك أكثر ادراكا من سلوك الملائكة !

فلا بدّ من مرور أعمار لتصبح الأنفاس نقية ، وليصبح الانسان أمين خزانة الأفلاك !

فهب أنك أمسكت بيمينك هذه العصا ، فمن أين ليمينك ما كان ليمين موسى ؟ »

فقال الأبله : « فاذا لم أكن أنا ناطقا بالأسرار ، فاتل أنت الاسم السنيّ على تلك العظام ! »

فقال عيسى : « يا الهى ! ما هذه الأسرار ؟ وما ميل هذا الأبله الى ذلك العناء[1] ؟

كيف لا يغتم لنفسه هذا المريض ؟ وكيف لا يحزن على روحه هذا الميت ؟

لقد تخلى عن روحه التى عراها الموت ، وسعى الى احياء نفس سواه ! »

---

(١) ترجمنا البيت على أساس قراءة « دزبن بيكار . . . »

فقال الحق : « انه مُدْبر يبحث عن الادبار ! فلا جزاء لزرعه سوى نبات الشوك ! »

وكل من بذر بذور الشوك في هذه الدنيا ، فحذار ثم حذار أن تبحث عنه في حديقة الورد .

انه لو أمسك بيده وردة صارت شوكة ! وان هو توجه نحو صديق صار الصديق ثعبانا !

١٥٥- فذلك الشقيّ هو كيمياء السم والحية ! وتلك مختلفة عن كيمياء المتقى .

كيف اوصى الصوفي الخادم بان يعني بالبهيمة وكيف اجاب الخادم بقوله : « لا حول ولا قوة الا بالله »

لقد دار صوفيّ حول الأفق . وذات ليلة نزل في احدى الزوايا .

وكان معه حمار فربطه في الحظيرة ، ثم جلس مع الرفقاء في صدر الصفة .

فأصبح مع رفقائه مراقبا . وان حضور الرفيق لدفتر بل أكثر من ذلك .

فليس دفتر الصوفيّ هو السواد والحرف . فما دفتره الا قلب أبيض مثل الثلج .

١٦٠- ان زاد العالم آثار القلم . فما زاد الصوفيّ ؟ انه آثار القدم !

فهو كصياد توجه الى الصيد ، فأبصر آثارا لخطى غزال فاقتفاها .

ولقد ظلت آثار الغزال لائقة به بعض الوقت ، ثم أصبحت نافجة الغزال ذاتها مرشده على الطريق .

ولما كان قد شكر الخطى ، وانطلق على الطريق ، فان هذه الخطى

ـ لا جرم ـ هى التى أوصلته الى الرغاب .
وان مسيرة منزل واحد على رائحة النافجة ، لأعظم من مائة منزل من السير والطواف .
١٦٥ وذلك القلب الذى هو مطلع للأقمار ، انما هو ـ من أجل العارف ـ فاتح الأبواب .
فهو لديك بمثابة الحائط ، وهو لدى العارفين باب ! وهو عندك كالحجر على حين أنه ـ عند هؤلاء الأعزاء ـ جوهر !
وهذا الذى تراه أنت عيانا في المرآة ، يرى الشيخ أكثر منه فى لبنة !
ان الشيوخ هم هؤلاء الذين ـ قبل أن يُخلق هذا العالم ـ كانت أرواحهم غرقى في بحر الجود !
ولقد قضوا قبل هذا الجسم أعمارا ، واجتنوا من قبل الغراس ثمارا !
١٧٠ وتلقوا الروح من قبل أن تُخلق الصورة ، ونظموا الدر من قبل أن توجد البحار !
وبينما كان التشاور جاريا حول ايجاد الخلق ، كانت أرواحهم غارقة في بحر القدرة حتى الحلق !
وحين اعترض الملائكة على ذلك الخلق ، أخذوا يسخرون فى الخفاء من الملائكة .
فكل من هؤلاء قد اطلع على صورة ما يكون من الكائنات ، وذلك قبل أن تصبح النفس الكلية أسيرة المادة .
فأبصروا كيوان من قبل أن تخلق الأفلاك ! ورأوا الخبز من قبل أن يخلق القمح !

وبدون دماغ ولا قلب حفلوا بالفكر ! وبدون جيش ولا حرب تحقق لهم الظفر !

وهذا العيان بالنسبة اليهم ليس الا فكرة ، على حين أنه لا يتجاوز ظاهر الرؤية عند البعيدين (عن الحق) !

والفكرة تكون منبثقة من الماضى ومن المستقبل ، فاذا ما تحررت من هذين حلت المشكلة .

ان الروح قد أبصرت الخمر في العنب ! بل انها قد أبصرت الأشياء وهى بعد في طى العدم !

ورأت كل ما تشكل حينما لم يكن قد اتخذ شكلا ! وعرفت الصحيح والزائف من قبل أن يخلق المنجم !

واحتست الخمور وأظهرت ألوان السكر ، وذلك من قبل أن توجد الأعناب !

ان الشيوخ قد أبصروا الشتاء ابان الصيف اللاهب ، وشاهدوا الظلال في شعاع الشمس !

ورأوا الخمر في قلب العنب ، وأبصروا الأشياء في باطن الفناء المحض !

والسماء نشوى بما يدار في كأسهم من شراب ، والشمس من جودهم ترفل في وشى الذهب .

واذا رأيت منهم صديقين مجتمعين ، فهما شخص واحد ، وهما أيضا ألوف متعددة !

وان أعدادهم لهى على مثال الأمواج ، وما تعددها هذا الا من فعل الرياح !

فشمس الروح قد أصبحت متفرقة حينما نفذت خلال نوافذ الأبدان .

فأنت حين تنظر الى القرص ، فهى شمس واحدة . وأما من حجبت بصيرته الأجساد فقد أحاطت به الشكوك .

ان التفرقة تكون في الروح الحيوانيّ ، وأما الروح الانسانى فهو نفس واحدة .

وما دام الحق هو الذى رش عليهم نوره ، فان هذا النور لا يغدو قط محل انقسام .

١٩٠ يا رفيقى ! دع عنك الملال لحظة واحدة ، حتى أحدثك بلمحة[1] من ذلك الجمال .

وليس البيان بقادر على اظهار جمال حاله ! فما العالمان ؟ انهما ليسا سوى اشراقة من خاله .

وانى حين أنطق بكلمة عن خاله الجميل ، يريد النطق أن ينشق جسدى ؛

ولكنى ــ مثل النملة ــ سعيد بهذا البيدر ، فهأنذا أجرّ حملا يزيد كثيرا عن طاقتى !

كيف اوقف تقرير معنى الحكاية من جراء ميل المستمع الى سماع ظاهر صورتها

متى يخلينى من هو حسد للضياء ، حتى أتحدث بما هو فرض ، وبما هو جدير بأن يقال ؟

(١) حرفيا : « بخال » .

١٩٥ ان البحر ليقذف بالزبد ، ويقيم سدًّا . ثم يجتذب ما أقام ، ومن بعد الجزر يَعود الى المدّ .

فاستمع الآن الى المانع الذى قام : لعل قلب المستمع قد انصرف الى مكان آخر .

لقد مضى خاطره نحو الصوفىّ الضيف ، وغاص في ذلك الشوق حتى عنقه .

فقد أصبح لزاما علينا الآن أن نعود من هذا المقال الى تلك القصة ، لنقوم بوصف الحال .

أيها العزيز ! لا تحسبنّ الصوفى تلك الصورة (التى تراها) .

الام أنت ــ مثل الأطفال ــ مولع بالجوز والزبيب ؟

٢٠٠ فجسدنا ــ يا بنى ــ هو الجوز والزبيب . فان كنت رجلا فتخلّ عن هذين .

وان انت لم تتخلّ عنها فان اكرام الحق (قادر) على ان يجعلك تنطلق عابرا آفاق السماوات التسع .

فاستمع الآن الى صورة الحكاية ، ولكن كن يقظا ، وميز بين ما تحويه من قشر ومن لباب .

كيف ظن أهل القافلة ان حمار الصوفى مريض

ان حلقة هؤلاء الصوفية المستفيدين ، حين بلغت مداها من الوجد والطرب ؛

أحضر الخوان من أجل الضيف ، وحينذاك تذكر دابته .

٢٠٥ فقال للخادم : « اذهب الى الحظيرة ، وهيّء التبن والشعير من

أجل ذلك الحمار » .

فحوقل الخادم ثم قال : « ما هذا الكلام الزائد ؟ ان هذه الأعمال مهنتى من قديم الزمن » .

فقال الصوفى : ولتبلل الشعير في بادىء الأمر ، فان هذا الحمار مسن واهى الأسنان » .

فحوقل الخادم ثم قال : « ماذا تقول أيها العظيم ؟ ان الغير يتعلمون منى مثل هذه الشؤون » .

فقال الصوفى : « وابدأ بانزال السرج من فوقه ، ثم ضع دواء المنبل[1] فوق ظهره الجريح » .

٢١٠ فحوقل الخادم ثم قال : « وما نهاية هذا أيها الحكيم ؟ لقد نزل عندى مثلك آلاف من الضيوف ،

وقد فارقونا وهم راضون جميعا ، ذلك لأن الضيف عندنا بمثابة الروح والنفس .

فقال : « ولتعطه الماء ، وليكن فاترا » . فحوقل الخادم وقال : « لقد أخجلتنى ! »

فقال : « ولا تضع مع الشعير كثيرا من التبن » . فحوقل الخادم ، وقال : « أقصر هذا الكلام » .

فقال : « ولتنظف موضعه من الحصى والبعر . واذا كان مبللا فضع فوقه التراب الجاف » .

٢١٥ فحوقل الخادم ، ثم قال : « ايها الوالد ! قل لا حول ولا قوة الا بالله ، وأقلل من الكلام مع الرسول الحاذق ! »

---

(١) دواء مصنوع من الأعشاب لمداوة الجراح .

فقال : « ولتأخذ مشطا ، ولتحك به ظهر الحمار » . فحوقل الخادم ثم قال : « لتستح ايها الشيخ ! »

هكذا تكلم الخادم ، ثم عقد زناره مسرعا ، وقال : « الآن أذهب، وأبدأ باحضار التبن والشعير » .

ولكنه مضى ، ولم تخطر له الحظيرة قط على بال . وهكذا خدع ذلك الصوفي .

لقد ذهب الخادم الى جماعة من الأوباش ، وسخر من وصية الصوفي.

٢٢٠ ولقد كان هذا الصوفيّ مجهدا من الطريق ، فاستلقى ، وأخذ يشاهد أحلاما بعين الهامه :

أن حماره قد وقع بين براثن أحد الذئاب ، وكان الذئب ينهش قطعا من ظهره وبطنه .

فحوقل الشيخ ثم قال : « ما هذا الحلم الشبيه بالخبل ؟ واعجباه ! أين ذلك الخادم المشفق ؟ »

ثم عاد فرأى حماره يمضي على الطريق ، وهو يسقط حينا في بئر وحينا في حفرة .

وكان يرى في صور شتى ما ساءه من تلك الواقعة ، فأخذ يقرأ الفاتحة والقارعة .

٢٢٥ وقال : «ما الحيلة ؟ لقد انطلق الاخوان ومضوا ، وأغلقوا جميع الأبواب » .

ثم عاد يقول : « عجبا لهذا الخادم ! ألم يأكل معنا الخبز والملح ؟ انني لم أصنع معه الا اللطف واللين ، فلماذا يسلك معي بالحقد عكس سلوكي معه ؟

لا بد لكلّ عداوة من سند ، والا فان الاشتراك في الجنس

موجب للوفاء » .

ثم أخذ يناجي نفسه قائلا : « ولكن آدم ذا اللطف والجود ،متى كان قد أوقع الجور بابليس ؟

٢٣٠ وماذا صنع الانسان بالحية والعقرب ، حتى أن كلا منهما تلتمس له الموت والألم ؟

ان تمزيق الفريسة طبيعة للذئب . وهذا الحسد ــ على كل حال ــ ظاهر في الخلق » .

ثم عاد يقول : « ان هذا الظن السيء خطأ ! فلماذا يكون لديّ مثل هذا الظن بأخي ؟ »

لكنه ما لبث أن قال : « ان الحزم في اساءتك الظن ! والا فمتى كان حَسَنُ الظن يبقى سالما ؟ »

لقد كان الصوفيّ في هذه الوسوسة ، وأما الحمار فكان في حال ، جعلها الله جزاء للأعادي !

٢٣٥ فهذا الحمار المسكين كان بين التراب والحصى ، وقد مال سرجه ، وتقطع لجامه .

لقد أنهكه الطريق ، وقضى الليل بدون علف ، فكان حينا يحتضر ، وحينا يوفى على التلف .

لقد كان هذا الحمار ــ طول الليل ــ يردد : « يا الهي ! لقد تنازلت عن الشعير ، فهل أقلّ من حفنة من التبن ؟ »

وكان لسان حاله يقول : « ايها الشيوخ ! رحمة بي ، فقد احترقت من جرّاء هذا الغرّ الجسور » .

فذلك الذي رآه هذا الحمار من الألم والعذاب ، يراه طائر بريّ وقع في سيل ماء !

٢٤٠ وأخذ الحمار المسكين يتقلب على جنبيه حتى السحر ، لما اعتراه من جوع البقر[1] .

وحين أقبل النهار ، جاء الخادم في الفجر ، وسرعان ما التمس السرج ووضعه فوق ظهر الحمار .

ووخزه وخزتين أو ثلاثا كما يفعل باعة الحمير . وهكذا صنع بهذا الحمار ما يليق بكلب .

فأخذ الحمار يتوثب من وخز الابرة . ومن أين له اللسان ليفصح عن حاله ؟

وحين امتطاه الصوفى ، ومضى على الطريق ، أخذ الحمار يسقط على وجهه في كل لحظة !

٢٤٥ فكان الخلق ينهضونه في كل مرة ، وقد ظنوا جميعا أنه مريض .

فهذا يمعن في تقليب أذنيه ، وذاك يفتش عن أذى في فمه .

ومنهم من يبحث عن حصاة في نعله ، ومنهم من ينظر ما قد يكون من قذى في عينيه .

وأخذوا يقولون : « أيها الشيخ ! ما سبب هذا ؟ ألم تقل بالأمس: شكرا لله ، ان هذا الحمار قوىّ ؟ »

فقال الشيخ : « ان هذا الحمار الذى تعشى بالأمس (حوقلات[2]) لا يستطيع أن يسير في الطريق الا على هذا النحو .

٢٥٠ فما دامت الحوقلات هي كل غذائه بالأمس، فقد قضى الليل في

---

(١) جوع البقر مرض يقال انه اذا أصاب الدواب فانها تأكل ولا تشبع .
(٢) جمع حوقلة اى قول : « لا حول ولا قوة الا بالله » .

التسبيح ، وها هوذا يقضي النهار في السجود ! »

ان أكثر الناس آكلة للبشر ! فلا تلتمس في تسليمهم عليك . كثيرا من الأمان !

فقلوبهم جميعا منزل للشيطان ! فلا تكن متقبلا خداع شياطين الانس .

فكل من انخدع بكلمة صالحة يلفظ بها الشيطان ، فانه يسقط على رأسه في كفاحه ، كما حدث لذاك الحمار .

وكل من تقبل في هذه الدنيا خداع الشيطـان ، (واستطـاب) التعظيم والرياء من عدو يتخذ مظهر الأصدقاء ،

٢٥٥ فهو — في طريق الاسلام ، وعلى جسر السراط — يقع متخبطـا على رأسه ، مثل ذلك الحمار .

فلا تصغ الى مخاتلات رفيق السوء ، وكن حذرا ، وفتش عن الفخ ، ولا تمش آمنا فوق الأرض !

وتأمل آلاف الأبالسة المتظاهرين بالتقوى ! يا آدم ، انظر ابليس في الحية !

انه يحدثك قائلا : « يا روحي ! يا حبيبي ! » . حتى يسلخ عـن حبيبه جلده ، كما يفعل القصاب !

انه ليخاتلك حتـى يسلخ جلدك . فواها على من تشرب أفيون الخداع من الأعادى !

٢٦٠ انه ليضع رأسه عند قدميك ، ويسمعك ختله ، كما يفعل القصاب ، ليريق دمك ، في ذلتك وهوانك !

فكن كالأسد ، واعمل صيدك بنفسك . ودعك من خداع الغرباء والأقرباء .

واعلم أن مراعاة الأخساء لك شبيهة برعاية ذلك الخادم ، فانقطاعك عن الناس خير لك من أن تتلقى خداع اللئام .
ولا تقم دارك على أرض غيرك من الناس . واعمل عملك ولا تعمل عمل الغرباء .
ومن هو الغريب ؟ انه جسمك الترابي الذى من جرائه يكون حزنك !
٢٦٥ وطالما أنت تقدم لجسدك الدسم والحلوى ، فانك لن ترى جوهرك الروحي دسما .
ومهما اتخذ الجسد مكانه بين المسك ، فان رائحته النتنة — لا محالة — تظهر في يوم موته .
فلا تلطخ الجسد بالمسك ، بل امسح به على قلبك . وماذا يكون المسك ؟ انه اسم ذي الجلال الطاهر .
ان ذلك المنافق يضع المسك فوق جسده . ولكنه يضع روحه في قرارة وعاء القمامة .
فعلى لسانه اسم الله ، وفي روحه نتن ، يفوح من فكره الذى تجرد من الايمان .
٢٧٠ فالذكر معه كالخضرة النابتة حول المزابل ، أو هو ورد وسوسن نبت في بقعة قذرة .
فمن اليقين أن مثل هذا النبات عارية في ذلك المكان . فالورد مكانه مجلس الأحباب ومحفل الأنس .
والطيبات يقبلن نحو الطيبين . وأما الخبيثون فان لهم

الخبيثات[1] .

ولا تحمل الحقد ، فان هؤلاء الذين أضلهم الحقد قد جُعلت قبورهم بجوار الحاقدين .

وان أصل الحقد هو الجحيم . وحقدك جزء من ذلك الكل وخصم لدينك .

٢٧٥ فما دمت جزءا من الجحيم فلتكن يقظا ، فان الجزء ينجذب نحو كله ويتخذ فيه مقرا .

والمر لابد ملتحق بأقرانه من أهل المرارة . ومتى يكون حديث الباطل قرينا للحق ؟

يا أخي ! انك لست الا تفكيرك . وما بقي منك بعد ذلك فليس سوى عظام وشعر !

فلو كان فكرك وردا فانت بستان ورد . ولو كان فكرك شوكا فأنت وقود لموقد الحمام .

وان كنت ماء ورد وضعت على الرأس وعلى الحبيب . وان كنت مثل البول طرحت بعيدا .

٢٨٠ وانظر الى الأوعية أمام دكان العطار ، تجد كل جنس قد وضع فيها مع جنسه .

فحبات كل جنس قد وضعت مع نظائرها ، فانبعث من ذلك التجانس زينة ورونق .

فلو أن حبات السكر قد امتزجت بالعود ، فان العطار يفصل هذه عن ذلك حبة حبة .

---

(١) اقتباس من قوله تعالى : « الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات » . (سورة النور ، ٢٤ : ٢٥) .

لقد تحطمت أوعية (الأجساد) وانطلقت منها الأرواح ، واختلط الطيب منها بالخبيث .

فأرسل الحق الأنبياء برسائلهم ، حتى ينتقوا تلك الحبات ، فوق الطبق .

٢٨٥ ومن قبل ذلك كنا جميعا أمة واحدة . ولم يكن أحد يعلم من منا الطيب ومن منا الخبيث .

فالنقد الزائف والنقد الصحيح كانا شائعين في الدنيا ، وكان كل شيء كالليل ونحن كالسائرين في الظلماء !

حتى طلعت شمس الأنبياء فقالت : « بعدا لك ايها الغش ولتقبل أيها الصفاء » .

ان العين هي التي تميز بين الألوان ، وهي التي تميز العقيق من الحصى .

وهي التي تفرق بين الجوهر والقذى . ولهذا فان العين يخزها القذى .

٢٩٠ وهؤلاء المزيفون هم أعداء النهار . أما سبائك ذهب المنجم فهي عاشقة للنهار !

ذلك لأن النهار مرآة تعريف للذهب . وبه يبصر (الدينار) الأشرفي تشريفه .

ولهذا فان الحق وصف القيامة بأنها « يوم[1] » . فالنهار هو الذي يظهر جمال الأحمر والأصفر .

---

(١) في الفارسية كلمة « روز » معناها « يوم » ومعناها كذلك « نهار » .

فالحقيقة أن النهار سر الأولياء ، وان كان نوره أمام قمرهم يبدو كالظلال .

فلتعلم أن النهار اشراق من سر رجل الله ، وأما انعكاس ستره فهو الليل الذى يغمض العيون .

٢٩٥ ولهذا السبب أقسم الحق تعالى بالضحى[1] . والضحى نور ضمير المصطفى .

وفي قول آخر أن الإله الحبيب أقسم بالضحى ، وذلك لان الضحى فيض من نوره .

والا فان من الخطأ القسم بالفانى . وكيف يليق الفناء بقول الله ؟

لقد أثر عن الخليل قوله : « لا أحب الآفلين » . فكيف يريد القسم بالفناء رب العالمين ؟

وأما قوله « والليل » فاشارة الى ستره ، والى الجسد الترابى المحيط (بالروح) كالصدأ .

٣٠٠ فحينما أشرقت شمسه من ذلك الفلك ، قالت لليل الجسد « ما ودّعك ربك » .

ولقد تبدى الوصل من عين البلاء ، وعن تلك الحلاوة جاءت عبارة « ما قلى » .

فكل عبارة هي رمز لحال . والحال مثل اليد وأما العبارة فآلتها .

وآلة الصائغ في يد الإسكاف شبيهة بحبة غرست في الرمال .

---

(١) في هذا البيت وكذلك في الابيات الستة التالية تفسيرات رمزية لسورة « الضحى » .

وآلة الاسكاف أمام الزارع ، كالتبن أمام الكلب ، أو كالعظـام أمام الحمار !

٣٠٥ ان قول « أنا الحق » كان على شفة المنصور نورا . وكـان قول « أنا الله » على لسان فرعون زورا .

ولقد صارت العصا في كف موسى شاهدا . لكنها أصبحت في أيدي السحرة هباء !

ولهذا السبب فان عيسى لم يعلم رفيقه الأبلـه ذلك الاسم الصمد[1] .

ان الذي لا يعرف النقص يعزو ذلك الى الآلة . فلتضرب الطين بالحجر ، فهل تتولد من ذلك النار ؟

واليد والآلة شبيهـان بالحجر والحديد . فـلا بد من قرين لأن التوليد يستلزم الاقتران .

٣١٠ والذي لا قرين له ولا آلة هو الواحد . وفي العدد شك ولكـن هذا الواحد لا شك فيه !

وكل من قالوا بالاثنين أو بالثلاثة ، أو بما هو أكثر من ذلك ، متفقون على الواحد يقينا !

وحين يزول عنهم الحول يصبحون جميعا متشابهين . والقائلون بالاثنين أو بالثلاثة يصبحون قائلين بالواحد !

فان قلت بالواحد فأنت في ميدانه . فليكن دورانك بدفع مـن صولجانـه .

---

(١) اشارة الى قصة عيسى والرجل الابله . انظر الابيات ١٤١ ــ ١٥٥ .

ان الكرة تصبح كاملة لا نقص فيها حينما تغدو راقصة من ضربة كف المليك .

٣١٥ فاستمع ــ أيها الأحول ــ الى ذلك بعقلك . وتلق دواء لعينك عن طريق أذنك .

فالكلام الطاهر في القلوب العمياء لا يدوم ، بل ينطلق نحو أصل النور .

وأما سحر الشيطان فيستقر في القلوب العوجاء ، كما تستقر القدم العوجاء في الحذاء الأعوج .

ومع أنك بالتكرار قد تحصل الحكمة ، فانها تغدو بريئة منك ، لو لم تكن أهلا لها .

ومع أنك قد تكتبها وتضع رموزها ، ومع أنك قد تتشدق بها وتعلن بيانها ،

٣٢٠ فانها تحجب وجهها عنك أيها العنيد ، وتقطع روابطها بك ، وتهرب منك .

وان أنت لم تقرأها ، وأبصرت تحرقك اليها ، كان العلم طائرا طوع يمينك !

والعلم لا يدوم عند من ليس بأستاذ ، فهو كالطاووس (لا يقيم) بمنزل الفلاح .

كيف وجد الملك الباز في منزل المراة العجوز

انه ليس مثل ذلك الباز الذى هرب من الملك الى امرأة عجوز ، كانت تنخل الدقيق ؛

حتى تعد الفطائر لأولادها . فرأت ذلك الباز الجميل الرفيع المولد .

٣٢٥ فربطت قدميه الصغيرتين ، وقصت جناحيه ، وقلمت مخالبه ، وقدمت له القش غذاء .

وقالت : « ان من ليسوا أهلا لك لم يقوموا برعايتك ، فتكاثر ريش جناحيك وطالت مخالبك !

ان يد هؤلاء الجهلاء قد جعلتك عليلا ، فأقبل الآن نحو أمك لتبذل لك عنايتها ! »

فاعلم أن هذا شأن حب الجاهل أيها الرفيق . فالجاهل يمشي على الدوام معوجا فوق الطريق !

ولقد تأخر الوقت بالملك وهو يفتش عن بازه . فتوجه نحو تلك المرأة وخيمتها ،

٣٣٠ وسرعان ما رأى الباز بين الغبار والدخان . فبكى عليه الملك متألما ورثى لحاله .

وقال : « ان هذا الجزاء لفعلك ، فانك لم تكن مستقيما في وفائك لنا .

كيف تركت جنة الخلد واتخذت النار قرارا ؟ أكنت غافلا عن قوله تعالى : « لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة[1] » ؟

ان هذا جزاء من فر من الملك الخبير ، والتجأ بغباء الى عجوز نتنة ! »

---

(١) انظر : سورة الحشر ، ٥٩ : ٢٠ .

فاخذ الباز يمسح جناحه على كف الملك . وكان لسان حاله يقول:
« انني أثمت !

٣٣٥ ولكن أين ينوح وأين ينتحب اللئيم ، ان كنت لا تتقبل غيـر الطيب ، أيها الكريم ؟ »

ان لطف المليك يجعل الروح طالبة للاثم ، ذلك لأن المليك يجعل كل قبيح حسنا .

فاذهب ، ولا تصنع السيئات ، فان حسناتنا تبدو سيئات أمـام محبونا الجميل !

لقد ظننت عبادتك لائقة به ، ولهذا فانك قد رفعت لواء الجرم .

فهو اذ كان قد أمرك بالذكر والدعاء ، أصاب الغرور قلبك بدعائك هذا ،

٣٤٠ ورأيت نفسك نجيا لله ! وما أكثر من وقعوا بعيدا عن الله مـن جراء هذا الظن !

ومع أن الملك يجلس معك على الأرض فلتعرف قدر نفسـك ، ولتحسن الجلوس .

فقال الباز : « أيها الملك ! لقد أصبحت نادما . لقد تبت ، وهأنذا أعود الى الإسلام .

فذلك الذى جعلته سكران ، متوهما صيد الأسود ، ان كان قد اعوج في سيره فتقبل عذره .

ومع أن اظافرى قد ولت ، فانى أقتلع الشمس من مدارها ، حين تكون لي !

٣٤٥ ولئن كان جناحي قد ولى ، فان لعب الفلك يتضاءل أمام لعبى ، حين تدللنى !

ولو أنك منحتنى مئزرا لاقتلعت الجبل . ولو وهبتنى قلما لحطمت الأعلام !

فمهما يكن جسمى فليس بأقل من جسم البعوضة . فلأحطمن بجناحى ملك النمرود !

فافترض أننى ــ في ضعفي ــ طير أبابيل[١] ، وأن كل خصم من خصومى مثل الفيل ،

فلو أننى ألقيت فوقه حجرا من سجيل[٢] ، لكان لهذا من الفعل قدر ما يكون لمائة منجنيق !

٣٥٠ لقد خاض موسى الوغى بعصا واحدة ، وتهجم بهذه على فرعون وعلى كل سيوفه !

ان كل رسول لم يكن الا رجلا واحدا طرق هذا الباب ، فغلب بمفرده على جميع الآفاق !

وحين التمس نوح من الله سيفا أصبحت أمواج الطوفان بأمره تفعل فعل السيوف !

يا أحمد . ماذا تكون جيوش الأرض ؟ انظر الى القمر على السماء ثم شق جبينه !

حتى يعلم من كان جاهلا بالسعد والنحس أن هذا دورك ، لا دور القمر .

---

(١) ، (٢) في هذين البيتين اشارة لقصة أصحاب الفيل . انظر سورة الفيل .

٣٥٥ انه دورك ، يا من كان موسى الكليم يتطلع بأمل راسخ الى دورك وزمانك !

فموسى حينما أبصر رونق دورك ، وقد أشرق فيه صبح التجلي،

قال : « يا رب ! أي دور للرحمة هذا ؟ لقد تفوق على الرحمة .

انه دور الشهود !

فلتغرق (عبدك) موسى في البحار ، ولتظهره (من جديد) ابان دور أحمد .

فقال الحق : « يا موسى ! لقد أظهرته لك من أجل هذا[١] . وفتحت لك بهذه الرؤية سبيل تلك الخلوة .

٣٦٠ وانك بعيد عن ذلك ابان هذا الدور ، أيها الكليم ، فاسحب قدمك لان هذا البساط مديد .

انني لكريم ، أظهر الخبز لعبدي حتى يُبكي الطمع ذلك المخلوق الحي .

فالأم تمسح على أنف طفلها الرضيع ، حتى يفيق ويلتمس غذاءه .

فلعله قد نام جائعا فلم يعد يستشعر الجوع ، في حين أن الأم يخزها ثدياها لتدر الحليب .

كنت كنزا رحمة مخفية   فابتعثت أمة مهدية

٣٦٥ فكل الكرامات التي تلتمسها بروحك قد أظهرها الله لك حتى تطمح اليها .

لقد حطم أحمد بضعة أصنام في هذه الدنيا ، حتى تصبح الأمم هاتفة باسم الله .

---

(١) من اجل ان يشتعل في قلبك مثل هذا الأمل والتطلع الى عصر احمد .

ولو لم يكن جهد أحمد لبقيت أنت أيضا تعبد الصنم مثل أجدادك .

ان رأسك هذا قد نجا من السجود للصنم فبذلك تعرف حقه على الأمم .

فلو أنك تتكلم فتكلم بشكر تلك النجاة ، حتى يخلصك أيضا من صنم الباطن .

٣٧٠ وما دام قد خلص رأسك من عبادة الأصنام ، فلتتخلص أنت القلب بتلك القوة ذاتها .

انك قد انحرفت برأسك عن شكر الدين ، لأنك قد تلقيته بدون مقابل ، ميراثا عن أبيك .

وماذا يعرف صاحب الارث عن قيمة المال ؟ ان رستم لقيت روحه العناء (في تحصيله) وتلقاه بالمجان زال .

واني — اذا أبكيت — جاشت رحمتى ! ذلك لأن الباكى ينهل من شراب نعمتى !

ولو اننى لم أرد اكرامه لما أظهرت له النعم . فحينما أشعره بانقباض القلب أعود فأشرح صدره .

٣٧٥ وان رحمتى لموقوفة على تلك الدموع الصادقة ، فاذا ما بكى العبد جاش البحر بأمواج الرحمة » .

كيف اشترى الشيخ احمد خضرويه — قدس الله سره العزيز — حلوى لغرمائه بالهام الحق

كان شيخ دائم الوقوع في الدين ، وذلك لما كان عليه هذا الشهير

من الكرم !

لقد كان يستدين الآلاف من أولى الثراء ، وينفقها على فقـراء الدنيـا !

كما أنشأ بالدين زاوية للصوفية ، ووهب للخير الـروح والمال والزاوية .

وكان الحقّ يؤدّى عنه الدين في كل جانب . فالله قـد صنع للخليل دقيقا من الرمال !

٣٨٠- ولقد قال الرسول ان ملكين في هذه الدنيا يدعوان في الأسواق، قائلين : « اللهم أعط كل منفق خلفا . اللهم أعط كل ممسـك تلفا » .

وبخاصة ذلك المنفق الذى جاد بروحه ، وجعل عنقه قربانا لخلاق الوجود !

لقد مدّ عنقه (ليذبح) كما فعل اسماعيل ، ولكن السكين مـا كانت لتفعل فعلها بحلقه !

فالشهداء من هذا الوجه أحياء ناعمون ، فلا تقصر نظرك علـى الجسد مثل الكافرين .

٣٨٥- وما دام الله قد وهبهم لقاء ذلك روح البقاء ، فقد بقيت أرواحهم آمنة من الحزن والألم .

ولقد ظل الشيخ المدين يفعل ذلك سنين ، فكان يأخذ ثم يعطى كأنه وسيط .

كان يبذر البذور حتى يوم الأجل ، ليكون في يوم الأجل أميرا أجلّ !

وحينما اقترب عمر الشيخ من نهايته ، أبصر في كيانه علامات المنية .

وجلس الدائنون مجتمعين حوله ، أما الشيخ فكاد كيانه ينصهر ، كأنه شمعة .

٣٩٠ وكان أصحاب الدين يائسين وقد اكفهرت وجوههم . كانت قلوبهم متألمة ، وصدورهم ضائقة .

فقال الشيخ : « انظر الى هؤلاء الذين ساءت ظنونهم ! أليس لدى الحق أربعمائة دينار من الذهب ؟ »

وارتفع خارج الدار صوت طفل ينادي على حلواه . وكان يقرّظ الحلوى على أمل في الدوانق .

فأومأ الشيخ برأسه الى الخادم ، وأمره بأن يذهب ويشترى كل تلك الحلوى .

« فلعلّ الدائنين — حين يأكلون من هذه الحلوى — يصرفون عنى نظراتهم المريرة لحظة واحدة » .

٣٩٥ فانطلق الخادم مسرعا نحو الباب ، حتى يشترى بالذهب تلك الحلوى .

وقال للطفل : « بكم جملة هذه الحلوى ؟ » . فأجاب الطفل : « انها بنصف دينار وقليل من الدوانق » .

فقال الخادم : « ضعها ، ولا تغال في الثمن مع الصوفية . سأعطيك نصف دينار ، فلا تقل أكثر من ذلك » .

فوضع الطبق أمام الشيخ . فتأمل الآن ما احتجب من أسرار فكر الشيخ .

لقد أشار الى دائنيه قائلا : « ان هذا نوال . فكلوه متبركين هنيئا فانه (رزق) حلال !

٤٠٠ وحينما صار الطبق خاليا تناوله الطفل وقال : أعطني ديناري ، أيها الحكيم ! »

فقال الشيخ : « ومن أين آتيك بدرهم ؟ انني مدين وذاهب نحو العدم » .

فاغتم الغلام ، وضرب بطبقه الأرض ، وارتفع صوته بالنواح والبكاء والأنين .

كان يبكي من الغبن وقد علا نشيجه ، قائلا : « ليت ساقيّ كانتا قد كسرتا !

ليتني كنت قد درت حول مستودع للقمامة ، ولم أمرّ أمام باب هذا الخانقاه .

٤٠٥ هؤلاء الصوفية الطفيليون المتسوّلون ، لهم قلوب كلاب ، وهم يلعقون وجوههم كالقطط .

فلصراخ الطفل اجتمع كل من كان هناك من أهل الخير والشر ، وتجمهروا حول الطفل .

وتقدم الطفل نحو الشيخ قائلا : « أيها الشيخ القاسي ! انك تعلم يقينا أن معلمي سيقتلني .

انى لو ذهبت اليه خاوى اليد فلسوف يقتلني ، فهل تجيز ذلك ؟»

وأما هؤلاء الدائنون فقد التفتوا الى الشيخ بانكار وجحود ، قائلين : « وماذا كانت هذه اللعبة ؟

٤١٠ لقد أكلت أموالنا ، وها أنت ذا تقترف المظالم ! فلأى سبب كان

اقتراف هذا الظلم الجديد ، فوق هاتيك ؟ »
وأخذ الطفل يبكى حتى صلاة العصر . أما الشيخ فقد أغلق عينيه ، ولم يكن ينظر اليه .
ان قلب الشيخ كان خاليا من الجفاء ومن الخلاف . ولقد غطى باللحاف وجهه الشبيه بالقمر .
وكان على وفاق مع الأزل ، وعلى وفاق مع الأجل . كان سعيدا خالى البال من أراجيف الخاصة والعامة ومن أقوالهم !
فمن أشرقت في وجهه الروح ببسمة حلوة كالقند ، ماذا يضيره من عبوس وجه الخلق ؟
٤١٥ وذلك الذى تُقبّله الروح فوق عينيه ، أنى لغم الفلك أو غضبه أن ينال منه ؟
وأى خوف للقمر — وهو في منزل السماك — من الكلاب ونباحها ، في الليلة القمراء ؟
فالكلب في مكانه يقوم بعمله ، والقمر يؤدى مهمته بوجهه المشرق .
وكل شخص ينهض بأداء عمله الصغير . والماء لا يتخلى عن صفائه لو ألقيت به بعض الاقذار .
فهذه الأقذار تسبح زرية على سطح الماء ، ويسلك الماء الصافى سبيله بدون اضطراب .
٤٢٠ والمصطفى يشق البدر في منتصف الليل ، وأبو لهب في حقده يتشدق بالهراء .
وهذا المسيح يحيى الموتى ، وأما ذلك اليهودىّ فهو يقتلع —

من الحنق ـ شاربيه .

فهل لنباح الكلب سبيل الى أذن البدر ، لا سيما حين يكــون هذا البدر من خواص الله ؟

ان الملك يحتسى شرابه على شاطىء النهر حتى السحر . وهو في مجلس سماعه لا يشعر بنقيق الضفادع .

فلو أن حق الطفل قسم على الحاضرين ، لكان على كل منهم (أن يدفع) بضعة دوانق ، لكن همة الشيخ حالت دون هــذا السخاء.

٤٢٥ فلم يعط الطفل أحد من هؤلاء شيئا قط . وان قوة الشيوخ لتفوق ذلك أيضا .

وحينما حلت صلاة العصر جاء خادم يحمل في يده طبقا جــاد به كريم حاتمى الجود .

ان صاحب مال وحال قد أرسل هديــة الى الشيخ ، لأنــه كان عليما بخبره .

وكان فوق الطبق أربعمائة دينار ، وفي زاوية منه نصف دينار ملفوف بالورق .

لقد أقبل الخادم نحو الشيخ ، فحياه ، ثم وضع الطبق أمــام ذلك الشيخ الفريد .

٤٣٠ وحينما كشف عن الطبق الغطاء ، أبصر الناس تلك الكرامة مــن الشيخ .

وسرعان ما ارتفعت منهم صيحات الأسى والندم ، وقالوا : « مــا هذا يا سيد الشيوخ ! يا ملك الملوك !

ما هذا السر ؟ وأى سلطان ذلك أيضا ، يا ملك ملوك الأسرار !

انتا لم نكن نعلم ، فاصفح عنا . فلقد انطلقت منا كلمات بالغة التشويش .

فلقد كنا نضرب بعصينا كالعميان ، فلا جرم أننا قد حطمنا القناديل !

٤٣٥ اننا مثل الصم ، لم نسمع كلمة واحدة توجه الينا ، ومع ذلك كنا نهذى بجواب مبنى على القياس .

اننا لم نأخذ النصيحة من موسى ، الذى غدا بانكاره الخضر شاحب الوجه ،

برغم ما كان له من بصر يرنو الى الأعالى ، وعين كان نورها يشق السماء !

يا موسى (زماننا) ! ان التعصب قد جعل عينك — في حماقتها — شبيهة بعين فأر الطاحون .

فقال الشيخ : لقد صفحت عن كل هذا القيل والقال ، وبهذا قد أصبح حلالا لكم .

٤٤٠ والسر في ذلك كله أننى كنت أسأل الحق . فلا جرم أنه قد بين لى سبيل الصواب .

ثم قال : « ان هذا الدينار — مع أنه قليل — كان رهنا ببكاء الطفل .

فلو أن هذا الطفل بائع الحلوى لم يبك ، ما جاش بحر رحمتى (بالعطاء) .

أيها الأخ . ان الطفل ليس سوى طفل عينك . ورغابه رهن بالبكاء ، فاعلم ذلك يقينا .

فاذا أردت أن تحظى بهذه الخلعة[1] ، فلتجعل انسان عينك باكيا على الجسد .

كيف حذر شخص احد الزهاد قائلا
« اقل البكاء ، حتى لا تصاب بالعمى »

٤٤٥ خاطب رفيق في العمل أحد الزهاد قائلا : « أقل البكاء ، حتى لا تصاب عينك بالأذى .
فقال الزاهد : « ان الحال لا يخرج عن أحد أمرين : اما أن تبصر العين ذلك الجمال ، أو لا تبصره .
فان أبصرت العين نور الحق فأى غم هناك ؟ وما أهون العينين عند من نعم بوصال الحق !
وان لم ترد العين رؤية الحق فمرها بالذهاب . وقل لمثل تلك العين الشقية : « كوني عمياء » .
ولا تأس على عينك حينما يكون لك هذا المسيح . ولا تتجه نحو الشمال ، فانه يهبك عينين صحيحتين (لقاء استقامتك) .
٤٥٠ ان عيسى روحك حاضر معك . فالتمس النصرة منه ، فانه نعم النصير .
ولكن لا تضع على قلب عيسى في كل لحظة أثقال السخرة لجسم حافل بالعظام .

---

(١) حرفيا : « فاذا اردت ان تصل اليك هذه الخلعة ... » .

كما فعل ذلك الأبله الذى ذكرناه في القصة ، تبصرة لأهـل الصلاح[1] .

فلا تلتمس من مسيحك حياة الجسد . ولا تطلب رغاب فرعون ممن هو لك بمثابة موسى .

ولا تثقل فؤادك بهم التفكر في المعاش . فلن يخونك الرزق . فلتكن ماثلا في رحاب الله .

٤٥٥ ان البدن بمثابة خيمة للروح ، أو هو مثل السفينة لنوح .

وطالما كان التركماني هناك ، فسيجد احدى الخيام ، لا سيمـا حين يكون من أعزاء تلك الرحاب .

تمام قصة بعث العظام بدعاء عيسى عليه السلام

ان عيسى نادى باسم الحق على العظام ، اجابة لملتمس ذلـك الشاب .

فكان حكم الحق ــ من أجل ذلك الفتى الغرّ ــ أن بـث الحياة في صورة تلك العظام .

وكان أن قفز منها أسد أسود اللون ، وضربه بمخالبه فدمر كيانه الصورىّ !

٤٦٠ وحطم رأسه ، فسرعان ما انسكب منه لبّه . لقد كان لبّ جوزة، فالفتى لم يكن من أولى الألباب .

ولو كان من أولى الألباب لما كان تحطيمه يتجاوز ايذاء الجسد .

(١) حرفيا : من اجل اهل الصلاح .

لقد قال عيسى للأسد : « كيف ضربته بهذه السرعة ؟ »
فقال الأسد : « لأنه كان مصدرا لازعاج خاطرك » .
فقا لعيسى : « ولماذا لم تشرب دم الرجل ؟ » فقال الأسد :
« انه لم يقسم لى تناول هذا الرزق » .
وكم من رجل شبيه بهذا الأسد الضارى ، ترك الدنيا من غير أن يأكل صيده !

٤٦٥ نصيبه المقسوم لا يعدل القشة ، وحرصه مثل الجبل . ولا وجه (للرزق) مع أنه قد طرق جميع الوجوه !
فيا من يسَّرت لنا في هذه الدنيا أن نسخر أنفسنا لما لا يجدى !
يسِّر لنا الخلاص !
لقد ظهرت لنا (مغريات العيش) طعمة ، في حين أنها شص !
فلتظهرها لنا على ما هى عليه .
قال الأسد : « أيها المسيح ! ان هذا الصيد لم يكن له من هدف سوى الاعتبار !
ولو أنه كان قد بقى لى رزق في هذه الدنيا ، فاى عمل كان لى مع الموتى ؟ »

٤٧٠ ان هذا جزاء من يجد الماء صافيا فيبول في النهر بدون تمييز مثل الحمار .
ولو أن الحمار أدرك قيمة ذلك النهر ، لوضع رأسه فيه بدلا من أن يغشاه بقدمه .
لقد لقى (الأحمق) مثل ذلك النبى[1] ، من كان أميرا على الماء ،

(١) اشارة الى قصة الأحمق الذى رافق عيسى (انظر الأبيات ١٤١ — ١٥٢) .

باعثا للحياة .

فكيف لا يموت أمامه قائلا : « يا أمير الماء . ردّ الينا الحياة بأمر كن » .

فحذار ، ولا تطلب الحياة لكلب نفسك الأمارة ، فانها منذ القدم عدو لروحك .

٤٧٥ وليحث التراب على رأس تلك العظام ، التى تحول بين هذا الكلب وبين صيد الروح .

فان لم تكن كلبا فما هذا التعشق للعظام ؟ وان لم تكن مثل الضبع فلماذا أنت مولع بالدماء ؟

وأية عين تلك التى تكون بدون ابصار ؟ انه لا يتحقق من امتحانها شيء سوى الفضيحة والعار ؟

ولقد يكون للظنون سهو بين حين وآخر ، ولكن أى ظن هذا الذى يكون أعمى عن الطريق ؟

أيتها العين التى تبكى منتحبة على سواها ! لتجلسى الآن قليلا ولتبكى على نفسك !

٤٨٠ فالسحاب الباكى يجعل الأغصان مخضرة يانعة . وكذلك الشمعة تزداد ببكائها نورا !

فحيثما ينوح النائحون اتخذى لك مجلسا ، فانك أنت أولى من هؤلاء بالحنين .

فهؤلاء يبكون على فراق ما يفنى ، وهم غافلون من عقيق منجم البقاء .

ذلك لأن نقش التقليد قيد للقلب . فامض وحطم هذا القيد بماء

المدامع .
ولما كان التقليد آفة لكل خير ، فانه ليس سوى قشة حتى ولو كان جبــلا منيعا .
٤٨٥ ولئن يكن الضرير عظيم الجسم سريع الغضب ، فاعلم أنــه ليس سوى كتلة من اللحم ما دام بدون بصر .
ولئن كان يتحدث بكلام أدق من الشعرة ، فانه لا يكون بقلبــه مدركا هذا الكلام .
وانه ليستشعر النشوة بما يقوله ، لكن بينه وبين الخمر طريقا بعيدا !
فهو مثل النهر ، فليس هو الذى يشرب الماء ؛ بل الماء ينســاب خلاله الى شاربيــه .
فالماء لا يستقر في مجرى النهر ، لأن النهر لا يكون ظمــآن ولا يشرب الماء .
٤٩٠ بل هو مثل الناي يشدو بأنــات الأسى ، وهو ليس الا متخــذا صورة تعجب المشتريــن .
ان المقلد يتخذ في الحديث صورة محترف النواح ، وليس لذلك الخبيث من باعث سوى الطمع !
فهذا النائح المحترف ينطق بكلمات تحرق الفؤاد ، ولكن أين هو من احتراق القلب وشق الثياب ؟
فهناك فروق شاسعة بين المحقق وبين المقلد ، فان هذا مثل داود وأما ذاك فمثل الصدى .
ومنبع قول هذا هو احتراق القلب ، أما ذلك المقلد فمنبع قــوله ما تلقاه من تعليم بال مهلهل !

٤٩٥ فتنبه ، ولا تغتر بذلك القول الحزين ، فالثور هو الذى يحمل العبء ، على حين يكون من العربة الأنين .

والمقلد أيضا ليس محروما من الثواب ، فان محترف النواح ينال أجره عند الحساب .

والكافر والمؤمن كلاهما ينطقان باسم الله ، لكن شقة شاسعة البعد تفرق بينهما .

وذلك المتسول يهتف باسم الله من أجل الخبز ، أما المتقى فيذكر الله من صميم روحه .

ولو أن ذلك المتسول أدرك مضمون قوله ، لما كان يبقى ماثلا أمام عينيه قليل ولا كثير .

٥٠٠ ان ذلك المتعلق بالخبز ينطق باسم الله طوال السنين ، فهو مثل الحمار يحمل المصحف من أجل وجبة من التبن !

فلو أشرق في قلبه لفظ شفتيه ، لتحول كيانه الجسدى الى ذرات .

وفي السحر يتملك اسم الشيطان ناصية الطريق . وها أنت ذا تتجر باسم الحق لقاء دانق !

كيف اخذ فلاح يدلك بيده في الظلام جسم أسد ظانا انه ثوره

لقد ربط أحد الفلاحين ثوره في الحظيرة ، فأكل الأسد هذا الثور وجلس في مكانه .

ودخل الفلاح الحظيرة في الظلام متجها نحو ثوره ، وأخذ

يتحسس الأركان باحثا عن ثوره .

٥٠٥ ثم أخذ يدلك بيده أعضاء الأسد ، ظهره وجانبيه ، عاليه وسافله .

فحدث الأسد نفسه قائلا : « لو انبثق الضياء لانفجرت مرارته (رعبا) ولغدا قلبه دما !

انه يدلكني بجسارة على هذه الصورة ، لأنه ــ في هذه الظلمة ــ يحسبني ثوره .

والحق يقول : « أيها المغرور الأعمى ! أو لم يتصدع جبل الطور تحت وطأة اسمي ؟

فلو أننا أنزلنا كتابا على الجبل ، لا نصدع الجبل ، وتساقط وزال من مكانه[1] .

٥١٠ ولو أن جبل أحد أصبح مدركا حقيقتنا ، لتفجرت منه عيون الدماء !

وأنتم قد تسامعتم بنا من آبائكم وأمهاتكم ، فلا جرم أن غمض عليكم الأمر في غفلتكم .

ولو أنكم أدركتم الحق بدون تقليد ، لخفى من اللطف كيانكم المادى ، وغدوتم مثل نداء السماء !

فاستمع الى هذه القصة لتكون لك رادعا ، فانك تعلم منها آفة التقليد :

(١) هذا البيت عربى في الأصل ، وقد نثرناه لمجاراة السياق .

كيف باع الصوفية بهيمة المسافر ، ليقيموا بثمنها مجلسا للسماع

وصل صوفي مسافر الى احدى الزوايا ، وهناك جاء بحماره وقاده الى الحظيرة .

٥١٥ وقدم اليه بيده قليلا من الماء وبعض العلف ، ولم يفعل كما فعل الصوفي الذي سبق لنا ذكره[١] .

لقد احتاط للأمر من السهو ومن التخبط ، ولكن ــ اذا حمّ القضاء ــ فأي جدوى للاحتياط ؟

وكان هؤلاء الصوفية معوزين فقراء . والفقر كاد أن ينطوى على كفر يورث البوار .

أيها الغنى البشم ! حذار ، ولا تهزأ من انحراف ذلك الفقير المتألم !

فهذا الجمع من الصوفية ــ لفرط فاقتهم ــ قد اتفقت كلمتهم على بيع الحمار .

٥٢٠ قائلين : « ان الضرورة تبيح أكل الميتة ، وكم من فساد جعلته الضرورة صلاحا ! »

وسرعان ما باعوا ذلك الحمار الصغير ، واشتروا بثمنه طعاما شهيا ، وأضاؤوا الشموع !

وتعالت الصيحات في جوانب الخانقاه : « ان الليلة للطعام الشهى والشره ومجلس السماع !

---

(١) بدأت قصة ذلك الصوفى في البيت ١٥٦ ، ثم استؤنفت في الأبيات ٢٠٤ ــ ٢٥٠ .

وكفانا حملا لهذا الزنبيل وكفانا سؤالا ، وكفانا صبرا ، وكفانا صوما يطول مداه[1] ! »

اننا أيضا من خلق الله ، من ذوى الروح . وها هى ذى السعادة قد حلت الليلة في ضيافتنا ! »

٥٢٥ وهم بذلك قد غرسوا بذور الباطل ، اذ قد ظنوا من الروح ما لا شأن له بالروح .

وذلك المسافر أيضا كان متعبا من الطريق الطويل ، فرأى هذا الاقبال والتكريم .

فكل من هؤلاء الصوفية دلله ورعاه ، ولعبوا جميعا نرد الرعاية على أحسن الوجوه !

فلما رأى الصوفى ميلهم اليه ، قال : « لو أننى لم أطرب الليلة ، فمتى يكون ذلك ؟ »

فأكلوا لذيذ الطعام ثم بدأ السماع ، فامتلأ جوّ الزاوية بالدخان والغبار ،

٥٣٠ دخان من المطبخ ، وغبار يتصاعد من الأرض ، تدقها أقدام الراقصين ! وأرواح ثائرة غلب عليها الاشتياق والوجد !

فتارة كانوا يصفقون بالأيدى ، وتارة يدقون بالأقدام . وحينا كانوا يكنسون أرض الصفة بجباههم .

ان الصوفي يطول انتظاره لينال مبتغاه من الدنيا ، ولهذا فان الصوفى يكون كثير الأكل !

---

(١) حرفيا : « يدوم ثلاثة ايام » .

وما كذلك يكون الصوفي الذي اغتذى حتى شبع من نور الحق ، فان هذا يكون بريئا من عار التسول !

وليس من أمثال هذا الصوفي سوى قلة بين الآلاف . وفي ظلال دولة هؤلاء تعيش الكثرة الباقية .

٥٣٥ وحينما اكتمل السماع من أوله الى آخره ، بدأ المطرب من جديد يعزف نغمة قوية !

وبدأ يترنم قائلا : « ذهب الحمار ! ذهب الحمار ! » فدفعت حرارة النغمة جملة الحاضرين لمشاركته الغناء .

وبتلك الحرارة ظلوا يرقصون حتى السحر ، ويصفقون بالأكف مرددين : « ان الحمار مضى وولى يا فتى » .

وعلى سبيل التقليد بدأ هذا الصوفي أيضا يترنم مرددا : « ذهب الحمار » .

وحينما انقضت هذه النشوة والانفعال وذاك السماع ، بزغ الصبح فقالوا جميعا : « الوداع » .

٥٤٠ وخلت الزاوية الا من هذا الصوفي . وكان هذا المسافر يمسح الغبار عن متاعه .

وأخرج الصوفي متاعه من الحجرة ليربطه فوق الحمار . وكان ينشد رفيقا للسفر .

ولقد سارع علّه يلحق برفقاء الطريق . ودخل الحظيرة فلم يجد حماره فيها !

فقال : « لعلّ ذلك الخادم قد أخذه الى الماء ، فانه لم يشربه بالأمس الا قدرا ضئيلا » .

وأقبل الخادم فسأله الصوفيّ : « أين الحمار ؟ » فقال له الخادم:
« انظر الى لحيتك ! » . فقام بينهما العراك .

٥٤٥ فقال الصوفي : « انني قد أسلمت اليك هذا الحمار . وجعلتك موكلا به ،

فالزم حدود هذا البحث ، ولا تجادلني . وردّ الى ما أودعته عندك !

انني أطلب منك ما كنت أسلمتك اياه . فلتعد اليّ ما كنت قد أرسلته اليك .

ولقد قال الرسول : ان كل ما أخذته يدك ، لا بد لها أن تعيده في عاقبة الأمر .

فان كنت — لعنادك — لا ترضى بهذا ، فهلمّ أنا وأنت الى منزل قاضي الشريعة .

٥٥٠ فقال الخادم : « لقد كنت مغلوبا على أمري ، فان الصوفية تهجموا عليّ فغدوت خائفا على روحي !

فهل تلقى بين القطط كبدا وأحشاء ثم تبحث بعد ذلك عن أثر لها ؟

ان رغيفا من الخبز بين مائة من الجياع شبيه بقطة هزيلة أمام مائة كلب ! »

فقال الصوفي : « فلنسلم أنهم قد أخذوه منك ظلما ، وأنهم أصبحوا قاصدين دمي ، أنا المسكين ،

فانك لم تجيء ، ولم تقل لي : « ها هم أولاء يأخذون حمارك ، أيها المسكين ! »

٥٥٥ حتى أبتاع حمارى ممن عساه يكون قد اشتراه ، والا اقتسم الصوفية بينهم مالى .
لقد كانت هناك مائة وسيلة لتدارك الأمر ، حينما كان الصوفية حاضرين ، أما الآن فقد تفرقوا في الأقاليم .
فبمن أمسك الآن ؟ ومن ذا الذى آخذه الى القاضى ؟ ان هذا القضاء قد هبط فوق رأسى من جرائك !
كيف لا تجيء ، ولا تقول لى : « أيها الغريب ، لقد وقع بك مثل هذا الظلم الرهيب ! »
فقال الخادم : « والله ، انى قد جئت اليك مرارا ، حتى انبئك بهذه الأعمال ،
٥٦٠ فكنت تقول لى : « ان الحمار مضى وولى يا فتى ! » ، وكنت أكثر انفعالا من جميع الناطقين بهذا القول .
فكنت دائما أرجع قائلا : « انه واقف على هذا الأمر . وهو راض بهذا القضاء ، فهو رجل عارف ! »
فقال الصوفى : « انهم جميعا كانوا يحسنون ترديد هذا القول . ولقد راق لى أنا أيضا أن أردده !
وان تقليد هؤلاء هو الذى أسلمنى للريح . فعلى هذا التقليد مئتان من اللعنات !
وبخاصة تقليد مثل هؤلاء الذين لا طائل وراءهم . فليكن سخط ابراهيم على الآفلين !
٥٦٥ ان ذوق هذه الجماعة كان يلقى بأصدائه في قلبى ، فتحقق للقلب من تلك الأصداء ذوق مماثل ! »

ولا بدّ لك من أن تشرق عليك[1] أشعة الرفقاء الطيبين ، حتى تغدو مستمدا ماءك من البحر ، بدون (هداية من تلك) الأشعة.

واعلم أن أول نور[2] وقع عليك انما هو التقليد . فاذا تتابع الاشراق فهذا هو التحقيق .

فلا تنقطع عن الرفقاء ما لم يكتمل لك التحقيق . ولا تنفصل عن الصدف ، فان هذه القطرة لم تصبح بعد درّا .

فان كنت تريد أن يتحقق الصفاء لعينك وسمعك وعقلك ،فلتمزق ما يغشيها من أستار الطمع !

٥٧٠ ذلك لأن تقليد هذا الصوفي كان مبعثه الطمع ، فحجب عقله عن النور واللمع .

فالحرص على الطعام الشهيّ ، والحرص على الذوق والسماع ، وقفا حائلا بين عقله وبين الاطلاع .

فلو أن الطمع استقر في المرآة ، لصارت تلك المرآة مثيلة لنا في النفاق !

ولو أن الميزان أصيب بالطمع في المال ، متى كان الميزان يقول الصدق حين وصف الحال ؟

ان كل نبي خاطب قومه في صفاء قائلا : « أنا لا أطلب منكم أجرا على رسالتي .

٥٧٥ فلست سوى دليل ، وما المشترى الا الله . ولقد جعل الحق أجرى في كلتا الناحيتين[3] .

---

(١) حرفيا « تنعكس فوقك » .
(٢) حرفيا : « انعكاس » .
(٣) الناحيتان هنا هما الدنيا والآخرة .

فماذا يكون جزاء عملي ؟ انه رؤية الحبيب ! حتى وان أعطانى أبو بكر أربعين ألف (درهم) !

فهذه الآلاف الأربعون التي وهبني اياها ليست أجرى . ومتى يكون الشبه[1] مثيلا لدر عدن ؟

وهأنذا أروى لك حكاية ، فاستمع اليها بعقلك ، حتى تعلم أن الطمع قد أصبح حجابا لأذنك !

فكل من كان طامعا غدا متعثر اللسان . ومع الطمع ، كيف يحل النور بالعين والقلب ؟

٥٨٠ ان خيال الجاه والمال يكون أمام البصر كالشعرة حين تصيب العين.

وما كذلك من كان ثملا ، قد امتلأت روحه بالحق ،

فانه يظل حرا ، حتى ولو أعطيته الكنوز !

فكل من سعدت نفسه بمشاهدة الحق ، يبدو هذا العالم ميتا أمام عينيه .

لكن هذا الصوفى كان بعيدا عن نشوة الشهود ، فلا جرم أنه كان ــ من حرصه ــ في ظلمة كالأعمى .

وقد يستمع المبهور بالحرص الى مائة حكاية ، فلا تنفذ نادرة منها في أذن حرصه !

كيف بعث القاضي بالمنادين للطواف بمفلس حول المدينة

٥٨٥ كان هناك رجل مفلس ، لا سكن له ولا دار ، فاستقر في سجن

(١) « الشبه » هو النحاس الاصفر .

وقيد لا فكاك منه !

وكان يأكل طعام رفاقه في السجن ، فأصبح بطمعه ثقيلا على قلوب الخلق ، كأنه جبل قاف .

فما كان أحد يجسر على أن يتناول لقمة ، ذلك لأن هذا الملتهم كان ينقضّ عليها !

وكل من كان بعيدا عن دعوة الرحمن ، فعينه عين متسول ، ولو كان سلطانا !

لقد داس هذا الرجل كل مروءة بقدميه ، وأصبح السجن جحيما من جراء هذا الجشع الأكول .

٥٩٠ فلو أنك هربت على أمل في الراحة ، فقد تواجهك الآفة من ذلك الطرف أيضا !

فما من ركن خلا من الوحوش أو الفخاخ . وليست هناك راحة الا في خلوة الحق .

وحتى زاوية سجن الدنيا التى لا مفر منها ، ليست بدون أجر أو بلا تكلفة !

فوالله لو أنك نزلت في جحر فأر ، فهناك أيضا تكون مبتلى بمخالب القط .

ان الانسان ليتضخم جسمه من الخيال ، ان كانت خيالاته ذات جمال !

٥٩٥ وان أظهرت له خيالاته ما يسوء ، ذاب كما ينصهر الشمع من النار !

فلو أنك كنت بين الحيات والعقارب ، وألقى الله في نفسك خيالات طيبة عنها ،

لأصبحت الحيات والعقارب مؤنسة لك . فان خيالك هذا يكون كالكيمياء للنحاس !

ان الصبر قد غدا بالخيال الجميل حلو المذاق . ذلك لأنه قد أقبل مبشرا بعلامات الفرج[1] .

وان الفرج ليأتى من ايمان الضمير . أما ضعف الايمان فيأس وعذاب .

٦٠٠ والصبر يحظى بتاج من الايمان ، لأن من لا صبر له لا ايمان له .

ولقد قال الرسول : « ان الله لم يهب الايمان لمن لم يكن الصبر في طبيعته[2] » .

ان ذلك الشخص الذى يكون في عينك شبيها بالثعبان ، قد يكون صورة جميلة في نظر غيرك .

ذلك لأنه يتجلى لعينك خيال كفره ، على حين يتجلى لعين محبه خيال ايمانه .

وهاتان الصفتان تجتمعان في شخص واحد ، فحينا يكون سمكة ، وحينا يكون شصا !

٦٠٥ فنصفه يكون مؤمنا ونصفه يكون كافرا ! نصفه يكون من الحرص ونصفه الآخر من الصبر !

ولقد قال تعالى : ان منكم مؤمنا ، كما قال أيضا ان منكم كافرا عريقا في كفره[3] .

فمثل هذا الانسان كثور نصفه الأيسر أسود ، ونصفه الآخر

---

(١) اشارة الى القول المعروف : « الصبر مفتاح الفرج » .
(٢) هذه ترجمة لمعنى الحديث : انظر لفظ الحديث في التعليقات .
(٣) في البيت اشارة الى قوله تعالى : « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير » . (٦٤ : ٢) .

أبيض مثل القمــر !

فكل من يرى هذا النصف فانه يُعرض عنه ، وأما من يــرى النصف الآخر ، فانه يسعى اليه !

لقد كان يوسف يبدو في أعين اخوته قبيحا كالبغل ، وهو ذاته كان في نظر يعقوب شبيها بالحور !

٦١٠ فالخيال القبيح هو الذى جعل العين الحسية وعين العقل المحتجبة تريانه قبيحا .

واعلم أن هذه العين الظاهرة ظلّ لتلك العين المحتجبة . فكل ما تراه عين الباطن ، تدور نحوه عين الظاهر .

وانك أيها الانسان مكانى ، ولكن أصلك في اللامكان . فلتغلق هذا الدكان ولتفتح ذلك الدكان .

فلا تهرب الى هذا العالم ذى الجهات الست ، ففى هذه الجهات أسوأ مواقع أحجار النرد ، حيث تحق الهزيمة .

كيف شكا اهل السجن الى وكيــل القاضى من عدوان ذلك المفلس

فذهب أهل السجن يشكون أمرهم الى وكيل القاضى ، وكان رجلا واسع الادراك .

٦١٥ قائلين : « لتحمل سلامنا الآن الى القاضى ، ثم أبلغه تأذينا من هذا الرجل السافل .

فلقد أقام بالسجن على الدوام هذا الرجل المتلاف المضرّ !

وهو كالذبابة حاضر في كل طعام ، يتصدى متوقحا بدون دعوة

أو سلام !

طعام ستين شخصا أمامه لا يعد شيئا ، وهو يصطنع الصمم لو قلت له « كفاك ! »

فليس يجد رجل من السجناء لقمة. واذا استطاع بمائة حيلة أن يجد شيئا يأكله ،

٦٢٠- غشيه في الحال هذا الجهنمي الحلق ، وكل حجته أن الله أمر البشر بقوله : « كلوا ... »

فلتخلصنا من ذلك القحط الذى دام ثلاث سنين ، وليدم الله ظل مولانا الى الأبد !

فاما أخرجت من السجن ذلك الجاموس الأكول ، أو خصصت له مؤونة من أحد الأوقاف .

فيا من سعدت بك الذكور والاناث ، أنصفنا بعدالتك ، فانك أنت المستغاث ! »

فتوجه الى القاضى هذا الوكيل المهذب ، ونقل اليه شكاية هؤلاء، بكل تفصيلاتها .

٦٢٥ فاستدعى القاضى ذلك المفلس من السجن للمثول أمامه ، ثم استفسر عن حاله من كبار أعوانه .

فثبت لدى القاضى كل ما تقدم به هذا الجمع في شكايتهم .

فقال له القاضى : « انهض من هذا السجن ، ولتتوجه الى منزلك الموروث » .

فقال المفلس : « ليس لى منزل سوى احسانك . انني مثل الكافر، وسجنك هو جنتى !

فلو أنك أخرجتنى من السجن وأقصيتنى ، فلسوف أموت من الفاقة والكد » .

٦٣٠ فهو كابليس الذى كان يخاطب الله بقوله : « أنظرنى الى يوم يوم يبعثون[1] » .

فانني سعيد في سجن الدنيا هذا ، حيث أني هاهنا أقتل أبناء عدوي!

فكل من كان منهم صاحب قوت من الايمان ، أو يمتلك رغيفا تزود به للطريق ،

فانني آخذه منه ، تارة بالمكر وتارة بالخداع ، حتى تتعالى منهم صيحات الندم .

فأنا حينا أهددهم بالفاقة والمسكنة ، وحينا أحجب أبصارهم بغدائر الشعر والخال ! »

٦٣٥ ان قوت الايمان قليل في هذا السجن ، والقليل الذى يوجد منه مهدد بعدوان هذا الكلب !

وقوت الذوق يتحقق بالصلاة والصيام وبمائة من أفعال الخضوع ،

فيختلسه الشيطان دفعة واحدة !

أستعيذ الله من شيطانه   قد هلكنا آه من طغيانه[2]

انه كلب واحد لكنه يجد سبيله الى الألوف ! وكل من تطرق اليه الشيطان فقد أصبح هو الشيطان !

وكل من استشعرت منه البرودة فاعلم أن الشيطان كامن فيه !

ان الشيطان قد اتخذ من جلد هذا خباء !

٦٤٠ وحين لا يجد الشيطان صورة فانه يظهر لك في الخيال ، ليدفع خيالك الى أن يقودك نحو الوبال .

فحينا هو خيال اللهو وحينا طيف الدكان . وطورا هو خيال العلم

(١) الأعراف ، ٧ : ١٤ .
(٢) هذا البيت عربي في الأصل .

وطورا خيال السكن والدار .
فحذار ، وأكثر من ذكر ربك في كل لحظة ، ولا يكن ذلك باللسان وحده ، بل بالروح ذاتها .
فقال القاضى للمفلس : « أقم البينة على افلاسك » . فأجاب بقوله : « هاك أهل السجن شهداء على ذلك » .
فقال القاضى : « انهم متهمون في شهادتهم ، ذلك لأنهم يهربون منك ويبكون دما (من عدوانك) ،
٦٤٥ وهم جميعا يطلبون الخلاص منك ، فهذا الغرض ربما جعلهم يشهدون بالباطل » .
فقال جميع أهل المحكمة : « نحن أيضا شهود على افلاس هذا الرجل وعلى ادبار حاله » .
وكل من سأله القاضى عن حاله قال : « أيها المولى ! انفض يدك من هذا الرجل » .
فقال القاضى : « طوفوا به حول المدينة وأعلنوا أن هذا مفلس ، وعربيد مسرف .
ونادوا معلنين أمره في جميع الطرق . واقرعوا طبل افلاسه في كل مكان .
٦٥٠ فلا يبعه أحد قط نسيئا ، ولا يقرضه انسان قط دانقا .
فكل من يحضره الىّ هنا بدعوى احتيال ، فانى لن أبعث به بعد ذلك الى السجن .
ان افلاسه قد أصبح ثابتا أمامى ، وليس في حوزته شيء قط ، لا نقد ولا بضاعة » .

والانسان يقيم في حبس هذه الدنيا ، وذلك من أجل أن يثبت افلاسه .

وان الله قد نادى أيضا بافلاس ابليس في القرآن الكريم ،

٦٥٥ قائلا : انه مخادع مفلس قبيح القول ، فلا يكن أحد شريكـا له ولا نديما !

وان فعلت ذلك ، ثم اتخذته عذرا لك ، فهو مفلس ، فأنى لك أن تنال منه ربحا ؟

وحين اشتعلت هذه الفتنة ، أحضروا جمل كردى كان يبيع الحطب.

فأخذ الكردى المسكين يصيح وينتحب ، كما أنه أسعد الموكل بدانق (على سبيل الرشوة) ،

لكنهم أخذوا بعيره من وقت الضحى حتى الليل ، ولم يجد صراخه نفعا .

٦٦٠ وجلس فوق الجمل ذلك القحط الكبير ، وأما صاحب الجمـل فكان يجرى وراءه .

فسارعوا الى الطواف به من ناحية الى ناحية ، ومن شارع الـى شارع ، حتى عرفته كل المدينة عيانا .

وأمام كل حمام وكل سوق كان جميع الناس يتأملون شكله .

وكان هناك عشرة منادين من ذوى الأصوات الجهيرة ينـادون بالتركية والرومية والكردية والعربية :

« ان هذا رجل مفلس لا يملك شيئا . فلا يقرضه أحد من الناس فلسا .

٦٦٥ انه لا يملك مثقال حبة لا ظاهرا ولا باطنا ! انه مفلس زائـف

مخادع ، وقربة منتفخة !

فحذار ، حذار . لا تتعاملوا معه . وحينما ترونه فأحكموا عقد أكياسكم[1] .

فان أنتم أحضرتم هذا الرجل المنحل الى المحكمة ، فاني لن أرسل جثة الى السجن .

انه لطيف القول ، لكن حلقه شديد الاتساع .يبدو مدثرا بجديد الثياب ، لكنه من الداخل خلق الشعار[2] .

فلو أنه لبس هذا الثوب ليتخذ منه أداة للمكر ، فهو عارية اتخذها ليخدع عامة الخلق .

٦٧- فلتعلم – أيها الرجل الطيب – أن لفظ الحكمة على لسان غير الحكيم ليس الا حللا مستعارة .

فاللص قادر على أن يرتدى الحلة ، لكن كيف يستطيع ذلك المقطوع اليد أن يأخذ بيدك ؟

وحين أقبل المساء ، نزل المقلس عن الجمل . فقال له الكردى ، ان منزلى بعيد ، وقد تأخر الوقت .

لقد ركبت جملى منذ الصباح . وقد سامحتك في الشعير ، فهل أقل من أن تدفع لى ثمن التبن ؟

---

(١) الشطر الثانى من البيت ترجم على اساس رواية مختلفة عن رواية النص ، ذكرها نيكولسون في حاشية النص ووجدناها أقرب الى السياق . ونص الشطر الثانى في هذه الرواية هو : «جونكه بينيدش كره محكم كنيد» .

(٢) نص الشطر الثانى من البيت يبدو غامض المعنى . ولكننا لو قرأناه على النحو التالى : « بادثار ذو شعار شاخ شاخ » اتضح المعنى . وقد جعلنا هذه القراءة اساسا للترجمة . وبهذا ينسجم معنى البيت مع ما يليه .

فقال المفلس : « وفيم كنا ندور حتى الآن ؟وأين عقلك ؟ أليس في الدار أحد ؟ »

٦٧٥ لقد بلغ طبل افلاسي أجواز السماء السابعة ، وأنت لم تسمع قط بسوء تلك الواقعة ؟

فالطمع الساذج قد سد منافذ أذنيك ، وانه ــ يا بنى ــ ليصم ويعمى !

فحتى اللَّبِنات والأحجار قد سمعت هذا البيان (الذى أخـذ يردد) : « ان هذا ان العربيد مفلس خاوى الوفاض » .

لقد هتفوا بهذا النداء حتى المساء ، لكنه لم يطرق سمع صاحب الجمل ، لأنه كان ممتلئا حافل النفس بالطمع .

ان الله قد ختم على الأسماع والأبصار ! وكم من الصور ، وكم من الأصداء وراء الحجب !

٦٨٠ وهو الذى يوصل الى العين ما يشاء من الجمال ومن الكمال ومن نظرات المحبة .

وهو الذى يوصل الى الاذن ما يشاء من الأنغام والبشائر أو من الصراخ .

ان الكون ملىء بالوسائل ولكنك تبقى بدون حيلة ، ما لم يفتح الله لك منفذا اليها .

ومع أنك قد تكون الآن غافلا عن تلك الحيلة ، فان الله يظهرها لك عيانا في وقت الحاجة .

ولقد قال الرسول ان الاله المجيد ، قد خلق لكل داء دواء .

٦٨٥ لكنك ــ بدون أمره ــ لا تستطيع أن تهتدي الى لون دواء علتك ولا رائحته .

فتنبه ــ أيها الباحث عن العلاج ــ ووجه عينك نحو اللامكان ، كما تتوجه عين القتيل نحو الروح .

ان هذا العالم قد انبثق من اللامكان . ذلك لأنه من اللامكانية صار لهذا العالم مكان .

فلتعد ثانية من الوجود نحو العدم ان كنت ربانيا ، طالبا ربك .

ان هذا العدم هو مكان الدخل ، فلا تحد عنه ! أما هذا الوجود المبنى على الزيادة والنقص فمكان الانفاق .

٦٩٠ وما دام العدم هو مقرّ مصنع الحق ، فكل ما كان خارج هــذا المقر فليس بذى قيمة .

فلتلهمنا بعض الكلام الدقيق ، الذى يستدرّ منك الرحمة ، أيها الاله الرفيق !

فالدعاء منك ، والاستجابة أيضا منك . والأمان منك والهيبــة أيضا تكون منك .

ولو نطقنا بالخطأ فأصلح أخطاءنا ، فانك أنت المصلح ، يا سلطان الكلام .

ان لديك الكيمياء التى تبدل جوهره ، فلو كان نهرا من الدمــاء لجعلته نيلا !

٦٩٥ ومثل هذه الأفعال الكيماوية بعض قدراتك ، كما أن أمثال هذا الاكسير من أسرارك .

لقد مزجت الماء بالتراب ، ومن الطين والماء صــوّرت جســد الانسان .

ثم أعطيته نسبا ، وخالا وعما ، وألفا من الأفكار وسرورا وهما !
ثم وهبت بعض الناس الخلاص ، ويسرت لهم البعد عن الهم والسرور .
وحملتهم بعيدا عن الأهل والأقارب ، وعن طبيعتهم الذاتية ،وجعلت كل جميل (في الدنيا) يبدو في أعينهم قبيحا !
٧٠٠ فكل من هؤلاء كان يرفض كل محسوس ، ولا يستمسك الا بما خفى (عن الحواس) .
فعشقه ظاهر ، وأما معشوقه فمحتجب . والحبيب في الخارج ، وأما الافتتان به ففى هذه الدنيا .
فلتتحرر من كل تعشق للصور ، حتى لا يكون لك تعشق لصورة ، ولا لوجه امرأة .
فالصورة ليست هى المعشوق ، وسواء في ذلك أكان العشق دنيويا أو أخرويا .
فذلك الذى تعشقته من أجل صورته ، لماذا تخليت عنه حينما فارقته الروح ؟
٧٠٥ ان الصورة لم تبرح مكانها ، فلماذا هذا الانصراف ؟ أيها العاشق! ألا فلتعد الي البحث عن معشوقك الحق !
فلو كان المعشوق هو ذلك المحسوس ، لكان كل ذي حس عاشقا له .
ومن شان العشق أنه هو الذى يزيد الوفاء ، فكيف يتحول الوفاء ويتخذ صورة أخرى ؟
ان نور الشمس قد أشرق فوق جدار ، فاكتسب الجدار منها

نورا مستعارا .

فكيف سخرت قلبك لجدار من اللبن ، أيها الغر ؟ ألا فلتطلب الأصل الذى يضىء على الدوام .

٧١٠ وأنت ، ايها المتعشق لعقله ، يا من رأيت نفسك أعظم من عبّاد الصورة !

اعلم ان نور حسك قبس مستعار من نور العقل الكلى . انه ذهب أشرق فوق نحاسك .

ان الجمال في البشر كقشرة التذهيب . والا فكيف صارت فاتنتك قبيحة كالحمار الهرم ؟

لقد كانت شبيهة بالملك ، فأصبحت مثل الشيطان ! ذلك لأن جمالها كان مستعارا (ولم يكن من جوهرها) .

ان الخالق يأخذ هذا الجمال رويدا رويدا . وهكذا الغصن يمضى نحو الذبول رويدا رويدا .

٧١٥ فاذهب ، واقرأ قوله تعالى : « ومن نعمره ننكسه في الخلق [1] » ، واطلب القلب ، ولا تتلهف على العظام .

فجمال القلب جمال خالد ، شفتاه تسقيانك من ماء الحياة .

بل انه هو الماء ، وهو الساقى ، وهو الثمل . فهذه الثلاثة تغدو واحدا حينما يتحطم طلسمك .

وانك لن تدرك هذه الوحدة عن طريق القياس . فابذل خضوعك ، وأقلل من الهراء ، أيها الخاوي من العرفان !

---

(١) يس ، ٣٦ : ٦٨ .

ان المعنى ــ عندك ــ ليس الا صورة مستعارة ، وما ابتهاجك الا بانسجام ظاهرى شبيه بالقافية .

٧٢٠ فالمعنى هو الذى يستولى عليك ، ويجعلك بدون حاجة الى الصورة .

وليس المعنى هو الذى يجعل الانسان أعمى أصم ، ويزيد المرء تعشقا للصورة .

ان نصيب الأعمى هو ذلك الخيال الذى يضاعف الهموم .

أما نصيب العين فتلك الخيالات المنبعثة من فناء الذات .

وحروف القرآن هى الجوهر عند من فقدوا الابصار . فهؤلاء لا يرون الحمار ، ويوجهون ضرباتهم الى السرج .

فان كنت بصيرا فامض وراء الحمار ، فقد فرّ . والا ، فالى متى تحيك السرج ، يا عابد السرج !

٧٢٥ فما دام الحمار موجودا ، فالسرج يكون لك يقينا . فالخبز لن ينقطع عنك ما دمت ذا روح .

ان ظهر الحمار دكان ومال وربح! ودرّ قلبك هو الذخيرة لمائة من الأجساد !

فلتركب حمارا عارى الظهر ، يا أبا الفضول . أولم يمتط الرسول حمارا عاري الظهر ؟

ان الرسول قد ركب الحمار بلا سرج . بل انه أيضا قد سافر ماشيا .

لقد هرب حمار نفسك فاربطه في وتد . والا فالى متى يهرب من العمل وحمل الاثقال .

٧٣٠ ان عليه ان يحمل أعباء الصبر والشكر ، سواء أدام ذلك مائة عام أو ثلاثين أو عشرين .

وما حمل وازر قط وزر غيره . ولا حصد انسان شيئا قط اذا لم يزرع .

فهذا[1] طمع فجّ . فلا تأكل الفج يا بنى ، فان أكل الفج مسبب لاعتلال البشر .

(ولا تحدّث نفسك قائلا) : ان فلانا قد عثر بأحد الكنوز ،وانى أريد ذلك أيضا ، فلا عمل ، ولا دكان ! »

فذلك شأن الحظّ ، وهو أيضا نادر . فالكسب واجب ما دام الجسم قادرا .

٧٣٥ ومتى كان التكسب مانعا للكنز ؟ فلا تنسحب من العمل ، فالكنز ذاته في أعقاب ذلك .

ولا تغد أسيرا للفظة « لو » ، قائلا : « لو أننى فعلت هذا أو ذاك » .

فان الرسول رب الوفاق قد نهى عن قول « لو » ، وذكر أنها صورة من النفاق .

فالمنافق الذى قد لقى حتفه وهو يقول « لو » ، لم يظفر بسوى الحسرة من هذا القول .

مثل

- كان غريب يفتش في عجلة عن منزل يقطنه ، فأخذه صديق الى منزل خراب ،

---

(١) الاشارة هنا الى توقع الحصاد بدون زرع .

٧٤٠ وقال هذا الصديق : « لو أن هذا المنزل كان له سقف ، لكــان لك مسكن في جواري ،

وكان عيالك أيضا يستريحون فيه ، لو كانت في وسطه غرفــة أخرى » .

فقال الغريب : « نعم ، ان من الخير أن يكون المرء بجوار أصحابه. لكن أحدا ـ يا حبيبى ـ لا يستطيع أن يقيم في (لو) » .

ان جملة أهل الدنيا طلاب للسعادة. لكنهم في حجيم من الحرص على السعادة الزائفة .

وجملة الشيوخ والأحداث قد أصبحوا طالبين للذهب ، لكن أعين العامة لا تميز الذهب الأصيل من الزائف .

٧٤٥ ان الذهب الخالص قد أضفى التماعا على الزائف . فلا تتخير الذهب على أساس من الظن ، بدون محك .

فان كان لديك محك فامض في اختيارك ، والا ، فاقصد عالمــا واجعل نفسك رهن اشارته .

فلا بد لك من محك في حنايا روحك ، فان لم تكن تعلم ، فــلا تمض في الطريق وحيدا .

ان صوت الغيلان يكون صوتا مألوفا . وتلك الألفة هى التــى تجتذبك نحو الفناء !

انه صوت ينادى قائلا : « حذار أيتها القافلة ! تقدموا نحوى . هاكم الطريق والصُّوَى[1] .

(1) جمع صوة ، أحجار تكون دليلا على الطريق .

٧٥٠ ان الغول ينادي كل شخص باسمه قائلا : « يا فلان » ، حتى يجعل
هذا السيد من الآفلين .
فحين يصل الى هناك يرى الذئاب والأسود . ويرى العمر ضائعا
والطريق بعيدا ، والوقت قد تأخر .
فلتخبرني ، كيف يكون صوت الغول ؟ انه « أريد المال ، أريد الجاه
والرونق ! »
وهذه الأصوات تزأر في باطنك . فلتمنعها ، حتى تتكشف لـك
الأسرار .
ولتذكر الله ، ولتبدد أصوات الغيلان ، ولتحجب نرجس عينيك
عن هذا النسر (الجارح)[1] .
٧٥٥ ولتميز كاذب الاصباح من صادقة . ولتفرق بين الكأس ولـون
النبيـذ .
فعساك ـ بالصبر والمثابرة ـ ينبثق لك بصر روحي من هاتيـن
العينين ، اللتين تبصران الألوان السبعة .
فترى بهما ألوانا غير هذه الألوان . وتبصر بهما الجواهر بـدلا
من الأحجار .
بل ما شأن الجواهر ؟ لعلك تصبح بحرا ، أو لعلك تصير شمسا
تذرع الفلك !
ان الصانع قد احتجب في مصنعه ، فادخل في هذا المصنع تـر
الصانع عيانا .

(١) يشبه الاطماع التي تحجب الابصار بنسر جارح يعدو على العيون فيقتلعها بمخالبه .

٧٦٠ ولما كان الصنع قد نسج ستاراً حول الصانع ، فانك لن تستطيع أن تراه خارج صُنعه .

ولما كان المصنع هو محل وجود الصانع ، فكل من كان خارجه فقد غفل عن الصانـــع .

فلتدخل في هذا المصنع ، وأعنى به العدم ، حتى ترى الصنـــع والصانع معا .

ولما كان المصنع هو مكان الشهود الواضح ، ففي خارجه يكون احتجاب الأبصار .

ان فرعون العنيد قد اتجه الى تأكيد هذا الوجود المحسوس ، فلا جرم أنه كان أعمى عن ذلك المصنع .

٧٦٥ ولا جرم أنه أراد تغيير القدر ، حتى يحول القضاء عن بابه !

على حين كان القضاء ذاته يكتم في كل لحظة سخريته من شوارب ذلك المحتال !

لقد قتل الآلاف من الأطفال الأبرياء ، حتى يتحول عنه حكـــم الاله وتقديره !

لقد ارتكب الآلاف من المظالم واراقة الدماء ، حتى لا يظهر في الدنيا موسى الرسول .

لقد أراق كل هذا الدم ، ومع ذلك ولد موسى ، وجيء به الى الدنيا لقهر فرعون .

٧٧٠ ولو أنه كان قد أبصر مصنع الاله الخالد ، لجمدت يداه وساقـــاه عن اصطناع الحيلة .

فقد كان موسى ينعم في منزل فرعون بالعافية ، على حين كان

فرعون في الخارج يقتل الأطفال جزافا !

وهكذا يكون صاحب النفس الأمارة الذى يبالغ في رعايـــة الجسد ، ويظن بسواه ظن الحقد والضغينة .

قائلا : « ان هذا عدو ، وذاك حسود بغيض ! » وليس له مـن حسود ولا عدو سوى ذلك الجسد .

انه مثل فرعون ، وجسمه يكون له بمثابة موسى ، وهو يعـدو في الخارج هاتفا « أين العدو ؟ »

٧٧٥ ونفسه الحسية تقبع مدلله في منزل البدن ، على حين أنه يعـض يده في حقده على غيره !

كيف لام الناس شخصا على قتل امـه لاتهامه اياها بالزنـى

ان الحنق قد دفع ذلك الشخص الى أن يقتل أمه ، وذلك بطعنات خنجره ، وضربات قبضته !

فقال له أحد الناس : « انك لخبث جوهرك لم تتذكر ما للأمومة من حق عليك !

لماذا قتلت أمك ؟ خبرنى . قل لى ماذا صنعت ، أيها الخبيث الطبع ! »

فقال القاتل : « لقد فعلت أمرا فيه عارها ، فقتلتها لأن في التراب سترا لها » .

٧٨٠ فقال : « فلتقتل ذلك الرجل ، أيها الهمام ! » فقـال القاتـل : « سيكون على اذن أن أقتل كل يوم رجلا !

لقد قتلتها فخلصت من دماء الخلق ! لقد قطعت حلقها ، وذلك
خير من ضرب أعناق الخلق ! »
ان نفسك الحسية هي تلك الأم الخبيثة الطباع ، التي شاع
فسادها في كل ناحية .
فلتقتلها ، فانك من أجل هذه النفس الدنيئة تعتدى في كل لحظة
على عزيز .
وبها أصبحت هذه الدنيا الجميلة ضائقة بك . ومن جرائها ، لك
مع الحق ومع الخلق صراع !
٧٨٥ فلو أنك قتلت النفس الحسية لخلصت من الاعتذار ، ولم يبق
لك عدو في هذه الدنيا .
فلو أن أحدا أثار حول قولنا هذا اشكالا فيما يتعلق بالأنبياء
والأولياء ،
قائلا : « ألم تكن النفس الحسية قتيلة عند الأنبياء ؟ فلماذا كان
لهؤلاء أعداء وحساد ؟ »
فلتصغ الآن يا طالب الصواب ، ولتستمع الى ما لمشكل هذه
الشبهة من جواب :
ان هؤلاء المنكرين كانوا أعداء لأنفسهم . ولهذا فقد وجهوا الى
أنفسهم مثل هذه الضربات .
٧٩٠ فالعدو هو الذى يتهجم على روح سواه ، وليس بعدو من تصدى
لذات روحه .
فالخفاش الحقير ليس عدوا للشمس . لكنه في حجابه عدو لنفسه!
فاشراق الشمس هو الذى يقتله ، ولكن ، هل كانت الشمس

تتحمل منه قط عناء ؟

ان العدو هو ذلك الذى يجيء منه العذاب . انه ذلك الذي يحجب عن العقيق ضياء الشمس .

وجميع الكافرين هم حاجبو أنفسهم عن ذلك الشعاع الذي يفيض من جوهر الأنبياء .

٧٩٥ وكيف يكون الخلق حجابا لبصر ذلك الفريد (الملهم) ؟ ان هؤلاء قد أصابوا أعينهم بالعمي أو زيغ البصر .

انهم كالغلام الهندى الذى يحقد على سيده ، فيقتل نفسه ليغيظ هذا السيد .

فهذا يسقط فوق رأسه من سطح القصر ، وذلك ليلحق الأذى بسيده .

فلو أن المريض سلك سبيل العداوة مع الطبيب ، ولو أن الطفل وجه عداءه لمعلمه ،

فكلاهما في الحقيقة لا يقطع الطريق الا على نفسه ، وكلاهما يغلق أمام نفسه طريق العقل والروح .

٨٠٠ فلو أن غاسل الثياب غضب على الشمس ، ولو أن السمكة غضبت على الماء ،

فانظر أيا منهما يحيق به الضر ، وأيا تكون عاقبته سواد الطالع من جراء ذلك !

فان كان الحق قد خلقك قبيح الوجه ، فحذار ، ولا تجمع الى قبح الوجه قبح الطبع !

وان حرمك النعل فلا تمش في المحاجر ، وان كنت منشعبا شعبتين فلا تنقسم الى شعب أربع .

وانك لتجهر بالحسد قائلا : « أنا أقل من فلان ! ها هوذا طالعي يزداد انحدارا » .

٨٠٥ فالحسد ذاته نقصان وعيب آخر ، بل انه لأسوأ من جميع النقائص .

ان ذلك الشيطان – حين شعر بسوء السمعة والعار من تخلفه (عن آدم) – أوقع نفسه في مائة نقص وحرمان !

فالحسد قد جعله يطلب بلوغ القمة . ولكن أية قمة ؟ لعلها قمة اهراق الدماء !

وكذلك أبو جهل استشعر العار من تفوق محمد ، ودفعه الحسد الى أن يتعالى بنفسه الى القمة ،

وكان اسمه أبا الحكم فصار أبا جهل . وكم من فاضل جعله الحسد عديم الفضل !

٨١٠ واني لم أر في عالم السعي والطلب كفاءة قط خيرا من جمال الطبع .

ولقد جعل الله الأنبياء واسطة بينه وبين الخلق ، لكي يظهر ما كمن فيهم من الحسد ، بقلقهم (ازاء بعث الرسل) .

ذلك لأنه لا أحد يشعر بالعار من الخضوع لله ، وما من مخلوق على الأرض يكون حاسدا للخالق .

فالانسان يظن الرسول شخصا شبيها به ، ولهذا السبب فانه يحمل له الحسد .

أما وقد أصبحت عظمة الرسول من الأمور المقررة ، فانها لم تعد تثير الحسد في نفس انسان ، بعد أن لقيت منها القبول .

٨١٥ وليس يخلو أي دور من ولي قائم . وسيبقى امتحان الخلق حتى القيامة .

وكل من كان له طبع حميد فقد نجا ، وأما من كان ذا قلب هش كالزجاجة فقد تحطم .

فالامام الحي القائم هو ذلك الولي ، سواء أكان من نسل عمر أم من نسل عليّ .

انه المهديّ والهادي ، أيها الباحث عن الطريق ! وهو محتجب عنك ، وفي ذات الوقت جالس في مواجهتك !

وهو مثل النور ،وأما العقل فهو له بمثابة جبريل . والوليّ الذي هو أدنى درجة منه كالقنديل ، يستمد منه النور .

٨٢٠ وأما ما هو أقلّ من هذا القنديل فمشكاتنا . وللأنوار درجات في مراتبها .

ذلك لأن نور الحق له سبعمائة حجاب . واعلم أنّ هذه الحجب شبيهه بطباق متعددة .

ووراء كل ستار مقام لقوم ، وكل قوم مصطفون وراء ستارهم (في تدرج) حتى الامام .

وأهل الصف الأخير ــ لضعفهم ــ لا تطيق أعينهم مواجهة النور الذي أمامهم .

أما أهل ذلك الصفّ السابق على ضعاف البصر ، فهم لا يحتملون التماع النور اذا زاد تقدمهم .

٨٢٥ والنور الذي هو حياة أول الخلق (وأعلاهم مقاما) يكون عناء لروح ذلك الأحول ، وفتنة له .

لكنّ الحول يتناقص قليلا قليلا ، فاذا ما تجاوز المرء الأستار السبعمائة أصبح بحرا .

فالنار التى بها صلاح الحديد أو الذهب ، كيف يكون بها صلاح السفرجل أو التفاح الرطب !

فللتفاح وللسفرجل كيان خفيف ، وهو ــ على خلاف الحديد ــ يتطلب نارا لطيفة .

لكن مثل هذه الشعلات تكون ضعيفة بالقياس الى الحديد ، فانه جاذب للهيب ذلك التنين .

٨٣٤ وذلك الحديد هو الدرويش الذى يتحمل المشاق . وهو تحت المطرقة والنار أحمر الوجه سعيد !

فهو حاجب النار ، يغشاها بدون واسطة ، ويخوض في قلبها ، من غير أن تربطه بها رابطة .

ان الماء وأبناء الماء لا ينالون من النار ــ بدون حجاب ــ طبخا ولا جدوى .

وهذا الحجاب يكون قدرا أو طاسا ، كما أن النعل وسيلة السير للقدم .

أو يكون مكانا بين النار والماء حتى يغدو الهواء ساخنا ، ويحمل الحرارة الى الماء .

٨٣٥ فالفقير هو ذلك الذى يكون بلا واسطة ، فيكون للنيران اتصال مباشر بكيانه .

فهو قلب العالم ، الذى بوساطته يتحقق للجسد أداء مهمته بفن .

ولو لم يوجد القلب ، فكيف كان الجسد يعرف القيل والقال ؟

ولو لم يبحث القلب فهل كان الجسد يعرف البحث والتحرى ؟

فموضع شهود الشعاع هو ذلك الحديد . وموضع شهود الله هو

القلب لا الجسد .

وهذه القلوب الجزئية أيضا ـ اذا قيست بقلب العارف ـ تبدو شبيهة بالأجساد ، فقلب العارف هو المعدن الصافي .

٨٤٠ ان هذا الكلام يتطلب الكثير من الأمثلة والشرح ، لكنني أخشى ـ (لو طال الكلام) ـ أن تتعثر أوهام العوَام .

وقد تصبح من جرائه كل محاسننا مثالب ! وهذا الذى قلتـه لم يكن الا عن تجرد من الذاتية .

فخير للقدم الأعوج أن يكون نعله أعوج . وما للمتسول من مكان الا عند الباب .

كيف امتحن الملك هذين الغلامين اللذين كـان قد اشتراهما قبل فترة وجيزة

ان الملك اشترى غلامين فاضلين ثم أخذ يكلم أحدهما ، ويستمع اليه .

فوجده ذكيّ القلب ، حلو الجواب . وما الذى ينبع من الشفة السكرية ؟ انه السكر المذاب !

٨٤٥ فالمرء مخبوء وراء لسانه . وما هذا اللسان الا الستار الذى يحجب بهو الروح .

فاذا ما عصفت الريح بهذا الستار ، تجلى لنا ما كمن في صحن الدار .

وهل بها جوهر أو قمح ، أو كنز من الذهب ؟ أم أنها مثوى للحيات والعقارب ؟

أم أن بها كنزا والى جانبه ثعبان ؟ ذلك لأن كنز الذهب لا يكـون بدون حارس .

لقد كان هذا الفتى يلقى الكلام بدون تأمل ، مثلما يلقيه سواه اذا تأمل خمسمائة مرة .

٨٥٠ فكأنما كان في باطنه بحر ، وهذا البحر كله كان يقذف بالجوهر !

وكأنما نور كل جوهرة انبثقت منه كان فرقانا بين الحق والباطل !

وهكذا نور الفرقان بالنسبة لنا . انه يفصل الحق عن الباطل ذرة ذرة .

ولقد صار نور الجوهر نورا لأعيننا . فكان منا السؤال وكذلك كان منا الجواب .

فان نظرت بعين حولاء رأيت القمر قمرين . فهذا النظر المشتبه مثل السؤال .

٨٥٥ فسدد بصرك نحو القمر ، لتراه واحدا ، وهذا هو الجواب .

وقل لفكرك : « لا تكن منحرف الابصار ، بل أحسن التأمل ! »

فالفكر هو شعاع ذلك الجوهر .

فكل جواب دخل الى القلب عن طريق الأذن تقول لك عنه العين :

« دعك من هذا ، واستمع اليّ ! »

فالأذن سوقية ، وأما العين فأهل للوصال . العين من أصحاب الحال ، وأما الأذن فمن أهل المقال .

وفي استماع الاذن تبديل الصفات . وأما شهود العين ففيه تبديل الذات !

٨٦٠ فلو أن علمك بالنار أصبح يقينا من قول (سمعته عنها) فأولـى بك أن تصلاها ، لا أن تلزم هذا اليقين .
فما لم تحترق فانك لن تعاين اليقين . وان أردت اليقين فاجلس في صميم النار !
والأذن حين تكون متفتحة تغدو عينا . والا فان الذكر يغدو بهـا ملتويا ، غامضا .
وليس لهذا الحديث نهاية ، فلتعد لنرى ماذا كان من أمر الملك مع غلمانه .

كيف صرف الملك واحدا من غلاميه وساءل الآخر

ان الملك ــ حين رأى هذا الغلام من أهل الذكاء ــ أشار الـى الغلام الآخر أن يتقدم نحوه .
٨٦٥ وليس ذكرى الغلام بكاف[1] الرحمة تصغيرا له . فقول الجَد : « يا بنيّ » ليس من قبيل التحقير .
وحين مثل ذلك الغلام الآخر أمام الملك ، كان نتن الفم أسـود الأسنان .
ومع أن الملك قد ضاق بأنفاسه النتنة ، فانه أخذ يستجلي خفيّ أسراره .
فقال له : « نظرا لما أنت عليه من شكل (زريّ) ، وخبث أنفاس، اجلس بعيدا ، ولكن لا تنصرف !

(١) اشار الشاعر الى الغلام في البيت السابق بكلمة « غلامك » والكاف التي تلحق بآخر الاسم في الفارسية تفيد التصغير او الرثاء .

فانك لى كاتب ومحرر ، ولست لى جليسا وصاحبا ورفيقا .

٨٧٠ وانى لمحدث علاجا لفمك هذا ، فأنت لى حبيب ، وأنا لك خير طبيب .

فليس بلائق أن يحرق بساط جديد من جراء برغوث ، فهذا منك اغلاق للعين .

فمهما يكن فلتجلس ، ولتحدثنا بقصتين أو ثلاثا ، حتى نرى بجلاء صورة عقلك » .

ثم صرف غلامه الذكى الى ما يشغله ... الى حمام ، وأمره بأن ينظف جسده .

ثم قال للغلام الآخر : « وأنت أيها الذكى . انك بحق مائة غلام ، لا غلام واحد !

٨٧٥ انك لست كما اظهرك لنا رفيقك هذا ! فهذا الحسود قد جعلنا نلقاك ببرود !

لقد قال عنك انك لص ، منحرف سيء السيرة ، خسيس عديم الرجولة ، الى غير ذلك من الصفات » .

فقال الغلام : « لقد كان دائما صادق القول . وانى لم أر مثيلا له في صدق القول !

وصدق القول خلق راسخ في جبلته . فمهما يكن من قوله فليس بخال من الصدق .

ولست أعلم اعوجاجا عند هذا النزيه الفكر . بل انى ازاءه لأتهم ذاتى !

٨٨٠ فلعله يرى بى عيوبا لا أراها أنا في ذاتى ، أيها المليك ! » .

وكل من أبصر عيوبه قبل عيوب الآخرين ، كيف يبقى لاهيا عن اصلاح ذاتــه ؟

فهؤلاء الخلق غافلون عن أنفسهم ، أيها الوالد . فلا جرم أن كــلا منهم مشغول بعيب سواه .

انني ــ أيها السَّنيّ ــ لا أرى وجهى ، بل أرى وجهك وأنت ترى وجهى .

وأما ذلك الشخص الذى يرى وجه ذاته ، فنوره أجلى من نور مخلوقات الله !

٨٨٥ فان يمت فابصاره يظل باقيا ، ذلك لأن بصره يكون بصر الخالق.

فليس من الحس ذلك النور الذى يبصر به وجه ذاته ماثلا أمامه .

قال الملك : « الآن فلتذكر لى عيوب رفيقك ، ولتفعل مثلما فعل حين حدثنى بعيوبــك .

وذلك لأعلم أنك رؤوف بى ، وأنك أمين على ملكى وأعمالى » .

فقال الغلام : « أيها الملك . انى ذاكر لك عيوبه ، مع أنه بالنسبــة لى نعم الرفيــق !

٨٩٠ ان عيوبه هى الحب والوفاء والرجولة ! عيوبه هى الصدق والذكاء والوفاق !

وأقل عيوبه الجود والانصاف ، ذلك الجود الذى لا يضنّ حتى بالروح !

ان الخالق هو الذى أبدع الألوف من الأرواح ، فأىّ جود يكون عند من لم يبصر ذلك ؟

فان أبصرها فمتى كان يبخل بالروح ؟ وكيف كان يغتم حزنا على روح واحد ؟

ان الذى يبخل بالماء عند شاطىء النهر ، هو ذلك الذى لا يبصر الماء في النهر .

٨٩٥ ولقد قال الرسول : ان المرء لو علم علم اليقين ما يكون لهمن جزاء يوم الدين ،

وأنه يجزى عن كل حسنة بعشرة أمثالها[١] ، لا نبعث منه في كل لحظة جود جديد[٢] .

ان الجود جميعه منبعث من رؤية الجزاء ، فادراك الجزاء اذن مضاد للخوف (والحرص) .

وأما البخل فهو عجز عن ابصار الجزاء . ان رؤية الدر هى التى تسعد الغواص .

وعلى هذا فان العالم ليس فيه من هو بخيل ، فان أحدا لا يقامر بشىء لا يرجو له بديلا .

٩٠٠ فالسخاء يأتى من العين لا من اليد . والرؤية هى التى تنفع ، وليس بناج سوى البصير .

« (ولرفيقى) عيب آخر هو أنه برىء من الغرور . وهو دائم البحث عن العيب في كيانه الذاتى .

انه دائما يعيب ذاته ويتقصى عيوبها . وكان دائما رحيما بجميع الناس قاسيا على نفسه » .

فقال الملك : « كفاك مغالاة في مدح رفيقك ! ولا تمتدح ذاتك في سياق مدحك اياه !

(١) انظر : سورة الأنعام ، ٦ : ١٦٠ .
(٢) لم أعثر على نص الحديث الذى يشير اليه الشاعر .

فلسوف أضعه موضع الاختبار ، ولربما يعتريك الخجل من جراء ذلك » .

كيف أقسم الغلام ـ لطهر ظنه ـ على صدق رفيقه ووفائه

٩٠٥ فقال الغلام : « لا وربىّ ! أقسم بالله العظيم ، مالك الملك الرحمن الرحيم .

ذلك الاله الذى أرسل الأنبياء ، لا لحاجة يبتغيها ، بل بفضل وكبرياء .

ذلك الاله الذى خلق من التراب الذليل فرسانا مغاوير !

وطهرهم من مزاج أبناء التراب ، وجعلهم يرتقون فوق عوالم الأفلاك !

والذى خلق النور الصافى مجردا من النار ، فاذا به يتفوق على كافة الأنوار ،

٩١٠ ذلك النور البارق الذى أشرق على الأرواح ، فاذا بآدم يقتبس منه العرفان .

وقد حصدت يد شيث ما أنبته آدم ، فلما رأى آدم ذلك أسند اليه خلافته .

ونوح أيضا كان بتلك الجوهرة جديرا ، فكم كان يمطر الدر فى جواء بحر الروح !

وروح ابراهيم قد حفلت بتلك الأنوار الهائلة فخاضت لهيب النيران بدون خوف أو حذر .

واسماعيل ـ اذ كان قد ارتمى في مجرى هذه الأنوار ـ أسلم رأسه الى النصل البارق (في كف أبيه) .

٩١٥ وروح داوود حميت بشعاع تلك الأنوار ، فلان الحديد في يده ، وكانت في النسيج صناعا[١] .

وسليمان اذ شب على وصال تلك الأنوار ، أصبحت الجن طائعة له ، عبيدا لأمره .

ويعقوب اذ أسلم للقضاء رأسه ، رد لعينيه النور بشذى ولده !

ويوسف البدرى المحيا حين رأى تلك الشمس ، أصبح هكذا يقظ الفؤاد في تعبير الرؤيا .

والعصا حين شربت الماء من كف موسى بلعت في لقمة واحدة ملك فرعون !

٩٢٠ وعيسى بن مريم حين وجد سلما الى هذه الأنوار ، سارع الى أفق السماء الرابعة .

وحين تحقق لمحمد ذلك الملك والنعيم ، شق في لحظة قرص القمر نصفين .

وأبو بكر حين صار آية للتوفيق ، أصبح صاحبا لمثل هذا المليك، وصديقا .

وحينما أصبح عمر ثملا بهذا المعشوق ، غدا مثل القلب فاروقا بين الحق والباطل .

وعثمان اذ أصبح شاهدا لهذا العيان ، غدا نورا فياضا ، وسمى بذى النورين .

---

(١) اشارة الى براعة داوود في صناعة الدروع من زرد الحديد .

٩٢٥ والمرتضى (علىّ) حين أصبح ـ بفضل شهود محياه ـ بالغ الجود[1] ، صار في مرج الروح أسد الله .

والجنيد حين رأى من جنده ذلك المدد ، أضحت مقاماته أكثـر من أن تعدّ .

وبايزيد قد أبصر الطريق بمزيد (عرفانه) ، فأسماه الحق بقطب العارفين !

وحينما أصبح الكرخى حارسا لمدينته ، صار خليفة العشق وغدا ربانىّ الأنفاس .

وابن أدهم ساق مركبه سعيدا نحو هذا الجانب ، فأصبح لسلاطين العدل سلطانا .

٩٣٠ وشقيق حين شق ذلك الطريق العظيم ، صار شمس الرأى وغدا حديد البصـر .

وما أكثر من احتجب عنا من هؤلاء الملوك ، مع أنهم من ذوى المقامات العالية ، في ذلك العالم الروحى !

ولقد حجبت غيرة الحق أسماء هؤلاء ، ولهذا فان أهل الفـاقة الروحية لا يهتفون بتلك الأسماء .

فبحق ذلك النور ، وبحق هؤلاء النورانيين ، الذين هم كالأسماك في هذا البحر ...

هذا البحر الذى لو أسميته « بحر الروح » أو « روح البحر » ما وفيته حقه . وانى لملتمس له اسما جديدا !

٩٣٥ بل بحق من أخرج الى الوجود هذا وذاك ، ومن تكون الألباب

---

(١) حرفيا : « ناثر الدر » .

بالنسبة اليه مثل القشور ...
ان صفات رفيقي وصديقي هذا ، أفضل مائة مرة مما أقوله عنها !
بل ان ما اعرفه عن وصف ذلك النديم ، لن يتسنى لك تصديقه ، ان ذكرته لك ، أيها الكريم » .
فقال الملك : « الام تحدثني بهذه الصفة أو تلك من صفات رفيقك ؟ ألا فلتحدثني الآن عن نفسك .
ماذا تملك ، وماذا حصّلت ؟ وأي درّ قد جلبته من أعماق البحر؟
٩٤٠ ففي يوم الموت يغدو حسّك هذا باطلا ، فهل لدى روحك نور يكون رفيقا لقلبك ؟
وحين يملأ التراب في اللحد هاتين العينين ، هل لديك ما ينير لك القبر ؟
وحينما تتمزق يداك وقدماك ، أتكون لك قوادم وخوالف تحلق بها روحك ؟
فما دام هذا الروح الحيواني لا يبقى لك ، فمن الواجب أن ترسي كيان روحك الباقي .
والشرط في قوله تعالى « من جاء بالحسنة[1] » ليس الفعل في ذاته ، بل هو تقديم الفعل الى الله .
٩٤٥ وهل لديك جوهر انسان أو حمار ؟ وكيف تحمل هذه الأعراض الفانية (الى الخالق) ؟
فهذه الأعراض من صلاة وصيام ، ما دامت لا تبقى زمانين فقد انتفت .

---

(١) انظر : سورة الأنعام ، ٦ : ١٦٠ .

فلست بمستطيع ان تنقــل الأعراض ، لكنها تنقى الجوهر من الأمراض .

فيتبدل الجوهر بهذه الأعراض ، كما تزول بالحمية الأمراض .

وان عرض الحِمية ليغدو بالجهد جوهرا ، كما يغدو الفم المر بالحمية حلوا كالشهد .

٩٥٠ فالزراعة تجعل من التراب سنابل . ودواء الشعر يجعل من الشعر سلاسل .

ونكاح المرأة كان عرضا وقد انتهى ، ولكن جوهر الأبناء قــد تحقق لنا عن طريقه .

وتزاوج الخيل والجمال ليس الا عرضا ، والغرض منه انجــاب الصغار ، وهذا هو الجوهر .

وزراعة البستان أيضا هى عرض ، وأما الجوهر فحصاد البستان ، وهذا هو الهدف .

واعلم أن ممارسة الكيمياء لون من الأعراض ، فاذا تحقق منهــا جوهر فحصله .

٩٥٥ والصقل أيضا عرض ، أيها الكريم ! ومن هذا العرض يتــولد الجوهر صافيــا .

فلا تقل : « انني قد قدمت أعمالا » ، بل أظهر حصــاد هــذه الأعراض ، ولا تحد عن ذلك .

فهذه الأعمال الموصوفة عرض ، فالزم الصمت ، ولا تذبح ظــل العنزة لتقدمه قربانا ! »

فقال الغلام : « أيها الملك ! ان قولك بامتناع نقل الأعــراض لا يحقق الا قنوط العقل .

أيها الملك . ان كانت الأعراض التى ذهبت لا تعود ، فليس أمـــام العبد الا اليـــأس .

٩٦٠ فلو لم يكن للأعراض انتقال وحشر ، فما الأفعال الا باطل ومـــا الاقوال الا هراء[1] .

ان هذه الأعراض تنتقل ولكن بلون آخر . وحشر كل فان يكون بصورة مختلفة .

ونقل كل شيء يكون على ما يليق به . وليس يلائم القطيع الا سائقه .

فلكل عرض صورة في يوم الحشر . وصورة كل عرض لها دورها (في الظهور) .

وانظر الى ذاتك . أولم تكن أنت أيضا عرضا ؟ أولم يكن كذلك الميل الى النكاح ، ثم النكاح بما ينطوى عليه من غرض ؟

٩٦٥ وانظر الى تلك الديار والقصور . ألم تكن هذه في ذهن المهندس خيالا ؟

فهذه الدار التى نراها جميلة ، متوازنة الصفة والسقف والباب ، كانت عند المهندس خيالا عارضا ، وفكرا جلّب من أصحاب الحرف الآلة والعمد .

وما أصل كل حرفة وأساسها ؟ انه ليس سوى خيال ، ووهـــم عارض وتفكر .

فانظر بتجرد الى جملة أجزاء العالم . وانظر كيف أنها لم تتحقق الا من العرض .

---

(١) استعمل الشاعر هنا كلمة « فشر » ، وهى شائعة في اللهجة المصرية الحديثة .

٩٧٠ فما كان في أول الأمر فكرا أصبح في النهاية عملا . واعلم أن بناء العالم جاء على هذا النحو منذ الأزل .
فالثمار تكون أول الأمر فكرا بالفؤاد ، لكنها ــ من الوجهة العملية ــ تظهر في النهاية .
فأنت حين عملت وغرست الأشجار ، كنت تطالع في الحرف الأول نهاية قصتك .
ومع أن أول الشجرة أصل وأغصان وأوراق ، فهذه كلها مرسلة من أجل الثمار .
فالسر الذى كان لباب هذه الأفلاك ، أسفر في النهاية عن سيد حديث « لولاك »[1] .
٩٧٥ فهذا البحث والمقال مثال لنقل الأعراض . وهكذا أيضا هذا الأسد وابن آوى .
لقد كان جميع أهل هذا العالم أعراضا ، وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى : « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا[2] » .
فمن أين تولدت هذه الأعراض ؟ من الصور ! وهذه الصور أيضا من أين تولدت ؟ من الفكر !
فهذا العالم ليس الا فكرة من العقل الكلى . فالعقل مثل المليك، وأما الصور فهى الرسل .

---

(١) يقصد الرسول عليه السلام الذى يرى الصوفية انه المقصود بالحديث القدسي القائل « لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك » .
(٢) الانسان ، ٧٦ : ١ .

والعالم الأول هو عالم الامتحان ، وأما العالم الثانى فعالم الجزاء على هذا وذاك .

٩٨٠ فخادمك ــ أيها الملك ــ يرتكب جناية ، فيصبح هذا العرض قيدا وسجنا .

واذا صنع خادمك فعلا حميدا ، أفلا يصبح هذا العرض خلعة ينالها جزاء لسعيه ؟

فهذا العرض مع الجوهر كالبيضة مع الطائر ، تلك تجيء من ذاك، وذاك يجيء من تلك ، على التوالى » .

فقال الملك : « فلنفترض أن هذا هو المراد . فلماذا لم تنجب أعراضك جوهرا واحدا ؟ »

فقال الغلام : « ان العقل (الكلى) قد أراد الخفاء لهذا ، حتى يبقى غيبا في عالمنا ، عالم الخير والشر !

٩٨٥ فانه لو كانت تتضح أشكال الفكر ، لما نطق الكافر والمؤمن الا بالذكر .

انه لو كانت هذه تتجلى ولا تحتجب ... لو كان نقش الكفر والدين يرتسم على الجبين ،

فهل كان يبقى في هذا العالم صنم أو عابد للصنم ؟ وهل كان انسان يجترىء على السخرية ؟

ولكانت دنيانا هذه كعالم القيامة . ومن ذا الذى يقترف الجرم والخطأ يوم القيامة ؟ »

فقال الملك : « ان الله قد حجب جزاء الاثم ، لكن هذا الحجاب مقصور على العامة ، ولا يمتد الى خواص الله .

٩٩٠ فلو أنني أوقعت في الأسر أميرا لأخفيته عن الامراء الآخريـــن ، وليس عن الوزير .

فالحق قد أظهر لى جزاء العمل ، كما كشف لى ألوفا من صور الأعمال .

فاذكر لى علامة واحدة ، أعلم منها كل شيء ، فان الغمام لا يحجب البدر عنى » .

فقال الغلام : « فما الذى تريده من قولى ، ما دمت عليما بكل ما كان ؟ » .

فقال الملك : « ان حكمة اظهار الدنيا كانت في جعل المعلوم عيانا ظاهرا !

٩٩٥ والخالق قبل ان يُظهر ما كان قد علمه ، لم يُلق على الخلق ألم المخاض وعناءه .

وانك لست بمستطيع أن تجلس لحظة واحدة بدون عمل . بدون أن ينبثق منك شر أو خير .

وهذه الدوافع الى الأعمال انما هى موكلة بك لتجعل من ســرك عيانا .

فأنى يتحقق السكون « لبكرة الخيط » التى هى الجسد ، حينما يكون الضمير هو الذى يجذب طرف الخيط ؟ .

والقلق الذى تعانيه هو علامة ذلك الجذب . وان خلوك من العمل ليكون عندك شبيها بنزع الروح .

١٠٠٠ فهذا العالم وذلك العالم يلدان على الدوام . وكل سبب أم ، وهذه تلد الأثر .

وحينما يولد الأثر يصبح هو الآخر سببا ، حتى تتولد منه الآثار العجيبة .

فهذه الأسباب سلالات يتبع بعضها بعضا . والعين (التى ترى ذلك) يجب أن تكون مضيئة نافذة الابصار » .

ولقد وصل الملك في حديثه مع الغلام الى هذا الحدّ ، حتى أبصر فيه علامة لم تكن ظاهرة .

ولئن أبصرها ذلك الملك المتطلع فليس هذا ببعيد . لكننا لسنا في حل من ذكر ما أبصر .

١٠٠٥ وحينما عاد الغلام الآخر من الحمام ، دعاه هذا الملك الهمام الى الاقتراب منه .

وقال له : « صحة لك ونعيم دائم ! كم أنت لطيف ظريف مليح الوجه !

أواه ، لو لم يكن فيك ذلك الذى يذكره عنك فلان ..

لأصبح سعيدا كل من شهد وجهك ، فان رؤية وجهك تعدل ملك الدنيا ! »

فقال الغلام : « ألا فلتذكر لي ــ أيها الملك ــ اشارة لما ذكره عنى ذلك الخرب الدين » .

١٠١٠ فقال الملك : « ان أول وصفه لك أنك ذو وجهين ، وأنك في الظاهر دواء ، وفي الخفاء بلاء ! »

فحينما استمع من الملك الى خبث رفيقه جاش على الفور بحر غضبه .

وأزبد ذلك الغلام واحمر لونه ، حتى تجاوز موج هجائه كل حدّ !

وقال : « انه منذ أول لحظة ترافقنا بها ، كان يأكل الروث كالكلب ابان القحط » .

فلما تتابع منه الهجو تتابع دقات الجرس ، أطبق الملك بيده على شفتي الغلام ليسكته .

١٠١٥ وقال : « انني قد استطعت بذلك أن أميز بينك وبينه . ان النتن في روحك ، وأما هو فالنتن في فمه .

فلتجلس بعيدا عني أيها النتن الروح ، حتى يكون هو الأمير وتكون أنت المأمور .

ولقد جاء في الحديث أن تسبيح المنافق مثل النبات الأخضر في المزابل[١] . فاعلم ذلك أيها العظيم .

ولتعلمن أن الصور المليحة الطيبة لا تساوى فلسا ان اقترنت بقبيح الخصال .

وان تكن صورة المرء حقيرة زرية وكان خلقه رضيا فمت عند قدميه .

١٠٢٠ واعلم أن صورة الظاهر مآلها الى الفناء ، وأما عالم المعنى فيبقى خالدا !

فالى متى تلهو بعشق الابريق ؟ دعك من صورة الابريق واطلب الماء .

انك قد رأيت الصورة ولكنك غافل عن المعنى . فالتمس الدرة من الصدف لو كنت عاقلا !

---

(١) لم اعثر على نص حديث يقارب ما ذكره الشاعر .

وأصداف القوالب في هذه الدنيا ، مع أنها جميعا تستمد الحياة من بحر الروح ،

ليست تنطوي كلها على الجوهر ، فافتح عينيك جيدا ، وتأمل باطن كل منها ،

١٠٢٥ لترى ما تحويه هذه وما تحويه تلك ، وتخير من بينها فانك قليلا ما تجد الدرّ الثمين .

فلو توجهت الى الصورة فان الجبل أعظم في ضخامته من مئات كثيرة من اليواقيت .

وباعتبار الصورة أيضا فان يديك ورجليك وشعرك تفوق بأحجامها مائة من صورة عينيك .

لكنه ليس بسر خفيّ عليك أنك ترجح العينين على كافة الأعضاء.

وبفكرة واحدة تخطر في الضمير ، قد ينقلب مائة عالم رأسا على عقب ، في لحظة واحدة .

١٠٣٠ ومع أن جسم السلطان في الصورة فرد واحد ، فان آلاف الجنود يهرعون لمتابعته .

وشكل هذا الملك أيضا وصورته يحكمهما فكر واحد محتجب .

ولنتأمل هؤلاء الخلق الذين لا يحصون عدا وقد جعلتهم فكرة واحدة يتدفقون كالسيل فوق الأرض .

فهذا الفكر يبدو صغيرا أمام الخلق ، لكنه كالسيل قد ابتلع الدنيا واكتسحها .

فاذا كنت ترى أن كل حرفة في هذه الدنيا قائمة على الفكر ،

١٠٣٥ وأن الديار والقصور والمدائن ، والجبال والصحاري والأنهار ،
وكذلك الأرض والبحار والشمس والفلك ، كل أولئك تستمد
منه الحياة كما يستمد السمك حياته من البحر ،
فلماذا أنت في بلاهتك أيها الأعمى تعد الجسد سليمان ، والفكر نملة ؟
ان الجبل يبدو عظيما أمام عينيك ، فالفكر عندك كالفأر والجبل كالذئب .
والعالم يتجلى لك هائلا عظيما ، فترتعد وتهلع من السحاب والرعد والسماء .
١٠٤٠ أما بالنسبة الى عالم الفكر ـ يا أخس من حمار ـ فأنت آمن
غافل كالصخرة الصماء !
فما دمت صورة لا نصيب لها من العقل ، فلست بآدمي الصفات ،
وما أنت الا حمار صغير .
انك لجهلك تحسب الظل شخصا ، ولهذا فقد أصبحت الشخصية
في نظرك لهوا يسيرا !
فمهلا الى ذلك اليوم الذي ينطلق فيه الفكر والخيال محلقين
بقوادم وخوالف ، لا يخفيهما حجاب .
اذ ذاك ترى الجبال وقد أصبحت كالعهن المنفوش ، وهذه الأرض
الباردة الساخنة وقد أصبحت عدما !
١٠٤٥ ولن ترى اذ ذاك سماء ولا أنجما ولا وجودا ، وليس سوى اله
واحد حي ودود .
واليك قصة قد تكون صادقة أو كاذبة ، تعين على ايضاح هذه
الحقائق :

كان أحد الملوك قد آثر بكرمه غلاما من غلمانه على جملة خدامه .
فكان راتبه يعدل ما يتقاضاه أربعون أميرا ، ولم يكن ينال عشر هذا المقدار مائة وزير !
فكان لكمال طالعه واقبال بخته مثل أياز ، أما الملك فكان محمود زمانه .
١٠٥٠ وكانت روحه في أصلها ، قبل هذا الجسد ، مرتبطة بروح الملك ، وثيقة القربى بها !
ولا اعتبار الا لما كان قبل الجسد ، فدعك من كل ما هو جديد الحدوث .
وهذا شأن العارف ، فهو ليس بأحول ، وعينه متطلعة الى أقدم الغراس .
فحيثما زرع قمح أو شعير فعينه مترقبة سواء في الليل أو في النهار .
وما ولدت الليالي الا ما كانت حاملة به . فما الحيل والمكر الا هواء وهباء .
١٠٥٥ فكيف يناغي القلب بالحيل الرائعة من كان يرى أن لله حيلة مسلطة فوق رأسه ؟
انه لصيد يلتمس صيدا[1] ، فأقسم بحياتك ، لن ينجو هذا الصائد ولا شباكه .
فلو أن مائة عشب نمت ثم عراها الذبول ، ففى العاقبة لا ينمو

(١) حرفيا : « انه لأسير شباك يمد شباكه » .

الا ما غرسه الله .

فها هوذا الانسان قد ألقى بغراس جديدة فوق الغراس الأولى .

فهذه الغراس المستحدثة فانية ، وأما الغراس الأولى فراسخة .

ان الغراس الأولى صالحة منتقاة ، وأما البذور الثانية فهى فاسدة عفنة .

١٠٦٠ فاطرح عنك هذا التدبير أمام الحبيب ، مع أن تدبيرك مقتبس من تدبيره .

ان الذى رفعه الحق هو الذى يكون له اعتبار ، وما غرسه في البداية هو الذى ينمو آخر الأمر .

فكل ما زرعته فازرعه من أجله ، ان كنت ــ أيها المحب ــ أسير المحبة .

ولا تدر في فلك النفس السارقة (الأمّارة بالسوء) وفعالها . فكل ما ليس من فعل الحق فهو عدم مطلق .

وذلك من قبل أن ينجلى يوم الدين ، واذ ذاك يفتضح لص الليل أمام المالك .

١٠٦٥ فيكون المتاع الذى سرقه بفن وتدبير لا يزال فوق عنقه يوم الدين .

ان آلاف العقول قد تنطلق مجتمعة ، فتحتال للصيد بشباك غير شباكه ،

فتجد أنفسها أسارى شباك أقوى وأوفى . وكيف يظهر القش قوته أمام الريح ؟

فان أنت قلت : « ما فائدة الوجود ؟ » فلسؤالك هذا فائدة أيها العنيد .

فان لم يكن لسؤالك هذا فائدة فما الداعي لأن أستمع اليه عبثا وبدون جدوى ؟ .

١٠٧٠ وان كانت لسؤالك هذا فوائد متعددة ، فلماذا يكون العالم بدون فائدة ؟

وان يكن العالم من جهة عديم الفائـدة ، فهو مـن جهات أخرى حافل بالفوائد .

وان كان ما يفيدك غير مفيد لي فلا تتخل عنه ، طالما كـان مجديا لك .

لقد كان حسن يوسف مفيدا للعالم كله ، مع أنه بالنسبة لاخوته كان عبثا لا جدوى منه .

ولحن داود كان هكذا محببا الى القلوب ، لكنه لم يتجاوز ــ في أذن المحرومين ــ صوت الآلة الخشبية .

١٠٧٥ وماء النيل كـان أعزر مـن ماء الحيـاة ، لكنه ازاء الكافرين والمنكرين كان دما !

والاستشهاد حياة للمؤمن على حين أنه للمنافق موت وتعفن !

فخبرني : أية نعمة بهذا العالم لا تكون احدى الأمم محرومة منها؟

فما فائدة السكر للثور والحمار ؟ ان كل نفس لها غذاء مباين لما تغتذي به سواها .

لكنها اذا تعلقت بقوت عـارض ، فالنصيحة هي التـي تروضها (على تركه) .

١٠٨٠ كمثل ذلك الشخص الذي ــ مـن اعتلاله ــ أولع بالطين ! فمع أنه كان يتصور الطين غذاءه ،

فقد نسي قوته الأصلي ، وولى وجهه نحو قوت المرض .
لقد ترك الشهد وتناول السم . والتهم قوت العلة كأنه طعام دسم.
وقوت البشر في الأصل هو نـور الله . أما القوت الحيواني فغير لائق بهم .
لكن القلب وقع في هذا لاعتلاله ، فأخذ يتناول صباح مساء مـن هذا الماء والطين .
١٠٨٥ فغدا شاحب الوجه ، واهي الساقين ، خفيف اللب .. فأين منـه غذاء السماء[1] .
فذلك غذاء الخواص في دولة (الأيمان) ، وتناوله يكون بدون حلق ولا أداة .
ان غذاء الشمس مستمد مـن نـور العرش ، وأما غذاء الحساد والشياطين فهو من دخان الأرض .
ولقد قال الحق عن الشهداء انهم أحياء يرزقون[2] ، ومـا كـان تناول هذا الغذاء يقتضي فما ولا طبقا .
بل القلب يتزود بغذاء من كل حبيب ، ويتحلى من كل علم بصفاء.
١٠٩٠ وصورة كـل آدمي كأنها كأس ، والعين وحدها هي التي تدرك معناها .
وأنت تتزود بشيء من لقاء كل انسان ، وتظفر بفائـدة من ملاقاة كل قرين .

---

(١) حرفيا : فأين غذاء « والسماء ذات الحبك » . (الذاريات ، ٥١ : ٧) .
(٢) انظر : سورة آل عمران ، ٣ : ١٦٩ .

فالنجم حين يصبح قرينا لنجم آخر ، فمن اليقين أن يتحقق بذلك ما يناسبهما من أثر .
وحين يقترن الرجل والمرأة يولد البشر ، وكذلك باقتران الحجر والحديد يتولد الشرر .
ومن قران التراب بالامطار تكون الثمار والخضرة والريحان .
١٠٩٥ ومن قران الخضرة بالانسان يكون سرور القلب وتفريج الهم والسعادة .
ومن قران السعادة بأرواحنا ينبثق الخير والاحسان فينا .
فالاجساد تصبح متقبلة للطعام ، حينما تتفتح شهيتها بالرياضة والنزهة .
وحمرة الوجه تكون من اقترانه بالدم . والدم يتدفق بفعل الشمس الجميلة الوردية اللون .
وخير الألوان هو اللون الأحمر ، وهذا من الشمس ، وهو يقبل منها الينا .
١١٠٠ وكل أرض أصبحت قرينة لزحل ، صارت ملحة ولا مجال للزرع فيها .
وقوة الفعل تنبثق من الاتفاق عليه ، كما يكون من اقتران الشيطان بأهل النفاق .
فهذه المعاني الصادقة وان لم تكن ذات مجد ورواء (في الدنيا) فلها من الفلك التاسع مجد ورواء !
والمجد والرواء ليسا سوى عرض في الخلق ، على حين أنهما ماهية لمن له الأمر والمقدرة .

ان الخلق يتحملون الذل في سبيــل المجد والرواء . وهم ــ على أمل العز ــ سعداء في مذلتهم !

انهم على أمل العز أياما عشرة حافلة بالقلق ، قد جعلــوا رقابهم من الهم ناحلة كالمغزل .

فلماذا لا يقبلــون الى هنا ، حيث أقيــم في عزة تغمرها اشراقــة الشمس .

ومشرق الشمس برج أسود اللــون ، أما شمسى فانهــا فــوق المشارق !

ان مشرقها هو نسبتها الى الذرات العالقة بهــا . فذاتها لم ترتفع قط ولم تنخفض .

ومع أنى متخلف وراء ذراته ، فأنا في العالمــين شمس لا تغشاها الظلال !

وهأنذا دائب الدوران حــول الشمس ، فما أعجبها ! ولا سبب لهذا سوى جلال الشمس .

وهذه الشمس مطلعة عــلى الأسباب ، لكنها غير مرتبطة بحبــال الأسباب .

ولقد قطعت الأمل ألوف المرات . مم ؟ من هــذه الشمس ! فهل تصدق قولى ؟

لا . لا تصدق أننى أصبر عن الشمس ، أو أن السمك يصبر عن الماء .

وحتى لو أنتى يئست ، فان يأسى ذاته مــن صنع الشمس ، أيها الرفيق الطيب !

١١١٥ وكيف تنقطع حقيقة الصنع من نفس الصانـع ؟ أم كيف يغتذى وجود الا من الوجود المطلق ؟

فجملة الموجودات ترتعى في هذه الروضة ، وسواء في ذلك البراق أو الخيل العراب أو الحمير !

والذى لم يبصر دوران هـذا البحر يستقبل بوجهه ــ في كـل لحظة ــ محرابا جديدا .

فهو قد شرب من البحر العذب ماء ملحا ، فأعماه ذلك الماء الملح .

والبحر يقول : « أيها الأعمى ! اشرب بيدك اليمنى من مائى لعلك تغدو بصيرا » .

١١٢٠ واليد اليمنى هنا هى الظن الصادق ، الذى يعلم أين سبيل الخير وسبيل السوء .

أيها الرمح . انك حينا تستقيـم ، وحينا تعوج ، فها هوذا صانع الرماح !

وان عشق شمس الدين قـد قلم أظافرى . والا فكيف لا أجعل هذا الأعمى بصيرا ؟

فيا حسام الدين ، يا ضيـاء الحق ! ألا فلتعجل بمداواته ، مهما عميت عين الحسود .

ان توتيا[1] الكبرياء لعاجلـة الأثر ، وهى الدواء المبدد للظلمات (التى تعمى) أهل العناد .

---

(١) انظر عن التوتيا : ابن البيطار : الجامع للمفردات الطبية ، جـ ١ ، ص ١٤٣ .

١١٢٥ فهذه لو مسَّت عين أعمى لانتزعت منها ظلمة مائة من الأعوام !
فاعمل لمداواة جميع العميان الا الحسود ، فانك لن تلقى منه الا الجحود .
ولا تَجُد بروح منك على حاسدك ، حتى ولو كنت أنا ذلك الحاسد ، بل دعني للحسد يهلكني !
فهذا الذي يكون حاسدا للشمس ، ذلك الذي يضنيه وجودها ألما ،
تأمل علته تلك التي لا دواء لها . واها عليه ! تأمل ذلك الذي سقط في قاع البئر الي الأبد !
١١٣٠ ان هذا يحتم انتفاء شمس الأزل ، فقل لي ، كيف يتحقق مراده هذا ؟
ان الباز هو الذي يرجع ثانية الى المليك . أما ذلك الذي ضلّ طريقه فهو باز أعمى .
لقد ضلّ طريقه فهبط في احدى الخرائب ، ثم وقع بين البوم في تلك الأرض الخراب .
وهو نور خالص مقتبس من نور الرضى ، لكن أمير جيش القضاء قد أعماه !
لقد نثر التراب في عينيه ، وأضله الطريق ، ثم ألقى به بين البوم في احدى الخرائب .
١١٣٥ وفوق ذلك أخذت البوم تضربه فوق رأسه ، وتقتلع من جناحيه القوادم والخوالف الحسان .
وعلا الصياح بينها ، وكانت تقول : « لقد جاء ليغتصب منا مكاننا » .

فكانت مثل كلاب الحيّ الغاضبة الرهيبة ، وقد علقت بأذيال دلق درويش غريب ،

وكان الباز يقول : « أي تناسب بيني وبين البوم ؟ اني أنـزل لها عن مائة مكان مثل هذا .

وما كان مرادي ان أنزل بهذا المكان ، بل اني كنت راجعا الـى المليـك .

١١٤٠ فيا أيها البوم ، لا تقتلوا أنفسكم . اني لست مقيما هنا بـل عائد الى وطني .

فهذا الخراب يبدو في أعينكم عمرانا ، أما أنـا فلي عودة الـى ساعد الملك ! »

فقالت البوم : « انّ الباز يحتال ، حتى يقتلعكم من منزلكـم وديار كـم .

وانه لمستول بالمكر على ديارنا ، ولسوف يقتلعنا بالنفاق مـن أوكارنا .

انّ هذا المولع بالاحتيال يتظاهر بالشبع ، مع أنه ـ والله ـ أسوأ من كل الطامعين !

١١٤٥ انه من الحرص يأكل الطين وكأنه الدبس ، فلا تسلموا ـ أيهـا الرفاق ـ ذيل الشاة للدب .

انه يباهي بالمليك ، وبكف المليك ، حتى يجعلنا ـ نحن البسطاء ـ نضلّ السبيل .

وأي تجانس بين طائر صغير وبين الملك ؟ فان كان لديكم قليل من العقل فلا تستمعوا اليه .

أهو من جنس الملك أو جنس الوزير ؟ وهل يكون الثوم ملائما لحلوى الجوز ؟

وأما قوله — بمكر واحتيال وفنّ — « ان السلطان وحشمه يبحثون عني » .

فهاكم جنونا لا يتقبله العقل ! وهاكم مباهاة غرّ ، وفخا يختطف الرؤوس !

فلا بد من البلاهة لتصديق هذا ، والا فما للملك وهذا الطائر الصغير النحيل ؟

فان كانت أصغر بومة تحطم رأسه ، فأنى له العون من المليك ؟

فقال الباز : « لو أنها كسرت لى ريشة واحدة ، لاقتلع ملك الملوك موطن البوم من أساسه !

فما البومة في ذاتها ؟ انه لو آذى قلبي باز أو نالنى بجفائه ،

لجعل المليك في التلال والوهاد يبادر تضمّ تلالا من رؤوس البيزان !

وان عنايته لهى حارسى ، فحيثما توجهت فالمليك يتبعنى .

وخيالى مقيم في قلب السلطان . وبدون خيالى يكون قلب السلطان سقيما .

فحينما يطيرنى المليك في مسالكه ، فانى أرتفع الى أوج القلب ، كشعاع أنواره !

وأطير مثل القمر ومثل الشمس . وأمزق أستار السماء !

وان استنارة العقول لهى من فكرى ! وان انفطار السماء لهو من فطرتى !

فأنا باز ولكن العنقاء تحار في أمرى ! فما البومة حتى تدرك كامن سرى ؟

ومن أجلى تذكر المليك سجنه ، فاطلق سراح آلاف من السجناء !

لقد جعلنى في لحظة رفيقا للبوم ، ثم جعل البوم بأنفاسى بيزانا !

فما أسعد بومة صادفت مطارى ، وفهمت لحسن طالعها أسرارى !

١١٦٥ ألا فلتعلقوا بى لتصبحوا سعداء ، وتصيروا بيزان المليك برغم كونكم من البوم .

فمن كان حبيبا لمثل هذا المليك ، فلماذا يكون غريبا ، مهما اختلفت عليه المنازل[1] ؟

ومن كان المليك دواء آلامه ، فانه لا يكون بلا نصيب ، مهما ناح مثل الناى .

انني مالك الملك ، ولست الذى يهلع من قرع الطبول ، فالمليك هو الذى يقرع لي الطبول من جانبه .

وطبل الباز (الذى ألبيه) هو نداء « ارجعى[2] » . والله شاهدى بالرغم من المدعى .

١١٧٠ انني لست من جنس ملك الملوك ، فما أبعدني عن ذلك ! وانما أنا مستضيء بنور من تجليه .

والتجانس لا يكون على أساس الشكل والذات ، فالماء يتجانس مع التراب في النبات .

والريح تجانس في قوامها النار . والخمر تصبح متجانسة مع

(١) حرفيا : مهما حط في اى مكان .
(٢) انظر : سورة الفجر ، ٨٩ : ٢٨ .

الطبع الانسانى .

ولما كان جنسنا مغايرا لجنس مليكنا ، فقد أصبحت ذواتنا فانية في سبيل ذاته .

وحينما فنيت ذواتنا بقي فردا . وانى لأغدو كالغبار أمام حوافر جواده[1] .

١١٧٥ والروح تغدو ترابا وتبقى علامات أقدامه منطبعة فوق ترابها .

ألا فلتصبح ترابا تحت قدميه لتظفر بتلك العلامات ، فانك – حينذاك – تصير تاجا فوق رؤوس الماجدين !

فلا تدع لصورتى سبيلا الى خداعك ، ولتأكل هنيئا من نقلى ، قبل انتقالى .

فكم من أناس أغلقت الصورة أمامهم السبيل ، فتهجموا عليها ، فكان تهجمهم على الله !

وأخيرا فان هذه الروح مرتبطة بالبدن ، فهل هناك من شبه قط بين هذه الروح وبين البدن ؟

١١٨٠ فاشراق نور العين قرين لقطعة من الشحم[2] ، ونور القلب كامن في قطرة من الدم .

والفرح في الكلى وأما الحزن ففى الكبد . والعقل مثل الشمعة داخل لباب الرأس .

وهذه العلائق ليست بدون كيف ولا شبه . ولكن العقول ضعيفة في ادراك الكيف .

---

(١) انى لأتحرك مستجيبا لأدنى سبب من اسبابه ، كما يتحرك الغبار حينما تثيره حوافر الفرس .

(٢) يقصد بقطعة الشحم هنا بياض العين .

ان الروح الكلى قد التحم بالروح الجزئية ، فأخذت هذه درة منه وجعلتها في جيبها .

فغدت الروح ـ من احتكاك تلك الدرة بجيبها ـ حاملا كمريم ، تلك التى حملت مسيحا يسحر القلوب .

١١٨٥ وليس المسيح هو من كان يمشي على اليابسة والماء ، بل انه ذلك المسيح الذى سما فوق حدود المكان .

فحينما تلقت الروح حملها من روح الروح ، تلقى العالم كله حملا من مثل تلك الروح .

وهكذا يلد العالم عالما آخر ، وتبدو حقيقة الحشر لهذا الجمع الحاشد (من البشر) !

ولو أنني حكيت وعددت حتى يوم الساعة ، فسأبقى مقصرا في ايضاح ذلك الحشر .

فهذه الأقوال كلها تعني دعاء « يا رب ! » ، وكلماتها شباك أنفاس طرحتها شفاه حلوة .

١١٩٠ فكيف يقصر المرء ، وكيف ينطوى على نفسه ، ما دام جواب « لبيك » يستجيب لدعاء « يا رب » .

فكلمة « لبيك » هى (ذلك الجواب الالهى) الذى لا تستطيع سماعه ، لكنك تتذوقه بكل كيانك ، من الرأس الى القدم .

كيف القى ظامىء فوق قمة جدار احجارا في مجرى الماء

يُحكى أن جدارا عاليا كان مقاما على شاطىء نهر ، وأنه كان فوق هذا الجدار رجل ظامىء يلاقى العناء .

وكان هذا الجدار مانعا له من الماء. فكان في ألم من أجل المـاء مثل السمك .
وفجأة ألقى بحجر في الماء ، فوقع صوت الماء في أذنه مثل الخطاب .
١١٩٥ لقد كان لصوت الماء في سمعه فعل النبيذ ، أو فعل حديث محبوب حلو لذيذ .
فلصفاء صوت الماء ، أخذ ذلك المبتلى يقتلع الأحجار من الجدار ويلقى بها في الماء .
فهتف به الماء قائلا : « أية فائدة (حققتها) من ضربك ايـاى بالأحجار ؟ »
فقال الظمآن : « أيها الماء . ان لى من ذلك فائدتين . ولهذا فلن أقلع عن هذا الصنـع .
فالفائدة الأولى هى سماع صوت الماء ، ووقع هذا عند الظماء مثل الرباب .
١٢٠٠ فهذا الصوت صار شبيها بصوت اسرافيل . وبفعل هذا تنبثـق الحياة في الموتى .
أو هو كصوت الرعد في أيام الربيع . يظفر منه البستان بمتعـدد الصور .
أو هو مثل أيام الزكاة عند الدرويش ، أو مثل رسالة الخلاص عند السجين !
أو كصوت الرحمن الذى كان يصل الى محمد من اليمن ، وذلك من غير أن ينقله فم .
أو كعبير أحمد الرسول المصطفى ، حين يدرك بشفاعته أحـد العصاة .

أو مثل شذى يوسف الطيب اللطيف ، اذ هبّ على روح يعقوب بعد أن براه الأسى .

والفائدة الثانية أننى كلما اقتلعت حجرا من هذا الجدار ، أقترب من الماء المعين .

فكل حجر اقتلع من ذلك الجدار العالي ، كان مدعاة الى انخفاضه.

وانخفاض الجدار هو السبيل الى القرب ، والانفصال عنه هو العلاج المؤدّى الى الوصال .

فاقتلاع تلك الأحجار المتماسكة مثل السجود . والسجود موجب للقرب ، كما جاء في قوله تعالى : « واسجد واقترب[1] » .

فما دام ذلك الجدار شامخا بعنقه ، فهذا مانع له من أن يخفض هامته .

وليس لى سبيل الى أن أسجد فوق مـاء الحياة ، مـا لم أجد الخلاص من ذلك الجسم الترابىّ .

وكل من كان ــ فوق الجدار ــ أكثرَ ظمأ ، فانه يكون أسرع في اقتلاع الحجر والمدر .

وكل من كان أكثر عشقا لصوت الماء ، كانت الحجارة التى يقتلعها من السور أكبر حجما .

وهو من سماع صوت الماء يغدو مليئا بالخمر حتى العنق ، أمـا الغريب فلا يسمع من ذلك الا مجرد الصوت .

فما أسعد ذلك الذى يغتنم أيامه الأولى ، ويؤدى بها دينه ،

---

(١) انظر : سورة العلق ، ٩٦ : ١٩ .

تلك الأيام التى تكون له فيها قدرة وصحة وقوة قلب وشدة بأس .

حيث الشباب مثل بستان أخضر ريان ، ينضج – بدون تقصير – حصادا وثمارا .

وحيث ينابيع القوة والشهوة جارية ، تغدو أرض الجسد بها مخضلة يانعة .

وحيث الدار معمورة وسقفها سامق رفيع ، وأركانها معتدلة ، لم يشوهها ترميم ولا ركائز .

١٢٢٠ وذلك قبل أن تحلّ أيام الهرم ، فتربط جيدك بحبل من مسد[1] .

وقبل أن يصبح التراب ملحا منحلا واهيا ، والتراب الملح لا ينبت قط نباتا طيبا .

وقبل أن يغدو ماء القوة وماء الشهوة منقطعا ، فلا يكون للانسان نفع في نفسه ولا في غيره .

ويتراخى حاجب العين كالحبل فوق ذيل الدابة . وتصبح العين دامعة وتغشاها الظلمة .

ويغدو الوجه من التشنج شبيها بظهر الحرباء ، ويقلع عن العمل النطقُ والتذوق والأسنان .

١٢٢٥ ويكون النهار قد ولىّ ، والحمار أعرج ، والطريق طويلا ، والحانوت قد خرب ، والعمل أصابه البوار .

وجذور الخلق السىّء قد أصبحت راسخة ، والقوة على اقتلاعها قد أصابها الوهن !

---

(١) في البيت اقتباس من آية كريمة . انظر : سورة المسد ، ١١١ : ٥ .

كيف أمر الوالي احد الرجال قائلا :
« اقتلع ذلك الشوك الذى زرعته فوق الطريق »

ومثال ذلك هذا الشخص الغليظ ، الناعم الحديث ، الذى غرس الشوك في وسط الطريق .

وكان العابرون بهذا الطريق يلومونه ، وكم طلبوا اليه أن يقتلع الشوك ، لكنه لم يفعل ذلك !

وكان نبات الشوك يزداد نموا في كل لحظة ، وصارت أقدام الناس من وخزه تقطر دما .

١٢٣٠ وكانت الأشواك تمزق ثياب الخلق ، وأما أقدام الدراويش فما أقسى ما نالها من الألم !

وحينما دعاه الحاكم بجدّ الى اقتلاع هذه الأشواك ، قال : « نعم . سوف أقتلعها ذات يوم » .

وبقى مدة يعد في يومه أن يفعل ذلك في غده ، حتى صارت دوحة الشوك راسخة الكيان .

فقال له الحاكم ذات يوم : « أيها الحانث بوعده . أقبل لانفاذ أمرنا ، ولا تلزم التراجع عنه » .

فقال الرجل : « الأيام ــ يا عم ــ بيننا ! » . فقال الحاكم : عجّل ، ولا تماطل في أداء ديننا » .

١٢٣٥ فيا من دأبت على قولك « غدا » ، اعلم أنه في كل يوم يمرّ من الزمان ،

تغدو هذه الشجرة الخبيثة أقوى شبابا ، ويغدو مقتلعها شيخا عاجزا .

وتكون شجرة الشوك (قد ازدادت) قوة وارتفاعا ، في حين أن مقتلع الشوك قد ازداد هرما وانحدارا .

وشجرة الشوك ، في كل يوم وكل لحظة ، ذات اخضرار ونضرة، أما مقتلع الشوك فيزداد في كل يوم علة وذبولا .

فهي تزداد شبابا وأنت تزداد شيخوخة ، فسارع ، ولا تكن مضيعا لوقتك .

١٢٤٠ واعلم أن كل خلق قبيح فيك انما هو شجرة شوك ! ولكم وخزت الأشواك قدميك آخر الأمر !

وما أكثر ما غدوت جريحا بطباع ذاتك ! انك لست بذي احساس! بل أنت غاية في انعدام الحس !

فان كنت ازاء تجريح غيرك من الناس ــ الذين يرميهم بذلك خلقك القبيح ــ

تغفل عن فعلك أحيانا ، أفلست هكذا غافلا عما تحدثه بنفسك من جراح ؟ انك لعذاب لنفسك ولكل من عداك !

فلتحمل الفأس ، ولتضرب مثل الرجال ! اقتلع مثل عليّ باب خيبر هذا !

١٢٤٥ أو اجعل هذا الشوك مقترنا بشجرة ورد . اجعل النار مقترنة بنور الحبيب .

حتى يسحب نورُه ما فيك من نار ، ويجعل وصله أشواكك بستان ورد .

فانك مثيل لنيران الجحيم ، أما المرشد فمؤمن . والمؤمن ذو مقدرة على اخماد النار .

فلقد أخبر المصطفى عن نطق الجحيم ، وأنها تغدو من خـوفها مخاطبة للمؤمن .

تقول له : جز يا مؤمن ، فقد أطفأ نورك لهبي[1] .

١٢٥٠ فنور المؤمن هو الذي يهلك النار . والضدّ لا يمكـن دفعـه الا بضده .

والنار تكون يوم العدل مضادة للنور . فهذه قد انبثقت مـن قهرالله ، وذاك من فضله .

فان كنت تريد دفعا لشر النار ، فابعث الى قلبها بماء الرحمة .

والمؤمن هو ينبوع ماء الرحمة هذا . أما ماء الحياة فهـو روح المحسن الطاهر .

ولهذا فان نفسك الأمارة بالسوء تغدو هاربة منه ، لأنك من النار، وأما المؤمن فهو ماء سلسبيل .

١٢٥٥ والنار تولى هاربة من الماء ، فالنار تلقى من الماء الهلاك والدمار .

وحسك وفكرك كلاهما من النار ! وأما حس الشيخ وفكره فهما نور لطيف !

فعندما يقطر ماء نوره فوق النار ، يعلو أزيزها وتندلع .

فاذا ما أزّت فقل لها : « موتا وهلاكا » ، واذ ذاك يغدو جحيـم نفسك بردا .

وحينذاك لا يحترق به بستانك ، ولا يشتعل به عدلك واحسانك!

---

(١) الشاعر قد ذكر الحديث هنا بتصرف ، وقد اوردناه بنصه في الترجمة . وقد روى هذا الحديث في حلية الأولياء لابى نعيم الاصفهاني ، عن يعلي بن منبه قال : قال رسول الله : تقول النار للمؤمن يوم القيامة ، جز يا مؤمن فقد اطفأ نـورك لهبـي . (المنهـج القـوى ، ج ٢ ، ص ٢٩٥) .

١٢٦٠ وكل مـا تزرعه بعد ذلك يغدو مثمرا ، ويثنبِتُ لك الشقائـق والنسرين والنمام !
لقد عدنا لنقطع الطريق المستقيم بالعرض ، فلنعد أيها السيد . أين طريقنا ؟
وكنا قد شرحنا لك أيها الحسود ، أن حمارك أعرج والمنزل بعيد ، فسارع بانطلاقك .
فالعام قد فات أوانه ، وليس هذا بوقت الغرس . فلم يبق الا سواد الوجه والفعل القبيح .
ان الدود قد أصاب أصل شجرة الجسد ، فوجب اقتلاعها والقاؤها في النار .
١٢٦٥ حذار حذار أيها السائر على الطريق ، فقد تأخر الوقت ، وشمس العمر قد تدانت من بئر المغيب .
وفي يوميك اللذين تملك فيهما القوة ، انشر جناحيك محلقا في طريق الجود !
وازرع ذلك القدر الذى بقى لك من البذور ، ينبت لك منهاتين اللحظتين عمر مديد !
ولكى لا يخبو هذا السراج اللألاء ، سارع باصلاح فتيله وامداده بالزيت .
وكن حذرا ، ولا تقل « غدا » ، فكم من غد قد مضى ، فلم تبق لك قط أيام للغرس .
١٢٧٠ واستمع الى نصحى ، وأنت بعدُ في عنفوان قواك الجسدية : ان كنت تميل الى الجديد ، فتخلص من القديم .

أغلق شفتيك ، وافتح كفا مليئة بالذهب . ودعك من بخل الجسد، وأقبل على الجود .

وترك الشهوات واللذات سخاء . وما نهض قط انسان صار غريق شهواته .

وهذا السخاء غصن من سرو الجنان . فواها على من رمى من كفه مثل هذا الغصن .

والتخلي عن الهوى هو العروة الوثقى . فهذا الغصن يرتفع بالروح الى السماء .

١٢٧٥ واذ ذاك يرفعك غصن السخاء ـ أيها المؤمن ـ فتتسامى معه الى أصله .

انك يوسف الحسن ، وهذا العالم مثل البئر . والحبل (الذى يخلصك) هو الصبر على أمر الله .

يا يوسف ، ها هوذا حبل (النجاة) قد تدلى ، فتعلق به بكلتا يديك ، ولا تغفل عنه ، فقد تأخر الوقت .

والحمد لله أنه قد أدلى هذا الحبل ، فهنا ، قد امتزج فضلـه برحمته .

وذلك لترى عالم الروح الجديد ، وهو عالم بالغ الظهور ، وان احتجب عن العيان .

١٢٨٠ فعالم الفناء هذا قد صار كأنه الوجود (الحق) ، وأما عالم الوجود (الحق) فقد صار بالغ الخفاء !

كالتراب يتلاعب فوق الهواء ، ويبدى مظهرا كاذبا وينشر أستارا.

فهذا عاطل أجوف ظاهره العمل . وأما ذلك المحتجب فهو لبـه وأصله .

فالتراب مثل الآلة في يد الهواء ، أما الهواء ، فاعلم أنه عـال ، وأنه رفيع المصدر .

فالعين الترابية هى التى يقتصر ابصارها على التراب . أما العين التى تبصر الهواء فهى من نوع آخر .

١٢٨٥ فالحصان يعرف الحصان لأنهما شبيهان . وكذلك الفارس يعلم أحوال نظيره من الفرسان .

وعين الحس هى الحصان وأما نور الحق فهو الفارس . ولا جدوى للحصان بدون الفارس .

فخلص حصانك من الخلق القبيح ، والا فانه لا يكون مقبولا عند المليك .

وعين الحصان تهتدى في السير بعين المليك . وبدون عين المليك يسوء حال تلك العين .

ولو أنك دعوت عيون الخيل الى أىّ مكان سوى العشـب والمرعى ، لكان جوابها : « لا » ، « لماذا ؟ »

١٢٩٠ أما حين يمتطى نورُ الحق نورَ الحس ، فان الروح تغدو مشتاقة الى الحق .

وماذا يعرف الحصان ــ بدون راكبه ــ عن رسم الطريق ؟ فمن أجل أن يعرف الطريق الملكىّ ، لا بدّ له من فارس ملك !

فتوجه نحو حس يكون النور رائده ، ذلك لأن النور صاحب كريم للحس .

ونور الحق هو الذى يزين نور الحس ، وذلك معنى قوله تعالى :

« نور على نور[1] » .

ونور الحس يجتذب الانسان نحو الثرى ، وأما نور الحق فيسمو به نحو العلى .

١٢٩٥ ذلك لأن المحسوسات عالم أدنى . بل ان نور الحق شبيه بالبحر، وأما الحس فمثل قطرات الندى !

لكن راكب الحس هذا لا يكون ظاهرا الا في جميل الأثر وطيب الكلم .

ان نور الحس مع غلظه وكثافته يكون مستترا في سواد العينين .

فما دمت لا ترى بالعين هذا النورالحسى ، فكيف تستطيع أن ترى بها ذلك النور الروحى ؟

ان نور الحس ـ برغم غلظه ـ محتجب عن الأبصار ، فكيف لا يكون خفيا ذلك الضياء الصافى ؟

١٣٠٠ فهذا العالم كالقشة في أيدى رياح الغيب ، وقد أصبح العجز ازاءها شيمة له[2] . ذلك لأن حكم الغيب ،

حينا يرفعه وحينا يخفضه ، وطورا يهبه السلامة وطورا يحطمه !

وقد يوجهه حينا نحو اليمين ، وحينا نحو الشمال ! وحينا يجعله بستان ورد وحينا يجعله شوكا !

فتأمل كيف أن اليد مختفية ، والقلم يرسم الخطوط ! وكيف أن الحصان يتجول وفارسه غير ظاهر للعيان !

وتأمل كيف أن السهم منطلق ، على حين قد خفى القوس . وتأمل كيف أن الأرواح ظاهرة ، وكيف احتجب روح الروح !

---

(١) انظر : سورة النور ، ٢٤ : ٣٥ .
(٢) حرفيا : « وقد اتخذ العجز حرفة له » .

١٣٠٥ ولا تحطم السهم فانه سهم المليك ، وليس سهما نابيا ، بـل هو منطلق من قوس العليم الخبير .

ولقد قال الحق : « وما رميت اذ رميت[١] » . ان فعل الحقّ سابق على كل الفعال .

فحطم غضبك ولا تحطم السهم . ان عين غضبك هى التى تبصر الحليب دماء !

وقبل السهم ــ ذلك السهم الملطخ بالدماء ، المبلل بدمك أنـت ــ ثم احمله الى المليــك .

فهذا العالم المتجلي للعيان عاجز مقيد ضعيف ، وأما ذلك المحتجب فعنيف أبيّ !

١٣١٠ اننا نحن الصيد ، فلمن تكون مثل هذه الشباك ؟ ونحن كــرة الصولجان ، فأين الضارب بالصولجان ؟

أين هذا الحائك الذى يمزق ويحيك ؟ وأين ذلك النفاط الذى يطفىء[٢] ويشعل ؟

فهو حينا يجعل الكافر صِديقا ، وحينا يجعل الزاهد زنديقا !

ذلك لأن المخلص يكون في خطر من الشباك ، ما لم يظفر بالخلاص الكامل من ذاتيته .

فهو يكون على الطريق ، وما أكثر قطاع الطريق . وان الناجــي لهو الذي يكون في أمان الله .

١٣١٥ فان لم يغدُ مرآة صافية ، فهو (مجرد رجل) مخلص ، وهو لم يصد الطائر بعد ، بل ما يزال يقتنص .

---

(١) الانفال ، ٨ : ١٧ .
(٢) حرفيا : ينفخ ، والمقصود بالنفخ هنا الاطفاء ، كما يتضح من السياق .

والمخلص يلقى النجاة حين يكتمل له الخلاص . فهو اذ ذاك يبلغ مقام الأمن ويتحقق له الفوز .

وما عادت مرآة قط الى سابق عهدها حديدا ، ولا ارتد الخبز فصار قمح البيدر .

ولا عنب ناضج عاد فجا ، ولا ثمار ناضجة عادت بواكير .

فابلغ النضج وابتعد بنفسك عن التغير . اذهب ، واغد نورا مثل برهان المحقق[1] .

١٣٢٠ فانك ان خلصت من ذاتيتك غدوت كلك برهانا . وما دمت لم تعد عبدا غدوت سلطانا .

وان أردت العيان فقد أظهره صلاح الدين . فقد جعل الأعين مبصرة ، وجلاها !

فكل عين استضاءت بنور الوحدانية ، كانت تبصر الفقر في عينيه وسيماه .

ان الشيخ مثل الحق ، فعّال بدون آلة . فهو يلقن مريديه دروسا بدون قول !

فالقلب في يده كالشمع الرقيق الطيع . وهو يدمغه تارة بالعار وتارة بالفخار .

١٣٢٥ فالصورة المنطبعة على الشمع شبيهة بالخاتم . ولكن ، ماذا يحاكيه نقشُ هذا الخاتم ؟

انه محاكاة لفكر هذا الصائغ . فها هي ذي سلسلة مترابطة الحلقات .

---

(١) في هذا البيت تمجيد لبرهان الدين محقق الترمذي استاذ الشاعر .

وهذا الصدى في جبال قلوبنا صوت من ؟ وحينا هذا الجبل مليء بذلك الصوت ، وحينا هو خال منـــه .

فحيثما كان حكيم ، وأينما كان استاذ ، فلا يكن جبل قلبه خاليا من ذلك الصــوت .

ومن الجبال ما يجعل الصوت الذى يتلقاه ضِعفين ، ومنها مــا يضاعفه مائة مرة .

١٣٣٠ وان الجبل ليفجر ـ من هذا الصوت والمقال ـ مائة ألف عين من الماء الزلال .

فاذا ما فارق الجبل ذلك اللطف ، صارت المياه في الينــابيــع دماء .

ان هذا المليك الأكبر قد مر بنعليه المباركتين على جبل الطور فجعله ياقوتــا .

لقد تقبلت أجزاء الجبل الروح والعقل ، فهل نحن ـ أيها القوم ـ أقل من الحجر ادراكا ؟

فليس في الروح نبع واحد يتفجر ، ولا الجسم قد غدا يانــع الخضرة مزدهرا !

١٣٣٥ وما تتردد أصوات الشوق في جنباته ، ولا هو انتشى مــن صفاء جرعة الساقى .

فأين الحمية التى تقتلع بالفأس والرمح مثل هذا الجبل بأكمله ؟

فلعل قمرا يشرق فوق أجزائه ! لعل نور البدر ينفذ خلاله ، ويجد سبيلا فيه !

فما دامت القيامة سوف تقتلع الجبال ، فكيف يكون سبيلها لتنشر فوق رؤوسنا الظلال ؟

ومتى كانت القيامة (الروحية)[1] أقل من قيام الساعة ؟ ان هذه القيامة (الكبرى) كالجرح ، وأما البعث الروحي فهو كالمرهم !

١٣٤٠ فكل من عرف هذا المرهم فقد أمن الجراح . وكل مسيء أبصر هذا الحسن فانه محسن .

فما أسعد القبيح الذي غدا الجميل له نديما ! وواها على مليح وردي المحيا غدا الخريف له قرينا !

ان الخبز الميت — حين يصبح رفيقا للروح — يغدو حيا ، بل يغدو عين الحياة !

والحطب المظلم يصير رفيقا للنار ، فيذهب عنه اظلامه ، ويغدو كله أنوارا !

ان الحمار الميت — حين سقط في منجم الملح — تخلى عن حماريته ، وعن تحلل جسده.

١٣٤٥ وصبغة الله[2] تكون من وعاء لون الوحدانية . ففيه تغدو الألوان المتنوعة لونا واحدا !

فاذا وقع في هذا الوعاء أحد ، وقلت له : « قم » ، فانه يقول لك طربا : « انني أنا الوعاء ، فلا تلمني » .

---

(١) « القيامة الروحية » هي الوصول الى حال اليقظة الروحية بعد التخلص من سلطان الحس وشهوات الجسد .

(٢) انظر : سورة البقرة ، ٢ : ١٣٨ .

وان قوله : « أنا الوعاء » لهو عين قول : « أنا الحق » . وهل سوى الحديد ما يحوز لون النار ؟

فلون الحديد يمحى في لون النار . وكأنما الحديد في صمته يباهي بناريته !

فحينما غدا ــ في حمرته ــ مثل ذهب المنجم ، فهو يباهى بدون لسان قائلا : « أنا النار ! »

لقد صار مهيبا بلون النار وطبيعتها . فهو يهتف قائلا : « انني أنا النار ، أنا النار ! »

انني أنا النار ، فان كنت في شك من ذلك أو ريب ، فلتجرب ولتضع فوقي يدك .

انني انا النار ، فان كان لك في ذلك اشتباه ، فضع وجهك فوق وجهي لحظة واحدة !

والانسان حين يقتبس النور من الله ، يكون الجدير بسجود الملائكة ، لأن الله اجتباه .

وكذلك يكون جديرا بسجود الانسان ، الذى خلصت روحه من الشك والطغيان ، مثل الملائكة .

وما النار ؟ وما الحديد ؟ ألا فتلغلق شفتيك ، ولا تهزأ بلحية تشبيه المشبّه .

ولا تضع قدمك في البحر ، وأقلل من حديثك عنه . ولتقف على شاطىء البحر صامتا ، تعض (من الحيرة) شفتيك .

ومع أنه لا طاقة لمائةمثلى بالبحر ، فانه لا اصطبار لى عن أن أغدو غريق لجه !

فليكن روحي وعقلي فداء للبحر . فهذا البحر هو الذى أدى دية العقل والـروح .

فما دامت لى قدم تسعى ، فانى مندفع اليه . وحين لا تبقى لـى قدم فأنا فيـه مثل البط.

١٣٦٠ والحاضر ــ ولو كان عديم الأدب ــ خير من الغائب . فالحلقـة ــ مع أنها معوجة ــ أليست فوق الباب ؟

أيها الملوث الجسد . لتدر حول الحوض . والا فكيف يتطهر خارج الحوض انسان ؟

بل ان الطاهر ــ الذى أقام بعيدا عن الحوض ــ هو أيضا قد وقع بعيدا عن طهارة ذاتـه .

فطهارة هذا الحوض لا حدود لها ، أما طهارة الأجسام ، فهـى طفيفة القـدر .

والقلب حوض ، لكنه محتجب ، ولهذا فان له سبيلا خفيـا الى البحـر !

١٣٦٥ فطهارتك المحدودة تحتاج الى مدد ، والا فان العدد يتنـاقـص بالانفاق .

لقد قال الماء للملوث : « أسرع الىّ » ، فقال الملوّث : « اننى أخجل من الماء ! »

فقال الماء : « وكيف يذهب عنك هذا الخجل بدونى ؟ أم كيف يزول بدونى هذا التلوّث ؟

فكل ملوّث قد احتجب عن الماء فـانه مصداق لقول القـائل : « الحياء يمنع الايمان » .

ان سلم حوض الجسد قد لوّث القلب ، أما حوض القلب فقد طهر بمائة الأجساد .

١٣٧٠ فلتكن – يا بنيّ – قريبا من سلم حوض القلب ، وتنبه ، وكن حذرا من سلم حوض الجسد .

وبحر الجسد ، وبحر القلب يلتقيان ، « بينهما برزخ لا يبغيان[1] » .

فان كنت مستقيما ، أو كنت معوجا ، فتقدم زاحفا نحوه ، ولا تتقهقر عنه[2] .

فان كان في القرب من الملوك خطر على الروح ، فان أهل الهمم لا يصبرون عن ذلك القرب !

فالمليك اذ كان أحلى من السكر ، فخير للروح أن تذهب فداء لحلاوته .

١٣٧٥ فيا أيها اللائم ! لتنعم أنت بالسلامة . وأنت يا طالب السلامة ! انك واهي العرى .

ان روحي كالتنور ، وهي سعيدة بالنار ! وحسب التنور أنه منزل النار .

وللعشق محروقات مثلما للتنور . وكل من عمى عن ذلك فليس بتنور .

وحينما أصبح غذاؤك الاعراض عن غذاء الحس ، تحقق لك الروح الباقي ، وانصرف عنك الموت .

---

(١) الرحمن ، ٥٥ : ٢٠ .

(٢) تقدم نحو خالقك مهما كان التقدم بطيئا ، ولا تتراجع عن قربه قيد انملة .

وحينما استولى عليك ذلك الحزن الذى يزيد السرور ، شاع الورد والسوسن في روضة روحك !

١٣٨٠ وأصبح أمنا لك ما يخيف سواك . ان البط لقوىّ في البحر ، وأما الطيور الأليفة فواهية ضعيفة .

هأنذا قد عاودنى الجنون ، أيها الطبيب ! وها هوذا الوجد قد عاودنى ، أيها الحبيب !

وان حلقات سلسلتك لذات فنون ، وكل حلقة منها تهب لونا من الجنون .

فعطاءُ كل حلقة فن مختلف عن سواه ، ولهذا فان لى في كل لحظة جنونا فريدا !

ولهذا فان قول القائل : « الجنون فنون » ، قد أصبح مثلا .

ويصدق هذا ــ بخاصة ــ على سلاسل هذا الأمير الأجلّ .

١٣٨٥ ومثل هذا الجنون قد حطم عندى كل قيد ، حتى غدا كل مجنون يسدى الىّ النصح !

كيف جاء الرفاق الى البيمارستان من اجل ذى النون قدس الله سره العزيز

هكذا وقع لذى النون المصرىّ : أن ولها وجنونا جديدا قد تولدا عنده !

وازدادت حدة طبعه حتى تجاوزت الآفاق ، نافذة بمرارتها[1] الى الأكباد .

(١) حرفيا : مصيبة بملحها الاكباد .

فحذار أيتها الأرض الملحة ، ولا تقيسى ملحك بملح الشيوخ الطاهرين .

فلم يكن للخلق طاقة بجنونه . لقد كانت ناره تمحو لحاهم !

١٣٩٠ وحينما أصابت ناره لحى العوام ، فانهم قيدوه وأدخلوه السجن.

وليس في الامكان جذب هذا اللجام ، مهما ضاق العوام بهذا الطريق[1] .

ان هؤلاء الملوك قد استشعروا الخوف على أرواحهم من العوام ، فهؤلاء عمى ، والملوك ليست لهم علامة ظاهرة !

فحينما يكون الحكم في يد المعربدين ، فلا جرم أن ذا النون يكون في السجن !

ان الملك يمتطي جواده ويمضى وحيدا ، فيغدو ــ كما تغدو الدرّة اليتيمة ــ (ألعوبة) في أيدى الأطفال .

١٣٩٥ وما الدرة (اذا قيست به) ؟ انه بحر قد تحجب في قطرة ! انه شمس قد اختفت في ذرّة !

انه شمس قد تبدّت في صورة ذرة ، ثم كشفت وجهها رويدا رويدا !

ولقد فنيت بها جميع الذرات ، والعالم كله سكر بها ثم صحا !

وحينما يكون قلم (الحكم) في يد غدّار ، فلا شك أنه يقضى بشنق المنصور[2] !

(١) وليس في الامكان وقف اندفاع الصوفى مهما ضاق العوام بطريق التصوف .

(٢) الحسين بن منصور الحلاج .

وحينما يكون للسفهاء هذا الأمر والسلطان ، فلا بد أنهم « يقتلون الأنبياء[1] ! »

١٤٠٠ ومن السفه قال هؤلاء القوم الضالون للأنبياء : « انا تطيرنا بكم[2] » .

فتأمل جهل المسيحيّ الذى يلتمس الأمان من ذلك السيد الذى صُلب .

فان كان – كما يقول – قد صُلب على أيدي اليهود ، فكيف يستطيع أن يمده بالعون ؟

ومهما تفجر بالدم قلب ذلك المليك من أجلهم ، فكيف تتحقق العصمة التى ينطوى عليها حضوره بينهم[3] ؟

ان الذهب الخالص والصائغ هما أكثر من سواهما تعرضا لخطر المزيف الخائن .

١٤٠٥ وكل مليح كيوسف يتوارى من حسد القباح ، ذلك لأن أعداء الملاح يعيشون في لهيب (الحسد) .

ان الذين هم في ملاحة يوسف يعيشون في بئر من حسد اخوانهم.

وان هؤلاء – من الحسد – ليسلمون يوسف للذئاب .

وما الذى أصاب يوسف المصريّ من جراء الحسد ؟ لقد كان هذا الحسد ذئبا كبيرا كمن له في الخفاء !

فلا جرم أن يعقوب الحليم ، كان دائم الخوف والشفقة على يوسف من هذا الذئب .

---

(١) انظر : سورة آل عمران ، ٣ : ١١٢ .
(٢) انظر : سورة يس ، ٣٦ : ١٨ .
(٣) حرفيا : التى ينطوى عليها (قوله تعالى) : « وانت فيهم » . (٨ : ٣٣) .

ولم يحم حول يوسف قط ذئب ظاهر . لكن هذا الحسد جاوز في أثره فعل الذئاب !

١٤١٠ فذئب الحسد هذا قد ضرب ضربته ، ثم جاء العذر اللبق ، (قائلا): « انا ذهبنا نستبق ..[١] » .

وليس لآلاف من الذئاب مثل هذا المكر . لكن هذا الذئب يفتضح في النهاية ، فاصبر وانتظر .

ذلك لأن حشر الحاسدين في يوم العقاب ، يكون بدون شك على صورة الذئاب !

وحشر الحريص الخسيس ، آكل الجيف ، يكون على صورة الخنزير يوم الحساب .

وأما الزناة فتكون أعضاؤهم المستورة خبيثة الرائحة ، وكذلك يفوح النتن من أفواه شاربى الخمر !

١٤١٥ وأما النتن الخفىّ الذى كان يدرك القلوب ، فيكون يوم الحشر محسوسا ظاهرا .

ان الوجود الآدمى مثل الأجمة ، فكن حذرا من هذا الوجود ان كنت من أصحاب تلك الأنفاس (الالهية) .

ففى وجودنا آلاف من الذئاب والخنازير . وفيه الصالح والطالح، والحسن والقبيح .

والحكم يكون لذلك الخلق الذى تتحقق له الغلبة . فحين يكون الذهب أكثر من النحاس عُدّت السبيكة ذهبا .

فالسيرة التى تكون غالبة على وجودك ، هى أيضا تلك الصورة التى يجب أن تكون عليها يوم الحشر .

---

(١) انظر سورة يوسف ، ١٢ : ١٧ .

١٤٢٠ فحينا يدخل الكيان البشرى ذئب ، وحينا يدخله مليح يوسفى الوجه مثل القمـر .

والخصال الصالحة والكريهة تنتقل من صدر الى صدر خـلال طريق خفى !

بل ربما انتقلت الحكمة والعلم والفضل من الآدمى الى الثـور والحمـار !

فالحصان المتعثر يغدو منطلقا طيعا ، والدب يرقص ، والعنـزة تؤدى السلام .

وانتقل الحرص من الانسان الى الكلب ، فأصبح هذا راعيا أو صيادا أو حارسـا .

١٤٢٥ وانتقل الصلاح من أصحاب الكهف الرقود الى كلبهم ، فأصبـح هذا ممن يطلبون الله .

وفي كل لحظة ينبثق في الصدر نوع جديد ، فتارة هو شيطـان وتارة هو ملك وتارة هو وحش كاسر !

فمن هذه الأجمة العجيبة ــ التى تعرفها جميع الاسود ــ طريق خفى يصلها بشباك الصدور .

فيا من أنت أقل من الكلب ! اسرق من الباطن جوهرة الروح . اسرقها من صدور العارفين .

فما دمت لصا ، فلتسرق مرة هذه الدرة اللطيفة ، وما دمت ستغدو حاملا فهذا عبء شريف .

كيف فهم المريدون أن ذا النون لم يجن
وانما قصد التظاهر بالجنــون

١٤٣٠ لقد ذهب الرفقاء الى السجن من جراء قصة ذى النـــون ، وأبدوا في تلك القصة رأيا .

قائلين : « انه فعل ذلك عن قصد أو لحكمة ، فهو في هذا الدين قبلة ، وهو فيه آية !

فكم هو بعيد عن عقله المماثل للبحر ، أن يغدو الجنون دافعــا اياه الى السفــه .

وحاش لله أن ذا النون ــ وهو في كمال جاهه ــ تحجب بــدره سحب المرض !

لقد دخل هذا المنزل تحاشيا لشر العوام . وهو من عار العقــلاء قد صار مجنونـــا !

١٤٣٥ انه من عار العقل الغبىّ الذى يقدس البدن ، ذهب متعمــدا ، وأصبح مجنونـــا .

(قائلا) : « أحكموا قيدى ، واضربونى على رأسى وظـهرى بأذناب البقر ، ولا تبحثوا عن (أسباب) ذلك !

لعلنى أجد الحياة في ضربات هذه السياط ، كما اقتبس القتيــل حياة من بقرة موسى ، أيها الثقاة .

لعلنى بضربة ذنب البقرة يحسن حالى ، وأغدو سعيدا كمــا غدا القتيل ببقرة موسى .

لقد بعث القتيل حيا بضربة من ذنب البقرة ، كما غدا النحــاس بالكيمياء ذهبا خالصا !

١٤٤٠ لقد نهض القتيل، ثم نطق بالأسرار.. وكشف عن هذه العصبة المتعطشة للدماء!

وقال : « ان من الواضح أن هذه الجماعة قد قتلتني . وهي ذاتها الآن تثير الخصومة من أجلي » .

وحينما يقع القتل بهذا الجسم الغليظ، يكون في ذلك حياة للكيان الذي يدرك الأسرار .

فترى روحه الجنة والنار ، وتعلم أيضا جملة الأسرار .

وتكشف عن الشياطين الدائبة على سفك الدماء ، كما تظهر شباك الخداع والرياء .

١٤٤٥ وان قتل البقرة لهو من شرط الطريق ، فلعل الروح يفيق بضربة من ذنبها .

فسارع الى قتل بقرة نفسك حتى يغدو روحك المستتر حيا واعيا .

عود الى حكاية ذى النون ، قدس الله روحه

حينما اقترب منه هؤلاء الأفراد ، صاح بهم قائلا : « من أنتم ؟ اتقوا الله ! » .

فأجابوه بأدب : « اننا من الأصدقاء ، وقد جئنا الى هنا سائلين عنك بأرواحنا .

كيف أنت يا من عقله بحر متعدد الفنون؟ وأي بهتان نسب الى عقلك الجنون ؟

١٤٥٠ وكيف يرقى الى الشمس دخان موقد الحمام؟ أم كيف يستطيع الغراب التغلب على العنقاء؟
فلا تحجب الحقيقة عنا ، بل وضح لنا ذلك الأمر . اننا محبوك ، فلا تعاملنا على هذا النحو !
فليس ينبغي للمرء أن يبعد عنـه محبيه ، أو يخدعهم بالتظاهـر والادعاء .
ألا فلتوضح لنا السر ، أيها المليـك ! ولا تحجب وجهـك خلف السحاب ، أيها البدر !
فنحن محبون صادقون ، وقد جرحت قلوبنا ، فنحن قد جعلناها مرتبطة بك في كلا العالمين .
١٤٥٥ فابتدرهم بفاحش القول وجزاف السباب ، وتلفظ بالهزاء مثل المجانين !
وقفز ثم أخذ يقذف بالحجارة ويلوّح بالعصا ، فهرب الجميع خوفا من ضرباته .
فقهقه ضاحكا ، وهزّ رأسه ثـم قـال : « تأمـل غرور هؤلاء الأصدقاء(١) !
تأمل الأصدقاء ! فأين علامة الصداقة عندهم ؟ ان الألم حبيب الى الأصدقاء مثل الروح !
فكيف يتنحّى الصديق عن ألم صديقـه ؟ ان الألم هو اللب ، والصداقة له بمثابة القشور .

---

(١) حرفيا : « تأمل هواء لحى هؤلاء الأصدقاء » .

١٤٦٠ أو لم يغد من علائم الصداقة الحق أن يكون الانسان سعيدا في البلاء والعناء وعند نزول المحن ؟
فالصديق مثل الذهب والبلاء مثل النار ، والذهب الخالص يكون سعيدا في قلب النار » .

كيف امتحن سيد لقمان حكمة لقمـان

ألم يكن من أمر لقمان ـ الذى كان عبدا طاهرا ، وكان مجتهدا في الخدمة ليل نهار ـ
أن سيده كان يجعله مقدما في الأمور ، وكان يعتبره أفضل مـن أبنائه ؟
فلقمان كان ابنا لأحد العبيد ، لكنه ـ مـع ذلك ـ كان سيدا ، وكان حرا من الهوى .
١٤٦٥ ان أحد الملوك قال للشيخ في معرض الحديث : « سلني أن أنعم عليك ببعض العطاء » .
فقال الشيخ : « أيها الملك ! أما تستحى أن تقـول لى مثل هذا القول ؟ ألا فلتترفع عن ذلك !
انى أملك غلامين ، كلاهما ممتهن حقير ، لكن كلا منهما سلطان عليك وأمير ! »
فقال الملك : « ومن هذان ؟ ان قولك هـذا لخاطىء » . فقـال الشيخ : « أحدهما هو الغضب ، وأما الثانى فهو الشهوة » .
فاعلم أن الملك الحق هو الذى تحرر من الملك . فهذا يكون بازغ النور بدون قمر ولا شمس !

١٤٧٠ وما ملك الكنز الا من كانت ذاته هى الكنز ، كما أن الوجـود (الحق) لا يتحقق الا لمن كان عدوا لوجوده الذاتى !

ان سيد لقمان كان في الظاهر شبيها بالسادة . لكن هذا السيد في الحقيقة كان عبدا ، ولقمان سيده !

وكم لهذا من أشباه في عالمنا المعكوس . فالجوهر في نظر النـاس أدنى مقاما من القش .

لقد أصبحت كلمة « مفازة » اسما لكل (نوع من) الصحارى .

وهكذا أصبحت الأسماء والألوان فخاخا لعقولهم .

وعند فريق منهم أن الثياب هى التى تعرّف بالانسان . فمن لبس القباء يقال عنه : « انه من العامة » .

١٤٧٥ وفريق يحكمون بظاهر الزهد المبنى على النفـاق . ولا بد من نور ليكون المرء بالزهد خبيرا [١] .

لا بد من نور برىء مـن التقليد والتضليل ، لتتسنى معرفة المرء بدون فعل أو قول .

نور ينفذ الى القلب عن طريق العقل ، فيرى حقيقـة الحال ، ولا يكون مقيدا بالنقل .

وان خواص علام الغيوب من بين العبـاد ، هم في عـالم الروح جواسيس القلوب[٢] .

---

(١) حرفيا : « لا بد من نور ليكون المرء جاسوس زهد » . والمعنى : لا بد من نور لتعرف حقيقة الزهد ، وهل هو صدق او رياء . فالجاسـوس هنا يقصد به من يعرف الأسرار .

(٢) « جواسيس القلوب » معناها : المطلعون على أسرار القلوب .

فمنهم من يدخل القلب مثل الخيال ، فيغدو سر الحـال منكشفا أمامه .

وماذا في جسم العصفور من طاقة أو مقدرة تكـون خافية على عقل الباز ؟

وماذا يكـون سر المخلوقات أمـام مـن أصبـح مدركا لأسرار الوحدانية ؟

وهذا الذي يكون مسيره فوق الأفلاك ، أي مشقة يلاقيها مـن السير فوق الأرض ؟

وما دام الحديد قد غدا في كف داوود مثل الشمع ، فكيف يكون الشمع في راحته ، أيها الظلوم ؟

ان لقمان كان سيدا في صورة عبد . وما كانت العبودية الا ديباجة فوق ظاهره !

فحين يذهب السيد الى مكان لا يكون فيه معروفا ، فانه يلبس خادمه لباسه .

ويلبس هو ثياب غلامه ، ثم يجعل الغلام مقدما عليه .

ويمشي وراءه كما يفعل العبيد في الطريق ، وذلك لكي لا يعرفه أحد .

ويقول : « أيها الغلام . تقدم أنت واجلس في مكـان الصدارة .

وسأحمل أنا نعلك كما يفعل أحقر العبيد !

وعاملني بشدة واشتمني ، ولا يكن منك لي أي توقير !

وسوف أعتبر أن خدمتك لي هي تركك الخدمة ، وذلـك لكي أغرس بذور الحيلة في أرض الغربة » .

ان السادة كانوا يفعلون فعل العبيد ، حتى يظن أنهم من العبيد .

لقد كانوا مترعين بالسيادة وعيونهم ملأى بها ، فمارسوا تلك الأعمال برضاء واقبال !

أما غلمان الهوى فهم على عكس ذلك . انهم يتظاهرون بأنهم سادة العقل والروح !

ومن السيد يأتى نهج التواضع . أما العبد فلا يجىء منه سوى أخلاق العبيد .

١٤٩٥ فلتعلم أن الأمور هكذا تبدو عكس ما هى عليه بين هذا العالم وذاك العالم .

ولقد كان سيد لقمان عارفا بتلك الحال الخفية عند لقمان ، وكان قد شهد من الغلامات ما يدل عليها .

فهذا العابر السبيل كان يعرف السر جيدا ، لكنه تابع سيره[1] (ملتزما الصمت) من أجل المصلحة .

وكان من البداية يريد تحريره ، لكنه كان ينشد رضاء لقمان ، فقد كان هذا مراد لقمان حتى لا يعرف أحد سره ، وهو الأسد الشجاع !

١٥٠٠ وأى عجب في أن تكتم السر عن الأشرار ؟ ان العجب ليس الا في كتمانك السر عن نفسك .

ألا فلتخف عملك عن عينيك ، حتى يسلم عملك من العين الحاسدة !

---

(١) حرفيا : لكنه كان يسوق حماره .

ولتسلم نفسك الى شباك المثوبة . ثم انتزع من ذاتك شيئا حينما تكون خارجا عن وعيك[1] .

ان الرجل الطعين يعطى الأفيـون حتى يستطاع اخـراج رأس الحربة من جسده .

وفي ساعة الموت يغدو مشغولا بهذا المخدر ، في حين أنهم يمزقونه ألما ويذهبون بحياته .

١٥٠٥ فأنت كلما أسلمت فؤادك الـى فكرة (تتملكه) ، يسلب منك شيء في الخفاء .

ومهما يكن لك من تفكر أو تحصيل ، فان اللص يدخل عليك من ذلك الجانب الذى تستشعر منه الأمان .

فليكن اشتغالك اذن بما هو أهم ، حتى يكـون ما يسلبه اللص منك هو الأدنى قيمة .

ان التاجر اذا سقطت بضائعه في الماء ، سارعت يده الـى استنقاذ أثمنها .

ولما كـان من المحتم أن شيئا سيضيع في الماء ، فلتقل بترك الأدنى ولتنقذ ما هو أفضل .

كيف ظهر فضل لقمان وحكمته امام ممتحنيـه

١٥١٠ ان كل طعام كان يحضر الى السيد ، كان يبعث به مـع شخص الى لقمان ،

(١) المراد « بانتزاع شيء من الذات حينما يكون المرء خارج الوعى » أن يخلص الانسـان الذات من انانيتها .

حتى يضع لقمان يده فيه ، وكان قصد السيد مـن ذلك أن يأكل فضلة طعامه .

لقد كان يأكل بقية طعامه ، فينتشى بها . أما الطعام الذى لم يأكل منه لقمان فقد كان يرميه !

وان آكل منه فذلك كان بدون رغبة ولا اشتهاء . لقد كان ارتباطه به لا انفصام له .

(وذات يـوم) أهديت اليه بطيخة ، فقـال (لأحد الغلمان) : « اذهب وادع ولدى لقمان » .

١٥١٥ وحينما اقتطع منها قطعة وناوله ايـاها ، أكلها وكأنما هو يأكل السكر أو الشهد .

ومن التذاذه بتذوقها ناوله قطعة ثانية ، وظل (يعطيه) حتى أكمل سبع عشرة قطعة .

وبقيت قطعة فقال السيد : « سوف آكل أنا هذه القطعة ، لأرى كم هى حلوة هذه البطيخة .

ان لقمان يتناولها ملتذا ، حتى أن تذوقه لها قـد جعل الطبـاع تشتهيها ، وتلتمس لقمه منها » .

فحين تناولها السيد وجد لحموضتها مذاق النار ، فالهبت لسانه وأحترق بها حلقه !

١٥٢٠ وأذهله طعمها المر عـن نفسه حينا ، ثم قال بعـد ذلك للقمان : « يا من أنت الروح والوجود !

كيف جعلت هذا السم ترياقا ؟ أم كيف تصورت هـذه القسوة لطفا ؟

أي صبر هذا ؟ ومن أي وجه هـذا الجلد ؟ أم لعلك تعد الحياة عدوا لك ؟

لماذا لم تتعلل بحيلة تحتج بها ، قائلا : « ان لى عذرا ، فمهلا على برهة من الزمان ».

فقال لقمان : « انني من يديك المنعمتين كم أكلت ، حتى انحنيت خجلا !

١٥٢٥ وقد استحييت ألا أستسيغ المر من كفك مرة واحدة ، يا صاحب المعرفة !

فما دامت كل أجزائى قد نبتت من انعامك ، وما دمت غريق حَبِّك وشباكك ،

فان أنا صرخت واستغثت من تذوق مرارك مرة واحدة ، فليُحث فوق كل أعضائى تراب مائة طريق !

لقد كان لهذا البطيخ حلاوة يدك السكرية العطاء ! وكيف كانت هذه تدع أية مرارة في البطيخ ؟ »

ان المحبة تجعل المر حلو المذاق ! وبالمحبة يغـدو النحاس ذهبى (الصفات) !

١٥٣٠ وبالمحبة يغدو المعتكر ذا صفاء ! وبالمحبة تكـون الأوجاع هى الشفاء !

وبالمحبة يُبعث الميت حيا ! والمحبة هى التى تجعل من الملك عبدا .

وهذه المحبة انما هى نتيجة المعرفة . ومن ذا الذى جلس جزافا على مثل هذا التخت ؟

وكيف تلد المعرفة الناقصة مثل هذا العشق ؟ انها تلد عشقا ناقصا يتعلق بالجماد !

فاذا ما أبصر في جماد لونا مطلوبا ، فكأنما سمع صوت حبيب يدعوه بالصفير .

١٥٣٥ ان المعرفة الناقصة لا تحسن التمييز . فلا جرم أنها تحسب البرق شمسا .

فالرسول حين قال ان الناقص ملعون ، كان تأويل النقص هنا نقصان العقل .

ذلك لأن ناقص الجسم يكون موضعا للرحمة . وكيف يليق بالمرحوم اللعن والايذاء ؟

أما نقص العقل فهو المرض الخبيث . انه موجب اللعنة ، الجدير بأن يقصى صاحبه (عن حضرة الخالق) .

ذلك لأن اكمال العقول ليس بعيد المنال ، أما اكمال الأبدان فأمر ليس في المقدور .

١٥٤٠ فكل كافر بعيد (عن لقاء ربه) ، لم ينبثق كفره وفرعونيته الا من نقصان عقله !

أما (المبتلى) بنقصان البدن فقد جاءه الفرج في قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج[١] » .

ان البرق يكون آفلا مفرط البعد عن الوفاء . وبدون الصفاء لن تعرف الآفل من الباقي .

البرق يضحك ، فعلى من يضحك ؟ خبرني ! انه يسخر من المرء الذى جعل قلبه متعلقا بنوره .

---

(١) الفتح ، ٤٨ : ١٧ .

ان أنوار الفلك مقطعة الأرجل ، فأين هي مــن ذلك النور الذي لا هو شرقي ولا غربي[1] .

١٥٤٥ واعلم بأن البرق مثال لمن يخطف الأبصار[2] ، أما النور الباقي فهو الذي يمدها بالعون[3] .

فركوبك الفرس فوق زبد البحر ، أو قراءتك كتابا في نور البرق ، هما ــ بدافع الحرص ــ عمى عن ابصار العواقب . انهما سخرية منك بقلبك وعقلك !

فمن خصائص العقل أنه بصير بالعواقب . أمــا النفس فهي التي لا ترى العواقب .

فالعقل الذي تغلبت عليه النفس أصبح نفسا . انه المشتري ، تغلب زحل عليه ، فصار نحسا .

١٥٥٠ فأدر في ذلك النحس هــذا النظر ، وتأمل حقيقة مــن صنع لك النحس .

ان ذلك النظر الذي يشهد هذا الجر والمد ، قــد شق في النحس سبيلا الى السعد .

ذلك لأنه (الخالق) يحولك دوما من حال الى حــال ، مظهرا لك الضد بضده ابان الانتقال .

واذ ذاك يتولد لك الخوف من أن تكون مــن أصحاب الشمال . وما يشتاق لذة أصحاب اليمين الا الرجال .

---

(١) انظر : سورة النور ، ٢٤ : ٣٥ . (٢) انظر : سورة البقرة ، ٢ : ٢٠ .
(٣) حرفيا : « أما النور الباقي فانه لها كل الأنصار » .

ويكون لك جناحان[1] ، فالطائر ذو الجناح الواحد يعجز عن الطيران ، أيها المفضال !

١٠٥٥ فلتسمح لى — يا الهى — ألا أعود الى الكلام ، أو هب لى اذنا بأن أبوح بكل شيء .

وان لم ترد لى هذا ولا ذاك ، فالأمر اليك . فأنى للمرء أن يعرف أين يكون مقصدك .

فلا بد من روح ابراهيم ، لكى يبصر المرء بنورها الفردوس والقصور في صميم النار !

ويرقى درجة درجة الى القمر ثم الشمس ، ولا يبقى مثل الحلقة أسير الباب .

ثم يتجاوز السماء السابعة مثل الخليل ، قائلا : « لا أحب الآفلين[2] » .

١٥٦٠ ان عالم الجسد هذا مورد للخطيئة ، الا بالنسبة لمن تخلص من الشهوة والهوى .

تتمة قصة الحسد الذى اضمره هؤلاء الحشم لذلك الغلام الذى كان اثيرا عند السلطان

ان قصة المليك والأمراء ، وحسدهم ذلك الغلام الخاص الذى كان سلطان الحكمة ،

(١) الجناحان يراد بهما الخوف والرجاء المشار اليهما فيالبيت السابق.
(٢) الأنعام ، ٦ : ٧٦ .

قد أبعدنا عنها ما جرنا اليه استطرادنا في القــول . وقــد وجبت العودة اليها الآن لاكمالها .

فكيف لا يعرف بستانى الملك ــ ذلك الموفق السعيد ــ كيف يميز بين شجرة وشجرة ؟

بين تلك الشجرة التى هى مرة منبوذة ، وذلك الشجر الذى تعدل واحدة منه سبعمائة شجرة .

وكيف يسوى بينهما في الرعاية حين ينظر اليهما بعين العاقبة ؟

ومهما بدت هذه الأشجار متشابهة ساعــة النظر اليها ، فما الغاية منها ؟ انها الثمار .

ان الشيخ الذى تحقق له أن ينظر بنور الله ، أصبح عارفا بالنهاية والبداية .

لقد أغلق في سبيل الحق تلك العين التى ترنو الى حظيرة (الدنيا) ، وسارع الى فتح تلك العين التى تبصر العاقبة .

وهؤلاء الحاسدون كانوا أشجارا رديئة . لقد كانوا ذوي جوهر مر ، وطالع منحوس !

لقد كانوا يجيشون بالحسد ويزبدون ، وكانــوا ينشرون المكر في الخفاء .

وذلك ليطيحوا برأس ذلك الغلام الأثير ، ويقتلعوا جذوره مــن الزمان .

وكيف يغدو فانيا وقد كان المليك روحه ؟ وأما جذوره فقد كانت في عصمة الله .

ولقد وقف الملك على هذه الأسرار ، لكنــه لزم الصمت مثل أبي

بكر الربابي[1] .

وبينما هو يشهد قلوب ذوي الجوهر الخبيث ، كان يصفق بيديه (ساخرا) من هؤلاء الخرافين .

١٥٧٥ لقد كانوا قوما محتالين يصطنعون المكر ، ليغرقوا المليك في كوب فقاع !

وكيف يتسع كوب الفقـاع ــ أيها الحمير ــ لملك بالغ العظمة ، لا حدود له ؟

لقد كانوا يحيكون شبكة للمليك ، لكنهم في عاقبة الأمر تعلموا منه ذلك التدبير .

فما أنحس التلميذ الذى يشرع في منافسة أستاذه ، ويتصدى له !

ولأى أستاذ (يكون هذا التصدى) ؟ انـه أستاذ الكون الذى يستوى أمامه الظاهر والمكنون !

١٥٨٠ لقد صارت عينه ناظرة بنور الله فمزقت بذلك حجب الجهل .

وهذا التلميذ قد تحجب أمام ذلك الحكيم بستار من قلبه المهلهل كالبساط البالى !

فهذا الستار يضحك منه بمائة فم ، كل فم منها غدا ثغرة (تتكشف من خلالها أسراره) .

فيقول الأستاذ للتلميذ : « يا أخس مـن الكلب ! أما عندك وفاء لي ؟

---

(١) يذكر الشراح ان ابا بكر الربابي كان احد الصوفية المولهين وانـه لزم الصمت مدة طويلة ، بلغت سبعة أعوام ، وانه كان اذا سمع كـلامـا موجبا للقهر تحمله وضرب الأرض برجله . انظر المنهج القوى ، ٢ ، ٣٦٣ وكذلك تعليقات نيكولسون .

فهب أنني لست أستاذا يقطع الحديد ، وهب أنني مثلك تلميذ عمي القلب ،

١٥٨٥ ألم يكن لك مني عون في نفسك وروحك ؟ وبدوني ما كان ينساب من أجلك ماء !

فقلبي كان مصنعا لحسن طالعك ، فلماذا تحطم هذا المصنع ، أيها الخالي من الرشد ؟

انك تقول : « لقد كنت أقدح النار في الخفاء » . أوليست هناك نافذة بين القلب والقلب ؟

فهو في العاقبة يطلع من هذه النافذة على فكرك . فالقلب يشهد على ما يدور في خلدك .

وهب أنه — لكرمه — لا يعنف في مواجهتك ، ويبتسم لكل ما تحدثه به ، ويقول : « نعم » .

١٥٩٠ فليس ابتسامه لأنه ملتذ بريائك ، بل هو يضحك (هازئا) من خفي أفكارك !

فالخداع قد أضحى جزاء للخداع ، فاضرب بكأس تضرب بكوز، ذلك جزاء وفاق .

فلو أنه كان قد ابتسم لك بسمة الرضى ، لتفتحت لك مئات الألوف من الورود .

فقلبه ان أقدم برضاه على عمل ، فاعلم أنه مثل الشمس تدخل برج الحمل .

فبها يضحك النهار ويزدهر الربيع . وبها تتفتح الأزاهير وتمازج خضرة الرياحين .

١٥٩٥ وآلاف البلابل والقمارى تصب غناءها في هذا العالم المحروم .
فان أنت أبصرت أوراق روحك مصفرة ثم مسودة ، فكيف لا تدرك غضب المليك ؟
ان شمس المليك في برج العتاب تجعل الوجوه سوداء مثل الكتاب[1] .
وأرواحنا أوراق لعطارد (يخط فيها) ، وهذا البياض وذاك السواد ميزاننا .
ثم يعود فيخط منشورا بمداد أحمر وأخضر ، وذلك لتنجو الأرواح من الكآبة والعجز .
١٦٠٠ ولقد جاء خط الربيع باللون الأحمر والأخضر ، بل هو — لو تأملته[2] — شبيه بخط قوس قزح .

كيف شع تعظيم كتاب سليمان — عليه السلام — من صورة الهدهد الحقيرة الى قلب بلقيس

مائة رحمة على بلقيس ، تلك التى وهبها الله عقل مائة رجل !
لقد حمل الهدهد اليها كتابا ، عليه خاتم سليمان ، وبه بضع كلمات ذات بيان .
فقرأت تلك النكات ذات الشمول ، ولم تنظر باحتقار الى الرسول .
لقد رأته عينها هدهدا ، أما روحها فقد أبصرته عنقاء ! ورآه حسها مثل الزبد وأما قلبها فرآه مثل البحر !

---

(١) فضلنا هنا رواية « همجون كتاب » على « همجون كباب » ، لأنها اوثق ارتباطا بمعانى الأبيات التالية .
(٢) حرفيا : « وهو في الاعتبار ... »

١٦٠٥ ان العقل ــ من جراء هذه الطلاسم ذات اللونين ــ في حرب مع الخس كحرب محمد مع أمثال أبي جهل .

فعند الكفار أن أحمد ليس سوى بشر ، ما داموا لم يشهدوا منه معجزة شق القمر .

فعينك التي لا تتجاوز شهود الحس جديرة بأن تملأ بالتراب . ان عين الحس عدو للعقل والدين !

ولقد وصف الله عين الحس بأنها عشواء ، ونعتها بأنها عابدة للصنم ، عدو لنا .

ذلك لأنها أبصرت الزبد ولم تبصر البحر ، وكذلك لأنها شهدت الحال ولم تشهد الغد .

١٦١٠ ان سيد الغد والحال أمامها ، لكنها لا ترى من الكنز مثقال شعيرتين !

فلو أن ذرة حملت رسالة من تلك الشمس ، لغدت شمس الدنيا خادمة لتلك الذرة !

والقطرة التي جاءت سفيرا من بحر الوحدة ، تكون البحار السبعة من أساراها !

ولو أن سفيره كان حفنة من تراب ، لخفضت الأفلاك رؤوسها أمام ترابه !

فتراب آدم حين غدا سفيرا للحق، خفضت رؤوسها له ملائكة الحق.

١٦١٥ ولأي شيء كان انشقاق السماء[1] ؟ ان ذلك لأن ترابيا قد فتح عينا !

---

(١) انظر : سورة الانشقاق ، ٨٤ : ١ .

ان التراب يرسب تحت الماء لكثافته . لكن تأمل ذلك التراب الذى تجاوز العرش مسرعا !

فاعلم اذن أن لطافة الماء ليست من الماء ، وانها ليست سوى عطاء المبدع الوهاب .

فلو أنه جعل الهواء والنار سفليين ، ولو أنه جعل الشوك يتفوق على الورد ،

فهو الحاكم وهو الله يفعل ما يشاء . وهو الذى يبعث الدواء من عين البلاء !

١٦٢٠ فلو أنه جعل الهواء والنار سفليين ، وجعلهما ظلمة وكدرا وثقلا ،

ولو أنه جعل الثرى والماء علويين ، وجعل طريق الأفق ممهدا تطويه الأقدام ،

فقد أصبح من اليقين أن الذى يعز من يشاء هو الذى قال لكائن ترابى : « انشر جناحيك » .

وهو الذى قال للنار : اذهبى ، وكونى ابليس ، واهبطى بتلبيسك الى حضيض الأرض السابعة .

يا آدم ، أيها الترابى ! اصعد فوق السها ! وأنت يا ابليس أيها النارى ! اهبط الى حضيض الثرى !

١٦٢٥ اننى لست الطبائع الأربع[1] ولا العلة الأولى ، وانما أنا الباقى والمتصرف على الدوام .

وفعلى مستقيم وليس بذى علة . كما أن تقديرى لا علة فيه ، أيها السقيم .

---

(١) الطبائع الأربع هى الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة .

وانى لأبدل عادتى حين أشاء ، وأقـر هذا الغبـار الثائر حين أريد .

وأقول للبحر : « هيا ، كن مليئـا بالنار » . وأقـول للنار : « اذهبى ، وكونى بستان ورد » .

وأقول للجبل : « كن خفيفا كالصوف[1] » . وأقـول للفلك : « كن ممزقا متداعيا أمام العين » .

١٦٣٠ وأقول : « أيتها الشمس ، كونـى مقترنة بالقمر » ، وأجعلهما معا كقطعتين من السحاب الأسود .

ونحن الذين نجفف عين الشمس ، ونجعل بالقدرة عين الدم مسكـا .

والشمس والقمر يغـدوان كثورين أسوديـن ، يثقل الالـه عنقيهما بالأعباء .

انكار المتفلسف قراءة « ان اصبح ماؤكم غورا »

كان أحد المقرئين يقرأ من الكتاب (قوله تعالى) : « ان أصبح ماؤكم غورا[2] » ، يعنى « لو أننى حبست الماء عن العيـــن ، وحجبت المياه في الأغوار ، وجففت العيـون وجعلت الأرض قاحلة ،

(١) اشارة الي قوله تعالى « وتكون الجبال كالعهن المنفوش » . سورة القارعة ، ١٠١ : ٥ .

(٢) اقتباس من قوله‌تعالى : «قل ارايتم ان اصبح ماؤكم غورا فمن‌ياتيكم بماء معين » . (سورة الملك ، ٦٧ : ٣٠) .

فمن ذا الذى يعود بالماء ثانية الى العيون ، سواى أنا ، من تنزه عن مثيل في الفضل والجلال » .

وكان يمر بجوار المكتب حينذاك متفلسف منطقى مستهان القدر .

فحينما استمع الى الآية قـال ساخرا : « سوف نحصل علـى الماء بالمعول .

اننا بضربة الفأس ، وحدة المعول نخرج المـاء من جوف الأرض الى سطحها[1] » .

ونام تلك الليلة ، فرأى في المنام أن رجلا شجاعا ضربه ضربة أعمت كلتا عينيه ،

وقال له : « أيها الشقي ! ان كنت صادقـا فاستنبط بالفـأس بعض النور من نبعى عينيك » .

ونهض الرجل في الصباح فوجد عينيه قد عميتا . ووجد أن النور الفياض قد اختفى منهما !

فلو أنه انتحب واستغفر ربه لرد اليه ــ بـكرم الله ــ ما فارقه من نور البصر !

لكنه لم يكن في وسعه الاستغفار ، فمذاق التوبة ليس نقلا لكـل نشوان .

ان قبح أعماله وشؤم جحوده قد أغلقا أمام قلبه سبيل التوبة .

ان قلبه بقسوته صار مثل وجه الصخر . فكيف تستطيع التوبة أن تشقه من أجل الغراس .

فأين مثيل شعيب حتى يجعل الجبل بدعائه تربة للزراعة .

---

(1) حرفيا : « من اسفل الى اعلى » .

ان الأمر الصعب المستحيل قد غدا ممكنا بضراعة الخليل وايمانه .
وكذلك بسؤال المقوقس للرسول ، صارت أرض صخرية مزرعة كاملة الصفات !
وعلى العكس من ذلك انـكار المرء ، فهو يجعل الـذهب نحاسا والصلح حربا !
١٦٥٠ ان هذا الغش بمثابة كهرباء المسخ ! وانه ليحول الأرض الخصبة الى حجارة وحصى !
وليس كل قلب بمأذون أن يخر ساجدا ، فجزاء الرحمة ليس نصيبا لكل عامل .
فحذار ، لا تقترف الجـرم والاثم مستندا الى ذلـك ، (قائلا) : « لسوف أتوب ثم ألتجيء الى الله » .
فلا بد للتوبة من لهيب وماء ! لا بد للتوبة من برق وسحاب !
ولا بد للثمار من نار وماء . وتلك الظاهرة يلزم لتحقيقهـا البرق والسحاب .
١٦٥٥ فبدون برق القلب وسحاب العينين ، كيف كانت تسكن نار التهديد والغضب ؟
وكيف كانت تنمو خضرة ذوق الوصال ، أم كيف كـانت تجيش العيون بالماء الزلال ؟
وكيف كانت حديقة الورد تبوح بسرها للبستان ؟ أم كيف كـان البنفسج يرتبط بالعهد مع الياسمين ؟
وكيف كان شجر الغرب يبسط أيديه في الدعاء ؟ أم كيف كـانت أية شجرة تعلو برأسها في الهواء ؟

وكيف كانت البراعم ذات الأكمام الحافلة بالنثار تنفض أكمامها أيام الربيع ؟

١٦٦٠ ومتى كانت خدود الأقاحي تشتعل بلون الدماء ؟ ومتى كان الورد يبرز العسجد من أكياسه ؟

ومتى كان البلبل يأتي ويشم عبير الورد ؟ ومتى كانت الفاختة تهتف « كو كو » كأنها تقول « أين ؟ أين ؟[1] » .

ومتى كان اللقلق يهتف بروحه « لك لك » ؟ وماذا تعني « لك » ؟ انها تعنى : « لك الملك أيها المستعان » .

وكيف تظهر الأرض أسرار الضمير ؟ وكيف يغدو البستان منيرا كالسماء ؟

ومن أين قد جاءا بهاتيك الحلل ؟ انها كلها من كريم رحيم .

١٦٦٥ فهذه اللطائف كلها علامة للشاهد . انها آثار القدم (يقتفيها) الرجل العابد .

وليس يسعد بالأثر الا من رأى المليك . أما من لم يره فليس له انتباه الى ذلك .

فروح ذلك الانسان الذي في ساعة « ألست » ، رأى ربه ، وغدا ذاهلا ثملا ،

هو الذي يعرف رائحة الخمر ، لأنه قد احتسى الخمر . ومن لم يكن قد احتساها فانه لا يعرف شذاها .

ذلك لأن الحكمة مثل الناقة الضالة ، لكنها كالمنادي ، دالة للملوك .

---

(١) حرفيا : «ومتى كانت الفاختة تهتف (كوكو) كأنها طالب» . و «كو» معناها « أين ؟ » .

١٦٧٠ وانك لترى في منامك وجها لطيفا ، وهذا يعطيك وعدا وعلامة ،
(قائلا) ان مرادك سوف يتحقق، وآية ذلك أن فلانا سوف يزورك
في الغد .

ومن علامات ذلك الزائر أن يكون راكبا . ومن علاماته أنه
يحتضنك .

ومن علاماته أنه سوف يواجهك مبتسما . ومن علاماته أنه سوف
يطوى أمامك ساعديه .

ومن العلامات أنه حين يجيء الغد ـ فانك لافتتانك بهذا الحلم ـ
لا تخبر به انسانا .

١٦٧٥ ومن تلك العلامات أيضا قول الحق لزكريا : « آيتك ألا تكلم
الناس ثلاثة أيام[1] » .

فالزم الصمت ثلاثة أيام مهما أصابك من خير أو شر. فهذه آية منبئة
بأن يحيى سوف يأتى اليك .

ولا تنبس بكلمة طيلة الأيام الثلاثة . فان هذا السكوت آية
حصول مرادك .

فحذار ، ولا تبح في القول بتلك العلامة . واجعل هذا الكلام خبيئا
في قلبك .

وهكذا يحدثه بهذه العلامات الحلوة كالسكر . بل ماذا تكون
هذه ؟ انه ينبئه بمائة أخرى .

١٦٨٠ فهذه علامة بأنك سوف تتلقى من الله ذلك الملك الذى كنت
تنشده ـ

---

(١) انظر : سورة آل عمران ، ٣ : ٤١ .

ذلك الذى بكيت من أجله خلال الليالى الطوال ! ذلك الذى كنت تتحرق بالضراعة من أجله خلال الأسحار !

ذلك الذى ـ بدون تحققه ـ غدا نهارك مظلما ، وغدا عنقك نحيفا كالمغزل !

ذلك الذى قدمت كل ما تملك زكاة في سبيله ، فغدت بضاعتك شبيهة بزكاة الذين يتخلون عن كل شيء .

فتخليت عن متاعك ونومك ولون وجهك ، وجعلت رأسك فداء لمرادك ، وغدوت في نحول الشعرة[1] !

١٦٨٥ ولكم (في سبيله) جلست في النار مثل العود ، وكم تصديت للسيف مثل الخوذة .

ومن أمثال هذه الاندفاعات ـ التى لا حيلة فيها ـ مئات الآلاف ، وكلها من صفات العشاق التى لا يسعها حصر !

وأقبل الصبح بعد أن رأيت في ليلك هذا الحلم ، فغدا نهارك مظفرا بتلك البشائر .

فأدرت عينيك نحو الشمال ونحو اليمين ، متفكرا ، أين تلك الآية وأين هاتيك العلامات ؟

فها أنت ذا ترتعد كورقة النبت (قائلا) : « أواه لو مضى النهار بدون أن تظهر تلك الآية » .

١٦٩٠ وها أنت ذا تجرى في الشوارع والأسواق والديار ، كما يجرى رجل قد أضاع عجلا !

---

(١) يصف هنا الصوفى الذى يتخلى عن كل متع الحياة ومغرياتها المادية .

خيرا أيها السيد ؟ ولأي شيء جريك هذا؟ ومن ذا الذى يخصك ، وقد أضعته هنا ؟

فتقول : « انه خير ، ولكـن خيري أنا لا يجـوز أن يعرفه أحد سواى !

فلو أنني تحدثت عنه لضاعت مني آيتي . وان ضاعت الآية ، فقد حان وقت الموت » .

وها أنت ذا تحملق في وجه كل راكب ، فيقول لك : « لا تحملق في وجهى كالمجنون ! »

١٦٩٥ فتقول له : « انني قد فقدت صاحبا . وقـد وليت وجهى لطلبه والبحث عنه .

فيا أيها الراكب ، كن رحيما بالعشاق ، ومهد لهـم الأعذار! أدام الله لك السعادة » .

فحينما اجتهدت في الطلب تحقق لك النظر . والجدّ لا يخطيء ، كما جاء في الخبر .

فقد أقبل ــ على غير توقع منك ــ فارس سعيد ، واذا به يضمك بقوة الى صدره .

واذا بك تفقد الوعي ، وتقع فـوق ظهرك . فيقـول من لا خبر عنده : « ان هذا لخداع ونفاق » .

١٧٠٠ وأى بصر لهذا بما يداخل سواه من الوجد ؟ انـه لا علم له بمن تنبيء بوصاله هذه العلامة .

ان هذه العلامة ذات مغزى لمن أبصرها (من قبل) . أمـا سواه فكيف تتضح له هذه العلامة ؟

فالمرء تتلقى روحه روحا ، كلما أقبلت من الخالق احدى الآيات .

انها الماء وقد أقبل نحو السمكة المسكينة . فهذه العلامات هي ما يعنيه قوله تعالى : « تلك آيات الكتاب[1] » .

وهذه الآيات التي خص بها الأنبياء ، وقف على ذلك الروح الذي يكون من العارفين .

١٧٠٥ لقد بقي هذا الكلام ناقصا وبدون قرار . فلا طاقة لي فاعذرني ، اني فقدت فؤادي !

وكيف يستطيع امرؤ أن يعد الذرات ، وبخاصة من كان قد ذهب بعقله العشق !

فهأنذا أعد أوراق البستان ! وهأنذا أحصي أصوات البط والغربان !

وليس يحصيها عد ، لكنني أعدها ليكون ذلك سبيلا لرشد الممتحن .

ولو أنك عددت نحس كيوان أو سعد المشتري فما للحصر سبيل الى ذلك .

١٧١٠ لكن من الواجب شرح بعض من هذين الأثرين ، أعني ما ينجم عنهما من نفع أو ضر .

وذلك ليعلم أهل السعد والنحس قدرا يسيرا من آثار القضاء .

فمن كان طالعه المشتري غدا سعيدا بابتهاجه ونباهة شأنه .

ومن كان طالعه زحل ، فلا بد له أن يكون في الأمور محتاطا من كل الشرور .

---

(١) هذه العبارة وردت في مواضع عدة من القرآن الكريم . انظر مثلا : سورة يونس ، ١٠ : ١ .

ولو أننى حدثت زحلي الطالع عن نـار زحل ، لاحترق بها ذلك المسكين !

١٧١٥ لقد أذن لنا الله (أن نذكره) اذ قال : « اذكروا الله[1] » . فقد رآنا في النار فوهبنا النور .

وقال : « مع أننى منزه عن ذكركم ، ومـع أن تصاويركم ليست لائقة بى ،

فانه لا سبيل ــ أمام المولع بالتصوير والخيال ــ الى ادراك ذاتنا بدون مثال .

وان التصور الجسمانى لخيال ناقص . فوصف الجلالة برىء من تلك (التصورات الحسية) .

فلو أن شخصا يقـول : « ان المليك ليس بحائك » . فأى مدح هذا ؟ لا بد أن قائله من الجهلاء .

كيف انكر موسى عليه السلام مناجاة الراعى

١٧٢٠ رأى موسى راعيا على الطريق ، وكان هذا يردد : « الهي ، يا من تصطفى (من تشاء) ،

أين أنت حتى أصبح خادما لك ، فأصلح نعليك ، وأمشط رأسك !

وأغسل ثيابك ، وأقتل ما بها من القمل ! وأحمل الحليب اليك ، أيها العظيم !

وأقبل يدك اللطيفة وأمسح قدمك الرقيق ، وانظف مخدعك حين يجيء وقت المنام .

(١) انظر : سورة الاحزاب ، ٣٣ : ٤١ .

يا من فداؤك كل أغنامى ! ويا من لذكرك حنينى وهيامي ! »

وأخذ الراعي يردد هذا النمط من هراء القول . ورآه موسى ، فناداه قائلا : « مع من تتحدث أيها الرجل ؟ »

فقال الراعى : « مع ذلك الشخص الذى خلقنا . مـع من ظهرت بقدرته هذه الأرض ، وتلك السماوات » .

فقال موسى : « حذار ، انك قد أوغلت في ادبـارك . وما غدوت بقولك هذا مسلما بل صرت من الكافرين .

ما هذا العبث وما هذا الكفر والهذيان ؟ ألا فلتحش فمك بقطعة من القطن .

ان نتن كفرك قد جعل العالم كله منتنا ! بـل ان كفرك قد مزق ديباجة الدين !

ان النعل والجورب يليقان بك . ولكن متى كان مثل هذين يليقان بالشمس ؟

فلو أنك لـم تغلق حلقك عن مثل هذا الكـلام ، فان نارا سوف تندلع وتلتهم الخلق !

وان لم تكن النـار قد أندلعت فما هذا الدخان ؟ ولماذا أصبحت نفسك مسودة وروحك مردودا ؟

وان كنت تعلم أن الله هو الحـاكم ، فكيف اعتقدت بمثل هـذا السفه والوقاحة ؟

ان صداقة الأحمق هى عين العداوة . وما أغنى الحق تعالى عـن مثل هذه العبادة !

فمع من تتحدث ؟ أمع العم أو الخال ؟ وهل الجسم والحاجة من صفات ذي الجلال ؟

ان الحليب يشربه من يكون قابلا للنشأة والنماء . والنعل يلبسه من هو بحاجة الى القدم .

وحتى لو كان هذا القيل والقال (موجها) لعبد الله الذى قال عنه الحق : « انه ذاتي وأنا ذاته » ،

هذا العبد الذي هو مغزى حديث الحق : « مرضت فلم تعدنى . لقد غدوت مريضا ، وليس عبدى وحده هو الذى مرض » ،

لكان مقالك هذا عبثا وهراء في حق هذا العبد ، بعد أن غدوت له سمعا وبصرا[1] .

١٧٤٠ ان التحدث بدون أدب مع خواص الحق ، يميت القلب ويجعل الصحائف سودا .

فمع أن الرجال والنساء جميعا من جنس واحد ، فانك لو سميت رجلا « فاطمة » ،

لسعى لقتلك ان وجد الى ذلك سبيلا ، مع أنه قد يكون حسن الخلق حليما وادعا .

ان اسم فاطمة مدح في حق النساء ، لكنك لو دعوت رجلا به كان كطعن السنان !

واليد والقدم هما في حقنا من صفات المديح . لكنهما في حق الخالق المنزه ذم !

١٧٤٥ وقوله : « لم يلد ولم يولد » هو الوصف اللائق به ، مع أنه خالق الوالد والمولود .

---

(١) حرفيا : « وقد غدا بى يسمع وبى يبصر » .

وكل ما كان جسما فالولادة صفة له . وكل ما يولد فهو من هذا الجانب من النهر .

ذلك لأنه من عالم الكون والفساد ، فهو مهين . ومن المحقق أنه حادث ويقتضي محدثا » .

فقال الراعي : « يا موسى ، لقد ختمت على فمي ! وها أنت ذا قد أحرقت بالندم روحي ! »

ومزق ثيابه ، وتأوه ، ثم انطلق مسرعا الى الصحراء ، ومضى .

كيف عاتب الحق تعالى موسى عليه السلام من اجل الراعي

١٧٥٠ فجاء موسى الوحي من الله (قائلا) : « لقد أبعدت عنى واحدا من عبادي !

فهل أتيت لعقد أواصر الوصل ، أم أنك جئت لايقاع الفراق ؟

فما استطعت لا تخط خطوة نحو ايقاع الفراق ، فأبغض الحلال[١] عندي هو الطلاق !

لقد وضعت لكل انسان سيرة ، ووهبت كل رجل مصطلحا للتعبير ،

يكون في اعتباره مدحا على حين أنه في اعتبارك ذم . ويكون في مذاقه شهدا وهو في مذاقك سم !

١٧٥٥ انني منزه عن كل طهر وتلوث ، وعن كل روح ثقلت (في عبادتي) أو خفت .

---

(١) حرفيا : « ابغض الأشياء ... »

والتكليف من جانبي لم يكن لربح أنشده . لكن ذلك كـان لكي أنعم على عبادي .

فأهل الهند لهم أسلوبهم في المديح. ولأهل السند كذلك أسلوبهم.

ولست أغدو طاهرا بتسبيحهم ، بل هم المتطهرون بذلك ، الناثرون الدر .

ولسنا ننظر الى اللسان والقال ، بل نحن ننظر الى الباطن والحال.

١٧٦٠ فنظرنا انما هو لخشوع القلب ، حتى لو جاء اللسان مجردا من الخشوع .

فالقلب يكون هو الجوهر ، أما الكـلام فعرض . والعرض يأتي كالطفيلي أما الجوهر فهو المقصد والغرض .

فالى متى هذه الألفاظ ، وذلك الاضمار والمجاز ؟ اني أطلب لهيب (الحب) ، فاحترق ، وتقرّب بهذا الاحتراق !

أشعل في روحك نـارا من العشق ، ثم احرق بها كـل فكر وكل عبارة !

يا موسى ! ان العارفين بالآداب نوع من الناس ، والذين تحترق نفوسهم وأرواحهم (بالمحبة) نوع آخر » .

١٧٦٥ ان للعشاق احتراقا في كل لحظة ! وليس يفرض العشر والخراج على قرية خربة !

فلو أنه أخطأ في القول فلا تسمه خاطئا . وان كان مجللا بالدماء ، فلا تغسل الشهداء .

فالدم أولى بالشهداء من الماء ! وخطأ المحب خير من مائة صواب !

فليس في داخل الكعبة رسم للقبلة . وأي ضرر يحيـق بالغواص

ان لم يلبس النعل الواقى من الغوص في الثلوج ؟
فلا تلتمس الهدايـة عنـد السكارى . وكيف تطلب ممن تهلهلت ثيابهم رفو تلك الثياب ؟
١٧٧٠ ان ملة العشق قد انفصلت عن كافة الأديـان . فمذهب العشاق وملتهم هو الله .
ولو لم يكن للياقوتة خاتم فلا ضير في ذلك . والعشق في خضم الأسى ، ليس مثيرا للأسى !

كيف جاء الوحي موسى ــ عليه السلام ــ موضحا عذر ذلك الراعي

ولقد ألقى الله ــ بعد ذلك ــ أسرارا في أعمـاق قلب موسى ، ليست مما يُباح به .
لقد تدفقت الكلمات الى قلب موسى ، وامتزج الشهود بالكلام .
فكم ذهل عن ذاته وكم عاد الى الوعى ! وكم طار محلقا من الأزل الى الأبد !
١٧٧٥ فلو أنني شرحت أكثر من هذا لكان من البلاهة . ذلك لأن شرح هذا يتجاوز علمنا .
ولو أنني ذكرته لاقتلعت العقول ! ولو أنني كتبته لانشق كثير من الأقلام !
فحين سمع موسى هذا العتاب من الحق ، هرع وراء الراعي موغلا في البيداء .

وانطلق مقتفيا آثار قدمي ذلك الحيران . فكان ينثر الغبـار من أذيال الصحراء .

وان خطوة قدم الانسان الموله لهى متميزة عن خطى الآخرين .

١٧٨٠ فتارة يمضى مستقيما كالرخ من القمة نحو القرار . وتارة يمضى بخطى متقاطعة مثل الفيل[١] .

وتـارة يمضى كالموج متطاولا رافعا علمـه . وتارة يمضى زاحفا فوق بطنه كالسمكة .

وتارة يخط وصف حالـه فـوق التراب ، كالرمال الذى يضرب الرمال .

وفي النهاية أدرك موسى الراعى ورآه . وقال البشير (للراعى) : « ان الاذن قد جاء !

فلا تلتمس آدابا ولا ترتيبا ، وانطق بكل ما يبتغيه قلبك الشجي !

١٧٨٥ ان كفرك دين ، ودينك نور للروح ! وانك لآمن ، والعـالم بك في أمان !

أيها المعافى ! ان الله يفعل ما يشاء . فاذهب ، وأطلق لسانك بدون محاباة[٢] » .

فقال الراعى : « يا موسى . انى قـد تجاوزت ذلك . اننى الآن مجلل بدماء قلبى !

لقـد تجاوزت سدرة المنتهى . وخطوت مائة ألف عـام في ذلك الجانب !

(١) الاشارة هنا لقطع الشطرنج وطريقة نقل الرخ والفيل .
(٢) بدون أية مراعاة للمجاملة ولطيف القول .

انك قد أعملت سوطك ، فدار حصانى ، فبلغ قبة السماء ، ثم تجاوز الآفاق !

١٧٩٠ فعسى الله أن يجعل جوهرنا الانسانى نجي سر لاهوته . وليبارك الله لك يدك وساعدك !

فالآن قد تجاوز حالى نطاق القول . فهذا الذى أقوله ليس حقيقة حالى » .

انك تبصر النقش الذى يكون في المرآة . وهذا النقش صورتك أنت ، وليس صورة المرآة .

والأنفاس التى ينفثها لاعب الناى في الناى ، هل تنتمى للناى ؟ لا ، بل هى منتمية للرجل .

فكن متنبها حين تنطق بالحمد والثناء ، واعلم أنهما شبيهان بهراء ذلك الراعى !

١٧٩٥ فحمدك ان بدت أفضليته بالقياس الى حمد الراعى ، فانه بالقياس الى الحق عاجز أبتر !

فلكم تقول ـ حين يرتفع الغطاء ـ «ليس هذا ما كانوا يظنون».

فقبول ذكرك هذا انما هو من الرحمة . لقد رُخص لك به ، مثل صلاة المستحاضة !

فصلاتها تكون ملوثة بالدماء . وذكرك يكون مشوبا بالتشبيه والكيف !

والدم نجس ، لكنه يغسل بالماء ، لكن للباطن نجاسات ،

١٨٠٠ لا تتناقص من باطن الرجل المجد ، الا بماء لطف الخالق !

فليتك في سجودك كنت تدير وجهك ، وتدرك معنى دعائك : سبحان ربى .

قائلا : « يا من سجودى مثل وجودى ، غير جدير به ، ألا فلتهبنا الخير جزاء منك على شرنا ! »

ان هذه الأرض لتحمل أثرا من حلم الحق . فهى قد تلقت النجس ولكنها جادت بالورد ثمارا !

انها تحجب لنا أقذارنا ، ولقاء ذلك تنبت منها الأزاهير !

١٨٠٥ فحين رأى الكافر أنه في العطاء والجود أقل من التراب ، وأدنى أصالة منه ،

وأنه لم ينبت من وجوده ورد ولا ثمار ، وأنه لم ينشد سوى فساد كل ما هو نقى ،

قال : « انني قد تقهقرت في السير ، فواحسرتاه ! (يا ليتني كنت ترابا[1]) .

يا ليتني ما اخترت السفر من ترابيتي ، اذن لكنت أتلقى الحب كما يتلقاه التراب .

فحينما قمت بالسفر امتحنني الطريق . فماذا كانت الهدية التى جلبتها من هذا السفر ؟ »

١٨١٠ فهو من جراء كل هذا الميل نحو التراب ، لم يكن يبصر أمام وجهه أية فائدة للسفر .

لقد كان اعراضه بوجهه هو ذلك الحرص والطمع ! أما توجهه نحو الطريق فكان ذلك الصدق ، وتلك الضراعة !

فكل عشب يكون له ميل نحو العلا ، فهو في ازدياد وحياة ونماء .

فاذا ما حوّل رأسه نحو الثرى ، فهو في تضاؤل وذبول ونقص وغبن .

---

(١) سورة النبأ ، ٧٨ : ٤٠ .

فحينما يكون ميل روحك الى العلو ، فأنت في ارتقـاء ، ويكون مرجعك الى هناك .

١٨١٥ وان كنت منقلبا فوق رأسك متوجها نحو الأرض ، فأنت آفل ، والله لا يحب الآفلين[١] .

كيف سال موسى ـ عليه السلام ـ الحق تعالى عن سر غلبة الظالمين

فقال موسى : « أيها الكريم الفعّال . يا من ذكرك لحظة واحـدة يعدل عمرا طويلا !

لقد رأيت نقوشا مشوهة عوجاء من الماء والطين ، فاعترض قلبي عليها كما فعلت الملائكة .

فماذا يكون القصد من تصوير نقش ثم غرس بذور الفساد فيه ؟

أو من اشعال نار الظلم والفساد، التى تحرق المسجد والساجدين ؟

١٨٢٠ ولماذا اثارة نبع الدموع الدامية ، أو الملوثة بالدم[٢] ، من أجل الضراعة ؟

وانى لأعلم يقينا أن هذا عين حكمتك ، لكن مقصودى هو العيان والمشاهدة .

فذلك اليقين يدعونى الى أن ألزم الصمت ، وأما الحرص عـلى المشاهدة فيدفعنى الى الجيشان !

---

(١) انظر قوله تعالى ، حكاية عـن ابراهيم : « لا احب الآفلـين » . (٦ : ٧٦) .

(٢) حرفيا : « الدموع الدامية او الصفراء ... » .

لقـد كشفت للملائكة سرك ، (وأظهرت) أن مثل هـذا الشهد جدير بأن (تكتنفه) الابر !

فعرضت عليهم نـور آدم عيانا ، فانجلت بذلك المشكلات أمـام الملائكة .

١٨٢٥ وحشرك هو الذى يخبر عن سر الموت ، كما تنبىء الثمار عن سر الأوراق .

والدم والنطفة هما سر الجسن الآدمى ، فالقلة ـ في النهايـة ـ سابقة على كل كثرة .

فالطفل الجاهل يبـدأ بغسل اللوح ، وبعـد ذلـك يكتب فوقه الحروف .

والله يجعل القلب دما ودمعا مستهانا ، وبعـد ذلك يخط فوقـه الأسرار !

ففى وقت غسل اللـوح ، يجب عـلى الطفل أن يعلم أن اللوح سيُجعل دفترا .

١٨٣٠ وحينما يوضع أساس لأحد المنـازل ، فان أساس المنزل القديم يُقتلع في أول الأمر .

والطين يُرفع من قـاع الثرى في البداية ، حتى تستطيـع ـ في النهاية ـ أن تسحب الماء المعين .

والأطفال يبكون من الحجامة بكاء مرا ، ذلك لأنهـم لا يعلمون سر ذلك الأمر .

أما الرجل فهو يدفع الذهب للحجّام ، ويعتز بالابرة التى تشرب الدماء !

والحمّال يجرى نحو الحمل الثقيل ، ثم يختطف ذلك الحمل من الآخرين .

١٨٣٥ فتأمل صراع الحمالين من أجل الحمل . فهكذا يكـون اجتهاد البصير بالأمور .

ولما كانت الأحمال هى أساس الراحة ، فان المرارة أيضا هى البشير بالنعمة .

ولقد حُفت الجنة بمكروهاتنا ، كما حُفت النار بشهواتنا[١] .

فالبذرة التى انبثقت عنها مادة نارك ليست سوى غصن ندى[٢] .

وأما من احترق بالنار[٣] فهو قرين الكوثر !

وكل من كان في السجن قرين المحنة ، فذلك جزاء لـه على لقمة وشهوة !

١٨٤٠ وكل من كان في القصر قرين السعادة ، فذلك جزاء له على كفاح وعناء !

وكل من رأيته فريدا بما يحوز من ذهب وفضة ، فاعلم أنه قد لزم الصبر في تكسبه .

فحينما تصبح العين نفّاذة فانها تشاهد (الحقيقة) بدون أسباب .

أما أنت ــ يا أسير الحس ــ فلتنصت الى الأسباب .

---

(١) هذا البيت مقتبس من حديث عن أبى هريرة رواه أحمد في مسنده وكذلك رواه مسلم . ونص الحديث أن الرسول قال : « حفت الجنـة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » .

(٢) يقصد « بالغصن الندى » اللذات والشهوات . (٣) من عانى نـار مجاهدة النفس ، ومكافحة الأهواء .

وكل من تحررت روحه من سلطان الطبائع ، فهو الذى بلغ منزلة تجاوز الأسباب .

فاذ ذاك تبصر العين نبع معجزات الأنبياء ، غير مقترن بالأسباب ، ولا منبعث من الماء والعشب .

١٨٤٥ فهذا السبب شبيه بما بين الطبيب والعليـل ، أو هو مثل ما بين السراج والفتيل .

فافتل لسراج ليلك فتيلا جديـدا ، وكن عـلى علم بأن ضيـاء الشمس أنقى من كل ذلك .

اذهب ، وهيىء الطين من أجل سقف الدار ، وكن عـلى علم بأن سقف السماء منزه عن الطين !

أواه ! لقد انقضت خلوة الليل وبزغ النهار ، ساعة أن غدا حبيبنا مبددا لنا الهموم .

وما يكون تجلى البدر الا في الظـلام . فلا تنشد مَراد القلب الا بعناء القلب !

١٨٥٠ لقـد أعرضت عـن عيسى ، وربيت الحمار[١] ، فلا جرم أنـك كالحمار خارج الأستار !

والعلم والعرفان هما طـالع عيسى ، وليسا طالع الحمـار ، أيها الحمارى الصفات .

انك تسمع أنين الحمـار فتستشعر الرحمة . ثـم أنت لا تدرى ــ أيها الحمار ــ أن حمارا يسيطر عليك[٢] .

---

(١) لقد اعرضت عن الروح وربيت الجسـد .
(٢) حرفيا : « يامرك » .

فكن رحيما بعيسى ولا تكن رحيما بالحمار ! ولا تجعل الطبع سيدا على عقلك !
ولتدع الطبع يبكى بكاء حارا مريرا ! ولتأخذن منه لكى تؤدى دين الروح !
١٨٥٥ لقد قضيت السنين غلاما للحمار ، فكفاك هذا . ذلك لأن غلام الحمار يكون متخلفا وراء الحمار .
ونفسك هى المراد من قول الرسول « أخروهن ... » فالنفس يجب أن تكون الأخيرة في حين أن العقل يكون الأول .
وهذا العقل الوضيع قد أصبح شريكا للحمار في مزاجه ! فليس له تفكر الا في طريقة للحصول على العلف !
أما حمار عيسى فقد تخلق بمزاج القلب ، واتخذ له منزلا في مقام العقلاء .
ذلك لأن العقل كان غالبا والحمار ضعيفا ، فالراكب القوى قد جعل الحمار نحيفا .
١٨٦٠ وهذا الحمار الذابل قد غدا تنينا ، من جراء ضعف عقلك ، يا من لست تعدو في قيمتك الحمار !
فلو أن عيسى جعلك عليل القلب ، فلا تتركه ، فان منه أيضا تجيئك الصحة !
وكيف أنت مع الآلام يا عيسى ، يا صاحب الأنفاس العيسوية ؟ انه ليس في العالم كنز بدون ثعبان .
وماذا تستشعر يا عيسى من رؤية اليهود ؟ وكيف أنت يا يوسف مع المكار الحسود ؟

لقد كانت كل أيامك ولياليك وقفا عـلى هؤلاء الحمقى ، وكنت تمدهم بالحياة وكأنك الليل والنهار !

١٨٦٥ فآها من هؤلاء المجردين من الفضل ، ذوى الوجـوه المصفرة !

وأى فضل يتولد من الصفراء ؟ لا شىء سوى ألم الرأس !

فلتفعل بالنفاق والاحتيال والسرقة والخداع ما تفعلـه بها شمس المشرق .

فأنت في الدنيا والدين عسل ، ونحن خل . وعلاج هذه الصفراء هو مزيج الخل والعسل . .

ونحن نزيد الخل لأننا قوم نعانى من الزحير . فلتزد أنت العسل ، ولا تمسك كرمك عنا !

فهذا ما كـان لائقا بنا ، وهكذا جاء فعلنا . والرمال في العين ماذا تزيدها ؟ لا شىء الا العمى ..

١٨٧٠ وذاك ما كان لائقا بك ، أيها الكحل العزيـز ! فكل مـن ليس بشىء يجد عندك شيئا .

ولقد أصبح قلبك مكتويا بنار هؤلاء الظالمين . ولم يكن لك من خطاب سوى قولك : « اهد قومي[1] » .

انك منجم العود ، فلو أنهم أشعلوا بك النار ، لملؤوا هذا العالم بالعطر والريحـان .

ولست أنت بذلك العود الذى تنتقص منه النار ، ولا أنت بذلك الروح الذى يغدو أسير الحزن .

---

(١) اشارة الى ما روى مـن ان الرسول عليه السلام ـ حينما كـرت سنه في غزوة احد ـ دعا ربه قائلا : « اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون » .

فالعود يحترق ، ويبقى منجم العود بمنأى من الاحتراق ! وكيف تحمل الريح على منبع النور ؟

١٨٧٥ يا من (قبست) منك السماوات الصفاء ! يـا من جفاؤك أحلى من الوفاء !

ذلك لأنه لو وقع من العاقل جفاء ، فانه يكـون أفضل من وفاء الجاهلين .

ولقد قال الرسول : « عداوة العاقل ، خير من صداقة الجاهل » .

كيف ازعج امير رجلا نائمـا كانت افعى قد دخلت في فمه

كان أحد العقلاء ممتطيا صهوة حصان ، (فمر بالقرب من) أفعى كانت تدخل في فم رجل نائم .

ولقد أبصر ذلـك الراكب الأفعى ، فسارع اليهـا ليفزعها ، لكن الفرصة أفلتت .

١٨٨٠ ولما كان لهذا الرجل مدد كبير من عقله ، فانه ضرب النائم بضع ضربات قوية بالدبوس .

فحملته ضربات ذلك الدبوس القوى عـلى الفرار حتى التجأ الى احدى الاشجار .

وكان قد تساقط من الشجرة تفاح كثير ، وغدا عفنا . فقال الأمير : « كل من هذا ، يا من تعلقت بالآلام ! »

وأعطى الرجل كثيرا مـن التفاح ليأكله ، حتى صار ذلك التفاح يتساقط من فمه .

فصاح قائلا : « وما نهاية هـــذا ، أيها الأمير ؟ لماذا تسلطت علي ؟
وماذا صنعت بك ؟

١٨٨٥ فان كنت من الأصل تستشعر عداء لروحي ، فاضرب بسيفك
ضربة واحدة ، وأرق دمي !

فما أشأم تلك الساعة التي ظهرت لك فيها ! وما أسعد من لم يقع
بصره على وجهك !

فلا جناية ، ولا اثم ، ولا كثير ، ولا قليل . ان الملحدين لا يجيزون
هذا الظلم .

ان الدم ليتفجر من فمي مع الكلمات ! فلتجزه عـــلى ذلك يا الهي
في النهاية » .

وكان في كل لحظة يلقى سبابا جديـــدا . أما الأمير فكان يضربه ،
(قائلا) : « اجر في هذه الصحراء » .

١٨٩٠ فمن ضربـــات الدبوس ، (ومن خوف) ذلـــك الفارس المنطلق
كالريح ، كان الرجل يعدو ، ثم يعود فيسقط فوق وجهه .

لقد كان ممتلئا بالطعـــام ، مثقلا بالنعاس ، مرهقا . وقـــد أصابت
قدميه ووجهه آلاف الجراح .

وظل حتى المساء يجره ثم يرخي له العنان ، حتى أصابه القيء من
تأثير الصفراء .

فخرجت منه المآكل ، رديئها وطيبها . وقفزت الأفعى خارجة منه
مع ذلك القيء .

فحينما رأى أن تلك الأفعى قد خرجت من جوفه ، سجد أمام ذلك
الطبيب الفعال !

١٨٩٥ وما أن أبصر تلك الأفعى السوداء الرهيبة ، القبيحة الجسيمة ، حتى ذهبت عنه تلك الآلام .

وقال : « انك أنت جبريل الرحمة ! أم لعلك الاله الذى هو ولى النعمة !

فبوركت تلك الساعة التى رأيتك فيها ! لقد كنت ميتا ، وأنت وهبتنى روحا جديدا !

لقد كنتَ لى طالبا ، كما تفعل الأمهات . وكنتُ أنا هاربا منك كما تفعل الحمير .

فالحمار يدفعه الغباء للفرار من صاحبه . وصاحبه يدفعه كرم العنصر الى اقتفاء أثره .

١٩٠٠ وهو لا يطلبه من أجل نفع ولا ضرر . لكنه يطلبه حتى لا يمزقه ذئب أو وحش كاسر .

فما أسعد هذا الذى يرى وجهك ، أو يقع فجأة على جادتك !

يا من أثنت عليك الروح الطاهرة ! لكم وجهت اليك من الكلمات ما هو عبث وهراء !

فيا أيها السيد الملك الأمير ! انى لم أتكلم ، بل جهلى هو الذى تكلم ، فلا تؤاخذنى على ذلك !

فلو أننى عرفت القليل عن هذه الحال ، فكيف كنت استطيع النطق بالسخف ؟

١٩٠٥ ولو أنك حدثتنى باشارة واحدة الى تلك الخصال ، لكنت قد لهجت بالثناء عليك ، يا مليح الخصال !

لكنك كنت مشيرا بالتزامك الصمت ، وكنت فى صمتك تضربنى فوق رأسى !

فصار رأسى ذاهلا ، وطار العقل من رأسى ، وبخاصة لأن رأسى هذا قليل العقل .

فاصفح عني يا مـن أنت مليح الوجه والفعـال . وتجاوز لى عما وجهته اليك بدافع من الجنون .

فقال الأمير : « لـو أننى كنت نطقت باشارة الـى ذلك ، لذابت مرارتك في الحال رعبا[1] .

١٩١٠ ولو أننى كنت قـد ذكرت لك أوصاف الأفعى ، لكـان الخوف قد جلب على روحك الدمار !

ولقد قال المصطفى : لو أننى أفضت في شرح ذلك العدو الكامن في أرواحكم ،

لتفجرت مرائر الشجعان ، ولما سلك أحدهـم سبيـلا ، ولا اهتم بعمل .

ولما بقيت لقلبه حرارة في الضراعة . ولا بقيت لجسمه قوة عـلى الصوم والصلاة !

ولغدا عدما مثل الفأر أمام القط ! ولزلزل مثل الحمل أمام الذئب !

١٩١٥ ولم تبق عنده حيلة ولا حراك . ولهذا فقـد جعلت سكوتى عن ذكر هذا تدعيما لكم .

فهأنذا صامت مثل أبى بكر الربابى . وهأنذا أضـرب الحـديد بيدى مثل داوود .

حتى يغدو المحال بيدى محققا . ويصير الطائر المفتقد جناحيه ذا

(١) حرفيا : «لغدت مرارتك في الحال ماء» . والمرارة تذكر كثيرا على انها موطـن الشجاعة في الرجل .

قوادم .

فما دام الخالق قد قال : « يد الله فوق أيديهم[1] » ، فان الله قد أعلن أن أيدينا هى يده .

ولهذا فانى على يقين أن لى يدا طولى ، تصل الى ما فوق السماء السابعة !

١٩٢٠ ولقد أظهرت يدى فضلها فوق السماء . فيا قارىء القرآن ! أقرآ آية شق القمر[2] .

وهذا الوصف أيضا انما هو من أجل ضعاف العقول ! وكيف يتسنى شرح القدرة للضعفاء[3] ؟

ولسوف تعلم بنفسك حين ترفع رأسك من غفوتك ، أن قد حان اختتام (قولى) ، والله أعلم بالصواب .

فأنت لم تكن ذا قوة على تناول الطعام ، ولا كان لك سبيل الى القىء ، ولا اهتمام به[4] .

وكنت أستمع الى فحشك وأسوق حمارى . وكنت أتمتم بقولى : « رب يسر » .

١٩٢٥ ولم يكن لدى اذن بأن أبوح بالسبب . ولا كانت لى قدرة على أن أقول بتركك .

وكنت في كل لحظة أهتف من آلام قلبى : « اللهم اهد قومى ، انهم لا يعلمون » .

---

(١) سورة الفتح ، ٤٨ : ١٠ .
(٢) سورة القمر ، ٥٤ : ١ .
(٣) اظهار المعجزة المشهودة كان ضرورة أملاها ضعف عقول الناس فالضعفاء عاجزون عن تصور معنى القدرة بدون دليل محسوس .
(٤) الخطاب هنا موجه الى الرجل الذى ابتلع الثعبان .

وكان ذلك الرجل الذي برىء من الألم يوالى السجود (قائلا) :
« يا من أنت لي سعادة واقبال وكنز !
لسوف تلقى جزاءك من الله أيها الشريف ! فليس يملك القوة على شكرك هذا الضعيف !
ان الحق هو الذى سيؤدى شكرك ، أيهـا المقتدى ، فليست لى شفة ولا فم[1] ولا صوت كفء ذلك » .

١٩٣٠ فعلى هذا المثال تكون عداوة العقلاء . ان سمهم يكـون بهجة للروح !
أما صداقة الأبله فهى عناء وضلال . فاستمع الى هذه الحكاية ، على سبيل المثال :

الاعتماد على تودد الدب ووفائه

كـان تنين يجتذب (بين فكيه) دبا ، فأقبل رجل شجـاع ، وقام بنجدته .
والرجال الأبطال في هذا العـالم هم المدد ، حينما تدرك أسماعهم صرخات المظلومين .
انهم يستمعون مـن كل جانب الى صرخات المظلومين ، فيسرعون نحوها مثل رحمة الله .

١٩٣٥ فهؤلاء هم العمد لهذه الدنيـا المتداعية ! هؤلاء هم الأطبـاء لخفيّ الأدواء !

---

(١) حرفيا : فك .

انهم محض محبة وعدالة ورحمة ! بل هم مثل الحق بريئون من العلة والرشوة !

(فان سألت أحدهم) : « لماذا تبادر الى منح (المستغيث) كل هذا العون ؟ » أجابك قائلا : « دافعي الى ذلك حزنه وافتقاره ».

ان المحبة هي صيد الرجل الشجاع ، وليس للدواء ما ينقب عنه في الدنيا سوى المرض .

فحيثما يوجد المرض يذهب اليه الدواء . وحيثما توجد القيعان، يندفع نحوها الماء .

١٩٤٠ فان كنت بحاجة الى ماء الرحمة ، فامض وكن للتواضع ملتزما ، ثم اشرب بعد ذلك خمر الرحمة وكن بها منتشيا .

وسوف تتوالى الرحمات حتى تغمرك . فلا تقتصر — يا بني — على الدخول تحت رحمة واحدة .

واجعل الفلك تحت قدمك ، أيها الشجاع ! واستمع من فوق الفلك الى ألحان السماع !

وأخرج من أذنك قطن الوسواس ، حتى ينفذ الى سمعك هتاف الأفلاك .

ونظف كلتا عينيك من شعر العيب ، لتستطيع شهود حديقة الغيب وبستانه .

١٩٤٥ وادفع عن ذهنك وعن أنفك الزكام ، حتى تنفذ الى مشامك نسمات الله .

ولا تدع (في كيانك) قط أثرا للحمى أو الصفراء ، وذلك لكى تجد للكون مذاق السكر .

وعالج رجولتك ، ولا تتخذ العنة مهربا ، حتى تظهر لـك مـائة لون من ملاح الوجوه .

وانزع قيد الجسد عن قدم الروح ، لتكون قادرة على التجـول حول المنتدى .

وأبعد عن يدك وعنقك غلّ البخل . وحقق لنفسك حظا جديدا في هذا الفلك العتيق !

١٩٥٠ وان لم تقدر على ذلك فطر الى كعبة اللطف ، واعرض عجزك هذا على المعين .

فالنواح والبكاء ذخيرة عظيمة ، أما الرحمة الكلية فهى المربى الذى يفوقهما قوة واقتدارا .

ان المربية والأم لتلتمسان الذرائع (للعطف) . وانهما ـ لهذا ـ ترقبان بكاء الطفل .

ولقد خلق الله لك طفل الحاجات ، وذلك لكي يبكى فيأتيه ـ اذ ذاك ـ الحليب .

قال تعالى : « قل ادعوا الله[1] » ، ولا تكفوا عن الضراعة ، وذلك لينهمر عليكم حليب رحماته .

١٩٥٥ فهزيم الرياح ، والسحب التى تمطر الحليب ، هما لتفريج همنـا ، فاعتصم بالصبر ساعة .

ألم تسمع قوله تعالى : « في السماء رزقكم[2] » ؟ فلماذا تشبثت بهذا المكان الوضيـع ؟

---

(١) سورة الاسراء ، ١٧ : ١١٠ .
(٢) انظر : سورة الذاريات ، ٥١ : ٢٢ .

فاعلم أن خوفك ويأسك هما صوت الغول الذى يجتذب أذنك الى قرارة الوضاعة .

وكل نداء يجتذبك نحو العلا ، فاعلم أنه قد جاءك من الأعالى .

وأما كل نداء يستثير فيك الحرص ، فاعلم أنه صوت الذئب الذى يمزق الناس !

١٩٦٠ وليس الارتفاع هنا باعتبار المكان ، بل انه هو كلّ تعال نحو العقل والروح .

وكل سبب قد جاء أسمى من الأثر . فالحجر والحديد هما أكثر تفوقا من الشرر .

فهذا رجل قد احتل مكانة أرفع من آخر يشمخ برأسه ، مع أنه — في الصورة — قد جلس الى جانبه .

فالارتفاع هنا هو من ناحية الشرف . فالمكان النائي عن صدارة الشرف يُستخف به .

والحجر والحديد — من جهة سبقهما في العمل — هما جديران بهذا التفوق .

١٩٦٥ لكن ذلك الشرر — (ان نظر اليه) من جهة المقصود منه — كان من هذا الوجه أكثر تفوقا من الحديد والحجر .

ان الحجر والحديد هما البداية ، وأما الشرر فهو النهاية ؛ لكن هذين هما الجسد ، وأما الشرر فهو الروح .

ولئن كان هذا الشرر متأخرا في الزمان ، فانه في الصفة أسمى من الحجر والحديد .

فالغصن أسبق في الزمن من الثمار . لكن الثمار أكثر فضلا من الأغصان .

ولما كان المقصود من الشجر هو الثمر . فالثمر هو الأول ، وأما الشجر فهو الآخر .

١٩٧٠ ان الدب ـ حين استغاث من التنين ـ أنقذه من بين مخالبه رجل شجاع .

فالحيلة والرجولة قد تضافرتا معا ، فاستطاع (الرجل) أن يقتل التنين ، بهذه القوة .

فالتنين قوي ، لكنه ليس بصاحب حيلة . وهناك أيضا حيلة فوق حيلتـــك !

فحينما ترى حيلتك فارجع ، وعد الى البداية ، لترى من أيـــن أتت .

فكل ما كان في المنخفض فقد جاء من القمم . فسارع وارفع بصرك نحو الأعالي .

١٩٧٥ ان النظر الى أعلى يهب البصر نورا ، مع أنه في بداية الأمر بلاء ، يخطف الأبصار !

فلتجعلن العين أليفة للنور . وان لم تكن خفاشا ، فانظر نحو ذلك الجانـــب .

وان ابصارك للعاقبة لهو علامة اشراق نورك .. أما الشهوة العاجلة فهي حقيقة قبرك !

فمن كان بصيرا بالعاقبة ، وقد شهد مائة لعبة ، لا يرقى الـــى مشابهته من سمع بلعبة واحدة .

لقد أصبح هذا مغترا بتلك اللعبة الواحدة ، الى حد أن التكبر أبعده عن الأساتذة .

١٩٨٠ فهو كالسامرىّ حينما شهد في تغيبه مثل هذا الفضل ، فدفعه الكبر الى عصيان موسى .

انه كان قد تعلم هذا الفضل من موسى ، ثم أغمض العينين عن معلمه .

فلا جرم أن موسى قد لعب لعبة أخرى ، محت لعبة السامرىّ واختطفت حياته !

فما أكثر المعرفة التى تسرع الى الرأس ، فتؤدى الى تفوقه ، ثم هى ذاتها تذهب بالرأس !

فان كنت تريد ألا يذهب رأسك ، فكن قدما . ثم التجىء الى حمى قطب من أصحاب الرأى .

١٩٨٥ ولئن كنت ملكا فلا تعتبر نفسك أسمى منزلة منه ! وان كنت شهدا فلا تحصد سوى نباته .

ان فكرك صورة أما فكره فهو روح ! ونقدك زائف ، وأما نقده فهو المنجم !

انه أنت فابحث عن ذاتك فيه ! واهتف : « كو كو[1] » ، وطر كالفاختة نحوه .

فان لم ترد أن تخدم (الشيوخ) من أبناء الجنس الانسانى ،فأنت مثل الدب في فم التنين !

فلعل استاذا يقوم بانقاذك ، ويسحبك بعيدا عن الخطر .

١٩٩٠ وما دمت لا تملك القوة فالزم الضراعة . وما دمت أعمى فلا تتمرد على البصير .

---

(١) « كو كو » معناها « اين اين ؟ » ، فهنا تورية بين لفظ الكلمة وبين معناها .

وانك لأسوأ من الدب ، لأنك لست تنوح من الالم . فالدب قد نجا من الألم حينما استغاث .

الهى ! اجعل قلوبنا الحجرية مثل الشمع ! واجعل ضراعتنا اليك حلوة ، مستجابة برحمتك !

كيف قال سائل اعمى : « اننى اعانى من عمى مضاعف ! »

كان أعمى قد دأب على أن يقول : « أمانا ، فانى أقاسى لونين من العمى ، يا أهل الزمان !

فانتبهوا ، واشفقوا علىّ اشفاقا مضاعفا ، ما دام لى نوعان من العمى ، أنا واقع بينهما » .

١٩٩٥ فقال أحدهم له : « انا نرى لك عمى واحدا . فما هو العمى الآخر؟ أظهره لنا ! »

فقال : « اننى قبيح الصوت خشن الدعاء ! وقد اقترن قبح الصوت عندى بالعمى !

فصوتى القبيح صار مصدرا للغم . ومن وقع صوتى ينكمش عطف الخلق .

وان صوتى القبيح لينطلق الى كل مكان ، فيغدو مصدرا للسخط والغمّ والبغضاء .

فضاعفوا رحمتكم لهذا العمى المضاعف ! وأفسحوا مجالا لهذا الذى لا مجال له » .

٢٠٠٠ ولقد تناقص ــ بهذه الشكوى ــ قبحُ صوته ، وصار الناس ــ في العطف عليه ــ قلبا واحدا !

فلطفُ صوت قلبه ــ حين أعلن السرّ ــ قد جعل صوته لطيفا .

وأما من كان صوت قلبه قبيحا ، فان عماه المثلث يبعــده بعــدا سرمديا .

لكن الوهابين (من أصل الكمال) يمنحون بدون ما سبب ،فلعلهم يضعون يدا فوق رأسه القبيح .

فحين غدا صوت ذلك السائل حلوا مثيرا للشفقة ، كانت تليــن له كالشمع قلوب من تحجرت قلوبهم .

٢٠٠٥ أما ضراعة الكافر فهي اذ كانت قبيحة كالنهيق ، فانها ــ من جراء ذلك ــ لم تقترن بالاجابة .

ان قوله تعالى : « اخسئوا[١] » ، قد انطبق على قبيح الصوت ، الذى هو كالكلب ، ثمل بدم الخلق .

ولما كانت ضراعة الدب قد اجتذبت الرحمة ، وضراعتك لم تكن كذلك ، بل كانت قبيحة ،

فاعلم أنك سلكت ازاء يوسف[٢] مسلك الذئاب ، أو أنك شربت من دم برىء !

فقدم التوبة ثم استفرغ ما شربت . وان كان جرحك قديما ،فاذهب وداوه بالاكتواء .

---

(١) انظر : سورة المؤمنون ، ٢٣ : ١٠٨ .
(٢) انظر : سورة يوسف ، ١٢ : ٨ ــ ٢٠ .

تتمة حكاية الدب ، وذلك الابله ، الذى كان قد ركن الى وفائه

٢٠١٠ ان الدب حين خلص من التنين ، ورأى هذا الكرم من ذلك الرجل الجسور ،

ذلك الدب المسكين أصبح مثل كلب أصحاب الكهف ، مقتفيا أثر من حمل عنه العبء !

وقد استلقى من العناء ذلك المسلم ، وصار الدب ـ لتعلقه به ـ حارسا له !

ومرّ به رجل فقال له : « ما الحال ؟ وما صلة هذا الدب بك ، أيها الأخ ؟ »

فذكر له القصة وحديث التنين ، فقال الرجل : « لا تعلق قلبك بدب ، أيها الأحمق .

٢٠١٥ ان صداقة الأبله أسوأ من عداوته . فأولى بك أن تدفعه عنك بكل حيلة تعلمها » .

فقال صاحب الدب : « والله ما قال هذا الا عن حسد ! والا فأى خليقة للدب تراها فيه ؟ أنظر الى هذه المحبة ! »

فقال الرجل : « ان مودة الحمقى لخادعة . وحسدي هذا خير لك من محبة الدب !

فهيا ، أقبل معى ، وادفع عنك هذا الدب . لا تتخذ الدب صفيا ! لا تترك أبناء جنسك ! »

فقـــال صاحب الدب : « اذهب عنى . اذهب لشأنــك ، أيهــا

الحسود ! » فقال الرجل : « لقد كان هذا شأنى ، لكنه لم يكن من نصيبك[1] .

٢٠٢٠ اننى لست أقل من الدب ، أيها الشريف . فلتتركه ، حتى أصبح لك رفيقا .

فقلبى يرتعد قلقا من أجلك . فلا تدخل الأجمة مع مثل هذا الدب.

فقلبى هذا لم يرتعد قط جزافا . انه نور الحق ، ولا ادعاء في ذلك ولا غرور .

اننى مؤمن ، وقد أصبحت ناظرا بنور الله . فحذار حذار . اهرب من بيت النار هذا ! »

لقد قال عابر السبيل كل هذا ، ولـم ينفذ قوله الى أذن صاحب الدب ، فسوء الظن سد عظيم بين المرء وسمعه .

٢٠٢٥ وأمسك الرجل بيد صاحب الدب ، فسحبها ذلك منـه . فقال : « سأنصرف الآن ما دمت لست بصاحب رشيد » .

فقال صاحب الدب : « اذهب ولا تحمل الهم مـن أجلى . وأقلل من تكلف العرفان[2] ، يا أبا الفضول ! »

فعاد الى مخاطبته قائلا : « اننى لست عدوا لك . ولو أنك أقبلت ورائى لكان ذلك لطفا منك » .

فقال صاحب الدب : « انى مثقل بالنعاس ، فاتركنى واذهب » .

فقال الناصح : « ليتك تنقاد[3] للرفيق في آخر الأمر ،

---

(١) لم يكن من نصيبك أن تفيد من نصحى لك وتدخلى في أمرك . فقد كان نصحى اياك واجبا افترضته على نفسى ، وشأنا يعنينى .
(٢) حرفيا : « واقلل من نحت العرفان ... » .
(٣) حرفيا : « كن منقادا للرفيق ... » .

حتى تنام في ظل عاقل ، وفي جوار محب من أصحاب القلوب ! »

٢٠٣٠ فاستولى الخيال على صاحب الدب ، لما أبداه هذا الرجل من دأب ، وسرعان ما تملكه الغضب ، وتغير وجهه ،

قائلا : « لعل هذا جاء للعدوان عليّ . أم لعله قاتل ، أو سائل طامع ، أو أتونيّ[1] حقير ،

أو أنه قد عقد رهانا مع أصدقائه على أن يخيفني من صحبة هذا الجليس ! »

ومن خبث ضميره لم يرد بخاطره قط أى ظن حسن .

وكان كل ظنه الحسن موقوفا على الدب ! فلعله كان من ذات جنس هذا الدب !

٢٠٣٥ فالخسة[2] قد جعلته يتهم أحد العقلاء ، ويعتقد أن الدب من أهل المحبة والعدالة .

كيف قال موسى – عليه السلام – لعابد العجل : « اين خيالك المتفكر ، واين حزمك ؟ »

قال موسى لرجل ثمل بالخيال : « يا من ساء ظنك من جراء شقائك وضلالك !

لقد كان لك مائة شك في نبوّتي ، مع مثل هذا البرهان ، وهذا الخلق الكريم !

---

(١) « الأتونى » هو الذى يشعل النار في الحمامات ، وكان هذا العمل من المهن الحقيرة .

(٢) حرفيا : فالكلبية ...

ولقد شهدت مني آلاف المعجزات ، فتضاعفت بها أوهامك وظنونك وشكك مائة مرة !

لقد كنت تضيق بما ينتابك من خيال ووسواس ، فتوجه الطعن الى نبوتي !

٢٠٤٠ اني رفعت التراب من قاع البحر عيانا ، حتى أنقذتكم من شر آل فرعون !

وكانت المائدة والأطباق تنزل من السماء طوال أربعين عاما !

وبدعائي تفجر الماء[١] من الحجر !

فهذه ، ومائة من أمثالها ، وكل هذه الدلائل الحارة والباردة ، لم تنتقص من الأوهام عندك ، أيها البارد !

لقد أطلق العجل خوارا ، فسجدت مسحورا ، وهتفت قائلا : أنت الهي !

فكأنما طوفان قد جرف اليك تلك الأوهام ، وتغلب النوم على عقلك البارد .

٢٠٤٥ فكيف لم تستشعر سوء الظن ازاءه ! وكيف سجدت على هذه الصورة ، أيها القبيح الوجه ؟

ولماذا لم يتطرق اليك خيال عن تزويره[٢] ، أو عن فساد سحره الذي يستولي على الأحمق ؟

فمن ذا يكون السامري — أيها الكلاب — حتى يصوغ في الدنيا الها ؟

---

(١) حرفيا : « النهر » .

(٢) المقصود بالضمير هنا هو السامري الذى اضل بني اسرائيل ، ودعاهم الى عبادة العجل . وسيرد ذكره في البيت التالى .

فكيف غدوتم معه قلبا واحدا على هذا التزوير ؟ وكيف غدوتم عاطلين من كل اشكال حوله ؟

فهل يصبح العجل ـ بالدجل ـ جديرا بالألوهية ، في حين أن نبوة مثلى يقع حولها مائة خلاف ؟

٢٠٥٠ ان الغباء دفعك الى أن تسجد أمام العجل . وغدا عقلك صيدا لسحر السامرى .

لقد سرق عينيك من نور ذى الجلال ما أنت عليه من هذا الجهل الوافر ، والضلال الحق !

فساء عقلك هذا وساء اختيارك . فمن كان مثلك منجما للجهل فما أجدره بالقتل !

لقد أطلق العجل الذهبى خواره ، فماذا قال ، حتى تفتقت لدى الحمقى كل هذه الرغاب ؟

ولقد شهدتم منى الكثير الذى يفوق ذلك عجبا ، ولكن متى كان كل خسيس يتقبل الحق ؟

٢٠٥٥ فما الذى يجتذب أهل الباطل ؟ انه الباطل . وما الذى يروق العاطلين ؟ انه العاطل !

ذلك لأن كل جنس يجتذب جنسه . فكيف يتوجه الثور نحو الأسد الضارى ؟

وأيان يستشعر الذئب عشق يوسف ؟ الا ان كان ذلك عن مكر يعلله بافتراسه .

فان خلص من طباع الذئاب غدا نديما للأسرار ، ككلب أصحاب الكهف الذى بلغ مرتبة البشر . . .

ان أبا بكر ــ حين تنسم أريج محمد ــ قال : « ليس هذا الوجه وجه كاذب » .

٢٠٦٠ أما أبو جهل ــ فهو اذ لم يكن من أصحاب الشجن ــ فقد رأى انشقاق القمر مائة مرة ، ولم يصدق !

فنحن نخفى الحقيقة عن الملتاع ، الذى افتضح أمره[1] ؛ لكنها لا تخفى عليه !

وأما ذلك الذي يكون جاهلا بها ، بعيدا عن ألم هواهـا ، فكثيرا ما يُرشد اليها ، لكنه لا يراها !

فيجب أن تكـون مرآة القلب صافيـة ، لتستطيع أن تميز بـين ما ينعكس فيها من صور جميلة ، وأخرى قبيحة .

كيف قرر ذلك الرجل الناصح ترك المغتر بالدب ، بعد ان بالغ في نصحـه

ان ذلك المسلم ترك الأبله ، وعاد مسرعا ، وهو يتمتم : « لا حول ولا قوة الا بالله » .

٢٠٦٥ وقـال : « ما دام اجتهـادى في النصح والجدال ، يزيـد تولد الأوهام في قلبه ،

فقد سدّ سبيل الموعظة والنصح، والله قد أمرنا بالاعراض عنه[2].

---

(١) حرفيا : « الذى وقع له من السطح طشت » ، وهذه العبـارة كناية عن الفضيحة .

(٢) حرفيا : واتصل بنا أمر « أعرض عنهم » وفي البيت اشارة الى قوله تعالى : «فأعرض عنهم وانتظر انهم منتظرون » . (السجدة ، ٣٢ : ٣٠) .

فحين يكون دواؤك مما يزيد الداء ، فادخر القصة لمن يكون راغبا فيها ، واقرأ قوله تعالى : « عبس وتولى[1] » .

فلئن جاءك الأعمى طالب حق ، فليس يجوز أن تجرح قلبه ، من جراء فقره .

انك ـ يا محمد ـ لحريص على رشاد الكبراء ، وذلك لكي يتعلم العوام من سراتهم .

٢٠٧٠ يا أحمد ! لقد رأيت أن جماعة من الأمراء أصغوا اليك ، فسعدت بذلك ،

لعل هؤلاء الرؤساء يصيرون للدين ولاة مؤيدين ، وهم السادة بين العرب والحبش .

ويتجاوز صيت ذلك البصرة وتبوك ، ذلك لأن الناس على دين الملوك .

ولهذا فقد حوّلت وجهك عن هذا الضرير المهتدى ، وضاق به صدرك .

قائلا : « ان هذه الفرصة قلما يتاح لها هذا الجو ، وأنت من الأصدقاء ، وأمامك فسحة من الوقت .

٢٠٧٥ ولقد زحمتنى في هذا الوقت الضيق . وانى أسدى لك هذه النصيحة ، لا عن غضب ، ولا خصام » .

يا أحمد ! ان ضريرا واحدا كهذا خير عند الله من مائة قيصر ، ومائة وزير !

فلتذكرن أن الناس معادن ، وأن معدنا واحدا خير من مائة ألف !

---

(١) انظر : سورة عبس ، ٨٠ : ١ ـ ٤ .

فمنجم الياقـوت والعقيـق المستور ، خير مـن مائة ألف منجم للنحاس !

يا أحمد . ان المال هنا ليس بذى جدوى . بل لا بد من صدر ملىء بالعشق والألم والآهات .

٢٠٨٠ لقد جاءك أعمى مستنير القلب ، فلا تغلق الباب . وابذل له النصح فان النصح من حقه .

فلو أن أبلهين أو ثلاثة أصبحوا لك منكرين ، فكيف تصير مرا ، ما دمت أنت منجم السكر ؟

ولو أن أبلهين أو ثلاثة يلقون عليك التهم ، فان الحق هو شاهدك الذى يؤيدك .

فقال الرسول : اننى لست أحفل باقرار الخلق بى . فمن كان الحق له شاهدا فأى غم يعتريه ؟

فلو أن خفاشا وجد ما يلائمه في احدى الشموس ، فقد قام الدليل على أنها ليست هى الشمس !

٢٠٨٥ فنفرة الخفافيش (منى) قد نهضت دليلا على أنى أنا الشـمـس المشرقة الجليلة .

فلو أن جُعَلا أقبل راغبا على ماء ورد ، فهذا يقوم دليلا على أنه ليس بماء ورد .

ولو أن نقدا زائفا غدا مقبلا على المحك ، فهذا دليل على أن المحك يتطرق اليه النقص والشك !

واللص يريـد الليل ولا يطلب النهـار ، فاعلم ذلك . وأنا لست الليل ، بل أنا النهار الذى يضىء العالم !

انني أنا الفارق ، وأنا الفاروق . أنا مثل الغربال ، لا سبيل للقش الى أن ينفذ خلاله .

٢٠٩٠ انني أفصل الدقيق عن النخالة ، فأظهر أن هذه هى القشرة ، وذاك هو اللب[١] .

فأنا في الدنيا مثل ميزان الخالق ، فأنا أميز بها بين كل خفيف وكل ثقيل .

ان العجل يظن أن الشيور هو الاله . فالمشترى (هنا) حمار والبضاعة لائقة به[٢] !

وأنا لست بثور ، ولا العجل بمقبل على شرائى . أنا لست شوكا حتى تتخذنى الجمال مرعى .

ان الكافر ليظن أنه قد آذانى بالجور ، ولعله لم يعد ازاحة الغبار عن مرآتى .

كيف تملق احد المجانين جالينوس ، وكيف خاف جالينوس من ذلك

٢٠٩٥ قال جالينوس لأصحابه : « ليعطنى (واحد منكم) هذا الصنف من الدواء » .

فقال له أحد هؤلاء : « يا صاحب الفنون ! ان هذا الدواء يطلب

---

(١) حرفيا : « فاظهر أن هذه هى النقوش وذاك هو النفوس » . والنقوش رمز لاهل الصورة اما النفوس فهى رمز لاهل المعنى .

(٢) أخطأ الشراح كثيرا في فهم هذا البيت . والمراد بالمشترى هنا العجل الذى يبحث عن الله ، فيظن انه الثور . فما دام هذا الباحث غبيا كالحمار ، فهو لم يستطع ان يتصور كائنا اعظم من الثور .

من أجل الجنون !
وما أبعد هـذا عـن عقلك ! فلا تعد الى ذكر هـذا » . فقـال جالينوس : « لقد تطلع أحد المجانين بوجهه نحوي !
ونظر بلطف الـى وجهي برهة مـن الوقت . وغمز لي بعينـه ، وجذب[1] كمي !
فلو لم يكن لي تجانس معه ، لما كـان هذا القبيح الطلعـة يتجه بوجهه نحوي .
٢١٠٠ ولو لـم يشاهد فيّ جنسه ، فكيف كـان يقبل نحوي ؟ وكيف كان يتعلق بمن لم يكن من جنسه ؟ »
فحين يرتبط شخصان معا ، فليس مـن شك قط أن شيئا مشتركا يجمعهما .
وكيف يطير طائر مع غير جنسه ؟ ان صحبة غـير المجانس معناها القبر واللحد .

السبب الذي من اجله طار طائر والتمس الغذاء مع طائر آخر لم يكن من جنسـه

قال أحد الحكماء : « لقد رأيت في برية غرابا ولقلقا يجريان معا .
فبقيت في عجب مـن ذلك ، وبحثت حاليهما ، لعلي أجـد أثرا لما يربط بينهما .
٢١٠٥ وحينما اقتربت منهما حيران متعجبا ، وجدت أن كليهما كـان أعرج » .

---

(١) فضلنا رواية « كشيد » في هذا البيت بدلا من « دريد » في نص نيكولسون .

وأى ارتبــاط للباز الملكــى المتسامى الى العرش ، ببومة عالقــة بمنخفض من الأرض !

فهذا ينتمى الى الشمس في آفاقها العاليــة ، وأما تلك فليست الا خفاشا من قرارة سجين !

هذا نور برىء مــن كل عيب . وأما تلك فعمياء متسولة على كل باب !

هذا قمر يطــاول في تعاليه المشترى . وأما تلك فدودة تغوص بين البعر .

٢١١٠ هذا يوسفىّ المحيا ، عيسوى الأنفاس ، وأما تلك فهى ذئبة أو هى أتان ذات جرس .

هذا قد أصبح محلقا في اللامكان ، وأما تلك فقابعــة في الحظائر مثل الكلاب .

ان الورد يقول ــ بلسان الحال ــ للجعل : « أيها النتن الابط !

لئن كنت تفرّ من بستان الورد ، فليس من شك أن نفرتك علامة على كمال البستان !

ان غيرتى لعصا تضربك فــوق رأسك قائلــة : « أيها الخسيس . اذهب بعيدا عن هنا !

٢١١٥ فانك لو اختلطت بى أيها الدنىء ، لوقع الظن بأنك من معدنى .

فالخميلة هى المكان الذى يليق بالبلابل . وخير موطن للجعلان هو المزابل .

فما دام الحق هو الذى صاننى مــن القذارة ، فكيف يجــوز أنه يرسل الىّ القذارة ؟

لقد كان بي عرق واحد منها ، قطعه الله . فكيف السبيـل الى أن ينفذ اليّ هذا العرق الخسيس ؟

لقد كانت لآدم علامة منذ الأزل ، أن الملائكة ـ لمكانته ـ خرّت ساجدة له .

٢١٢٠ وعلامة أخرى لآدم أن ابليس لـم يسجد له ، قائلا : « انى أنا الملك ، وأنا الرئيس » .

فلو كان ابليس قد سجد له ، لما كان ذلك آدم ، بل كـان شخصا سواه !

فسجودُ كل ملك لآدم كان ميزان (فضله) ، وكذلك كان جحود كل عدو له برهان (صدقه) .

وكما أن اقرار الملك شاهد له ، فكذلك كفران الكلب الخسيس[1] شاهد له !

تتمة قصة اعتماد ذلك المغرور على تملق الدب

لقد نام الرجل ، وكان الدب يدفع عنه الذباب . لكن الذباب كان يرجع بعناد .

٢١٢٥ ولقد ذبه بضع مرات عن وجه الشاب ، لكنه سرعان ما كان يعود اليه .

فصار الدب غاضبا من الذباب ، فمضى ، وأخذ مـن الجبل حجرا غليظا ،

(1) « الكلب الخسيس » هنا يقصد به « ابليس » .

وأحضره معه ، فرأى الذباب قد اتخذ مكانه من جديد فوق وجه الرجل النائم .

فرفع حجر الطاحون هذا ، وضرب به الذباب ، لعل الذباب يتراجع وينصرف !

فجعل الحجر وجه الرجل حطاما . ولقد أعلن هذا المثل للناس جميعا :

أن حب الأبله هو — على وجه اليقين — مثل حب الدب . فبغض ٢١٣٠
الأبله محبة ، وأما محبته فهى البغضاء !

وعهده واه خرب ضعيف . وكلامه سمين وأما وفاؤه فنحيف !

ولو أنه أقسم لك فلا تصدقه . فالرجل المعوج الكلام يحنث في القسم .

وما دام كلامه — من غير قسم — كان كذبا ، فلا يخدعنك مكره وقسمه[1] .

فنفسه هى الحاكمة ، وأما عقله فأسير ! فافترض أنــه أقسم مائة ألف مرة على القرآن ،

فما دام يحنث في العهد — بغير قسم — فهو لو أقسم يحنث أيضا ٢١٣٥
في قسمه .

ذلك لأن نفسه تغدو أكثر ثورة مــن جراء ذلك ، فانك قد قيدتها بالقسم العظيم .

---

(١) حرفيا : « فلا تقع في اللبن المخض بمكره وقسمه » ، اى لا يجعلنك مكره وخداعه ضحية لغشه فتاخذ اللبن المخض منه على انه حليب .

فحين يضع أسير قيدا على الحاكم ، فان الحاكم يحطم القيد ، وينطلق خارجه .
وفي غضب يدق بهذا القيد رأس الأسير ، ويلقي بقسمه في وجهه.
فلتنفض يدك من (استجابته لقوله تعالى) : « أوفوا بالعقود »[1].
ولا تخاطبه (بقوله تعالى) : « احفظوا أيمانكم »[2].
٢١٤٠ وأما ذلك الذي يعرف العهد لمن عاهده ، فانه يجعل من جسده خيطا ويلتف حول صاحب عهده .

كيف ذهب المصطفى ، عليه السلام ، لعيادة صحابي مريض ، وبيان فائدة العيادة

مرض أحد أعلام الصحابة ، وأصبح من جراء هذا المرض في نحول الخيط .
فتوجه المصطفى لعيادته ، فخلق المصطفى كان كله كرما ولطفا .
ففي ذهابك لعيادة المريض فائدة . وفائدة ذلك عائدة اليك .
فالفائدة الأولى أن ذلك الشخص العليل ، ربما يكون قطبا ، أو مليكا (روحيا) جليلا .
٢١٤٥ وان لم يكن قطبا ، فلعله يكون رفيقا للطريق . وان لم يكن مليكا ، فلعله يكون فارس الجيش .
فاعتبر أن من واجبك صلة رفقاء الطريق ، مهما يكن هؤلاء ، وسواء في ذلك من كان منهم ماشيا أو راكبا .

(١) انظر : سورة المائدة ، ٥ : ١ .
(٢) انظر : سورة المائدة ، ٥ : ٨٩ .

ولئن كان عدوا ، فهذا الاحسان ذاته خير ، وكم من عدو قد غدا بالاحسان صديقا !

ولئن لم يغد العدو به صديقا ، تناقص حقده ، ذلك لأن الاحسان يكون بلسما للحقد .

وكم للاحسان من فوائد أخرى غـير ذلك ، لكنني خائف مـن الاطالة ، أيها الرفيق الطيب .

٢١٥٠ فالحاصل هو هـذا : كن صديقا للجميـع ، وكصانع الأصنام انحت من الحجر صديقا !

ذلك لأن احتشاد القافلة وتجمعها يقصم ظهر قاطع الطريق ، ويحطم سنانه .

وما دام قلبك ليس بذى عينين أيها العنيد ، الى حدّ أنك لا تميز بين الحطب والعود ،

فلا تيأس ما دام في العالم كنز . ولا تحسبنّ خربة قط خالية من الكنز .

ولتقصدن كل درويش جزافا ، فاذا ما وجدت عند أحدهم العلامة، فابذل جهدك في ملازمته .

٢١٥٥ وما دمت لم ترزق هذه العين البصيرة بالبواطن ، فلتحسبنّ أن في كل وجود كنزا .

كيف اوحى الحق تعالى الى موسى ، عليه السلام ، (قائلا) : « لماذا لم تحضر لعيادتي ؟ »

لقد جاء من الحق الى موسى هذا العتاب : « يا من شهدتَ طلوع البدر من جيبك !

يا من جعلتك مشرقا بالنور الالهى ! لقد غدوتُ ــ أنا الحق ــ مريضا ، فلم تَعُدنى ! »

فقال موسى : « سبحانك يا من أنت منزّه عن الضر ! ما هـذا الرمز ؟ بينه لى ، ياالهى ! »

فقال الحق : « لماذا لم تسأل عنى في مرضى ، على سبيل الكرم ؟ »

٢١٦٠ فقال موسى : « يا رب ، ان النقص لا يعتريك . لقد ضاع عقلى، فاكشف لى سر هذا القول ! »

فقال الحق : « نعم ، ان عبدا لى خاصا مختارا قد مرض . وما هو الا أنا ، فتأمل جيدا .

فعذره في مرضه عذر لى ، وكذلك مرضه ، انه مرض لى !

فمن أراد أن يكون جليسا لله ، فليجلس في حضرة الأولياء .

فان أنت انقطعت عـن حضرة الأوليـاء ، فانك هـالك ، لأنك ــ حينذاك ــ تكون جزءا بدون كل !

٢١٦٥ فكل من فرّقه الشيطان عـن أهل الكرم ، فانه يلقـاه ــ بعيـد ذلك ــ وحيدا ، ويلتهم رأسه .

ان الابتعاد عن الأحباب شبرا واحدا ، ولمدة لحظة واحـدة ، لا يكون الا من مكر الشيطان ، فاعلم ذلك جيدا !

كيف فرق البستانى بين الصوفى والفقيه والعلوى

بينما كان بستانىّ يتفقد بستانه ، رأى به ثلاثة رجـال كأنهم من اللصوص .

وكان أحدهم فقيها ، وثانيهم شريفا ، وثالثهم صوفيا . وكل منهم كان وقحا خبيثا ، عديم الوفاء !

فحدث نفسه قائلا : « ان لي مائة حجة في مواجهة هؤلاء ، لكنهم جمع ، والجماعة قوة .

٢١٧٠ فلن أقدر منفردا على ثلاثـة أفراد ، فلأفرق بينهم جميعا في أول الأمر .

لأفصلن الواحد منهم عن الآخرين ، فاذا ما أصبح منفردا اقتلعت شاربه » .

فاصطنع حيلة أخرج بها الصوفيّ الى الطريق ، حتى يفسد ما بينه وبين رفيقيه .

فقال للصوفيّ : « اذهب الـى الدار ، وأحضر بساطا مـن أجل هذين الرفيقين » .

فلما ذهب الصوفيّ ، قال البستانيّ في الخلوة لهذين الرفيقين :

« انك فقيه ، وهذا شريف ذائع الصيت .

٢١٧٥ وانا لنأكل الخبز بفتواك ! بل انا لنحلق بجناح علمك .

وهذا أيضا أميرنا وسلطاننا . انه سيد من أسرة المصطفى !

فمن يكون هذا الصوفيّ الشره الخسيس ، حتى يكـون جليسا لأمثالكما من الملوك ؟

فحينما يجيء فاجعلاه (بضرباتكما) قطنا ! وأقيما أنتما سبعة أيام في بستاني وسفحي !

وماذا يكون البستان ؟ ان روحي لكما ، يـا من أنتما لي بمثابـة عيني اليمنى ! »

٢١٨٠ لقد وسوس لهما وخدعهما . أواه . ان مـن الواجب ألا يصبر المرء على (بعد) أصدقائه .

وحينما أخرجا الصوفىّ الى الطريق ، ومضى ، تعقبه خصمه بعصا غليظة ،

وقال : « أيها الكلب . أيكـون مـن التصوف أنك تسارع الى دخول بستانى بالرغم منى ؟

فهل أرشدك الجنيد أو أبو يزيد لهذا الطريق ؟ وعن أى شيخ أو مرشد جاءك هذا ؟ »

لقد أشبع الصوفىّ ضربا حينما ألفاه وحيدا . وكاد أن يجهز عليه، وشج رأسه .

٢١٨٥ فقال الصوفىّ : « ان ما أصابنى قد انقضى ، لكن خذا حذركما جيدا أيها الرفيقان !

لقد عددتمانى غريبا عنكما ، فتنبها ، فلست بأكثر غربة عنكما من هذا العتلّ .

وانكما لجديران بشرب ما قد شربته . وان مثل هذه الشربة لجزاء لكل دنىء .

فهذا العالم كالجبل ، فما رددتماه من القول سوف يرتد اليكما مع رجع الصدى » .

وحينما فرغ البستانىّ من الصوفىّ ، فانه ــ بعد ذلك ــ انتحل عذرا من النوع ذاته .

٢١٩٠ فقال : « أيها الشريف . لتذهب الى الدار ، فانى قد أعددت من أجل الافطار رقاقا .

ولتهتف بقيماز[1] من باب الدار أن يحضر ذاك الرقاق، والأوزة ».

فلما أخرجه الى الطريق ، قال (للآخر) : « أيها البعيد النظر . انك فقيه . وهذا الأمر ظاهر ويقين !

وان هذا يدعي الشرف ، وهي دعوى باردة . فمن ذا الذى يدرى من قد زنى بأمه ؟

فهل تركنون الى المرأة والى فعلها ؟ وهل يُعتمد عليها وهى ناقصة العقل ؟

٢١٩٥ لقد ربط نفسه بعلي وبالنبى ، وكم بهذا الزمان من غبي (يصدق قوله) ! »

ان كل من جاء من الزنى ، وكان من الزناة ، فهو يحمل مثل هذا الظن في حق الربانيين !

وكل من غدا رأسه دائرا من دورانه حـول نفسه ، يظن أن الدار دائرة مثله !

فهذا الذى قاله ذلك البستانيّ الفضوليّ ، كان وصف حـاله .

فما أبعد هذا عن أولاد الرسول !

فان لم يكن من سلالة المرتدين ، فكيف كان يقول هذا عن أسرة الرسول ؟

٢٢٠٠ وتفوّه بخداع أصغى اليه ذلك الفقيه . فمضى الشريف ، وتبعه ذلك الظالم السفيه .

فقال (للشريف) : أيها الحمـار .. من ذا الذى دعـاك الى هذا البستان ؟ وهل بقيت لك السرقة ميراثا عن الرسول ؟

---

(١) اسم علم .

ان الشبل يجيء شبيها بالأسد ، فمن أى وجه تشبه أنت الرسول؟ خبرنى ! »

فهذا الرجل الملتجيء (الى الحيلة) قد صنع بالشريف ، ما يصنعه خارجىٌ بآل الرسول !

فكم ذا تحمل الحقد دوما على آل الرسول شياطينُ وغيلانٌ ، من أمثال شمر ويزيد .

٢٢٠٥ لقد غدا الشريف محطما من ضربات ذلك الظالم . فقال للفقيه : « هأنذا قد قفزت الى خارج الماء .

فاثبت أنت الآن ، فانك قد بقيت فردا مفتقرا (للعون) . ولتتلق الضربات فوق بطنك مثل الطبل !

فان لم أكن شريفا ، ولائقا بك ، وصفيا ، فانى — بالنسبة لك — لست أسوأ من ذلك الظالم » .

ولقد فرغ البستانىّ من الشريف ، ثم أقبل قائلا : « أيها الفقيه . أى فقيه أنت ، يا عار كل سفيه !

فهل فتواك هذه — أيها اللص[1] — أنك تدخل (بستانى) ولا تسأل : هل من اذن ؟

٢٢١٠ وهل قرأت هذه الرخصة في الوسيط ؟ أم هل كانت هذه المسألة في المحيط ؟ »

فقال الفقيه : « الحق معك ، فاضرب . لقد حقت لك الغلبة . وهذا هو الجزاء لمن افترق عن أصحابه » .

---

(١) حرفيا : ايها المقطوع اليد .

عود الى قصة المريض ، وعيادة الرسول صلى الله عليه وسلم

ان هذه العيادة كانت من أجل تلك الصلة (الروحية) . وانها لصلة منطوية على مائة محبة !

فهذا الرسول – الذى لا ندّ له – قد ذهب للعيادة ، فرأى ذلك الصحابىّ في حال النزع .

انك حين تصبح بعيدا عن حضرة الأولياء ، تكون – في الحقيقة – قد غدوت بعيدا عن الله !

٢٢١٥ فلئن كان الغم يحدث نتيجة لهجر الرفاق ، فهل تكون الفرقةعن وجه الملوك[١] أهون من ذلك ؟

فسارع في كل لحظة الى طلب ظلّ الملوك ، حتى يجعلك هذا الظلّ أبهى رواء من الشمس[٢] !

ولئن كنت مسافرا ، فلتسافر على هذه النية . وان كنت مقيما فلا تغفل عن ذلك .

كيف قال احد الشيوخ لأبى يزيد « انى انا الكعبة فقم بالطواف حولى »

ان شيخ الأمة بايزيد[٣] كان قد توجه الى مكة مسرعا ، من أجل الحج والعمرة .

وكان كلما نزل مدينة بدأ بالبحث عمن بها من الشيوخ الأعزاء .

(١) الملوك هنا هم الصوفية من ذوى المكانة الروحية الرفيعة .
(٢) حرفيا : « حتى تغدو بهذا الظل افضل من الشمس » .
(٣) بايزيد ، هو ابو يزيد البسطامى ، الصوفى المعروف (ت ٢٦٠ هـ) .

٢٢٢٠ لقد كان يتجول سائلا : « من بهذه المدينة ممن استند على أركان البصيرة ؟
ولقد قال الحق : « حيثما توجهت في سفرك ، فعليك — في أول الأمر — أن تطلب رجلا » .
فاقصد الى الكنز ، فان هذا الربح وتلك الخسارة يأتيانك تبعا .
فلتعدهما من المسائل الفرعية .
فكل من يزرع يكون مقصده القمح ، لكنه يحصل على التبن تبعا لذلك .
ولو أنك زرعت التبن فلن ينبت لك قمحا . ألا فلتبحث عن رجل !
ابحث عن رجل !
٢٢٢٥ فلتقصد الى الكعبة حين يحلّ وقت الحج . فاذا ما أتيت الى هناك فسترى مكة أيضا .
لقد كان قصد الرسول من المعراج رؤية الحبيب ، فرأى العرش والملائكة تبعا لذلك .

حكاية

لقد بنى مريد جديد منزلا جديدا ، وجاء الشيخ ليتفقد منزل تلميذه ،
فقال الشيخ لمريده الجديد ، وذلك ليختبر سداد فكره :
« لأى شيء جعلت له نافذة أيها الرفيق ؟ » فقال المريد : « لينفذ النور اليه من هذا الطريق » .
٢٢٣٠ فقال الشيخ : « هذا أمر فرعيّ ، والواجب أن تكون حاجتك اليها لتسمع عن طريقها صوت الأذان » .

لقد فتش أبو يزيد كثيرا في سفره ، لعله يجد رجلا يكون خضر زمانه .

فرأى شيخا ذا قد مقوّس كالهلال ، وشهد فيه الجلال ، وكذلك حديث الرجال .

لقد كان ضرير العينين ، وأما قلبه فكان مثل الشمس ! كان مثل فيل شهد في منامه بلاد الهند !

فبينما هو نائم وعينه مغلقة يرى مائة طرب . فاذا ما فتح عينيه لا يرى ذلك . واعجبا !

٢٢٣٥ فكم يتجلى في النوم من أمر عجاب ! ان القلب ليغدو نافذة ابان المنام .

أما ذلك الذى يكون يقظا ويشهد أحلاما طيبة ، فهو عارف . فلتكحل عينيك بترابه !

فجلس أبو يزيد أمامه ، وسأله عن حاله . فوجده درويشا ،وأيضا صاحب عيال .

فقال الشيخ : « الى أين عزمك يا أبايزيد ؟ والى أى مكان سوف تجرّ متاع الغربة ؟

فقال أبو يزيد : « انى قاصد الكعبة عند انبلاج الصبح » . فقال الشيخ : « وماذا تحمل معك من زاد الطريق ؟ »

٢٢٤٠ فقال أبو يزيد : « ان معى مائتى درهم من الفضة ، وها هى ذى مثبتة باحكام في زاوية ردائى » .

فقال الشيخ : « ألا فلتطف حولى سبع مرات ، ولتعدّ هذا أفضل من طواف الحج !

ولتضع أمامي تلك الدراهم أيها الجواد . ولتعلم أنك أديت الحج ، وتم لك المراد !

وأنك قضيت العمرة ، ووجدت حيـاة الخلود ، وصرت صافيا ، وتساميت مسرعا نحو الصفاء .

فبحق ذلك الحق الذى شهدته روحك ، انه قد فضلنى على بيته .

٢٢٤٥ فمهما كانت الكعبة منزل برّه ، فان خلقتى أيضا منزل سرّه .

فهو منذ خلق الكعبة لم ينزل بها . وأما هذه الدار[1] فلم ينزل بها سوى ذلك الحي .

فاذا ما أبصرتنى فقد أبصرت الله ، وطوّفت حول كعبة الصدق .

وما دمت لا تعتقد أن الحق بعيد عنى ، فان أداءك خدمتي طاعـة وحمد لله !

فافتح عينيك جيدا وانظر الىّ ، حتى ترى نور الحق في البشر .

٢٢٥٠ ولقد أصغى أبو يزيد الى تلك الأسرار ، ووضعها في أذنيه ، كأنها قرط ذهبى !

ثم انصرف أبو يزيد عن هذا الشيخ وهو في مزيد (من الطـاقة الروحية) ، وفي النهاية وصل الى منتهاها .

كيف علم الرسول ـ عليه السلام ـ ان السبب في مرض ذلك الشخص كان تجاسره في الدعاء

حينما رأى الرسول ذلك المريض ، فانـه سرّى بلطف عـن ذلك الرفيق الأليف .

---

(1) يشير بذلك الى قلبه .

فانبعثت فيه الحياة حينما رأى الرسول . وكأنما تلك اللحظة قد خلقته .

فقال : « لقد وهبني المرض هذا الحظ السعيد ، فجاء سلطان (الروح) ساعة الصبح عندي !

٢٢٥٥ حتى تعود لي الصحة والعافية ، بقدوم هذا المليك الذي ليست له حاشية .

فيا لها من سعادة ذلك العناء وتلك العلة والحمى ! وكم هو مبارك ذلك الألم وسهر الدجى !

فها هوذا الحق — بلطفه وكرمه — قد وهبني في الشيخوخة مثل هذا الضنى والسقم .

ولقد وهبني أيضا ألم الظهر ، فلا بد أن أقفز من النوم مسرعا في منتصف الليل .

ان الحق بلطفه قد وهبني هذه الآلام ، حتى لا أنام طول الليل مثل الثور !

٢٢٦٠ وبهذه العلة تفجرت لي رحمةُ الملوك ، ولزمت جهنمُ الصمت عن تهديدي » .

ان الألم كنز ، وكم في داخله من الرحمات ! واللب يغدو أكثر نضرة اذا سلخت عنه القشرة .

يا أخي ! ان المكان المظلم البارد ، والصبر على الحزن والوهن والآلام ،

كل أولئك عينُ ماء الحياة ، وكأسُ النشوة ، ذلك لأن هذه الأعالي كامنة في المنخفضات !

فهذا الربيع مضمر في الخريف . والخريف مضمر في الربيع . فلا تهرب من ذلك .

٢٢٦٥ فكن رفيقا للشجى ، واسكن الى الوحشة . واطلب العمر الطويل في موت النفس !

ومهما تقل لك النفس ان هذا المكان قبيح ، فلا تصغ اليها ، فان دأبها أن تكون ضد (الصلاح) !

ولتخالفها ، فان هذا هو ما قالت به وصية الأنبياء في الدنيا .

وان المشاورة في الأمور لواجبة ، حتى يكون الندم قليلا في العاقبة .

ولقد قالت الأمة : « ومن ذا الذى نشاوره ؟ » فقال الأنبياء : « شاوروا العقل (فهو) الامام » .

٢٢٧٠ فقال أحدهم : « فلئن جاء طفل أو امرأة لا تملك رأيا ولا عقلا مستنيرا ؟ »

قيل : « شاورها ، واعمل بضد ما تقوله لك ، وامض لسبيلك ! »

واعلم أن نفسك كالمرأة ، أو اسوأ منها ! ذلك لأن المرأة جزء (من الشر) ، وأما النفس فهى كل الشر !

فان أنت شاورت نفسك الأمّارة بالسوء ، فخالف تلك الدنيئة في كل ما توحي به !

ولو أنها أمرتك بالصلاة وبالصوم فالنفس ماكرة ، ولعلها تلد لك مكرا .

٢٢٧٥ فاذا شاورت نفسك في الأفعال ، فكل ما قالته لك ، فضده هو الكمال !

فان لم تقدر عليها وعلى حقدها ، فاذهب الى رفيق والزم مخالطته.
فالعقل يكتسب القوة مـن عقـل آخر . وقصب السكر يكتسب الكمال بقصب السكر .
انى قد رأيت مـن مكر النفس أشياء ، فهى التى تسلب بسحرها كل تمييز !
وهى تقدم لك الوعود نضرة بيديها ، بعد أن تكـون قد أخلفتها آلاف المرات !
٢٢٨٠ فلو امتدّ بك العمر لتبلغ مائة عـام ، فانها تتعلل لك كل يـوم بعذر جديد !
وهى تزجى بحرارة وعودها البـاردة . انها لساحرة تربط للرجل رجولته .
ألا فلتحضر يا ضياء الحق ! يا حسام الدين ! فانـه ـ بدونك ـ لا ينبت العشب في الأرض الملحة !
فان ستارا قد تدلى من الفلك ، من جراء لعنة قلب جريح .
وليس يدرى علاجا لهـذا القضاء الا القضاء . فعقل الخلق حائر ذاهل في قضاء الله .
٢٢٨٥ ان الثعبان الأسود ـ الذى كان دودة ملقاة على الطريق ـ قـد أصبح تنينا .
لكن التنين يغدو في يدك عصا ، وكذلك الثعبان ، يـا من أنت روح موسى المنتشى بالمحبة !
فلقـد وهبك الله حكم « خذها ولا تخف »[1] ، وبذلك يغـدو

---

(١) انظر : سورة طه ، ٢٠ : ٢١ .

التنين عصا في يدك .

فهيا ، أظهر يدك البيضاء ، أيها المليك . واكشف لنا صبحا جديدا من بين الليالى المظلمة !

ان جحيما قد اشتعل ، فانفث عليه سحرك ، يا من أنفاسك أغنى من أنفاس البحر !

٢٢٩٠ انها (النفس) بحر ماكر ، يبدى قليلا من الزبد . بل هى الجحيم الذى أبدى بمكر قليلا من اللهب .

وهي تظهر صغيرة أمــام عينيك ، حتى تراها ضعيفــة ، فيثــور غضبك ،

مثلما ظهر الجيش الكثيف قليل العدد ، أمــام عينى الرسول .

فكان أن هاجمه الرسول بدون أن يهاب خطره ، ولو رآه كثــيرا لكان التزم الحذر ازاءه .

لقد كانت هــذه عناية (من الله) ، وكنت أهلا لها يــا أحمد .

ولولاها لكنت غدوت وجل الفؤاد .

٢٢٩٥ لقد كان الله يهوّن في نظره ونظر أصحابه جهــاد الظاهر وجهاد الباطن .

وذلك لكى ييسر له اليسرى ، ولكى لا يحوّل وجهه عن العسرى .

ولقد كان اظهار الأمر له هينا نصرا له ، لأنه كــان للحق حبيبا ، والحق هو الذى علمه الطريق .

أما من لم يكن الحق ظهيرا له في الظفر ، فويل لــه لو تبدّى له الأسد الضارى مثل الهرة !

وواها عليه لو ظهرت له المائة من بعيد واحدا ، فيدفعه الغرور الى أن يخوض الوغى !

٢٣٠٠ ولهذا فان الله يظهر سيف الرسول وكأنه حربة . ولهذا أيضا يظهر الأسد الضارى وكأنه هرة .
حتى يرتمى (كل) أحمق في غمار الحرب متجاسرا ، وبهذه الحيلة يوقعهم في مخالبه !
وحتى يقبل كل هؤلاء الحمقى بأقدامهم نحو بيت النار !
انه يظهره لك وكأنه عود من القش ، فتسارع الى نفخه لتزيله من الوجود !
فحذار فان هذه القشة قد اقتلعت جبالا ! لقد جعلت العالم يبكى وبقيت هي ضاحكة !
٢٣٠٥ انه يبدى ماء النهر وكأنما لا يتجاوز عمقه كعب القدم ، على حين أنه قد أغرق مائة من أمثال عوج بن عنق !
انه يبدى موج الدماء تلا من المسك ! انه يبدى قاع البحر أرضا يابسة !
لقد رأى فرعون الأعمى هذا البحر يبسا ، فاقتحمه بكل شجاعته وقوته .
وهو ـ حين خاضه ـ أصبح في قاعه . وكيف تكون عين فرعون بصيرة ؟
ان العين تغدو بصيرة بلقاء الحق . وهل يكون الحق نجيّ السرّ لكل أحمق ؟
٢٣١٠ ان الأحمق يبصر القند ، فاذا به السم الزعاف ! وهو يرى الطريق ، ولا يكون ما رآه سوى نداء الغول !
أيها الفلك . انك لتسرع في دورانك بفتنة آخر الزمان . ألا

فلتمهلنا بعض الوقت !

انك لخنجر حاد في تهجمك علينا ! بل انك لرمح ملوث بالسموم !

أيها الفلك . تعلم الرفق من رحمة الحق . ولا تنهش بمثل لدغة الحية قلوب النمال .

فبحق من جعلك دولابا دائرا فوق هذه الدار (الدنيا) ،

٢٣١٥ دُر على صورة أخرى ، وكن رحيما بنا ، من قبل أن تستأصل جذورنا !

بحق أنك كنت مربينا في البداية ، فنمت أغصاننا من الماء والتراب!

بل بحق ذلك المليك الذى خلقك صافيا ، وأطلع فيك كل تلك المشاعل ،

وجعلك هكذا معمورا باقيا ، حتى ظن الدهري انك أزلى !

والشكر (لله) أننا قد عرفنا بدايتك ، فالأنبياء قد أخبرونا بسرك هذا .

٢٣٢٠ فالآدميّ يعلم أن الدار حادثة ، وليس يعلم ذلك العنكبوتُ العابث في جوانبها !

وكيف تعلم البعوضة من أىّ وقت كان البستان ؟ وهى التى تولد في الربيع ويكون موتها في الشتاء !

والدودة التى تتولد في الخشب وهو واهى الحال ، كيف تعلم حال الخشب حينما كان غصنا ؟

ولو أن الدودة علمت بماهيته ، لكانت عقلا تبدى على صورة دودة .

وان العقل ليظهر ذاته في كثير من الألوان ، لكنه يبعد فراسخ

عن هذه الالوان ، كبعد الجن (عن الصور التى تتبدى فيها) .

٢٣٢٥ بل هو أسمى من الملك ، فاىّ مجال هنا للجن ؟ لكنك تطير بجناح الذباب ، ولهذا فانك تتهاوى في طيرانك !

ومع أن عقلك يطير محلقا نحو العلا ، فان طائر تقليدك يرتعى في الحضيض .

وما العلم التقليدي الا وبال على أرواحنا . انه عارية ، ونحن قد ركنا الى أنه علمنا (الحقيقى) .

بل ان من الواجب أن يغدو المرء متجاهلا مثل هـذا العقل ، ويجب عليه ــ ازاءه ــ أن يتشبث بالجنون !

فكل ما رأيت فيه نفعا لذاتك ، فاهرب منه ! لتحسُ السم ولتهرق ماء الحياة !

٢٣٣٠ وكل من يستحدك كن له معنّفا ! وأقرض المفلس ربحك ورأس مالك !

ودع الأمان ، وانزل منزل الخوف ! وتخل عن حسن السمعة وكن مفتضحا ذائع الصيت !

انني قد جربت العقل البعيد الفكر . فمن بعد هذا سوف أجعل نفسى مجنونا !

كيف اعتذر فتى مستهتر لرجل فاضل انكر عليه زواجه من احدى العاهرات

لقد قال السيد الأجل ذات مساء لذلك المستهتر : « انك قد تزوجت متعجلا بامرأة فاجرة !

وكان الواجب أن تنبئني بأمرك ، حتى نزوجك من امرأة ذات عفاف » .

٢٣٣٥ فقال : « انني قد تزوجت تسع عفيفات صالحات ، فغدون عاهرات ، واضمحل من الحزن بدني !

فتزوجت هذه العاهرة بدون معرفة بها ، لأرى ماذا يؤول اليه أمرها .

انني كثيرا ما جربت العقل . واني ــ بعد هذا ــ لملتمس مَغرِسا للجنون ! »

كيف استطاع مستفسر ان يدفع الى الكلام ذلك العظيم ، الذى كان يتظاهر بالجنون

كان أحد الرجال يقول : « انى أريد رجلا عاقلا لكى أشاوره في احدى المشكلات » .

فقال امرؤ له : « ما في مدينتنا عاقل قط ، سوى هذا الرجل الذى يبدو كالمجنون !

٢٣٤٠ ها هوذا فلان ، وقد امتطى عودا من القصب ، وأخذ يعدو به بين الأطفال !

انه صاحب رأى ، (ذكاؤه) جذوة من اللهب ! وقدره (رفيع) كالسماء ، وشأنه كالنجوم!

عدالته[1] قد أصبحت روحا للملائكة المقربين ! لكنه قد احتجب

(١) العدالة من معانى كلمة « فر » ، وقد اخترنا هذا المعنى في ترجمة البيت .

وراء هذا الجنون ! »

لكن ، لا تحسبن كل مجنون روحا (عاقلا) . لا تسجد للعجل كما فعل السامرىّ !

فحينما تحدث اليك الولىّ ، كاشفا لك مائة ألف غيب وسر خفىّ ،

٢٣٤٥ فان ذلك الفهم لم يكن لك ، ولا كان لك ذلك العلم . وما كنت تستطيع — من قبل — أن تميز بين البعر وبين العود !

فاذا ما حجب الولىّ نفسه بقناع من الجنون ، فكيف تتسنى لك معرفته ، أيها الأعمى ؟

فلو أنك فتحت عين اليقين ، لأبصرت[1] بها تحت كل حجر جنديا (من جنود الله) .

فأمام تلك العين المفتوحة الرشيدة ، يكون كل رداء صوفىّ محتضنا كليما .

ان الولىّ هو الذى يذيع أمر الولىّ ، ويجعل من يشاء ذا حظ من ذلك .

٢٣٥٠ وليس يستطيع انسان أن يعرفه بالعقل ، ما دام هو قد تظاهر بالجنون .

فلو أن لصا بصيرا سرق متاع رجل أعمى ، فهل يستطيع الاعمى أن يتعرف على اللص لو مر بجانبه ؟

ان الأعمى لا يعرف من كان سارقه ، حتى ولو اصطدم به ذلك اللص العنيد .

---

(١) حرفيا : فابصر .

فحين يعض كلب رجلا أعمى مهلهل الثياب ، فأنى له أن يعرف ذلك الكلب الضاري ؟

كيف تهجم الكلب على السائل الأعمى

كان في أحد الطرقات كلب يتهجم كليث الوغى على سائل أعمى .

٢٣٥٥ فالكلب يتهجم غاضبا على الدراويش ، في حين أن القمر يكتحل بتراب أقدامهم !

فأصبح الأعمى عاجزا أمام صوت الكلب ومن خشيته . فأقبل الأعمى على الكلب يزجى له التعظيم !

قائلا : « يا أمير الصيد يا ليث القنص ! ان الحكم لك ، فارفع يدك عنى ! »

فالضرورة قد دفعت ذلك الحكيم أن يعظم ذيل حمار ويلقبه بالكريم .

ولقد جعلته الضرورة أيضا ، يقول : « ما الذى يعود عليك من اصطياد نحيف مثلي ؟

٢٣٦٠ ان أمثالك يصطادون حمار الوحش في الفلوات ، وأنت تصيد الاعمي في الطريق ! ألا ما أسوأ هذا !

ان نظراءك يطلبون حمار الوحش صيدا ، وأنت للكيد تطلب أعمى في الطريق .

فذلك الكلب العالم هو الذى تصيد حمار الوحش . وأما الكلب الخسيس فهو الذى تهجم على الأعمى .

والكلب حينما تزود بالعلم ، خلص من الضلال . فهو يتصيد في الآجام الصيد الحلال .

والكلب ـ حينما صار عالما ـ أصبح سريع الوثبات . وهو حين صار عارفا غدا من أصحاب الكهف !

٢٣٦٥ لقد غدا الكلب عارفا بمن هو أمير الصيد ! فيا الهى ، أىّ شيء هو ذلك النور العليم ؟

ولا يكون امتناع المعرفة على الأعمى لأنه بدون عينين . بل لعل ذلك يكون لانه ثمل بالجهالة !

وليس الاعمى بأكثر من الارض افتقادا للعينين . والارض قد غدت ـ بفضل الحق ـ مبصرة للخصوم !

لقد رأت نور موسى فأظهرت له الاعزاز ! ولقد خسفت قارون ، (حينما) عرفت قارون !

ولقد رجفت لاهلاك كل دعىّ[1] . وفهمت من الحق قوله : « يا أرض ابلعى ماءك[2] » .

٢٣٧٠ فالتراب والماء والهواء والنار ذات الشرر ، كلها ليست بذات خبر عنا ، لكنها عارفة بالحق !

لكننا ـ على عكس ذلك ـ خبيرون بغير الحق ، وأما الحق فلا خبر لنا عنه ولا عن الكثير من نذره !

فلا جرم أن جملتهن قد « أشفقن منها[3] » ، وفتر سعيهن الى الامتزاج بهذه الحياة .

---

(١) اشارة الى قصة صالح مع قومه وكيف زلزلت بهم الارض .
(٢) سورة هود ، ١١ : ٤٤ .
(٣) انظر : سورة الأحزاب ، ٣٣ : ٧٢ .

وقلن : « اننا جميعا نافرات من هذه الحياة ، التى يكون المرء فيها حيا ازاء الخلق ، ميتا ازاء الخالق !

والمرء حين ينقطع عن الخلق يكون يتيما . وللأنس بالحق لا بد من قلب سليـــم .

٢٣٧٥ فحينما يسرق لص متاعا من رجل أعمى ، فان هذا الأعمى يظـــل يصرخ في عماه .

وما لم يقل له اللص : « انني أنا اللص الذى سرق منك ، أنـــا اللص البارع ! »

فكيف يعرف ذلك الأعمى سارقه ، ما دام لا يمتلك نور العيـــن ولا ذاك الضياء ؟

فاذا قال لك ذلك فأحكم الامساك به ، حتى يذكر لك علامـــات المتاع (المسروق) .

فالجهاد الاكبر هو احكام القبض على ذلك اللص حتى يخبرك بما سرق وما حمل .

٢٣٨٠ فهو ــ أولا ــ قد سرق منك كحل عينيك . فلئن أخذتـــه منـــه استرجعت بصرك !

أما متاع الحكمة الذى أضاعه قلبك ، فهو موجود ــ يقينا ــ عند أصحاب القلوب .

ان صاحب القلب الأعمى ــ مهما كان ذا روح وسمع وبصر ــ لا يعرف اللص الشيطان بآثاره .

فسل عن ذلك أهل القلوب ، ولا تسل عنه جمادا . فالخلق ــ بالقياس الى صاحب القلب ــ مثل الجماد .

لقد اقترب طالب المشورة من ذلك (المتظاهر بالجنون) ، وقال :
« أيها الوالد الذى أصبح طفلا ا أطلعنى على السر ! »
٢٣٨٥ فأجابه قائلا : « تخلّ عن حلقة الباب ، فليس هذا الباب مفتوحا.
وانصرف اليوم ، فانه ليس يوم الأسرار !
فلو كان للمكان سبيل مع اللامكان ، لكنتُ كالشيوخ (جالسا أعلم) فوق دكان ! »

كيف نادى المحتسب ثملا اطاح بـه السكر ، ليصحبه الى السجـن

وصل المحتسب في منتصف الليل الى أحد الأماكن ، فرأى رجـلا منطرحا ازاء قاعدة جدار .
فقال : « انك لسكران ، فماذا شربت ، خبرنى ا » فأجاب « لقد شربتُ مما بهذا الابريق ! »
فقال المحتسب : « فأخبرنى ، ماذا بهذا الابريق ؟ » ، فقـال الرجل : « بقية ما شربت ! » ، فقـال المحتسب : « ان هـذا لخفىّ ! »
٢٣٩٠ وأردف قائلا : « ما هذا الذى شربته ؟ » فقال الرجل : « انه بعض ما احتواه هذا الابريق !
وتتابع السؤال والجواب في حلقة مفرغة . فوحل المحتسب مثلما يَوحَل الحمار .
وقال للرجل : تنبه ، ثم قل : آه . فأخذ السكران يردد : هو ، هو.
فقال المحتسب : أأقول لك انطق « آه » ، فتنطق « هو » ؟

فقال السكران : اننى سعيد وأما أنت فقد حنى الهم ظهرك .
والآه تصدر عن (الاحساس) بالألم أو الحزن أو الظلم . وأما « هو » ، هتاف السكارى ، فانه ينبعث من السرور !

٢٣٩٥ فقال المحتسب : « لست أعرف هذا ، فانهض ! انهض ! ولا تتكلف العرفان[1] ، ودعك من هذا العناد » .

فقال السكران : « ما شأنك وشأنى ؟ اذهب عنى ! » فقال المحتسب : « انك سكران ، فانهض ، وأقبل معى الى السجن » .

فقال السكران : « أيها المحتسب ! دعنى وامض لسبيلك ! فمن ذا الذى يستطيع أن يأخذ رهنا ممن لا يملك الثياب ؟

فلو كانت لى قوة على الذهاب لذهبت الى منزلى ، ولما جرى هذا بيننا !

ولو أننى كنت ذا عقل وامكان ، لتبوأت منصة مثل الشيوخ ! »

كيف جر المستفسر ذلك العظيم مرة ثانية الى الكلام ، ليزداد علما بحاله

٢٤٠٠ فقال هذا الطالب : « يا من امتطيت عودا من القصب . سق حصانك لحظة نحو هذا الجانب ! »

فركب نحوه قائلا : « هيا ، عجل بالقول ، فان حصانى عنيف ، حاد الطبع !

سارع حتى لا يضربك الحصان ، وأوضح ما تريد السؤال عنه » .

---

(١) حرفيا : « لا تنحت العرفان » ، ومعناه : « لا تتصنع العرفان » .

فلم ير السائل مجالا لكى يبوح بسر قلبه . فلجأ الى المراوغة ، وجرّه الى المزاح .

فقال : « أريد أن أتزوج امرأة من هذا الدرب . فأى من نسائه تليق بمثلى ؟

٢٤٠٥ فقال : « ان في العالم ثلاثة أنواع من النساء ، نوعان منهن عناء ، وأما النوع الثالث فهو كنز الروح !

فاحداهن حين تتزوجها ، تكون كلها لك . وأخرى يكون نصفها لك ، ونصفها الآخر منفصلا عنك .

وثالثة لا تكون لك قط فاعلم ذلك . والآن ، وقد سمعت ، فتنحّ عن طريقى ، فانى منطلق .

والا عاجلك حصانى بركلة تطيح بك ، فلا تنهض منها حتى الأبد!»

وركب الشيخ منطلقا بين الأطفال . فناداه ذلك الشاب مرة أخرى .

٢٤١٠ قائلا : « أقبل ، واذكر لي تفسير هذا . لقد قلت ان النساء ثلاثة أنواع ، فاختر (لى من بينهن) » .

فركب نحوه وقال له : « ان البكر التى تخصك ، تكون كلها لك ، وبها تجد من الغم الخلاص .

والثيب (بلا ولد) يكون لك نصفها . وأما ذات الولد فهذه لا تكون لك قط .

فما دامت ذات ولد من زوجها الأول ، فان حبها وكل خاطرها يتوجه اليه .

والآن ابتعد والا سدّد حصانى لك ركلة ، وتلقيت ضربة من حافر هذا الجواد القويّ ! »

٢٤١٥ وأطلق الشيخ صيحات الوجد ثم انطلق ، ونادى الأطفال ليقبلوا ثانية نحوه .

فناداه ذلك السائل مرة أخرى وقال : « أقبل ، فقد بقى لدىّ سؤال ، أيها الملك العظيم ! »

فتوجه ثانية نحوه وقال : أسرع وقل لى ما هذا السؤال ، فان هذا الطفل قد سرق كرتى من الميدان ! »

فقال السائل : « أيها المليك . ما هذا الوله وما هذا الفعل ، مع مثل هذا العقل والأدب ؟ ألا ما أعجب ذلك !

لقد تجاوزت العقل الكلىّ في البيان . انك شمس ، فكيف احتجبت وراء الجنون ؟ »

٢٤٢٠ فقال (الحكيم) : « ان هؤلاء الأوباش قد ارتأوا رأيا ، أن يجعلونى قاضيا في مدينتهم .

ولقد امتنعت من ذلك ، لكنهم أبوا قائلين : « ليس لدينا عالم صاحب فن مثلك .

فمع وجودك ، يكون من الحرام والخبيث ، أن يروى الحديث في مجلس القضاء من هو دونك (علما وعرفانا) !

فالشريعة لا تأذن لنا بأن نختار من لا يساويك مليكا واماما » .

فلهذه الضرورة غدوتُ مثل الأحمق المجنون ، لكننى ــ في الباطن ــ بقيت على حالى .

٢٤٢٥ فعقلى كنز ، وأنا الخربة (التى تخفيه) . فلو أننى أظهرت الكنز لكنت مجنونا !

وما المجنون الا من لم يغد مجنونا . انه ذلك الذى رأى العسس ولم يذهب الى داره .

ومعرفتي بجوهر ، وليست عرضا . فهي ليست ثمنا لكل غرض (دنيوى) .

إنى منجم القند ، بل أنا منبت قصب السكر ! فهو ينبت منى ، وأنا في الوقت ذاته آكل منه !

والعلم يكون تقليديا ، مصطنعا ، عندما يأسى صاحبه لنفور مستمعيه .

٢٤٣٠ فلئن كان (علم الدين) من أجل الرزق[1] ، لا من أجل الاستنارة، فصاحبه دنيء كطالب علم الدنيا .

فهو طالب علم من أجل العام والخاص ، لا ليجد من هذا العالم الخلاص .

فهو مثل الفأر جعل كل طرف جحرا ، حينما ردّه عن الباب نور النهار ، قائلا : « ابتعد » .

فلما لم يكن له سبيل الى المرج والضياء ، فانه قد أخذ يبذل جهده في تلك الظلمات .

فلو أن الله وهبه جناحين ، جناحي العقل ، لخلص من طبيعة الفأر وحلّق مثل الطيور !

٢٤٣٥ وان هو لم ينشد الجناحين بقى تحت الثرى ، بدون أمل في أن يسلك سبيل السماك[2] .

ان علم الكلام الذى لا روح فيه ، يكون متعشقا لوجوه من يشترونه !

---

(١) حرفيا : من اجل الحبة . (٢) السماك احد الكواكب النيرة . ويطلق هذا الاسم عادة على كوكبين يعرفان بالسماكين ، احدهما في جهة الشمال والآخر في جهة الجنوب .

ومع أنه وقت البحث فيه يبدو عظيما ، فانه يغدو مواتاً ويمضي ، حينما لا يجد المشترى !
وأما أنا فمشترىّ هو الله . وهو الذى يرفعنى ، (على مقتضى قوله) : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم[1] » .
وثمن دمى هو جمال الحق ذى الجلال . وانى لأغتذى من ثمن دمى بكسب حلال .
٢٤٤٠ فدعك من هؤلاء المشترين المفلسين ! وأى شراء تقدر عليه قبضة من الطين !
ولا تأكل الطين ، ولا تكن له مشتريا ولا طالبا ، فآكل الطين يكون دائما مصفر الوجه (شاحب الطلعة) .
واغتذ بقلبك حتى تكون دائم الشباب ، ويجعل التجلى طلعتك مثل الأرجوان !
يا رب ، ان هذا العطاء ليس على قدر أعمالنا . فلطفك هذا لائق بما لك من لطف خفىّ .
فخذ بيدنا ، وخلصنا من قبضة (وجودنا المادى) ، وارفع الحجاب بيننا وبينك ، ولا تمزّق سترنا .
٢٤٤٥ ثم خلصنا من هذه النفس (الحيوانية) الخبيثة ، فان سكينها قد بلغ منا العظام .
فمن ذا الذى يرفع هذا القيد المحكم عنا ، أيها المليك الذى لا تاج له ولا تخت ؟
ومن ذا الذى يستطيع أن يفتح مثل هذا القفل الثقيل ، سوى

(1) التوبة ، ٩ : ١١١ .

فضلك ، أيها الودود !

فلنحوّل رؤوسنا عن أنفسنا متجهين نحوك ، ما دمت أنت أقرب الينا من أنفسنا .

وهذا الدعاء أيضا من عطائك وتعليمك ، والا فكيف ينبت بستان الورد في (رماد) الموقد ؟

٢٤٥٠ وليس سوى اكرامك ما يستطيع أن ينقل الفهم والعقل بين الدم والأمعاء .

وهذا النور المنساب من قطعتين من الشحم[١] ، تتلاطم أمواجه السماء !

وقطعة اللحم التى قدّ منهـا اللسان ، يتدفق سيل الحكمة منها مثل النهر ،

نحو فجوات تسمى بالآذان ، ومنها الى بستان الروح ، وثمراته هى العقول .

وشرع الخالق هو الطريـق الأرحب الى بستان الروح . وكـل بساتين العالم وحدائقه فرع لهذا البستان .

٢٤٥٥ ذلك أصل السعادة ! ذلك نبعها ! فسارع الى قراءة قوله تعالى : « تجرى من تحتها الأنهار[٢] » .

تتمة نصح ـ الرسول عليه السلام ـ للمريض

قـال الرسول لذلك المريض ، عندما ذهب لعيـادة هذا الصاحب العليل ،

---

(١) العينان .
(٢) سورة البروج ، ٨٥ : ١١ .

« لعلك قد دعوت دعاء ، كان لك بمثابة سم ّ زعـاف تناولته عن جهل .

فلتذكر أي دعاء هتفت به ، عندما غدوت ثائرا مـن جرّاء مكر النفس » .

فقال : « انني لست أذكر ، فاجعل همتك معي ، تَعد الى الذاكرة برهة من الزمن » .

٢٤٦٠ ولقد تجلـّى في خاطره هـذا الدعاء ، بحضور المصطفى ، الذى أفاض عليه من نوره !

فبهمة المصطفى ، معدن النور ، تجلـّى أمـام خاطره ما كـان قد نسيه !

وأشرق من تلك النافذة ، التى تصل بين القلب والقلب ذلك النور الذى يظهر الحق من الباطل .

فقال : « ها هى ذى ذاكرتى قد عادت ، أيها الرسول ! وها هوذا الدعاء الذى هتفتُ به ، أنا الفضولىّ !

فحينما أصبحتُ أسير الاثم ، وأغرقنى ، أخذت أتعلق بالأعشاب ،

٢٤٦٥ وكان يجيئنا منك التهديد والوعيد ، منذرا المجرمين بعذاب بالغ شديد ،

فغدوتُ مضطربا ، ولم تكن لى حيلة ! لقد كان القيد محكما ، لا سبيل الى فتح أقفاله !

ولم يكن هنـاك مكان للصبر ، ولا سبيـل للهرب ، ولا أمل في التوبة ، ولا مجال للعناد !

فأخذت أتأوّه من الحزن مثل هاروت وماروت ، قائلا : يا خالقى !

ان هاروت وماروت قد اختارا بوضوح بئر بابل ، على خطر (عذاب الآخرة) .

٢٤٧٠ حتى يلقيا هنا عذاب الآخرة ، وانهما لماكران عاقلان ، شبيهان بالسحرة !

ولقد أحسنا صنعا ، فقد كان ألم الدخان أهون عليهما من عذاب النـار .

فانه لا حدّ لوصف آلام ذلك العالم[1] ، ولكم يهون أمامه ألم الدنيا !

وما أسعد من جاهد البدن ، وكان له زاجرا وألزمه العدالة !

ولكى يخلص من عذاب ذلك العالم ، يلزم نفسه بمشقة العبادة .

٢٤٧٥ لقد كنت أقول : يا الهى ! أرسل الىّ هـذا العذاب عاجلا في الدنيا ،

حتى يكون لى فراغ منه في الآخرة ! لقد كنت أطرق الباب بمثل هذا الرجاء !

وهكذا ظهر بى هـذا المرض ، وأصبحت روحى لا قرار لهـا من الألم .

وهكذا عجزت عن ذكرى وأورادى ، وأصبحت لا أدرى بنفسى، ولا بالخير والشر !

ولو أننى لم أر وجهك الآن ، أيها السعيد المبارك النفحات ،

٢٤٨٠ لانطلقت من قيد الحياة انطلاقا كاملا . لقـد أضفيت علىّ هذا العطف بأسلوبك الملكىّ » .

---

(١) الآخرة .

فقال الرسول : « حذار ، ولا تهتف بهذا الدعاء مرة ثانيـة ! لا تقتلع نفسك من أصلها وأساسها !

فأية طاقة لك ـ يا من أنت كالنملة الواهية ـ حتى يضع فوقك مثل هذا الجبل العالى ؟ »

فقال : « لقد تبت ـ أيها السلطان ـ ولن تدفعنى الجرأة بعد ذلك الى التفوه بجزاف القول !

ان هذه الدنيا تيه ، وأنت لنا مثـل موسى ! ونحن من الاثم قد بقينا في التيه رهن البلاء !

٢٤٨٥ ونحن نقطع الطريق سنين ، وفي آخر الأمر ، نجد أنفسنا أسارى أول منازله !

فلو أن قلب موسى كان راضيا عنا ، لبدت لنا السبيـل في التيه ، وتجلت حدودها .

وأما ان كـان بالغ النفـور منا ، فكيف تصل الينا موائدنا مـن السماء ؟

ومتى كانت الينابيع تتفجر من الصخر ؟ أم كيف يكون لأرواحنا أمان في القفار ؟

بل ان النار لتأتينا بدلا من الخوان ! وان اللهب ليدهمنا في هذا المنزل !

٢٤٩٠ فلما أصبح موسى صاحب قلبين ازاء أحوالنا ، فانـه حينا يكون خصمنا وحينا يكون صاحبنا ،

فغضبه يشعل النـار في متاعنا ، وأما حلمه فيكـون درعا لنا في مواجهة البلاء .

وكيف يتحول الغضب أيضا الى حلم ؟ ان هذا أيضا ليس بغريب على لطفك ، أيها العزيز .

وان مدح الحاضر لدعاة للحرج ، ولهذا فاني قد تعمدت ــ على هذا النحو ــ ذكر اسم موسى .

والا فكيف يجيز لي موسى أن أذكر أي انسان في حضرتك ؟

٢٤٩٥ وعهدنا يتحطم مائة مرة ، بل وألف مرة ، وأما عهدك فهو ثابت راسخ كالجبل !

وعهدنا كالقش ضعيف أمام كل ريح ، وأما عهدك فجبل ، بل هو أقوى[١] من مائة جبل !

فبحق ما لك من قوة على تلويننا ، كن رحيما بنا ، يا أمير الألوان !

لقد رأينا أنفسنا ورأينا عارنا ، فلا تزدنا امتحانا ، أيها المليك !

فلعلك بذلك تدع فضائحنا الأخرى مستورة ، أيها الكريم المستعان !

٢٥٠٠ فأنت بدون حدّ في الجمال والكمال ، ونحن بدون حد في العوج والضلال !

فوجه ــ أيها الكريم ــ (كمالك) الذى لا يُحدّ الى زمرة اللئام ، الذين يعانون عوجا لا يحدّ !

هيا ، فان التمزق لم يُبق منا سوى خيط واحد . لقد كنا مصرا (عامرا) فلم يبق منا سوى حائط واحد !

(وتدارك) البقية ! تداركها أيها المولى ، حتى لا تفعم السعادة روح الشيطان .

---

(١) حرفيا : اكثر .

وليس ذلك من أجلنا ، بل من أجل اللطف الأول ، فانك به تبحث عن التائهين .

٢٥٠٥ فلتظهر لنا الرحمة ، مثلما أظهرت قدرتك ، يا من أودعت الرحمات في اللحم والشحم !

ولئن كان هـذا الدعاء يزيدك غضبا ، فلتعلمنا أنت الدعاء ، أيها العظيم !

مثلما (صنعت) بآدم حين سقط مـن الجنة ، فوهبته الرُجعى ، فخلص من الشيطان القبيح .

وما الشيطان حتى يتفوق على آدم ، وحتى يغلبه في اللعب عـلى مثل هذه الرُقعة !

ولقد صار كـل هذا ـ في الحقيقـة ـ نفعا لآدم ، كما صارت الخديعة لعنة على (الشيطان) الحاسد .

٢٥١٠ لقد رأى لعبة واحدة ، لكنـه غفل عن مائتى لعبة ، وبهذا دمر دعائم منزله !

انه ـ في الليل ـ قد أشعل النار في مزرعة الآخرين ، فاذا بالريح تحمل النار الى مزرعته !

ان اللعنة التى أصابت الشيطان كانت حجابا لعينيـه ، وبهذا ظن أن خداعه مضرة لخصمه .

فاللعنة هى التى تجعل المرء معوج الابصـار ، وتصيره حاسدا مغرورا حقودا ،

حتى أنه لا يعلم أن كل من عمل السوء ، يرتدّ اليه السوء ـ في عاقبة الأمر ـ ويصيبه .

٢٥١٥ انه يبصر جميع اللعب البارعة معكوسة ، وبهذا تنقلب وبالا عليه ونقصانا ووكسا !

ذلك لأنه لو أبصر حقيقة نفسه ، لرأى جرحها مهلكا لا يلتئم !

واذ ذاك تشب آلامه من جراء هذه الرؤية الباطنية ، ويخرجه ذلك الألم من حجابه .

فالأمهات ما لم يشعرن بآلام الوضع ، فان الأطفال لا يجدون سبيلاً قط الى أن يولدوا .

فهذه الأمانة (الالهية) مكانها القلب . والقلب حامل بها . وهذه النصائح شبيهة بالقابلة .

٢٥٢٠ وقد تقول القابلة ان المرأة لا تتألم . لكن الألم ضروري . انه هو السبيل أمام الطفل .

والذى يكون بدون ألم قاطع طريق . ذلك لأن الخلو من الألم يجعل المرء يقول : « أنا الله ! »

ان قول « أنا » في غير وقتها لعنة (على قائلها) . وأما قولها في وقتها فرحمة عليه[1] .

فقول المنصور « أنا » كان رحمة محققة ! وأما قول فرعون « أنا » فكان لعنة ، فتأمل ذلك !

فلا جرم أن كل طائر صاح في غير وقته ، يكون قطع رأسه واجبا، (لضمان صدق) الاعلام .

---

(١) يقصد بقول « أنا » في غير وقتها ، قولها حين يؤكد الانسان ذاته ، ويظهر غروره . اما « أنا » التي تقال في وقتها ، فهي عند الصوفية قول « أنا » بعد ان يكون قائلها قد افنى ذاته في الله ، ولم يعد لذاته الانسانية وجود منفصل يستشعره امام الخالق .

٢٥٢٥ فما قطع الرأس ؟ انه قتل النفس (الحيوانية) بالجهاد ، وترك القول بتأكيد الذات الانسانية .

فذلك مثل اقتلاعك الابرة من العقرب ، حتى تظفر هـذه بالنجاة من الموت .

وانك لتقتلع أنياب الثعبان المفعمة بالسموم حتى ينجو الثعبان من بلاء الرجم .

وليس يقتـل النفس الحيوانية سوى ظل العارف ، فكن وثيـق التعلق بأهداب قاتل النفس هذا !

فان أنت أحكمت التعلق به ؛ فذلك توفيق الله . وكل قوة تظهر بك ، فتلك اشعاع منه[1] .

٢٥٣٠ فكن على يقين صادق من قوله تعالي : « وما رميت اذ رميت » .

فكل ما تزرعه الروح يكون من روح الروح .

انه الآخذ باليد ، وهو حامل الأعباء . فكن في كل لحظة على أمل في تلقي الهامه .

ولا بأس عليك لو طال انتظارك ايـاه ، فأنت قـد سميته الممهل وكذلك الآخذ .

وانه ليتأخر في أخذك برحمته ، لكنه يحكم انـزال الرحمة بك .

وحضوره يجعلك لا تغيب عنه لحظة واحدة .

وان كنت تريـد شرحا لهـذا الوصل والولاء ، فاقرأ ــ بتفكير ممعن ــ سورة « الضحى » .

---

(١) حرفيا : « فتلك من جذبه » .

٢٥٣٥ وان أنت قلت ان كل الشرور منه ، فمتى كـان في ذلك نقصان لفضله ؟
فصنعه للشر يكون أيضا من كماله . وانى لذاكر لك مثالا ، أيها المفضال :
ان نقّاشا قد نقش لونين من النقوش ، أحدهما صاف ، والآخر خال من الصفاء .
لقد نقش صورة يوسف ، والحور ذات الصور المليحـة ، ونقش صورة العفاريت والأبالسة القباح !
وكلا هذين اللونين من النقوش ناطق بأستاذيته . وليس ذلك القبح قبحه ، بل انه جوده !
٢٥٤٠ لقد جعل القبيح غاية في قبحه ، وقد أحاطت به كافة ألوان القبح ، حتى يتضح كمال علمه ، ويحيق العار بمنكر أستاذيته .
ولو لم يعرف كيف يصنع القبح لكان ناقصا ! ولهذا السبب فانه هو خلاق الكافر والمخلص !
فالكفر والايمان ـ من هذا الوجه ـ شاهدان عـلى ألوهيته ، وكلاهما له ساجدان !
لكن المؤمن يكون ساجدا طوعا ، ذلك لأنـه ملتمس رضى الله ساع اليه .
٢٥٤٥ وأما الكافر فيكون عابدا الله كرها ، لكن قصده يكون من أجل مُراد آخر .
انه يعمر قلعة السلطان ، لكنه يدعى الامارة فيها !
ولقد أصبح باغيا لتغدو القلعة ملكا له ، لكن القلعة تعـود ـ في النهاية ـ الى السلطان .

وأما المؤمن فانه يعمر هذه القلعة مـــن أجل المليك ، لا من أجل الجاه .

ان القبيح يقول : « أيها المليك الذى يخلق القبح ! انك قادر على خلق الجمال والقبح المهين !

٢٥٥٠ وأما الجميل فيقول : « يا مليك الحسن والبهاء ! لقـــد جعلتنى نقيًا من العيوب » .

كيف وصى الرسول ـ عليه السلام ـ ذلـك المريـض ، وعلمـه الدعاء

قال الرسول لذلك المريض : « ادع هكذا : يا من تجعل العسير يسيرا !

آتنا في دار دنيانا حسن آتنا في دار عقبانا حسن[1]

واجعل طريقنا لطيفا مثـــل البستان . انك أنت مقصدنا ، أيهـــا الكريم » .

ان المؤمنين يقولون يوم الحشر : « أيتها الملائكة ! ألم تكن النار طريقا مشتركا ؟

٢٥٥٥ أليس يجب أن يمرّ بها المؤمن والكافر ؟ انا لم نر في هذا الطريق دخانا ولا نارا !

ها هى ذى الجنة وبلاط الأمان ! فأين كان ذلك الممرّ الدنىء ؟ »

---

(١) هذا البيت عربى في الأصل ، ويتضمن اقتباسا من القرآن الكريم . انظر : سورة البقرة ، ٢ : ٢٠١ .

فيقول لهم الملائكة : « ان تلك الروضة المخضلة ، التى شاهدتموها في ذلك المكان أثناء عبوركم ،

كانت هى الجحيم ، ومستقر العذاب الشديد ! ولقد أصبحت لكم حديقة وبستانا وشجرا !

ذلك لأنكم ــ ازاء هذه النفس الجهنمية الطبــاع ، هذه النارية الكافرة ، الباحثة عن الفتنة ــ

٢٥٦٠ قد بذلتم الجهود ، فأصبحت مفعمة بالصفاء ، وأطفأتم نارها في سبيل الله .

ونارُ الشهوة التى تقذف باللهب ، صارت ــ عندكــم ــ روضة من التقوى ، ونور هداية !

ونار الغضب أيضا قد أصبحت عندكم حلما ! وظلمة الجهل كذلك قد أصبحت عندكم علما !

ونار الحرص قد صارت عندكم ايثارا ! وهذا الحسد كــان مثل الشوك ، فصار بستان ورد !

فما دمتم أنتم قــد بادرتم من قبل الى اطفــاء نيران أنفسكم ، في سبيل الله ،

٢٥٦٥ فقد جعلتم النفس النارية مثل البستان ، وغرستم بها بــذور الوفاء !

وها هى ذى بلابل الذكر والتسبيح ، تصدح بالألحان العذبة في روضتها ، على شاطىء النهر !

انكم قد أجبتم داعي الحق ، فحملتم بذلك الماء الى جحيم النفس.

وها هوذا جحيمنا أيضا قد أصبح ازاءكم روضة وحديقــة ورد ، وأوراقا وتغريدا ! »

فما مكافأة الاحسان يـا بنيّ ؟ انها اللطف والاحسان والثواب المعتبر .

٢٥٧٠ ألستم أنتم الذين قلتم : « ان (وجودنا الذاتي) ضحية مبذولة للخالق[1] ، ونحن الفانون أمام صفات البقاء !

ومهما نكن عقلاء أو مجانـين ، فانا سكارى ذلك الساقي وتلك الكأس .

وانا لنحني الرءوس لارادتـه ومشيئته . ونهبُ الأرواحَ الحلوة رهنا (لمحبته) .

فما دام خيال الحبيب نجيّ أسرارنا ، فدأبنا أن نكون خداما له ونقدم اليه أرواحنا » .

فحيثما أُشعلت شمعة البـلاء احترقت بها مائة ألف مـن أرواح العشاق .

٢٥٧٥ فالعاشقون الذين وصلوا الى داخل الدار هم الفَرَاش لشمـع وجه الحبيب .

أيها القلب ! توجه الى حيث تُقـابل بالاشراق ، الى من يكونون لك كالمجن في مواجهة البلاء !

الى مـن يفسحون لك مكانا في أرواحهم ، حتى يجعلوك مفعما بالحميّا مثل الكأس !

ولتتخذ لك مقرا بـين أرواحهم ! ألا فلتجعل الفلك منزلك ، أيها البدر المنير !

---

(١) ترجمنا الشطر الاول بشيء من التصرف .

ولسوف يفتحون أمامك دفتر القلب ، مثل عطارد ، حتى يكشفوا لك الأسرار .

٢٥٨٠ وحين تكون حائرا ، فالتحق بذويك . ولئن كنت قطعة من القمر فالتحق بالبدر .

فلماذا يكون للجزء اجتناب لكله ؟ وماذا يكون كل هذا الامتزاج بالمخالفين ؟

فتأمل كيف أصبح الجنس في مسيره أنواعا . وتأمل كيف أصبحت المغيّبات بتجليها أعيانا .

فالى متى تشترى الخداع كالنساء ، أيها الخالى من الرشد ؟ وكيف تتلقى المدد من الكذب والخداع ؟

انك لتأخذ الملق واللفظ الحلو والخداع ، وتضعها بجيبك كأنما هي ذهب !

٢٥٨٥ وان (تلقيك) الشتم والضرب من ملوك (الروح) لخير لك من ملق أهل الضلال !

فتقبل صفع هؤلاء الملوك ، ولا تقبل شهد الأخساء ، حتى يجعلك رجلا اقبالُ هؤلاء الرجال .

ذلك لأن الدولة والخلعة تجيئك من هؤلاء . فالجسد يغدو في كنف الروح روحا .

وحيثما رأيت عاريا جائعا ، فاعلم أنه قد هرب من الأستاذ ،

حتى يغدو على ذلك النحو الذى يبتغيه قلبه ، ذلك القلبُ الكثيف الشرير الذى لا حاصل له !

٢٥٩٠ ولو أنه غدا على هذا النحو الذى أراده أستاذه ، لازدانت بذلك

نفسه وغدا زينة لذويه !

فكل من يهرب من الأستاذ في الدنيا ، فاعلم أنه انما يهرب من السعادة !

لقد تعلمت حرفة يتكسبُ بها البدن ، فشمِّر عن ساعدك وتعلَّم حرفة دينية[1] .

انك قد غدوت في هـذه الدنيا غنيا رافلا في الحلل ، فماذا أنت فاعل حين تخرج منها ؟

فتعلم الحرفة التى تعود عليك في الآخرة بدخل ، هو كسب المغفرة!

٢٥٩٥ فذلك العالم (الآخر) مدينة حافلة بالأسواق والكسب ، فلا تظن أن الكسب وقف على هذه الدنيا !

فالحق تعالى قال ان كسب الدنيا ــ أمام ذلك الكسب (الأخروى) ــ كلعب الأطفال .

انه كمعانقة طفل لطفل آخر ، يلتصق به التصاق المتحابين .

أو كالأطفال حينما يقيمون في لعبهم دكانا ، لا جدوى منه الا قضاء الوقت !

فاذا ما جاء المساء فان الطفل (صاحب الدكان) يعود الى منزله جائعا ، وقد ذهب الأطفال وتركوه وحيدا .

٢٦٠٠ فهذه الدنيا ملعب ، والموت هو المساء . وأنت تعود منها خالى الكيس بالغ العناء .

وكسب الدين هو العشق ، والجذب الباطنى . انه القابلية لتلقى نور الحق ، أيها الحرون .

(١) حرفيا : فادفع قبضتك الى احدى الحرف الدينية .

وهذه النفس الخسيسة تريد لك الكسب الفاني ! فالام تعمل لهذا الكسب الخسيس ؟ ألا فلتدعه ، كماك !

ولو أن النفس الخسيسة التمست لك الكسب الشريف لكان لها من وراء ذلك حيلة ومكر !

كيف ايقظ ابليس معاوية ـ رضى الله عنه ـ قائلا : « قم ، فقد حان وقت الصلاة »

لقد جاء في الخبر أن معاوية كان نائما في احدى زوايا القصر .

٢٦٠٥ وكان باب القصر مغلقا من الداخل ، ذلك لأنه كان متعبا من لقاء الناس .

فأيقظه ـ على غير توقع منه ـ أحد الرجال . فلما فتح عينيه اختفى ذلك الرجل !

فحدث نفسه قائلا : « انه لم يكن لأحد سبيل الى القصر . فمن ذا الذى أظهر هذا التوقح والجرأة !

ودار في القصر منقبا حينذاك ، لعله يجد أثرا لذلك المختفى .

فرأى وراء الباب رجلا تعس الصورة ، كان يحجب وجهه بالباب والستار .

٢٦١٠ فقال : « يا هذا ، من أنت وما اسمك ؟ » . فقال : « ان اسمى ـ بصريح القول ـ ابليس الشقى ! »

فقال معاوية : « فلماذا سعيت الى ايقاظى ؟ ألا فلتقل الصدق ، ولا تخاطبنى بعكس ذلك ، وضده .

كيف غش[1] ابليس معاوية ، وتظاهر بغير الحق ، والتمس الذرائع ، وكيف اجابه معاوية

فقال ابليس : « ان ميقات الصلاة قد أوشك على الانتهاء . فيجب عليك أن تهرع مسرعا الى المسجد !

فالمصطفى ـ حينما كان ينظم درر المعاني ـ قال : « عجلوا الطاعات قبل الفوت » .

فقال معاوية : « كلا ! كلا ! فليس يكون من مقاصدك أن تكون مرشدي الى الخير .

٢٦١٥ فلئن دخل لص مسكنى في الخفاء ، ثم قال لى : انى أقوم هنا بالحراسة ،

فمن أين لى أن أصدق هذا اللص ؟ وأنى للص أن يعرف المثوبة ، وحسن الجزاء ؟ »

كيف عاد ابليس الى جواب معاوية

فقال ابليس : « لقد كنتُ في بداية أمري مَلكا . وما أكثر ما سلكت بالروح سبيل الطاعة !

لقد كنت أمين سر السالكين بهذا الطريق . كما أننى كنت رفيقا لسكان العرش !

(١) حرفيا : « كيف أوقع ابليس معاوية من فوق حماره » ، وهذا كناية عن الغش والخداع .

فكيف يخرج مـن قلب الانسان شغله الأول ؟ وكيف يفترق عن فؤاده أول حب ؟

٢٦٢٠ ولو أنك شهدت في سفرك بلاد الروم أو الختن ، فكيف يذهب من قلبك حب الوطن ؟

لقد كنتُ أنا أيضا من سكارى هذه الخمر ! وكنت في حضرته من العشاق !

وانني قد استقبلت الحيـاة على محبته ، كما أن عشقه كـان قد غُرس في روحي !

ولقد لقيت من الزمان أياما طيبة ، كما أنني احتسيت مياه الرحمة ابان ربيعي .

ألم تكـن يدُ فضله هي التـي غرستني ؟ أليس هو الذي قـد أخرجني من العدم ؟

٢٦٢٥ وما أكثر ما كنت قد شهدت من ألطافه ! ولكم تجولت في بستان رضاه !

انه كان يضع فـوق رأسي يد رحمته . وكم كـان يُفيض ينابيع اللطف مني !

وفي وقت طفولتي ، حينما كنت رضيعا ، مـن ذا الذي كان يهزّ مهدي ؟ انه هو !

وأيان كان لي حليب أحتسيه غير حليبه ؟ ومن ذا الذي رعاني غير تدبيره ؟

وكيف يمكن أن تنفصل عن المرء تلك الخليقـة التي دخلت كيانه مع الحليب ؟

٢٦٣٠ فلئن كان بحر الكرم قد عاتبني ، فمتى كانت توصد أبواب كرمه؟
فأصل نقده عطاء ولطف وسخاء ، وما القهر فوق أولئك الا كالغبار الذى يغشى النقد .
وهو قد خلق العالم من أجل اظهار لطفه . وشمسه هى التى لاطفت بأشعتها الذرات .
فلئن كانت الفرقة عنه منطوية على قهره[1] ، فما ذلك الا لكى يُعرف قدرُ وصله !
فان فراقه هو الذى يعرك أذن الروح ، واذ ذاك تعرف قدر أيام الوصال .
٢٦٣٥ ولقد روى الرسول ، أن الحق تعالى قال : كان الاحسان هو قصدى من الخلق .
لقد خلقت الخلق لكى يفيدوا من نوالى ، لكى يغمسوا أيديهم في شهدى .
وليس لكى أفيد منهم ربحا ، أو لأنتزع من العارى قباء .
فهأنذا قد بقى بصرى متعلقا بوجهه الجميل ، خلال تلك الأيام القليلة التى أبعدت فيها .
فيا له من عجب أن يصدر مثل هذا القهر ، عن مثل هذا الوجه !
لقد أصبح كل انسان (من جراء هذا) مشغولا بالسبب !
٢٦٤٠ وانى لا أنظر الى السبب ، فان ذلك السبب حادث ، والحادث يكون باعثا لحادث آخر .
وانما أنا أنظر الى لطفه السابق . وأما ما هو حادث فانى أحطمه[2].

(١) حرفيا : « حبلى بقهره » .
(٢) حرفيا : « أشقه نصفين » .

فمع تسليمي بأن الامتناع عن السجود لآدم كان من جراء الحسد ، فان هذا الحسد قد انبعث من العشق ، لا من الجحود !

ومن اليقين أن كل حسد ينبعث من الحب ، فالمحب يخشى أن يغدو الغير جليسا للحبيب .

والغيرة الناضجة هي شريطة المحبة ، كما اشترط قولك « طال عمرك » لمن عطس .

٢٦٤٥ انني لم يكن أمامي سوى هذه اللعبة فوق رقعة لعبه ، وقد أمرني بأن ألعب ، فماذا أعرف أكثر من ذلك ؟

فلعبت تلك اللعبة الوحيدة التي بقيت ، وبهذا ألقيت بنفسي في البلاء !

واني ــ في البلاء أيضا ــ لأنهل من لذاته ، وأنا أمامه المنهزم المخذول المقهور !

وكيف يستطيع المرء أن يخلص نفسه ــ أيها المفضال ــ في ست جهات من ستة أبواب !

وكيف يتخلص جزء الستة من كلها ، وبخاصة اذا كان الخالق ــ الذي لا شبيه له ــ قد جعله أعوج !

٢٦٥٠ فكل من كان داخل الستة ، فهو في داخل النار . ولا مخلّص له منها الا خالقها .

فلئن كان كفرا أو كان ايمانا ، فهو من نسج يد الحضرة ، وهو ملك لها » .

كيف عاد معاوية الى تقرير مكر ابليس على مسمع منه

فقال الأمير : « ان هذه أمور صحيحة ، ولكنك تفتقر الى نصيب منها .

انك أغلقت السبيل أمام عشرات الآلاف من أمثالى ! لقد أحدثت حفرة تسللت منها الى بيت المال !

فأنت النار والنفط ! وانك لتحرق ، ولا حيلة لك في ذلك ! ومن ذا الذى لم تمزق يداك له ثيابه ؟

٢٦٥٥ فما دام الاحراق هو طبيعتك مثل النار ، فلا مناص لك من أن تحرق شيئا .

ان لعنة الله هى التى جعلتك تحرق ، وهى التى جعلتك أستاذا لكافة اللصوص .

لقد تحدثت الى الله واستمعت منه وجها لوجه . فمن أكون أنا أمام مكرك أيها العدو !

فمعارفك هذه شبيهة بصوت الصفير . فهذا نداء للطير ، لكنه — (في الحقيقة) — شرك لها .

وصفيرك هذا قد أضل آلاف الطيور ، فكان كل منها ينخدع فيظن أن صديقا قد أقبل .

٢٦٦٠ فهو حين استمع في الهواء صوت الصفير ، نزل من الهواء فأصبح هنا أسيرا !

ان قوم نوح لفى نواح من جراء مكرك ! فأما قلوبهم فمحترقة ، وأما صدورهم فممزقة !

ولقد أسلمت عادا للريح في هذه الدنيا ، وألقيت بها الى العذاب والأحزان .

ورجم قوم لوط بالحجارة كان من جرائك ! وبسببك أيضا غرقوا في المياه السوداء !

ومن جرائك أيضا تبدد ذهن النمرود ، يـا من أثرت الآلاف من الفتن !

٢٦٦٥ وعقل فرعون الذكىّ الفيلسوف ، أصبح من جرائك أعمى ، ولم يجد الى الفهم سبيلا !

وأنت الذى جعلت أبا لهب فاقد الأهليـة . وأنت الذى غدا أبو الحكم ــ من جرائك ــ أبا جهل !

يا من قهرت ــ للذكرى ــ آلاف الأساتذة فوق هذا الشطرنج !

يا من بألعابك البارعة المستغلقة ، قد احترقت القلوب ، واصطبغ بالسواد قلبك !

انك بحر المكر ، ومـا الخلائق الا قطرة ! بـل انك أنت الجبل ، وما هؤلاء البسطاء الا ذرة !

٢٦٧٠ فمن ذا الذى ينجو مـن مكرك أيها الخصم ! اننا جميعا غريقو طوفانك ، الا من عصم .

فكم من نجم سعد قد جعلته محترقا ! وكم مـن جيش وكم من جمع غدا بك مشتتا مفترقا ! »

كيف عاد ابليس الى جواب معـاوية

فقال له ابليس : « ألا فلتحلّ هذه العقدة ! اننى أنا المحك للنقد الزائف والصحيح !

فالحق هو الذى جعلنى فيصلا بين الأسد والكلب . والحق هو الذى جعلنى فيصلا بين صحيح النقد وزائفه .

ومتى كنت أنا الذى جعل الزائف أسود الوجه ؟ اننى أنا الصيرفى الذى حدد قيمته .

٢٦٧٥ أنا الذى يظهر السبيل للطيبين . وأنا الذى يستأصل ذابل الأغصان .

فلماذا أضع أمام الخلق هذه الألوان من العلف ؟ لكى يتضح لى الى أى جنس ينتمى الحيوان !

فلو أن ذئبة ولدت صغيرا لغزال ، ووقع الشك حول الصغير ، وهل ينتمى الى الذئاب أو الغزلان ؛

فانثر أمامه أعشابا وعظاما ، ثم انظر الى أى جانب يخطو مسرعا !

فلو أنه اتجه نحو العظام فهو كلب ! ولئن طلب العشب فهو ينتمى يقينا الى الغزلان !

٢٦٨٠ ان القهر واللطف قد اقترن كل منهما بالآخر ، فولد من كليهما عالم الخير والشر .

فلتقدم للخلق الأعشاب والعظام ، ولتعرض عليهم قوت النفس وقوت الروح ،

فمن طلب غذاء النفس فهو أبتر ، وأما من طلب غذاء الروح فهو سيد نبيل .

ومن سعى الى خدمة الجسد فهو حمار ، ومن ذهب الى بحر الروح ظفر بالجوهر .

ومع أن الخير والشر مختلفان ، فانهما معا مشتغلان بعمل واحد .

٢٦٨٥ فالأنبيـاء يعرضون (على البشر) الطاعـات ، وأما الأعـداء
فيعرضون عليهم الشهوات .
وكيف أجعل من الخير شريرا ؟ اننى لست الها ، ان أنا الا داع ،
ولست خالقا لهما .
وهل أجعل من الجميل قبيحا ؟ اننى لست ربا . وما أنا الا مرآة
للقبح والجمال .
ان الألم قد دفع الهندى الى أن يحرق المرآة (مدعيا) أن هـذه
تظهر الرجل أسود الوجه !
ولقد خلقنى الله كاشفا ، ناطقا بالصدق ، وذلك لأبين أين يكون
القبيح ، وأين الجميل !
٢٦٩٠ اننى لست الا شاهدا ، وأنى يليق السجن بالشاهد ؟ فلست أهلا
للسجن ، والله شاهدى على ذلك !
فحيثما أبصر غصنا مثمرا ، فاننى أقـوم برعايتـه كأننى الحاضن
(المربى) .
وحيثما أرى شجرة مرة ذاوية ، فاننى أقتلعها ، لكى يخلص المسك
من البعر .
ان الشجرة الذابلـة تقـول للبستانى : « أيها الفتى ! لماذا تحتز
رأسى بغير خطأ منى ؟ »
فيجيبها البستانى قائلا : « الزمى الصمت أيتها الخسيسة الطبع !
أوليس ذبولك جرما كافيا لك ؟ »
٢٦٩٥ فتقـول الشجرة الذابلة : « اننى مستقيمة ، ولست معوجـة .
فلماذا تستأصل ــ بدون ذنب ــ جذورى ؟ »

فيجيبها البستاني قائلا : « لو أنك كنت سعيدة الطالع ، فليتك كنت معوجة ، وكنت ندية (في الوقت ذاته) !
اذن لغدوت جاذبة لماء الحياة ، ولأصبحت مغمورة بهذا الماء !
ان بذرتك كانت خسيسة ، وكذلك أصلك ، ولم يكن لك ارتباط بشجرة طيبة .
ولو أن غصنا مريرا وُصل بآخر حلو ، لتسللت الى طبيعته تلك الحلاوة » .

كيف عنف معاوية ابليس

٢٧٠٠ فقال معاوية : « حسبك جدالا يا قاطع الطريق . فلا سبيل لك اليّ ، فلا تنشد ذلك السبيل !
انك قاطع طريق ، وأنا غريب ، وتاجر . فكيف أشترى منك ما تحضره من ثياب ؟
فلا تدر حول متاعي بدافع من كفرك . فانك لست تشترى متاع انسان .
فقاطع الطريق لا يكون مشتريا قط من انسان . ولو أنه اتخذ مظهر المشترى لكان ذلك مكرا وخداعا .
فما الذى يحمله اليّ في وعائه هذا الحسود ؟ يا الهى ! انك مغيثنا من هذا العدو !
٢٧٠٥ فهذا اللص لو تلا عليّ فصلا آخر (من خداعه) ، لسلب منى شعار دينى !

كيف شكا معاوية ابليس الى الحق تعالى والتمس منه النصرة

ان حديثه ـ يا الهى ـ مثل الدخان ، فخذ بيدى ، والا غدوت ملتحفا بالسواد .

اننى لا أستطيع أن أطاول بالحجة ابليس ، ذلك لأنه فتنة كل شريف وكل خسيس .

فآدم ـ وهو أمير علم الأسماء ـ لا قوة له أمام هذا الكلب الذى ينقض كالبرق !

فقد أسقطه من الجنة الى وجه الثرى . لقد وقع آدم من السماك في شص ابليس ، كما تقع السمكة !

٢٧١٠ وكان ينوح : « انا ظلمنا أنفسنا » ، فليس هناك حد لقصة الشيطان ، وخداعه .

ففي باطن كل حديث له شر ، وفيه مائة ألف سحر مضمر !

انه يربط رجولة الرجال في لحظة واحدة ، كما أنه يلهب بالهوس نفوس النساء والرجال !

فيا ابليس ! يا حارق الخلق ، يا طالب الفتنة ! لماذا أيقظتنى ؟ خبِّرنى بصدق ! »

عودة ابليس الى تقرير خداعه

فقال ابليس : « ان الرجل السيء الظن لا يستمع الى الصدق ولو كانت له مائة علامة !

٢٧١٥ فكل فؤاد أصبح متفكرا بالخيال ، يزداد خياله كلما أتيته بدليل !

فحينما يدخله الكلام يصير علة ، مثـل سيف الغازي حين يصبح سلاحا للسارق .

فمثل هذا يُرد عليه بالسكوت والسكون . ذلك لأن التحدث الى فاقد العقل جنون !

فلماذا تضرع الى الحق منى ، أيها الغرّ ! اضرع اليه من شر تلك النفس اللئيمة !

انك تأكل الحلوى ، فيتولد لك دُمّل منها . وتغشاك الحمى ثـم يختل طبعك .

٢٧٢٠ فتلعن ابليس بدون اثم ارتكبه . فكيف لا تبصر هذا الخداع في نفسك ؟

فليس من ذنب ابليس ، بـل مـن ذنبك ـ أيها الغويّ ـ أنك كالثعلب ، تعدو وراء أذناب الخراف الدسمة !

فحيثما رأيت بين الخضرة ذَنَبا ، أصبح لك شركاً ، فلماذا لا تدرك هذا ؟

انك لا تدرى ، لأن ميلك لشحم الذنب قد أقصـاك عن المعرفة ، وأعمى بصرك وبصيرتك .

حبك الأشياء يعميك يصمّ نفسك السودا جنت لا تختصم[1]

٢٧٢٥ فلا تطرح اثمك فوقى ، ولا تبصر الأمور معكوسة . فانى برىء من الشر والحرص والضغينة !

لقد اقترفت الاثم ، ولكننى الآن نادم . وانى لمنتظر أن ينبثق من ليلى النهار .

(١) هذا البيت عربى في الأصل .

لقد غدوت متهما بين الخلق ، فنسب الرجال والنساء الى أفعالهم !
فالذئب المسكين يكون جائعا ، ومع ذلك ، يتهم بالوفرة وازدهار الحال .
وحينما يجعله الضعف غير قادر على السير في الطريق ، يقول الخلق : انها التخمة من جراء دسم الطعام ! »

كيف عاود معاوية الالحاح على ابليس

٢٧٣٠ فقال معاوية : « ليس سوى الصدق ما يخلصك . ان العدالة تدعوك الى (قول) الصدق .
فلتقل الصدق ، حتى تنجو من قبضتي . ان المكر لن يهدىء غبار قتالي ! »
فقال ابليس : « وكيف تعرف الصدق من الكذب ، أيها المتفكر بالخيال ، المفعم بالأوهام ! »
فقال معاوية : « ان الرسول قد أعطى علامة لذلك ، ووضع محكا لتمييز الزائف من الصحيح .
فقال (ما معناه) : ان الكذب ريبة في القلوب ، وأما الصدق فهو لها طمأنينة وبهجة[1] .
٢٧٣٥ فالقلب لا يستريح الى كاذب القول . ان الماء والزيت لا يشعلان قط سراجا .

---

(١) روى عن الحسن بن على أنه قال : « دع ما يريبك الى ما لا يريبك ، فان الصدق طمانينة ، والكذب ريبة » . (المنهج القوى ، ح ٢ ، ص ٥٤٢) . ولم اعثر على نص الحديث الذى يشير اليه الشاعر .

وأما حديث الصدق ففيه راحة للقلب . فالحقائق هى الحَبُّ ، في الشباك التى تأسر القلوب .

فالقلب الذى لا يميز بين طعم هذا وذاك ، هو حقا قلب مريض ، أو مرّ الفم !

وحينما يغدو القلب بريئا من المرض والعلة ، فانه يصير عليما بطعم الكذب ، وطعم الصدق .

فآدمُ ــ عندما ازداد عنده الحرص على القمح ــ سلب ذلك منه سلامة القلب !

٢٧٤٠ فأصغى الى كذبك وخداعك ، واغترّ بهما ، فشرب السم القاتل .

فلم يميز في تلك اللحظة بين العقرب والسنبلة ، فالتمييزُ يطير ممن سكر بالهوس .

وان الخلق لسكارى بالأمل والهوى ، ولهذا يكونون متقبلين لخداعك !

فكل من خلص نفسه من ميل الهوى ، فقد جعل عينه أليفة للأسرار .

كيف شكا القاضى من آفة القضاء وكيف اجابه نائبه

وُلّيَ أحد القضاة ، فأخذ في البكاء ! فقال نائبه : « أيها القاضى ! لماذا تبكى ؟

٢٧٤٥ فليس هذا وقت بكائك وانتحابك . انه وقت سرورك وتلقيك التهانى ! »

فقال القاضي : « أواه . كيف يسوق الحكم ــ بلا قلب ــ جاهل يحكم بين عالمين !

فكل من هذين المختصمين واقف على حقيقة حاله . فما الذي يعرفه القاضي المسكين عن هاتين العقدتين ؟

انه جاهل بحال كل من المتنازعين ، غافل عنه ، فكيف يتقدم للحكم في دمائهما ومالهما ؟ »

فقال النائب : « ان الخصمين عالمان ، لكنهما معتلان ! وأما أنت فجاهل ، ولكنك نور الملة !

٢٧٥٠ ذلك لأنك لا تقف في سبيلك علة ؛ وهذه البراءة من العلة نور للعينين !

وأما هذان العالمان فقد أعماهما الغرض . فالعلة قد ذهبت بعلمهما الى القبر !

فالبراءة من العلة تجعل الجهل علما ! والعلة تجعل العلم معوجا ظالما !

فما دمت لا تأخذ الرشوة فأنت بصير ! فاذا مارست الطمع ، فأنت ضرير مستعبد !

واني قد انحرفت بخلقي عن الهوى ، وأقللت من تناول لقم الشهوات .

٢٧٥٥ فأصبحت حاسة التذوق القلبي عندي مقترنة بالنور ، فهي تميز بحق بين الصدق والكذب » .

« لماذا أيقظتني ؟ انك عدوّ لليقظة ، أيها المخادع !
انك مثل الخشخاش تجلب النوم للجميع ! بـل انك مثل الخمر ، تذهب بالعقل والمعرفة !
هأنذا قد صلبتك . فحذار ، ولتقل الصدق . انني أعرف الحقيقة ، فلا تلتمس الحيلة !
انى لا أتوقع من انسان الا ما يكون عنده ، في طبعه ، وخليقته .
٢٧٦٠ فأنا لا ألتمس السكّر من الخل ! أنا لا آخذ المخنّث ليكـون جنديا !
ولست كالكفّار ، أنشد من الصنم أن يكون الها ، أو أن يكون آية من الله .
كما أننى لا أطلب من البعر رائحـة المسك ، ولا التمس اللبنـة الجافة من ماء النهر .
(ولهذا) فانني لا أتوقع مـن الشيطان ــ وهو العدو المخالف ــ أنه يوقظني للخير » .

كيف افصح ابليس عن مكنون فكره لمعاوية

لقد نطق ابليس بكثير من المكر والغدر ، لكن الأمير لـم يستمع اليه ، واعتصم بالمقاومة والصبر .
٢٧٦٥ فنطق الشيطان من تحت أسنانه ، قائـلا : فلتعلم ــ يا فلان ــ أننى أيقظتك من أجل ذلك :

حتى تلتحق بالجماعة في الصلاة ، وراء النبي ، صاحب المقام العالي .

فلو أنك ذهبت للصلاة بعد فوات وقتها ، لأصبحت هذه الدنيا أمامك مظلمة ، معدومة الضياء ،

ولكانت دموع الأسى والألم تنهمر من عينيك ، كالماء من القرب .

وكل انسان استشعر مذاقا للطاعة ، فمن اليقين أنه لا يصبر عنها ساعة .

٢٧٧٠ ومثل هذا الأسى والألم يعدلان مائة صلاة . وأين الصلاة من نور تلك الضراعة ! »

فضيلة تحسر احد الأتقياء على فوت صلاة الجماعة

كان رجل يدخل الى المسجد ، على حين أن الناس كانوا يخرجون منه .

فأخذ يسأل الناس قائلا : « ماذا كان من أمر الجماعة ، حتى أن الناس يخرجون منها بهذه السرعة !

فقال له أحد المصلين : « ان الرسول قد أدّى — مع الجماعة — الصلاة ، وفرغ من أسرارها .

فالى أين أنت ذاهب — أيها الرجل الغر — ما دام الرسول قد ختم الصلاة ؟ »

٢٧٧٥ فانطلقت منه آهة تصاعد منها الدخان . وحملت هذه الآهة رائحة من دم قلبه .

فقال له رجل من الجمع : « هبني تلك الآهة ، وصلاتي لك ! »
فقال : « وهبتها لك وقبلت الصلاة ! » . وأخذ الرجل تلك الآهة (مقترنة) بمائة ضراعة .
وفي الليل قال له هاتف في المنام : « انك اشتريت ماء الحياة ، وشفاء (الروح) ! »
فبحرمة هذا الاختيار ، وهذا الدخول ، قبلت صلاة كافة الخلق ! » .

تتمة اقرار ابليس بمكره لمعاوية

٢٧٨٠ ثم قال عزازيل[1] لمعاوية : « أيها الأمير النبيل : لا بد أن أبوح لك بمكرى :
فلو أن الصلاة فاتتك في ذلك الحين ، لأطلقت من ألم القلب الآهات والضراعة ،
ولكان هذا الأسف وذاك الأسى وتلك الضراعة تفوق مائتي ذكر وصلاة .
واني قد أيقظتك خشية أن تحرق مثل هذه الآهة[2] الحجاب ،
ولكى لا تكون لك مثل هذه الآهة ، ولا يكون لك سبيل اليها .
٢٧٨٥ انني حسود ، والحسد كان دافعي الى هذا ! انني عدو ، ولا فعل لى الا المكر والبغضاء ! »

(١) عزازيل هو اسم ابليس قبل سقوطه . (٢) « مثل هذه الآهة » يعنى آهة شبيهة بتلك التي انطلقت من قلب المؤمن الذى فاتته الصلاة . (انظر الأبيات ٢٧٧٥ — ٢٧٧٩) .

فقال معاوية : « لقد بحت بالحقيقة الآن ، فأنت صادق ! فمثل هذا الخداع يجيء منك ، فأنت قمين به !

فأنت عنكبوت ، وصيدك هو الذباب ! وأنا لست ذبابة — أيها الكلب — فلا تضايقني !

انني باز أبيض ، لا يصيدني الا المليك ! فكيف ينسج العنكبوت حولي شباكه ؟

فاذهب ، وأمسك من الذباب ما استطعت . وادع الذباب الى تناول اللبن المخيض .

٢٧٩٠ ولئن أنت دعوته الى العسل ، فذلك كذب ، وما هو في الحقيقة الا المخيض .

لقد أيقظتني فكانت اليقظة نوما ! وأظهرت لي سفينة ، وتلك في الحقيقة دوّامة !

ولقد دعوتني الى خير ، وذلك لتدفعني بعيدا عن خير أفضل منه ! »

كيف افلت اللص لان رجلا نادى صاحب المنزل بعد ان اقترب من اللص ، وكاد يلحق به ويقبض عليه

وان ذلك لشبيه (بقصة) ذلك الشخص الذي رأى في المنزل لصا ، فجرى وراءه .

لقد جرى وراءه ميدانين أو ثلاثة ميادين ، حتى سال عرقه من جراء ذلك التعب[1] .

---

(١) حرفيا : « حتى رماه في العرق ذلك التعب » .

٢٧٩٥ وحينما اقترب بهذا الجهد من اللص ، وأوشك على اللحــاق به بقفزة واحدة ،

هتف به لص آخر قائلا : « أقبل حتى تشاهد علامات البلاء تلك !

أسرع بالعودة أيها الرجل الهمــام ، حتى ترى كيف ساءت هاهنا الأحوال ! »

فحدث الرجل نفسه قائلا : « لعل في ذلك الجانب لصا (آخر) .

فان لم أسارع بالعودة ، فقد يتهجم عليّ !

ولربما اعتدى على زوجتى وابنى ، فأية فائدة تعود على من القبض على هذا اللص (الذى أطارده) .

٢٨٠٠ فهذا المسلم قد تكرم بمناداتى ، فلئن لم أرجع فسوف يحيق بى البلاء ! »

فعلى رجاء من شفقة ذلــك الرجل الخيِّر ، ترك اللص ، وتراجع على الطريق .

وخاطبه قائلا : « ما هذه الأحوال ، أيها الصديــق الطيب ؟ وأى دافع قد دفعك الى هذا الصياح والصراخ ؟ »

فأجابه قائلا : « انظر ، ها هى ذى آثار قدمى اللص ! لقد مضى من هذا الجانب ذلك اللص الخسيس !

ها هى ذى علامات قدمى اللص الفاجر . فامض وراءه مقتفيا هذه العلائم والآثار ! »

٢٨٠٥ فقال (صاحب الدار) : « ماذا تقول لى أيها الأبله ؟ اننى قــد كنت على وشك الامساك به !

وان صياحك هو الذى جعلنى أترك اللص ! لقــد حسبت حمارا مثلك انسانا !

فما هذا الهراء والهذيان ، أيها الرجل ؟ لقد وجدت الحقيقة ، فماذا تكون العلامة ؟ »

فقال الرجل : « اني أعطيك علامة للحقيقة . فهذه هي العلامة وأنا عارف بالحقيقة » .

فقال (صاحب الدار) : « اما أنك عابث أو أبله ! أم لعلك لص ، وعلى علم بتلك الحال !

٢٨١٠ لقد كدت أن أجر خصمي جرا ، وأنت الذي خلصته (لتقول لي) : « انظر ، ها هي ذي علاماته ! »

انك تقول بالجهات، أما أنا فقد تحررت من الجهات ! وهل في الوصال مكان للآيات والبينات ؟

فمن خفيت عليه الصفات يرى الصنع . وكذلك يتعلق بالصفات من أضاع الذات .

وحينما يكون الواصلون غارقين في الذات ، فكيف يتوجهون بنظرهم الى الصفات ؟

واذا ما أصبح رأسك في قاع النهر ، فكيف يقع بصرك على لون الماء ؟

٢٨١٥ وان أنت عدت من قاع النهر الى لون الماء ، كنت كمن أخذ ثوبا خشنا لقاء فراء !

ان الطاعة عند العوام هي الاثم عند الخواص ! وما يكون وصالا عند العوام ، فهو عند الخواص حجاب !

فلو أن الملك جعل الوزير محتسبا ، لكان الملك عدوا له ، لا صديقا .

ولربما كان هذا الوزير قد ارتكب اثما . فهذا التغير لا بدّ له من سبب .

فمن كان في أول أمره محتسبا ، فان هذا المنصب يكون له — من البداية — سعدا ورزقا .

٢٨٢٠ أما من كان في بداية أمره وزيرا للملك ، فجعله محتسبا لا يكون الا من سوء فعله .

فحينما يدعوك الملك من عتبة الباب الى حضرته ، ثم يعود فيدفعك الى الباب ،

فاعلم يقينا أنك قد ارتكبت جرما ، وأنك قد جعلت (هذا الابعاد) — بجهلك — أمرا محتمّا !

(وانك لتقول) : « ان هذا قد كان لي قسمة ونصيبا ! » ، فلماذا اذن كان هذا الاقبال بالأمس في يديك ؟

انك أنت الذي قطعت نصيبك بجهلك ! أما الرجل الكفء فهو الذي يضاعف نصيبه !

قصة المنافقين وبنائهم مسجد الضرار

٢٨٢٥ وهاك مثالا آخر على العوج ، ان كنت ممن يستمعون الى ما رواه القرآن[1] .

ان أهل النفاق قد لعبوا مثل هذه اللعبة المعوجة ، بصورة أو بأخرى[2] ، ضد الرسول .

---

(١) سورة التوبة ، ٩ : ١٠٧ — ١٠٨ .
(٢) حرفيا : « لعبوا هذه اللعبة بالمفرد والمزدوج » .

قائلين : « اننا سنبنى مسجدا لاعزاز الدين المحمدى ! » وما كان ذلك الا ارتدادا !

لقد كانوا يلعبون مثل هــذه اللعبة المعوجة ، فبنوا مسجدا الــى جانب مسجده[1] .

وزينوا أرضه وسقفه وقبته ، لكنهم أرادوا بذلك تفريق الجماعة .

٢٨٣٠ وأقبلوا على الرسول ضارعين ، وركعوا أمامه كما تبرك الجمال ،

وقالوا : « يا رسول الله ! هل تجشم قدميك المسير الى هــذا المسجد كرما واحسانا ؟

وذلك ليغدو مباركا بقدومك اليه ، جعل الله أيامك مزدهرة حتى القيامة !

انه مسجد من أجل اليوم الوحل واليوم المطير . انه مسجد ليوم الشدة ، وزمان الفقر .

وذلك ليجد الغريب فيه خيرا ومأوى ، وليغدو بيت العبــادة هذا عامرا (بالقاصدين) !

٢٨٣٥ وحينذاك تنتشر شعائر الدين وتشيع . وان صحبة الاخــوان لتجعل المر حلوا !

فلتشرف ذلك المكان ساعة من الزمان ، ولتكن مزكيا لنا ، معرفا بنا !

ولتكرم المسجد وأصحاب المسجد . انك أنت البدر ونحن الدجى .

فاجعل لنا معك برهة من الوقت ،

---

(١) مسجد الرسول المقصود هنا هو مسجد قباء ، وقباء قرية بجوار المدينــة .

حتى يغدو ليلنا نهارا بجمالك ، يا من جمالك مثل الشمس التي تضيء الظلام ! »

فوا أسفاه أن هذه الكلمات لم تكن من القلب ، والا لكانت مدعاة لتحقيق الأمل لهؤلاء الناس !

٢٨٤٠ فاللطف ، الذي ينطق به اللسان ـ بدون اخلاص من القلب والروح ـ شبيه بالخضرة فوق رماد المواقد ، أيها الأصدقاء !

فانظر اليها من بعيد ثم تجاوزها . فليست مثل هذه الخضرة ـ يا بني ـ صالحة لان تؤكل أو تشم .

فأصغ الي ! لا تتوجه بنفسك نحو لطف من تجردوا من الوفاء ، فما ذلك الا جسر مهدم !

فلو أن جاهلا وضع قدمه فوق هذا الجسر ، لانكسر الجسر وانكسرت أيضا تلك القدم .

وحيثما وقعت الهزيمة بأحد الجيوش ، كان ذلك من جراء اثنين أو ثلاثة من المخنثين الضعفاء !

٢٨٤٥ فالواحد منهم يدخل الصف كالرجل مدججا بالسلاح ، فتتعلق به القلوب قائلة : « ها هوذا رفيق الغار ! »

لكنه يدير وجهه اذا ما أبصر الجراح ، فيحطم بهذا الفرار[1] ظهرك !

ان هذا الحديث لطويل وقابل للاطالة ، ولسوف يؤدي الى خفاء مقصودنا .

---

(١) حرفيا : الذهاب .

كيف خادع المنافقون الرسول ـ عليه السلام ـ
حتي ياخلوه الى مسجد الفرار

لقد ترنموا بخداعهم على مسمع الرسول الحق ، وأخذوا يسوقون أمامه فرس الغش والرياء .

أما الرسول المحب الرحيم فلم يكن منـه سوى التبسم واعـلان القبول .

٢٨٥٠ لقد باح بالشكر لتلك الجماعة ، وأسعد هؤلاء القصاد باستجابته لهـم .

وكان مكرهم ظاهرا أمامه بكـل تفصيلاته ، كما يتجلى الشعر في الحليب !

لكن هذا الرسول اللطيف تجاهل رؤية الشعر ، ثـم تلطف فباح بالثناء على الحليب !

لقد رأى آلافا مـن شعر المكر والخداع ، لكنـه ـ حينذاك ـ أغلق عينيه عنها جميعا !

ولقد صدق بحر الكرم هذا حين قـال : انني أكثر اشفاقا عليكم من أنفسكم .

٢٨٥٥ فلقد جلستُ على حافة نار ذات أوار ولهب بالغ الايذاء ،

وغدوتم أنتم مندفعـين نحوها كالفراش ، عـلى حـين أن يديّ تذودانكم عنها !

وحينما استقر الأمر على أن يذهب الرسول[1] ، هتفت بـه غيرة الحق (قائلة) : لا تستمع الى نداء الغول !

---

(١) عاد الشاعر هنا الى رواية قصة « مسجد الضرار » .

فهؤلاء الخبيثون قد اصطنعوا الحيلة والمكر ، فكل ما جاءوا به
فهو على عكس (ظاهره) !
وما كـان لهم مـن قصد سوى سواد الوجـه ، والا فمتى أراد
النصارى واليهود خيرا لدينك ؟
٢٨٦٠ لقد بنوا مسجدا على جسر النار . (وأرادوا) أن يلعبوا مع الله
نرد الخداع !
لقد كان قصدهم أن يفرقوا أصحاب الرسول . ومتى كـان كل
فضولي يعرف فضل الحق ؟
وأن يجلبوا (للمسجد) يهوديا مـن الشام كـان هؤلاء اليهود
يطربون لوعظه .
لقد قال الرسول : « نعم ، لكننا الآن عـلى أهبة السفر معتزمين
الغزو ،
فحينما أعـود من السفر فانني سوف أسارع بالتوجه الـى ذلك
المسجد » .
٢٨٦٥ لقد دفعهم عنه ثم سارع الى الغزو ، ولعب لعبة المكر مع الماكرين!
وحينما رجع من الغزو ، عادوا اليه ، وطالبوه بانجاز سابق وعده .
فقـال له الحق : « أيها الرسول ! اكشف غدرهم . ولئن شبت
الحرب (من جراء ذلك) فادع اليها ! »
فقال الرسول : « ألا فلتسكتوا أيها القـوم المخادعون ! الزموا
الصمت والا أذعت أسراركم ! »
فلما كشف الرسول عن لمحات قليلة من أسرارهم ، ساءت أحوالهم .
٢٨٧٠ فارتد عنه القصاد حينذاك هاتفـين : « حاش لله ، حاش لله ! »

وجاء كل منافق الى الرسول مخادعا ، وقد تأبط مصحفا ،
وذلك ليقسموا عليها الأيمان ، فالأيمان جُنّة[1] ! ان الأيمان لهي سنة للأشرار !

فما دام الرجل الشرير لا وفاء له في الدين ، فانه يحنث بقسمه في كل لحظة .

وأما أهل الصلاح فلا حاجة لهم الى القسم ، ذلك لأن (كلا منهم) قد أشرقت عيناه بالنور .

٢٨٧٥ فنقض المواثيق والعهـود مبعثه الحماقة ، وأمـا حفظ الأيمان والوفاء بها فهو شيمة الأتقياء .

لقد قال الرسول : « هل أثق بأيمانكم أم أثق بعهد الله ؟ »

لكن هؤلاء القوم عادوا فأقسموا قسما آخر ، وكان المصحف في أيديهم ، وخاتم الصوم على شفاههم ،

قائلين : بحق هذا الكلام الطاهر الصادق ، ان بنـاء هذا المسجد انما هو من أجل الله !

وليس فيه قط من حيلة ماكرة ! بل انه ينطوي على الذكر والصدق ودعاء الله !

٢٨٨٠ فقال الرسول : « ان صوت الحق يرن في أذني مثل الصدى .

ولقد ختم الله على آذانكم حتى لا تبادر الى سماع صوت الحق .

ها هوذا صوت الحق يصل اليّ صريحا ، كصافي الشراب الذي بريء من الكدر ،

---

(1) انظر : (سورة المجادلة ، ٥٨ : ١٦) ، (سورة المنافقون ، ٦٣ : ٢) .

كما سمع موسى صوت الحق مـن جانب الشجرة ينـاديه : أيها السعيد الطالع !

لقد سمع مـن الشجرة نداء : « انى أنا الله[1] » ، وتجلت لـه الأنوار مع هذا الكلام !

٢٨٨٥ فحينما عجز هؤلاء المنافقون أمام نور الوحي ، عادوا من جديد الى اللغو بالأيمان ،

ولما كان الحق يسمي القسم جُنة[2] ، فكيف يطرح المعاند المجن من يده ؟

ولهذا فان الرسول قـد واجههم بتكذيب صريـح ، وأفصح لهم بقوله : « قد كذبتم ! »

كيف تفكر احد الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ منكرا على الرسول إنه لم يتستر عليهم

ولقد كان أن واحدا من أصحاب الرسول ، أنكر بقلبه ذلك الردع (للمنافقين) .

فحدث نفسه : « أيدمغ هذا الرسول بالعـار مثل هؤلاء الشيوخ ذوى الشيب والوقار ؟

٢٨٩٠ فأين الكرم ، وأين الستر ، وأين الحيـاء ؟ ان الأنبياء ليسترون الآلاف من العيوب ! »

---

(١) انظر : سورة القصص ، ٢٨ : ٣٠ .
(٢) انظر البيت ٢٨٧٢ وشرحه .

لكنه عاد فسارع الى الاستغفار بقلبه ، حتى لا يصفر وجهه مـــن جراء هذا الاعتراض !

وان شؤم صحبة أهل النفاق ، ليجعل المؤمن مثلهم قبيحا عاقا .

فعاد الى الضراعة قائلا : « يا علام السر . لا تتركنى مصرا عـلى الكفران !

ان قلبي ليس – مثل عينيّ – طـوع يدى ! ولولا هذا لأحرقت الآن هذا القلب بغضبى ! »

٢٨٩٥ وبينما هو في هـذا التفكر غلبه النـوم ، فبدا له مسجد هؤلاء ممتلئا بالبعر :

بناء خربا تلوثت أحجاره بالأقذار ، وكان الدخان الأسود يتصاعد من تلك الأحجار !

ونفذ الدخان الى حلقه فغص به . وأفزعه الدخان المرّ فهب مـــن سباته !

فخرّ على الفور ساجدا ، وهو يبكى ، (قائلا) : ان هذه علامات الانكار !

فالغضب عليهم – يا الهى – خير من مثل هذا الحلم الذي يحجبنى عن نور الايمان !

٢٩٠٠ فلو أنك شققت اجتهاد أهل المجـاز لوجدته كالبصلة ، مكونا من طبقات (متراصة) من النتن !

وكل واحد منهم أوهى لبا من الآخر ! وأما الصادقون فكل منهم أعمق ادراكا من الآخر !

فهؤلاء القوم قد شمروا جميعا عـن ساعد الجد ، وذلك ليهدموا

مسجد قباء[1] .

فهم كأصحاب الفيل من بلاد الحبش ، الذين بنوا كعبة فأضرمها الحق بالنيران .

فتوجهوا الى الكعبة قاصدين الانتقام . فاقرأ (ما جاء) عن مآلهم في كلام الله[2] .

٢٩٠٥ فهؤلاء الذين اسودت بدينهم وجوههم ليست لهم عدّة سوى الحيلة والمكر والضغينة !

فكل صحابى رأى (في منامه) من عيان ذلك المسجد ، ما جعل سرّه يصبح ــ عند الصحابة ــ يقينا !

ولو أننى قصصت وقائع ذلك واحدة واحدة ، لتيقن أهل الشك من صفاء (هؤلاء الصحابة) .

لكننى أتهيّب كشف أسرارهم . فهم المدللون الذين يليق بهم الدلال !

وهم الذين تلقوا الشرع بدون تقليد . وهم الذين تقبلوا هذا النقد ، من غير (حاجة الى) محك !

٢٩١٠ فكأنما حكمة القرآن ضالة المؤمن ، وكأنما كل منهم على يقين من ضالته !

---

(١) حرفيا : « فهؤلاء القوم قد عقد كل منهم على قبائه مائة حزام » ، وعقد الحزام على القباء كناية عن الجد في العمل . وفى البيت جناس بين كلمتى قبا (بكسر القاف) وقبا (بضمها) . وقباء (بضم القاف) اسم قرية بجوار المدينة اشتهرت بتوقف الرسول بها فى طريق هجرته ، وكذلك بمسجدها الذى بنى فى عهد الرسول . (٢) سورة الفيل .

قصة ذلك الشخص الذى كـان يبحث عن جمله الضـال ويسأل عنه

لئن كنت تبحث بجد عـن جمل أضعته ، فكيف لا تعرف ــ حين تجده ــ أنه لك ؟

فما الضالة ؟ انها ناقة قد أضعتَها ، فهربت مـن يدك الى مكـان خفيّ .

فالقافلة قد بدأت تضع الأحمال فوق الجمال ، على حين أن جملك قد اختفى من بينها .

فها أنت ذا تجرى في هـذه الناحيـة ، وذلك الجانب ، وقد جفت شفتاك ، على حين أن القافلة قد أصبحت بعيدة ، والليل قد اقترب .

٢٩١٥ وقد بقى متاعك على الأرض ، في طريـق الخوف ، وأنت تجرى وتدور باحثا عن الجمل .

تقول : « أيها المسلمون ! من ذا الذى رأى جملا هرب في هـذا الصباح من الحظيرة ؟

فكل من أدلى الىّ ببينة عـن جملى ، جزيت بشارته بكثير مـن الدراهم » .

وانك لتعود فتلتمس من كل انسان اشارة ، فيهزأ بك ــ من جراء هذا ــ كل خسيس !

(قائلين) : « لقد رأينا جملا يمضى نحو تلك الناحية ، رأينا جملا أحمر يتجه نحو ذلك المرعى » .

٢٩٢٠ وهذا يقول : انه كـان مبتور الأذن ! وذاك يقول : انه كـان مزركش السرج .

وآخر يقول : انه كان جملا أعور ، على حين أن سواه يقول : لقد كان أجرب مجردا من الوبر .

فاذا بكل خسيس قد أدلى ـ من أجل المكافأة ـ بمائة بيان جزافا !

التردد بين المذاهب المختلفة ، وايجاد مخرج ، وطريقة للخلاص من ذلك

فهكذا شأن الناس بالنسبة للمعرفة ، فكل منهم يصف الموصوف الغيبي باحدى الصفات .

فهذا متفلسف يدلي بشرح من نوع آخر ، فيجرّح أحدُ الباحثين مقاله .

٢٩٢٥ وثالث يطعن فيهما معا ، ورابع يكاد يُسلم الروح نفاقا .

فكل منهم يدلي بعلامات لذلك الطريق ، حتى يُظن أنهم ينتمون الى تلك القرية !

فلتعلم هذه الحقيقة : ان هؤلاء جميعا ليسوا على حق ! كما أن هذا القطيع ليس ضالا من كل الوجوه !

ذلك لأنه بدون الحق لا يتضح الباطل . فرائحة الذهب هي التي أغرت الأبله بزائف النقد[1] .

فلو لم يكن النقد الصحيح منتشرا في الدنيا ، فهل كان يمكن اصدار النقد الزائف ؟

---

(١) حرفيا : « فالابله قد اشترى زائف النقد على رائحة الذهب » ، اى انه اشتراه على أمل ان يكون نقدا من الذهب الخالص .

٢٩٣٠- ولو لم يوجد الصدق فهل كـان يوجد الكذب ؟ فهـذا الكذب يتلقى من الصدق نورا (يكشفه) .
ان الأعوج يُشترى عـلى أمل في السويّ . والسم يوضـع في السكر ، وحينذاك يؤكل .
فلو لم يوجـد القمح المحبوب اللذيذ ، فماذا كـان يجنى بائـع الشعير الذى يدعى أنه قمح ؟
فلا تقل ان جملة هذه الأقوال باطلـة ، فأهل الباطل هم الأحابيل التى تصيد القلب برائحة الحق !
ولا تقل ان كل هذا خيال وضلال ، فليس في العـالم خيال بدون حقيقة .
٢٩٣٥- فحقيقة ليلة القدر قد احتجبت بين الليالى ، حتى تلتمسها الروح في كل ليلة .
فليست كل الليالى هى ليلة القدر ، أيها الفتى ، كما أن كل الليالى لا تخلو من تلك الليلة .
وبين لابسى الدلق لا بد من فقير واحد ، ففتش عنه ، ومن وجدته صادقا فتقبله !
فأين المؤمن ، صاحب الكياسة والتمييز ، الذى يعرف كيف يميز بين الرجل وبين المخنثين !
ولو لم تكن في هذه الدنيا سلع معيبة ، لكان (ميسورا) لجميع البُله أن يصبحوا تجارا !
٢٩٤٠- ولكان تقويم البضائع أمرا بالغ اليسر . فحينما لا يوجد العيب ، فما الفرق بين القادر (على التقويم) والعاجز عنه ؟

ولو كان كل شيء معيبا فلا جدوى من المعرفة ، فما دام كل ما هنالك خشب فلن يوجد العود !

فمن يقل ان جملة الأحوال حق فهو أحمق ! ومن يقل ان جملتها باطل فهو شقي !

فالأنبياء بتجارتهم قد حققوا الأرباح ، وأما تجار الالوان والروائح فهم عمى تعساء !

فالثعبان يظهر في أعينهم مالا ! ألا فلتمسح جيدا كلتا عينيك !

٢٩٤٥ ولا تنظر الى سرورك بهذا البيع والربح ، بل انظر الى خسران فرعون وثمود !

حول امتحان كل شيء حتى يظهر ما فيه من خير وشر

ان السماء وهي ذات الرونق والجلال ، قال بشأنها الحق : « ثم ارجع البصر[1] » .

ولا تقنع بنظرة واحدة من هذا السقف المنير ، بل انظر مرات ، « هل ترى من فطور[2] » .

وما دام قد أمرك بأن تنظر مرات الى هذا السقف المضيء نظر الرجل الباحث عن العيوب ،

فقد علمت كم يجب أن يوجه الى تلك الأرض المظلمة من التأمل والتمييز ، لتكون جديرة بالاعجاب !

---

(١) ، (٢) انظر : سورة الملك ، ٦٧ : ٣ ـ ٤ .

٢٩٥٠ وكم يجب على عقولنا أن تتحمل من عنـاء لكى نستخلص أهل الصفاء من بين الكدر !

ان تجربة الشتاء والخريف ، وحرارة الصيف ، والربيـع الشبيه بالروح ،

والرياح والسحب والبروق ، كلها جاءت لتظهر عوارض الفروق ،

لتخرج الأرضُ الترابيةُ اللون كلَّ ما حملته في جيبها من ياقوت وأحجار .

فكلُّ ما سرقته هذه الأرض المظلمة مـن خزانة الحق ، ومن بحر الكرم ،

٢٩٥٥ (يسألها عنه) شُرَطُ التقدير قائلين : « قولى الصدق واذكرى ما أخذته ذرة ذرة[1] ! »

فيقول اللص ، يعنى الأرض : « لا شيء قط » ، فيأخذ الحاكم في تعذيبها .

فحينا يخاطبها الحاكم بقول لطيف كالسكر ، وتارة يعلقها في الهواء ويسومها كل ما هو أسوأ من ذلك ،

حتى تظهر بـين القهر واللطف تلك الخفايا ، بفعل نـار الخوف والرجاء !

فهذا الربيـع هو لطف الحاكم ذى الكبرياء ، وأما الخريف فهو تخويف الله وتهديده .

٢٩٦٠ وأمـا الشتاء فهو صليب معنوى ، حتى تكشف عن نفسك أيها اللص الخفيّ !

---

(١) حرفيا : شعرة شعرة .

وكذلك يكون للمجاهد زمـان لانبساط القلب ، وزمان للقبض والألم والغش والضغينة .

ذلك لأن أبداننا المفطورة مـن الماء والطين ، منكرة سارقة نـور أرواحنا !

والحق تعالى يلقى على أجسادنا الحر والبرد والألم والعناء ، أيها الرجل الشجاع .

فالخوف والجـوع والنقص في الأموال والبدن ، كلها مـن أجل اظهار جوهر الروح !

٢٩٦٥ لقد أطلق هذا الوعد وذاك الوعيد ، من أجل الخير والشر اللذين قد امتزجا باذنه .

فما دام الحق والبـاطل قد امتزجا ، والنقد الصحيح قـد امتزج بالنقد الزائف في جعبة واحدة ،

فلا بد لهما من محك أحسن اختياره ، مشهود في امتحان الحقائق ،

حتى يكون فيصلا ازاء كل مظاهر الزيف ، ويكون دستورا لتلك التدبيرات .

فيا أم موسى ، أرضعيه ثم ألقيـه في اليـم ، ولا تخافي عليه من البلاء !

٢٩٧٠ فكل من شرب مـن هذا الحليب في يوم « ألست » ، يستطيع تمييز الحليب ، كموسى (في طفولته)[1] .

فان كنت حريصا على اعطاء طفلك التمييز ، فاغذه الآن بالحليب ، كما فعلت أم موسى[2] ،

---

(١) رفض موسى حليب المرضعات ، وعرف حليب امه ، كما ورد في قصته بعد ان التقطه آل فرعون. (٢) حرفيا : « فارضعيه الآن يا أم موسى ». وفي ذلك اشارة الى قوله تعالى : « واوحينا الى أم موسى أن ارضعيه ». الآية : سورة القصص ، ٢٨ : ٧ .

حتى يعرف حلنب أمه منذ البداية ، ولا ينخفض رأسه سعيا الى مربية خسيسة .

شرح الفائدة من حكاية ذلك الشخص الذى كـان يبحث عن الجمل

انك ــ أيها المفضال ــ قد أضعت جملا ، وكان كل شخص يذكر لك علامة لهذا الجمل !

وأنت لا تعلم أين هذا الجمل ، ولكنك تعلم أن هــذه العلامات كلها خاطئة !

٢٩٧٥ وذلك الذى لم يُضع جملا يمارى أيضا ، فيبحث عــن جمل ، كمن أضاع جمله .

قائلا : «اننى أيضا قد أضعت جملا ، فمن عثر عليه وهبته أجره !»

وذلك ليجعل نفسه شريكا في جملك .. ان طمعه في الجمل دفعــه الى أن يلعب هذه اللعبة .

فكلما قلت لانسان : « ان هــذه العلامة خاطئة » ، قال عين مــا تقول ، مقلدا اياك .

فهو لا يميز العلامة الكاذبة من العلامة الصادقة ، لكن قولك هو العصا لذلك المقلد (الأعمى) .

٢٩٨٠ وحينما تَذكر لك العلامة الصادقة أو مــا يشبهها ، فانك تصبح على يقين « لا ريب فيه[1] » .

---

(١) البقرة ، ٢ : ١ .

ويصبح هذا اليقين شفاء لروحك العليل ، ويغدو نضرة لون لك ، وصحة وقوة .

وتستنير به عيناك ، وينطلق به قدماك ، ويغـدو جسدك نفسا ، ونفسك روحا !

فتقول حينذاك : « لقد قلت الحق أيها الأمين ! وهذه العلامات قد جاءت بلاغا مبينا ،

فيه آيات ثقات بينات ! انه لبراءة ، بل هو تقدير للنجاة ! »

٢٩٨٥ فهو حين أظهر لك هذه العلامة ، هتفت به قائلا : « تقدّم ! ان هذا وقت العزيمة ، فكن أنت دليلي .

ولسوف أقتفي أثرك أيها الصادق المقال . لقد حملت اليّ رائحة من جملي ، فأرني أين يكون » .

أما بالنسبة لذلك الشخص الذي ليس بصاحب جمل ، ذلك الذي يبحث عن الجمل من أجل المراء ،

فان هذه العلامة الصادقة لا تزيده يقينا ، الا بمقـدار ما ينعكس عليه من ذلك الباحث بصدق عن الجمل .

فهذا المقلد يقتبس شذا من جدّ الصادق وحرارته ، (موقنا) بأن آهاته تلك لا يمكن أن تكون جزافا[1] .

٢٩٩٠ انه لم يكن صاحب حق في هذا الجمل ، ولكنـه هو أيضا قـد أضاع جملا .

فالطمع في جمل[2] غيره قد ألقى على وجهه قناعا ، فأنساه ما كان قد ضاع منه !

---

(١) حرفيا : « ليست جزافا » بدلا من « لا يمكن أن تكون جزافا » .

(٢) يضطر الشاعر أحيانا بحكم الوزن الى استخدام كلمة «ناقة» بدلا من اشتر . ولما لم يكن هناك من مبرر لذلك سوى الوزن ، فقد استخدمنا فى الترجمة كلمة «جمل» بصورة مطردة ، محافظة على السياق في الترجمة .

فحيثما جرى المالك الأصيل جرى هذا المقلد ، وقـد جعله الطمع شريكا في الألم لصاحب الجمل !

فحينما ينطلق كاذب مع واحد من أهل الصدق ، فسرعان ما يغدو كذبه صدقا .

وفي تلك الصحراء التي توغل الجمل مسرعا فيهـا عثر هو أيضا على جمله .

٢٩٩٥ وحالما رآه تذكر ما كان له ، فأصبح بريئا مـن الطمع في جمال الأصدقاء والأقارب .

فهذا المقلد قد أصبح محققا ، حينما أبصر جمله الذى كان يرتعى هناك !

فأصبح في تلك اللحظة طالبا للجمل ، فهو لم يكن يفتش عنه قبل مشاهدته في الصحراء .

فبعد ذلك بدأ ينطلق وحيدا ، وفتح عينيه (متوجها) نحو جمله .

فقال له ذلك الصادق : « لقد تركتنى ، وكنت حتى هذه اللحظة تبدى مراعاتك لى ! » .

٣٠٠٠ فقال : « لقد كنتُ خرافة حتى هذه اللحظة ، وكان الطمع يدفعنى الى تملقك .

أما الآن ــ وقد انفصلتُ بالجسد عنك في الطلب ــ فقد أصبحتُ شريكا لك في الألم !

اننى كنت أسرق منـك وصف الجمـل ، فلما رأت روحى جملها امتلأت به عينى !

وقبل أن أجده لم أكن له طالبا ! لقد غُلب النحاسُ الآن وأضحى الذهب له غالبا !

وأصبحت سيئاتي كلها طاعات ، فشكرا لله . وأصبح الهزل فانيا والجدّ ثابتا ، فشكرا لله .

٣٠٠٥ وما دامت سيئاتي قد أصبحت وسيلة لي الى الحق ، فلا توجه ضربات لومك قط الى سيئاتي !

ان صدقك هو الذي كان قد جعلك طالبا ، وأما أنا فالجد والطلب مهدا لي سبيل الصدق !

لقد قادك صدقك نحو الطلب ، وأما أنا فبحثي هو الذي قادني الى الصدق !

لقد كنت أغرس في الأرض بذور السعادة ، وكنت أحسب ذلك مسْخرَة ، وبدون أجر !

وما كان ذلك سخرة بل كان كسبا سريعا ، فكل حبة غرستها قد أنبتت مائة حبة .

٣٠١٠ ان لصا قد قصد خلسة الى أحد المنازل ، فلما دخله رأى أن هذا المنزل منزله .

فاستشعر الحرارة ، أيها البارد ، فلعلها تغشاك . واصبر على الشدة ، فلعلها تكون طريق اللين .

وما كان هذان بجملين ، بل جمل واحد ! ألا ما أضيق اللفظ وما أغزر المعنى !

فاللفظ دائما عاجز عن ادراك المعنى ، ولهذا فان الرسول قال : « قد كلّ اللسان » .

ان النطق يكون كالاصطرلاب في حسابه ، وماذا يعرف هذا عن الفلك والشمس ؟

٣٠١٥ وبخاصة ذلك الفلك الذى لا يتجاوزُ فلكنا هذا فَراشة منه !
ولا تزيد شمسنا على ذرة من شمسه !

فى بيان ان كل نفس تنطوى على فتنة مسجد الضرار

لما ظهر أن ذلك لم يكن مسجدا ، بل كان منزل خديعة ، وأحبولة نصبها اليهود ،
أمر الرسول بأن يهدم ، ويجعل كناسة للقمامة والأقذار .
ان صاحب المسجد كان زائفا كالمسجد ، فنثرُ القمح فوق الشرَك ليس من الجود !
وقطعة اللحم التى في شصك تختطف السمكة . فمثل هذه اللقمة ليست عطاء ولا سخاء !

٣٠٢٠ ومسجد قباء ــ وقد كان من الجماد ــ لم يسمح الرسول بأن يُساوى بما لم يكن كفؤا له !
ففى حق الجمادات لم يجز مثل هذا الحيف ، فأشعل أمير العدل النار في هذا (المسجد) غير الكفء !
فاعلم أن عالم الحقائق ــ وهو أصل الأصول ــ توجد به فروق وفصول .
فلا حياة هذا شبيهة بحياة ذلك ، ولا موت هذا شبيهٌ بموت سواه .
ولا تحسبن قبر أحد الناس شبيها بقبر الآخر . فكيف أشرح لك فوارق الأحوال في ذلك العالم ؟

٣٠٢٥ فاختبر بالمحك عملك أيها العامل ، حتى لا تبنى مسجد الضرار :
فكم كنت قد سخرت من بنـــاة ذلك المسجد ، فلما أمعنت النظر
كنت أنت من هؤلاء !

حكاية الهندي الذي خاصم رفيقه
بسبب فعل معين ، ولم يكن يعلم أنه
هو ايضا مبتلى بذلك الفعـل

دخل أربعة من الهنود في أحد المساجد ، وأضحوا مـــن أجل أداء
الطاعة ركعا ساجدين .
وكل منهم كبر على نية ، ثم أقدم على الصلاة بمسكنة وألم .
وجاء المؤذن ، فأفلتت من أحدهم كلمة (اذ قال) : « أيها المؤذن ،
هل أذنت ؟ لقد حان الوقت » .
٣٠٣٠ فقال ثاني هؤلاء الهنود (بدافع) من ضراعته : « لقد تكلمت ،
فأضحت صلاتك باطلة ! »
فقال ثالثهم لثانيهم : « أيها العم ، لماذا توجه اليـــه هذا اللـــوم ؟
خاطب به نفسك ! »
أما رابعهم فقال : « حمدا لله أنى لم أقع في البئر كهؤلاء الرجال
الثلاثة ! »
وهكذا بطلت صلاة كل مـــن هؤلاء الأربعة ، وكـــان الهاتفون
بالعيب منهم أكثر ضلالا !
فما أسعد الروح التى ترى عيبهـــا ، والتى اذا هتف انسان بعيب
حملته على نفسها ،

٣٠٣٥ ذلك لأن نصف الانسان كان من عالم العيب ، وأما نصفه الآخر فكان من عالم الغيب !

فما دام رأسك يعانى من عشرة جراح ، فالواجب عليك أن تتخذ المرهم لعلاج نفسك .

فحين يُعاب الجرح فهذا (بداية) علاجه ، وأما حين يقع الكسر فهنا مكان الرحمة .

وان لم تكن تعانى من عيب فلا تستسلم (لهذا الظن) ، فلربما يظهر ذلك العيب منك أيضا .

ألم تستمع الى قوله تعالى : « لا تخافوا » ؟ فلماذا اذن رأيت نفسك آمنا طيب الحال ؟

٣٠٤٠ لقد عاش ابليس سنين وهو ينعم باسم طيب ، ثم افتضح ، فتأمل أى اسم أصبح له الآن !

لقد كان في الكون معروفا بعلاه ، فأصبح معروفا بعكس هذا ، فواها عليه !

فما لم تكن آمنا فلا تطلب الشهرة ! واغسل بالخوف وجهك ، ثم أظهره !

وما لم تنبت لحيتك ــ أيها الرجل الطيب ــ فلا تنتقد سواك ان تجرد من اللحية .

فتأمل من أصيبت روحه بالبلاء حتى سقط ، وأصبح عبرة لك .

٣٠٤٥ وأما أنت فلم تسقط ، لتكون عبرة له . لقد شرب سمّ (الخذلان) ، فكل أنت سكر (الرضى) !

كيف قصد الغز ان يقتلوا رجلا وذلك ليخيفوا سواه

لقد أقبل هؤلاء الأتراك الغزّ سفاكو الدماء للغارة ، فدخلوا احدى القرى .

فوجدوا اثنين من أعيان تلك القرية ، فبادروا مسرعين الى الفتك بواحد منهما .

فقيدوا يديه ليجعلوه قربانا ، فناداهم : « أيها الملوك والأركان العظام !

لأيّ سبب قد قصدتم قتلي ؟ وما الغاية من تعطشكم هذا لدمى ؟

٣٠٥٠ وأية حكمة وأي غرض يتحقق بقتلي ، ما دمت هكذا درويشا عريان الجسد ؟

فقال (أحدهم) : « لكي نوقع الفزع برفيقك ، فيخاف ويظهر لنا الذهب ! »

فقال : « ولكنه أشد فقرا مني » . فقال التركماني : « لقد قصد (اظهار ذلك) ، وانه ليمتلك الذهب » .

فقال (الأسير) : « ما دام الأمر بالنسبة لكلينا وهم ، فنحن متساويان في مقام الاحتمال والشك .

فاقتلوا صاحبي أولا ــ أيها الملوك ــ حتى أخاف ، وأرشدكم الى مكان الذهب » .

٣٠٥٥ فتأمل كرم الله ، اذ جعلنا نجيء في آخر الزمان ، وهو يوشك على النهاية .

وان القرون الأخيرة لهى السابقة على القرون . وقد جاء في الحديث : « نحن الآخرون السابقون » .

وهكذا أظهر داعي الرحمة لأرواحنا هلاك قوم نوح وقوم هود . انه (الخالق) قد قتلهم حتى نخافه ، ولو أنه فعل عكس ذلك ، لكان وبالا عليك .

بيان حال المغرورين الذين لا يستشعرون نعمة وجود الانبياء والأولياء عليهم السلام

ان كلا من هؤلاء تكلم عن العيب والاثم ، وعن القلب المتحجر والروح المظلمة ،

٣٠٦٠ وعن تلقى أوامر (الله) باستهانة ، وعن الخلو من هموم الغد ، وعن الهيام بهذه الدنيا وتعشقها ، كما تخضع المرأة للنفس الأمارة، وعن ذلك الفرار من محكم أقوال الناصحين ، وعن الهرب من لقاء الصالحين ،

وعن الغربة عن القلب ، وأصحاب القلوب ، وعن التزوير ولعب الثعالب ازاء الملوك (الروحيين) ،

وعن التفكر بأن القانعين متسولون ، واضمار الحسد والعداوة لأولئك القانعين !

٣٠٦٥ فلو أن واحدا من هؤلاء (الأنبياء والأولياء) تقبل منك شيئا تقول :انه متسول ! وانلم يقبل قلت : ان هذا نفاق ومكر وخداع!

فهو لو خالط الناس قلت : « انه طـامع » . ولو لم يفعـل ذلك قلت : انه مولع بالكبر !

أو تلتمس لنفسك عذرا كعذر المنافق قائلا : « انني مُعَوَّق بنفقة ولدي وامرأتي !

فليس لديّ وقت أحك به رأسي ، ولا عندي فراغ لانماء ديني .

فاذكرنا ــ يا فلان ــ بهمتك ، فلعلنا نغـدو ــ في عاقبة الأمر ــ من الأولياء ! »

٣٠٧٠ وهو لا ينطق بهذا الكلام في ألم وحرقة . انـه كمثقل بالنعاس هذى بكلمات ، ثم عاد الى الوسن .

(انه يقول) : « ليس لى مناص مـن كسب قوت العيال ، وأنا أحصل بغاية الجهد[1] على الكسب الحلال » .

وأى حلال ذلك ، يا من غدوت من أهل الضلال ! انني لست أرى حلالا سوى دمك !

(فمثلك) له مناص من الله ولا مناص له من الطعـام ! وله ازاء الدين حيلة ، ولا حيلة له ازاء الطاغوت !

فيا من لا اصطبار لك عن الدنيا الدون ، كيف يكـون اصطبارك عمن (اتصف بقوله) : « نعم الماهدون[2] » .

٣٠٧٥ ويا من لا صبر لك عن الدلال والنعيم ! كيف يكون صبرك عن الرب الكريم !

---

(١) حرفيا : « وانا أحصل بأنيابى ... »
(٢) اشارة الـى قوله تعالى : « والارض فرشناها فنعم الماهدون » ، (الذاريات ، ٥١ : ٤٨) .

ويا من لست تطيق صبرا عن النظيف والملوث ! كيف تطيق صبرا عن خالقهما !

أين الخليل الذى خرج من الغار ، فقال : هذا ربى . ألا فلتتنبه ! أين الخالق ؟

فلستُ بناظر الى كلا العالمين ما لم أعرف من هو مالك هذين المجلسين .

فلو أنني أكلت الخبز ـ بدون أن أتأمل صفات الله ـ لاحتبس في حلقي !

٣٠٨٠ وكيف تهضم لقمة بدون مشاهدته ، وبدون اجتلاء ورده وبستان ورده .

وبدون الأمل في الله من ذا الذى كان يشرب من هذه العين لحظة واحدة سوى ثور أو حمار .

فمن كان ممن (وصفهم القرآن) بأنهم « كالأنعام بل هم أضل[1] » ، فهو نتن الريح ، برغم ما قد يكون له من دهاء بالغ .

ان مكره منقلب ، وهو ذاته منقلب (على رأسه) . ولقد عاش برهة قصيرة ثم انقضى يومه .

ولقد غدا فكره متراخيا وعقله خرفا ، وانقضى عمره من غير أن يظفر بشيء ، (فهو في تجرده) كحرف الألف[2] .

٣٠٨٥ وذلك التفكر الذى يقول : انه ملازم له ، لا يعدو أن يكون أقصوصة من أقاصيص تلك النفس الحسية !

---

(١) انظر : سورة الاعراف ، ٧ : ١٧٩ .
(٢) الالف دائما مجردة من كل الحركات .

وأما ما يهتف به من قوله : « غفور رحيم » ، فليس الا حيلة النفس اللئيمة !

فيا من قتلك الغم لخلو يديك من الخبز ، لماذا هذا الخوف ما دام الله غفورا رحيما ؟

كيف شكا شيخ من الامراض لأحد الاطباء وكيف اجابه الطبيب

قال شيخ لأحد الأطباء : « انني في عذاب من ألم الدماغ » .

فقال الطبيب : « ان ضعف الدماغ هذا من الشيخوخة » ، فقال الشيخ : « وفوق عيني سحب من الظلمة » .

٣٠٩٠ فقال الطبيب : « هذا من الشيخوخة ، أيها الشيخ القديم » .

قال الشيخ : « وظهري ينتابه ألم عظيم » .

فقال الطبيب : « هذا من الشيخوخة ، أيها الشيخ الضعيف » .

قال الشيخ : « وكل ما آكله ليس يهضم » .

فقال الطبيب : « ضعف المعدة أيضا من الشيخوخة » . قال الشيخ : « وفي وقت التنفس تتعثر أنفاسي » .

فقال الطبيب : « نعم ، هذا هو انقطاع النفس . فحينما تحل الشيخوخة ، تجيء معها مئتان من العلل ! »

قال الشيخ : « أيها الأحمق ، لقد وقفت عند هذا ، فهو قصارى ما تعلمته من الطب !

٣٠٩٥ أما أرشدك عقلك ــ أيها المخبول ــ الى أن الله قد جعل لكل داء دواء ؟

انك لحمـار أحمق ضعفت همتـه ، فبقى طريـح الأرض لعجز قوائمه ! »

فقال له الطبيب : « يا من بلغت الستين من عمرك ! ان غضبك هذا وسخطك هما أيضا من (آثار) شيخوختك !

فما دامت كل ملكاتك وأعضائك قد ضعفت ، فقـد ضعف معها صبرك ، وسيطرتك على نفسك ! »

ان الشيخ لا يطيق كلمتين فيملو من جرائهما صياحه . ولا طاقة له بجرعة واحدة ، فهو يقيئها .

٣١٠٠ وليس كذلـك الشيخ الذى هو ثمل بالحـق ، ففى باطن هذا حياة طيبة !

فهذا يكـون في الظاهر شيخا ، لكنـه في الباطن فتىّ ! فما كنه ذاته ؟ انه ولى أو نبى !

فان لـم تكن (حقيقة) هؤلاء (الأنبياء والأولياء) ظاهرة أمـام الأخيار والأشرار ، فلماذا يحمل لهم الاخساء مثل هذا الحسد ؟

ولو كان الأشرار يعرفونهم معرفـة يقينية ، فلماذا هـذا البغض والتآمر والحقد ؟

ولو أنهم كانوا موقنين بالبعث والقيامـة ، فكيف ألقوا بأنفسهم فوق هذا السيف الحاد ؟

٣١٠٥ ان (النبى أو الولىّ) يبتسم لك ، فلا تأخذ الأمر على ظاهره ، فقد احتجبت في باطنه مائة قيامة !

فالنار والجنة كلاهما أجزاء منـه ، وانه لفوق كل مـا قد يخطر بفكرك !

وكل ما تفكر فيه قابل للفناء . والله وحده هو الذى لا يتسع له الفكر .

فلماذا يتبجحون على باب هذه الدار ، ما داموا يعرفون من بداخلها ؟

ان الحمقى يقومون بتعظيم المسجد ، على حين أنهم يسعون في خراب أصحاب القلوب !

٣١١٠ وما هذا (المسجد) الا مجاز ، وأما هذه (القلوب) فهى الحقيقة، أيها الحمير ! فما المسجد الا قلوب (هؤلاء) الكبراء !

فذلك المسجد الذى انطوت عليه قلوب الأولياء هو مسجد كافة الخلق ، فهناك الله .

وما دمغ الله بالعار قرنا من القرون الا حين تألم — من جرائهم — قلب واحد من رجاله[1] !

فقد كان هؤلاء يعمدون الى محاربة الأنبياء . فهم كانوا يرون جسم النبى فيحسبونه مجرد آدمى .

وان فيك لأخلاق هؤلاء الأوائل ! فكيف لا تخاف أن تصبح مثلهم؟

٣١١٥ فما دامت بك كل هذه العلامات ، وما دمت واحدا منهم ، فالى أين تريد النجاة ؟

قصة جحى وذلك الطفل الذى كان ينوح امام نعش ابيه

كان طفل ينوح بمرارة ، ويدق رأسه أمام نعش أبيه ،

---

(١) ترجم هذا البيت بشىء من التصرف ليتضح معناه . والقرن فى الناس أهل زمان واحد . قال الشاعر :

اذا ذهب القرن الذى انت فيهم   وخلفت فى قرن فأنت غريب

(قائلا) : « أبتاه ! الى أين يحملونك آخر الأمر ، حتى يعتصروك تحت التراب ؟
انهم يحملونك الى منزل ضيق مؤلم ، ليس به بساط ولا بداخله حصير .
لا سراج به في الليل ، ولا خبز في النهار . وليست به رائحة للطعام ولا أثر منه .
٣١٢٠ وليس به باب معمور ، ولا سبيل الى سطح ، ولا جار واحد يكون لك ملاذا .
وجسمك الذى كان موضع قبل الخلق ، كيف ينزل دارا كهذه مظلمة تعسة ؟
انه منزل لا قيام فيه ، بالغ الضيق ! وليس يبقى فيه وجه ولا لون ! »
وأخذ يعدد أوصاف المنزل على هذا النحو ، وهو يعتصر الدموع الدامية من عينيه .
فقال جحى لأبيه : « يا سيدى ، والله انهم ليحملون هذا الى منزلنا ! »
٣١٢٥ فقال الأب لجحى : « لا تكن أبله » ، فقال جحى : « استمع يا أبى الى هذه العلامات :
فهذه العلامات التى ذكرها واحدة واحدة هي لمنزلنا بدون ريب ولا شك !
فليس به حصير ولا سراج ولا طعام ! ولا بابه معمور ، ولا صحن له ولا سقف ! »

فعلى هذا النسق يحمل الطغاة على أنفسهم مائة علامة ، ولكن متى كان هؤلاء يبصرون أنفسهم ؟

فمنزل القلب الذى يبقى بدون ضياء من شعاع شمس الكبرياء ،

٣١٣٠ ضيق مظلـم مثل أرواح اليهود ، وقـد حرم رزقه مـن نفحات السلطان الودود !

فليس يشرق في هذا القلب نور الشمس ، وليست له عرصة رحبة ولا باب مفتوح !

فالقبر خير لك من قلب مثل هذا ! ألا فلتنهض الآن مـن ضريح قلبك !

انك حىّ وقد ولدت من حى ، أيها المرح الضحوك ، أفلا تضيق أنفاسك بهذا القبر الضيق !

انك يوسف الوقت ، وشمس السماء ، فاصعد مـن قرارة هـذا الجب وذلك السجن ، وتجلّ بطلعتك !

٣١٣٥ انك مثـل يونس ، وقـد طـُبخت في بطن الحوت ، فمن أجـل خلاصك لا بد لك من التسبيح !

فلو لم يكن يونس مسبحا في بطن الحوت ، لبقى في حبسه وسجنه الى يوم يبعثون !

فهو بالتسبيح قد خلص من جسد الحوت . فماذا يكون التسبيح ؟ انه آية يوم « ألست » .

فلئن كنت قد نسيت تسبيح الروح هذا ، فاستمع الآن الى تسبيح هذه الحيتان !

فكل من رأى الله فهو الهىّ . وكل من شهد هـذا البحر ، فهو ذلك الحوت .

٣١٤٠ ان هذه الدنيا بحر ، والجسم فيها حوت ، وأما الروح فهو يونس المحتجب عن النور الصبوح .
فان كان الروح مسبِّحا نجا من الحوت ، والا هضمه الحوت وتلاشى كيانه !
وان أسماك الروح لتملأ هذا البحر ، وأنت لا تبصرها وهي تطير حولك !
وان هذه الأسماك لتدفع بأنفسها نحوك ، فافتح عينيك حتى تشهدها عيانا !
فان أنت لم تر هذه الأسماك ظاهرة ، فان أذنك قد سمعت تسبيحها في عاقبة الأمر .
٣١٤٥ والصبر هو روح تسبيحاتك ، فكن صابرا فان هذا هو التسبيح الحق !
وليس لتسبيح قط مثل هذه الدرجة ، فاصبر ، فان الصبر مفتاح الفرج .
ان الصبر كجسر الصراط والجنة في تلك الناحية . وفي صحبة كل جميل مرب قبيح .
فما دمت تفرّ من المربى فلن يكون وصال ، ذلك لأن المربى لا يفترق عن الجميل .
وماذا تعرف عن مذاق الصبر يا من قلبك مثل الزجاجة ، وبخاصة اذا كان الصبر عن حسان جكل .
٣١٥٠ ان الرجل يتذوق الغزو والكر والفر ، وأما المخنث فلا يتذوق الا الفسوق[1] .
فليس للمخنث دين ولا تسبيح الا الفسوق ، ذلك لأن فكره يحمله الى أسفل[2] .

---

(١) ، (٢) ترجمنا هذين البيتين بقليل من التصرف .

فلو أنه تسامى الى الفلك فلا تحسب له حسابا ، ذلك لأنه حذق درسه في عشق التسفل .

انه يركض فرسه نحو الدنايا ، مع أنه يلوّح بجرسه نحو الأعالي !

وأية مهابة تكون لرايات الشحاذين ؟ ان هـذه ليست الا وسيلة الى كسر الخبز .

كيف خاف صبي من شخص غليظ الجسـد
وكيف قال ذلك الشخص للصبـي :
لا تخف ، فاني لست برجل .

٣١٥٥ ان مخنثا غليظ الجسد لقي صبيا على انفراد ، فاصفر وجه الصبي خوفا من قصد ذلك الرجل .

كفت أيمن باش اى زيباى من   كه تو خواهد بودبر بالاى من[١]

من اكر هولم مخنث دان مرا   همجو اشتر برنشين مى‌ران مرا[٢]

فصورة الرجال اذا اقترنت بمثل هذا المعنى ، فهي مظهر آدميّ ، في باطنه شيطان لعين !

فيا من تشبه بضخامتك قوم عـاد ، انك لشبيه بذلك الطبل الذى كانت الريح تقرعه بالغصن .

---

(١) اعرضنا عن ترجمة هذا البيت لأنه ينطوى عـلى مضمون لا تليق ترجمته .

(٢) هذا البيت كسابقه ينطوي على مضمون لا تليق ترجمته . والبيتان يشيران الى مرض اجتماعي خطير . وخلاصتهما أن ذلك المخنث كشـف للصبي عن حقيقة حاله ، فاتضح بذلك انه صورة هائلة لكنها لا تنطوي على حقيقة .

٣١٦٠ ان ثعلبا قد أضاع صيده من أجل طبل كحقيبة امتلأت بالهواء ،
فلما لم يجد في ذلك الطبل شحما قـال : « ان خنزيرا هو خير لي من تلك الحقيبة الجوفاء » .
والثعالب هي التي تخاف مـن قرع الطبول . أما العـاقل فكثيرا ما يقرعها حتى تلزم الصمت .

قصة رامي السهام ، وخوفه من ذلك الفارس الذي كان يتجول في الغـابة

كـان فارس مسلح ذو مظهر مهيب يتجول في الغـابة على فرس نجيب .
فرآه أحد الرماة ، فشدّ ـ من خشيته ـ قوسه ،
٣١٦٥ حتى يرميه بسهم ، فصاح به الفارس : « انني ضعيف برغم أن جسدي عظيم !
فحذار حذار ، لا تنظر الى ضخامة جسمي ، فانني في وقت الحرب أهون من امرأة عجوز ! »
فقال له الرامي : « اذهب ، فقـد أحسنت القول ، ولولا ذلـك لدفعني الخوف الى أن أرميك بسهم » .
فكم من رجال قتلتهم آلات الحرب ، وكانوا يحملون بأيديهم مثل هذا السيف ، وهم مجردون من الرجولة !
فلو أنك لبست سلاح أمثال رستم ، ولم تكن أهلا لذلك ، ذهبت روحك .

٣١٧٠ فاجعل روحك درعا لك ، وتخلّ عن السيف ، أيها الفتى ! فكل من كان بدون رأس ، ظفر برأس من المليك .

ان سلاحك هو حيلتك ومكرك ، وهما قد انبثقا منك ، كما أنهما قد جرحا روحك .

وما دمت لم تحقق ربحا من هذه الحيل ، فتخلّ عنها لعل السعادة تقبل اليك .

وطالما أنك لم تظفر في لحظة واحدة بثمرة من الخداع ، فقل بترك الخداع ، واطلب رب المنن !

وما دامت هذه العلوم لم تكن ذات بركة عليك ، فاجعل نفسك غرّا ، وتخلص من الشؤم !

٣١٧٥ وقل مثل الملائكة : « سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا[1] » .

قصة الأعرابى الذى وضع رمالا فى كيس وكيف لامه ذلك الفيلسوف

وضع أعرابى على ظهر جمله كيسين كبيرين ، ممتلئين بالحب ، وركب الأعرابى فوق رأسى هذين الكيسين . وكان أن جاذبه الحديث رجل لبق المقال .

فسأله عن وطنه ، وجرّه الى الكلام ، ونظم كثيرا من درر القول أثناء مساءلته .

وبعد ذلك قال له : « بماذا امتلأ هذان الكيسان ؟ ألا فلتخبرنى بحقيقة الحال » .

---

(١) انظر : سورة البقره ، ٢ : ٣٢ .

٣١٨٠ فقال الأعرابى : « ان في أحد الكيسين قمحا ، وأما الآخر فيحتوى رملا ، لا يقتات به الناس » .

فقال (المتفلسف) : « ولماذا حملت (الجمل) هذه الرمال ؟ » ، قال الأعرابى : « حتى لا يبقى هذا الكيس وحيدا » .

فقال (المتفلسف) : « فلتصب نصف ذلك الكيس المتخم في الآخر ، تمشيا مع الحكمة ،

حتى يخف (ثقل) الكيسين ، وكذلك الجمل » . فقال الأعرابى : « مرحى أيها الحكيم القدير الحر !

أمثل هذا الفكر الدقيق والرأى الصائب (لديك) ، وأنت هكذا عريان ، تمضى على قدميك في عناء ؟ »

٣١٨٥ وشعر الأعرابى بالشفقة على هذا الحكيم ، واعتزم هذا الرجل الطيب أن يركبه فوق الجمل .

ثم أردف قائلا : « أيها الحكيم البارع القول ، تحدث الىّ قليلا عن حالك !

فبمثل ما لك من عقل وما أنت عليه من كفاية ، أأنت وزير أم ملك ؟ ألا فلتصدقنى القول ! »

فقال المتفلسف : « اننى لست (واحدا من) هذين ، بل أنا من العامة ! انظر الى حالى والى ثيابى ! »

قال الأعرابى : « فكم تملك من الجمال والثيران ؟ » ، فقال المتفلسف : « لا هذه ولا تلك ، فلا تجرحنا ! »

٣١٩٠ قال الأعرابى : « فأى بضاعة تملكها في دكانك ؟ » ، فقال المتفلسف : « ومن أين لى الدكان ، وأنى لى المكان ؟ »

قال الأعرابى : « سأسألك عن النقد ، كم تمتلك منه . فأنت متفرد السبيل ، ونصحك محبب .

وان لديك كيمياء لكل نحاس العالم ! وعقلك وعلمك جوهر تراكم بعضه فوق بعض ! »

فقال المتفلسف : « والله يا وجيه العرب ليس كل ما أملك بكاف للانفاق على قوت ليلة واحـدة !

واننى لأعدو عارى الجسد حافى القدمين ، وأسعى نحو كـل من يقدم الى الخبز ،

٣١٩٥ ولـم يتحقق لى مـن هـذه الحكمـة والفضل والذكاء سوى الخيال ووجع الرأس ! »

فقال له الأعرابى : « ابتعد الآن عـن جانبى ، حتى لا يمطر شؤم طالعك فوق رأسى !

واحمل حكمتك المشؤومة هذه بعيـدا عنى ، فنطقك شؤم عـلى أهل الزمن !

أو اذهب أنت في تلك الناحية ، وسأنطلق أنا مـن هذه الناحية .

فلو كان طريقك أمامى فسوف أرجع الى الوراء !

ان كيسا من القمح وكيسا من الرمل هما خير لى من هذه الحيل الجوفاء !

٣٢٠٠ اننى أحمق ، لكن هذا الحمق كثير البركة ، فقلبى صاحب رزق ، وروحى ذات تقوى !

فاذا أردت أن يقل شقاؤك ، فابذل جهدك لكى تقل حكمتك !

فالحكمة التى تتولد من الطبع ومن الخيال هى حكمة مجردة من نور رب الجلال .

ان حكمة الدنيا تزيد من الظن والشك ، وأما حكمة الدين فتحلق فوق الفلك !

ان حكماء آخر الزمان الأخساء قد رفعوا أنفسهم فوق السلف !

٣٢٠٥ لقد أحرقوا أكبادهم وهم يتعلمون الحيل ، وحذقوا أفعالا وألوانا من المكر !

وأسلموا الى الريح الصبر والايثار وسخاء النفس والجود ، وتلك (الصفات) اكسير كل ربح .

ان الفكر هو ذلك الذى يفتح طريقا ، والطريـق هو ذلك الذى يسير فيه أحد الملوك .

أما الملك فهو من يكون ملكا بذاته ، وليس ملكا بخزائنه وجيشه !

وذلك ليبقى ملكه سرمديا ، كما بقيت عزة الملك للدين الأحمدى .

كرامات ابراهيم بن ادهم – قدس الله روحه العزيز – على شاطـىء البحر

٣٢١٠ هكذا يُروى عن ابراهيم بن أدهم ، أنه جلس على شاطىء البحر ليستريح من الطريق ،

وأخذ يرتـق دلقه . وفجأة وصل الى المكان أمير كان يتجول على الساحل .

وكان هذا الأمير من عبيد الشيخ ، فعرف الشيخ وسارع بالسجود له !

ولقد حـار هذا الأمير في الشيخ ، وفي دلقه . لقـد أصبح خُلقه وخَلقه على صورة أخرى .

انه قد تخلى عن مثل ذلك الملك العظيم ، واختار ذلك الفقر الموغل في رقة الحال .

٣٢١٥ فها هوذا قد أضاع ملك سبعة أقاليم ، وها هوذا كالمتسول يُعمل الابرة في دلقه !

وانكشف للشيخ تفكير هـذا الأمير ، فالشيخ مثـل الأسد وأما القلوب فهي غابته .

انه يدخل القلوب مثـل الخوف والرجاء ، وليست تخفى عليـه أسرار الدنيا !

فراقبوا قلوبكم أيها العاطلون من الثمار حينما تمثلون في حضرة أصحاب القلوب .

فأمام أصحاب الأجساد يكون الأدب مقتصرا عـلى الظاهر ، ذلك لأن الله قد حجب عنهم الباطن .

٣٢٢٠ وأما أهل القلوب فالأدب أمامهم أدب الباطن ، ذلك لأن قلوبهم ذات فطنة بالسرائر !

وأنت على عكس ذلك : تقبل بمزيد من الأدب على العميان ــ طلبا للجاه ــ وتجلس في أدنى مكان !

وأمام المبصرين تعمد الى ترك الأدب ! انك قد غدوت حطبا لنار الشهوة !

فما دمت لا تملك فطنة ولا نـور هدى ، فلتبالغ في جلاء وجهك للعميان !

ولطّخ وجهك بالأقذار أمام المبصرين ! وتدلل عليهم برغم ما أنت عليه من نتن الحال !

٣٢٢٥ لقد بادر الشيخ الى رمى ابرته في الماء ، ثم عـاد فناداها بصوت جهير .

فاذا بآلاف من الأسماك الالهية ، بين شفتي كل منها ابرة من ذهب ،
وقد رفعت رؤوسها من بحر الحق ، (قائلة) : « خذ أيها الشيخ ابر الحق ! »
فالتفت الى الأمير وقال له : « أمملكة القلب خير أم مثل هذا الملك (المادىّ) الحقير ؟
وهذه هى العلامة الظاهرة ، وليست بشيء قط ! (فمهلا) حتى تصل الى الباطن لترى عشرين (من أمثالها) !

٣٢٣٠ فقد يحمل الى المدينة غصن من الحديقة ، ولكن أنى للمدينة أن تحمل اليها الحديقة والبستان !
وبخاصة تلك الحديقة التى ليس هذا الفلك الا ورقة واحدة منها ، بل لعلها هى اللب ، وكل ما عداها كالقشور !
فان لم تكن تتوجه بخطاك نحو هذه الحديقة ، فالتمس زيادة العطر ، وادفع عنك الزكام ،
حتى يغدو هذا العطر جاذبا لروحك ، ويصير هذا العطر نورا لعينيك .
فمن أجل الشذا قال يوسف بن يعقوب النبى : « اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى[1] » .

٣٢٣٥ وبسبب هذا الشذا قال أحمد في عظاته : جعلت قرة عينى في الصلاة » .

---

(١) يوسف ، ١٢ : ٩٣ .

ان الحواس الخمس مرتبط بعضها بالبعض الآخر ، ذلك لأنها جميعا قد نبتت من أصل واحد ،

فقوة واحدة منها قوة لباقيها ، وكل واحدة منها تكون ساقية للأخريات .

فابصار العين يقوّى النطق ، والنطق يزيد العين تصديقا .

ويصبح الصدق منبها لكل حس ، فيغدو الذوق مؤنسا (لجميع) الحواس !

بداية استنارة العارف بالنور الذى يرى الغيب

٣٢٤٠ حينما تصبح احدى الحواس متحررة من قيدها ، فان ما بقى من الحواس تصبح كلها مبدلة !

وحينما تغدو احدى الحواس مبصرة لغير المحسوسات ، فان الغيب يصير ظاهرا لكل الحواس !

فلو أن كبشا من القطيع قفز من فوق القناة ، فان سائر القطيع يقتفى أثره نحو تلك الناحية .

فسُق خراف حواسك ، وادفعها الى الارتعاء في ذلك المرعى (الذى يعنيه قوله تعالى) : « والذى أخرج المرعى[1] » .

حتى تأكل هناك السنبل والنسرين ، وتسلك سبيلا الى رياض الحقائق !

---

(١) سورة الأعلى ، ٨٧ : ٤ .

٣٢٤٥ ويغدو كل حس من حواسك نبيا للحواس ، فيقودها جميعا الى تلك الجنة !

فتنـاجي الحواس حسك بالأسرار ، بـدون لسان ولا حقيقـة ولا مجاز !

ذلك لأن هذه الحقيقة قابلة للتأويلات ، كما أن هـذا التوهم أس التخيلات ،

أما تلك الحقيقة التي تكـون عينا وعيانا ، فليست تتسع قط لأى تأويل .

واذا ما صارت الحواس خاضعة لحسك ، فلن يكون للأفلاك بدّ (من طاعتك) .

٣٢٥٠ فلو أن دعوى قامت حـول امتـلاك القشور ، فان الذى يملك اللباب هو مالك القشور .

واذا وقع تنازع حـول حمل من القش ، فانظر من يكـون مالك الحب .

فالفلك اذن هو القشر ونور الروح هو اللب ، والفلك ظاهر ، وأما نور الروح فخفىّ ، فلا تخطىء فهم هذا المعنى !

ولقـد جاء الجسم ظاهـرا ، وأمـا الروح (الحيوانى)[1] فهو محتجب . فالجسم مثل الكم وأما الروح فهو مثل اليد .

كما أن العقل أكثر خفاء مـن الروح (الحيوانى) ، فالحس أكثر سرعة في سلوكه سبيل الروح .

---

(١) الحديث هنا عن الروح الحيوانى ، وهو الذى يبـث الحيـاة في الاجسـاد . وهذا مختلف عن الروح الانسانى الذى يمثل عند الصوفيـة جوهر الانسان ، وحقيقته .

٣٢٥٥ فلو أنك أبصرت كائنا يتحرك لعرفت أنه حي ، ولكنك لا تعرف من ذلك أنه ممتلىء بالعقل ،

حتى تظهرَ منــه حركات موزونة ، وحتى يجعــل نحاس الحركة بالعرفان ذهبا !

فمن التناسب الذى يظهر في أفعال اليدين ، يجيئك الفهم بأن هناك عقلا .

وأما الروح الملهم[1] فهو أكثر خفاء من العقل ، ذلك لأنه غيب ، فهو ينتمى لذلك الجانب (الآخر) .

فعقل أحمد لم يكن خافيا على شخص قط ، أما روحــه الملهم فلم يكن مما يدركه كل روح .

٣٢٦٠ وللروح الملهم هذا أفعال متناسبة أيضا ، ولكن العقل لا يدركها، لأن ذلك الروح عزيز (ممتنع على الادراك) .

فالعقل قد يرى هذا (الروح) جنونا ، وقد يحار فيه . والأمر كله رهن بأن يغدو هذا العقل روحا[2] .

فهكذا كانت أفعــال الخضر المتناسبة مصدر كدر لعقل موسى ، حين كان يراها !

فموسى ــ اذ لم تكن له ذات حال الخضر ــ كانت أفعال الخضر غير مقبولة في نظره .

فان كان عقل موسى عانى القيد في ملاحقة الغيب ، فماذا يكــون عقل الفأر ، أيها المفضال ؟

---

(١) حرفيا : « روح الوحي » ، وهو الروح الذى يتلقى الوحى . (٢) لا سبيل للعقل الى ادراك حقيقة الروح الا اذا آمن بها وعمل على اتخــاذ طبيعتها .

٣٢٦٥ ان العلم التقليدى يكون من أجل البيع ، فما أكثر ما يلتمع حين
يجد المشترى !
وأما العلم الحقيقى فمشتريه هو الحق ، ولهـذا فان سوقه دائما
ذات رونق !
فصاحب هذا العلم قد أغلق شفتيه ، فهو ثمل في البيع والشراء ،
والمشترون بدون حصر لأن « الله اشترى[١] » .
فالملائكة هم المشترون لدرس آدم ، وأما الجن والشياطين فليسوا
بأهل لتلقيه .
فيا آدم ، أنبئهم بالأسماء ، وألق عليهـم درسك ، واشرح أسرار
الحق بكل تفصيلاتها[٢] .
٣٢٧٠ فمثل ذلك الشخص الذى يكون قصير النظر ، غريـق التلوّن ،
عديم التمكن ،
قـد دعوتـه فأرا ، لأن مقره في التراب ، والتراب للفأر مستقر
ومعاش .
انه يعرف كثيرا من الطرق ، ولكنها جميعا تحت التراب ، ولقـد
شق لنفسه تحت الأرض سبلا في كل اتجاه .
فلا هم لنفس الفأر الا مضغ اللقم ، ولهذا فقـد أعطى الفأر عقلا
على قدر حاجته .
ذلك لأن الخالق العزيز لا يعطى انسانا قط شيئا لا تكون له حاجة
اليه .

(١) انظر : سورة التوبة ، ٩ : ١١١ .
(٢) حرفيا : « واشرح أسرار الحق شعرة شعرة » .

٣٢٧٥ فلو لم تكن للعالم حاجة الى الأرض لما كان رب العالمين قط خلقها .
ولو لم تكن هذه الأرض المضطربة محتاجة للجبال لما أبدعها الله (راسخة) ذات جلال .
ولو لم تكن للأفلاك حاجة الى السموات السبع لما أوجدها من العدم .
والشمس والقمر وهذه النجوم ، هل ظهرت للعيان من غير حاجة اليها ؟
فالحاجة هى الوهق الذى يجتذب (الكائنات) الى الوجود .
وللانسان آلات على قدر حاجته .
٣٢٨٠ فلتعجل أيها المحتاج بزيادة حاجاتك حتى يجيش بالسخاء بحر الجود .
فهؤلاء المتسولون ، وكل المبتلين يظهرون حاجتهم للخلق على الطريق ،
(انهم يظهرون) العمى والشلل ، والمرض والألم ، فلعل هذه الحاجة تحرك رحمة الناس .
وليس أحد هؤلاء قط يقول : « أيها الناس ، تصدقوا عليّ بالخبز ، فان لى مالا وخزائن ومائدة ! »
ان الله لم يجعل للخُلد[1] عينين ، ذلك لأنها لا تحتاج اليهما في تحصيل قوتها .

---

(١) الخلد فارة عمياء او دابة تحت الارض ، ويضرب بها المثل في شدة السمع . واسمها الفارسي « كور موش » ، ومعناه « الفارة العمياء » .

٣٢٨٥ انها تستطيع العيش بدون العين والبصر ، فهى في التراب الرطب
قد خلت من حاجة الى العينين .
وهى لا تخرج من باطن الأرض الا متلصصة ، وانها لكذلك حتى
يطهرها الخالق من السرقة ،
فاذ ذاك توهب جناحين وتصير طيرا ، فتحلق وتترنم بتسبيح
الخالق !
وتتغنى في بستان شكر الله كالبلبل بمائة لحن في كل لحظة !
قائلة : « يا من خلصتنى من الوصف القبيح ! أيها الصانع من
الجحيم جنة !
٣٢٩٠ انك أنت الذى تضع النور في قطعة من الدهن[1] ، وأنت ـ أيها
الغنى ـ واهب السمع لقطعة من العظم[2] ! »
فأى تعلق لهذه المعانى[3] بالجسم ، وأى تعلق لفهم الأشياء
بالاسم !
ان الجسم كالوكر ؛ والمعنى هو الطائر ! الجسم كمجرى النهر ،
والروح هو الماء !
فهو منطلق ، وأنت تقول : انه واقف ! وهو جار مندفع وأنت
تقول : انه عاكف !
فان كنت لا ترى انطلاق الماء بين الطين ، فما هذا القش الذى
يتوالى ظهوره فوق (صفحته) ؟

---

(١) يقصد « بقطعة الدهن » العين . (٢) يقصد «بقطعة العظم» الأذن .
(٣) البصر والسمع .

٣٢٩٥ وصور فكرك هي لك شبيهة بهذا القش ، تتوارد منها على التوالي أشكال بكر .
ونهر فكرك في انطلاقه لا تخلو صفحته من قش محبوب ، وقش قبيح الشكل .
فهذه القشور فوق صفحة هذا الماء الجاري ، قد أقبلت مندفعة من ثمار بستان الغيب .
فابحث في البستان عن لباب هذا القشر ، ذلك لأن المـاء يقبل الى مجراه من البستان .
فان كنت لا تبصر جريان ماء الحياة ، فانظـر الـى حركة هذه الأعشاب في النهر .
٣٣٠٠ فحينما يزداد اندفاع الماء في جريانه ، تزداد به قشور الفكر سرعة في انطلاقها .
فاذا ما بلغ هذا النهر غاية سرعته في جريانه ، لا يستقر غم في ضمير العارفين .
فهذا النهر حين يكون في قمة امتلائه وسرعته ، فانه لا يبقى بـه متسع الا للماء .

كيف طعن غريب في احد الشيوخ
وكيف اجابه مريـد الشيخ

اتهم شخص أحد الشيوخ (قائلا) : « انه فاسد ، لا يسلك سبيل الرشـاد !
فهو شارب للخمر منافق خبيث ، فأنى له أن يكون مغيثا لمريديه ؟»

٣٣٠٥ فقال له أحد (المريدين) : « الزم الأدب ، فليس بهين مثل هـذا الظن بالكبار !
ولكم هو بعيد عنه وعن صفـاته أن يعكر صفـاءه سيل (من الخطيئة) !
فلا ترم بمثل هذا البهتان أهل الحق ! ان هذا ليس سوى خيالك، فافتح صفحة (جديدة) .
ان هذا لا يجوز ، أيها الطائر البرى ! وهب أنه جاز ، فـأى خوف لبحر القلزم من أن ترمى به جثة ؟
انه ليس حوضا صغيرا ، دون القلتين ، حتى يمكن أن تلوثـه قطرة (من الدنس) !
٣٣١٠ فالنار لا تكون خطرا على ابراهيم . أما كل نمرود ، فادعه الى أن يحذرها ! »
ان النفس هى النمرود ، وأما العقل والروح فهما الخليل .
فالروح (مستقرها) عين الحقيقة ، وأما النفس فعالقة بالدليل .
والدليل انما هو للسائر في الطريق ، الذى هو ـ في كل لحظة ـ عرضة للضلال في البيداء .
أما الواصلون فليس لهم سوى العين والسراج ، وقد استراحوا من (هم) الدليل والطريق .
فلو أن رجلا من الواصلين ذكر أحد الأدله ، فانه يفعل ذلك ليفهم أصحاب الجدال .
٣٣١٥ ان الأب يصطنع أصوات الطفولة لوليده الجديد ، مع أن عقله قد يبدع هندسـة الدنيا !

فليس يهبط فضل الأستاذ من عليائه لو أنه قال : ان الألف لا تقبل أى تحريك .

فالمرء ـــ من أجل تعليم ذلك (الطفل) المعقود اللسان ـــ يجب عليه أن يخرج عن لسانه .

ان عليك أن تصطنع نطقه حتى يتعلم منك العلم والفن .

فمن اللازم للشيخ في وقت النصح أن يعتبر جميع الخلـــق مثل أطفاله .

٣٣٢٠ واعلم أن هناك حدّا للكفر ومداه ، أما الشيخ ونوره فليســت لهما حدود !

فالمحدود عدم أمام اللامحدود . وكل شيء سوى وجه الله مآله الى الفناء[1] .

فحيثما وجد الشيخ فلا مجال للكفر والايمان ، ذلك لأنه لب ، وليس هذين سوى ألوان وقشور !

فهذه الأمور الفانية أصبحت حجابا لذلك الوجه ، كما اختفــى نور سراج تحت طســت .

فرأس هذا الجسد اذن حجاب لذلك الرأس (الروحىّ) ! ورأس الجسد كافر اذا قيس بذلك الرأس !

٣٣٢٥ فمَن الكافر ؟ انه الغافل عن ايمان الشيخ ! ومن الميت ؟ انه من لا علم له بروح الشيخ !

ان الروح ليست الا خبرا (قابلا) للتجربة فكل من ازداد علمــا بها ، زادت روحه قوة .

---

(١) قال تعالى : « كل شى هالك الا وجهه » . (القصص ، ٢٨ : ٨٨) .

وروحنا أعظم من روح الحيوان ، فلماذا ؟ لأنها أكثر علما من روح الحيوان .

وأرواح الملائكة أعظم من أرواحنا ، لأنها منزهة عن الحس المشترك .

وأما ملوك القلوب[1] فأرواحهم أعظم من أرواح الملائكة ، فدعك من الحيرة !

٣٣٣٠ ولهذا السبب كان سجود الملائكة لآدم ، فروح آدم أعظم من كيانهم .

والا لما كان من اللائق قط أن يؤمر كائن أعظم بالسجود لمن هو دونه .

وكيف تروق عدالة الخالق ولطفه أن تخر الوردة ساجدة للشوك ؟

فالروح حين قوى وتجاوز المنتهى ، أصبحت أرواح جملة الكائنات طوع حكمه ،

(سواء في ذلك) الطير والسمك والجنّ والناس ، ذلك لأن هذا الروح (الكامل) عظيم ، وتلك الأرواح ناقصة .

٣٣٣٥ فالأسماك تغدو صانعة الابر لدلق الشيخ ، وتكون تابعة له كما يتبع الخيط الابرة !

بقية قصة ابراهيم بن ادهم ـ قدس الله روحه ـ على شاطىء البحر

حين رأى ذلك الأمير نفاذ أمر الشيخ بقدوم الأسماك نحوه ،ظهر عليه الوجد ،

---

(١) الصوفية .

وتأوه قائلا : « ان السمكة عارفة بالشيوخ ، فساء من كان طريد بلاطهم !
الأسماك عارفة بالشيخ ، ونحن بعيدون عنه ! فنحن — (بحرماننا) من هذا الحظ — أشقياء ! ، وتلك الأسماك سعيدة !
فخرّ ساجدا ، ومضى باكيا ولها ، وجُنّ بتعشقه فتح ذلك الباب !
٣٣٤٠ فما الذى أنت مشتغل به ، يا من لم تغسل وجهك ! ومع من أنت في صراع وحسد ؟
انك تعبث بذيل أسد ! انك تشنّ غارة على الملائكة !
لماذا حديثك بالسوء عن الخير المحض ؟ حاذر ، ولا تحسبن هذا التوقح رفعة !
فماذا يكون الخبيث ؟ انه النحاس المفتقر المهان ! ومن هو الشيخ؟ انه الكيمياء التى لا حدّ لها .
فلئن كان النحاس غير متقبل للاكسير ، فان الاكسير لا يغدو قط نحاسا بفعل النحاس .
٣٣٤٥ وماذا يكون الخبيث ؟ انه العنيد النارىّ الفعل ! ومن الشيخ ؟ انه بحر الأزل بعينه !
والنار دائمة الخوف من الماء ، أما الماء ، فهل خاف قط من اللهيب ؟
انك لتتفرس في وجه القمر باحثا عن عيب ! بل انك لتلتمس الأشواك في فردوس !
فيا ملتمس الشوك ! لو أنك دخلت الجنة ، فلن تجد فيها شوكة سواك .

فهل تسعى الى تغطية الشمس بقطعة من الطين ؟ أم هل تلتمس صدعا في البدر المكتمل ؟

٣٣٥٠ فهذه الشمس التي تضيء الدنيا ، كيف تحتجب من أجل خفاش !

ان العيوب قد صارت ــ برفض الشيوخ لها ــ عيوبا ، والغيوب قد أضحت ــ بغيرتهم عليها ــ غيوبا !

ولو كنت بعيداً عنهم ، فكن لهم صديقا بخدمتهم أحيانا . وسارع الى الندم ، ثم بادر الى العمل !

فلعل نسيما يهب نحوك من هذا السبيل . فلماذا تدفع عن نفسك ماء الرحمة بالحسد ؟

ومهما كنت بعيدا عنهم فأظهر لهم أمارات الودّ ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم (نحوهم) .

٣٣٥٥ فلو أن حمارا انزلق في الوحل من جراء خطوة مسرعة ، فانه يتحرك على الدوام لكي ينهض .

وهو لا يمهد ذلك المكان من أجل الاقامة ، فقد علم أنه ليس مكانا للعيش !

فحسك كان أدنى من حسّ الحمار ، ذلك لأن قلبك لم ينهض من هذه الأوحال !

فها أنت ذا تتأول رخصة للاقامة في الوحل ، ما دمت لا تريد أن تنتزع منه قلبك !

قائلا : « ان هذا يجوز لى ، فأنا مضطر ، والحق بكرمه لن يأخذني بعجزى ! »

٣٣٦٠ وهو في الحقيقة قد أخذك ولكنك كالضبع الأعمى لم تر أخذه اياك ، من جراء غرورك !

ان الصيادين يقولون : « الضبع[1] غير موجود هنا ، فابحثوا عنه في الخارج ، فانه ليس في كهفه » .
يقولون هذا وهم يضعون فوقه القيود ، على حين أن الضبع يقول : « لا خبر لديهم عنى !
فلو أن هذا العدوّ كان يعرف مكانى ، فكيف كان يهتف : أين هذا الضبع ؟ »

كيف ادعى رجل ان الله تعالى لن ياخذه بالاثم وكيف اجابه شعيب

قال رجل في عهد شعيب : « ان الله رأى منى كثيرا من العيب
٣٣٦٥ فكم من اثم شهده مني ، وكم من جرم ، لكن الله بكرمه لا يأخذني بذلك ! »
فأجابه الحق تعالى بكلام فصيح ألقاه من الغيب في أذن شعيب (قائلا) : « انك قد قلت : كم ارتكبت من آثام ، لكنّ الله بكرمه لم يأخذني بجرمى !
وأنت تقلب (الحقيقة) وتقول بعكسها أيها السفيه ! يا من تخليت عن الطريق ، وتمسكت بالتيه !
فكم آخذك بجرمك وأنت لا تشعر بذلك ! ها أنت ذا مقيد بالسلاسل من قدميك الى رأسك !
٣٣٧٠ ان الصدأ المتراكم عليك طبقة فوق طبقة ـ أيها الوعاء الأسود ـ قد خرّب سيما باطنك !

---

(١) الضبع في راى بعض اللغويين مؤنث . وفي راى بعضهم انه يذكر ويؤنث . وقد أخذنا بالراى الاخير .

لقد تراكمت فوق قلبك طبقات من الصدأ حتى أصبح أعمى عن (مشاهدة) الأسرار ! »

فلو أن هذا الدخان هبط فوق قدر جديدة ، لبقى أثره فوقها ، مهما قلّ هذا الأثر[1] .

ذلك لأن الشيء يتميز بضده ، فذلك السواد تظهر شناعته فوق البياض .

فاذا ما أصبحت القدر سوداء ، فمن ذا الذي يلحظ بعد ذلك تأثير الدخان عليها بالنظرة العجلى ؟

٣٣٧٥ ان الحداد الزنجي يكون لون الدخان من لون وجهه .

أما الرومي الذي يحترف الحدادة فوجهه يغدو أبلق من تلقى الدخان .

فهو سرعان ما يعلم تأثير الاثم ، فينوح بلهفة قائلا : « يا الهي ! »

وحينما يلزم الاصرار ويحترف السوء فهو يذرّ الرماد في عين الفكر ،

فلا يتفكر في التوبة ، ثم يصبح ذلك الجرم حلوا في مذاق قلبه ، حتى يصير مجردا من الدين ،

٣٣٨٠ وقد زايله ذلك الندم ، ودعاء الله ، وتراكمت فوق مرآته خمس طبقات من الصدأ !

وبدأ الصدأ يأكل حديدها ، كما أنه أخذ ينتقص من جوهرها !

انك حين تكتب فوق ورقة بيضاء فان هذه الكتابة تقرأ بمجرد النظر اليها .

---

(١) حرفيا : « لبقى اثره فوقها ، ولو كان مقدار حبة من شعير » .

فاذا ما كتبت فوق كلام مكتوب ، لم يتيسر فهمه ، ووقع الخطأ في قراءته .

ذلك لأن سوادا قد وقع فوق سواد ، فاستغلق كلا الخطين ، ولم يعطيـا معنى .

٣٣٨٥ فلو أنك كتبت فوق ذلك للمرة الثالثة ، لأصبح السواد مثل روح الكافـر .

فأية حيلة تكون بعد ذلك ، سوى اللجوء الى المعين . ان اليأس نحاس اكسيره نظر (الله) .

فلتضع أمامه نوازع يأسك ، حتى تنجو من السقم الذى لا دواء له !

فحينما حدث شعيب الرجل بهذه الحكم ، تفتحت في قلبه الورود بتلك الأنفاس الروحية .

فاستمعت روحه الى وحى السماء ، وقال : « ان كان قد عاقبنى ، فأين علامة ذلك ؟ »

٣٣٩٠ فهتف شعيب : « يا رب ! انه يجادلنى ، ويطلب علامة على مؤاخذتك اياه ! »

فقال (الحق) : اننى ستار ، فلن أذيع من أسراره الا رمزا واحدا لأبلوه به :

ان هناك علامة واحدة على مؤاخذتى اياه ، هى أنه رجل صاحب طاعات ، من صوم ودعاء ،

وصلاة وزكاة وغير ذلك ، لكنه ليست لديه ذرة واحدة مـن ذوق الروح !

انه يؤدى الطاعات ويقوم بسنىّ الفعال ، لكنه لا يملك ذرة واحدة من الذوق .

٣٣٩٥ ان طاعته نبيلة ، ولكنها لا تنطوى على معنى نبيل ! فالجوز كثير ولكنه لا يشتمل على لباب !

فلا بد من الذوق حتى تؤتى الطاعات ثمرا ، ولا بد من اللب حتى تنبت البذور شجرا .

فالبذرة التي لا لبّ لها كيف تصير غصنا ؟ والصورة التى لا روح لها ليست سوى خيال .

بقية قصة ذلك الغريب ، وطعنه في الشيخ

ان ذلك الخبيث كان يتفوه بهراء عن الشيخ ، فأحولُ النظر يكون دائما أحول العقل !

(قائلا) : « انني قد رأيته في أحد المجالس ، فاذا هو عار من التقوى ، مفلس منها !

٣٤٠٠ وان كنت لا تصدقنى فانهض معى هذه الليلة ، لترى فسق شيخك عيانا ! »

واقتاده في الليل الى احدى النوافذ ، ثم قال : « تأمل هذا الفسق ، وتلك المنادمة !

تأمل ذلك النفاق بالنهار ، وهذا الفسق بالليل ! انه أثناء النهار كالمصطفى ، وفي الليل مثل أبى لهب !

ففى النهار كان اسمه « عبدالله » . وفي الليل أعاذنا الله منه ، وهو يحمل كأس الشراب ! »

ورأى (المريد) الكأس ممتلئة في كف الشيخ ، فقال : « واشيخاه! أأنت أيضا من أصحاب الخداع ؟ »

٣٤٠٥ تونمى كفتى كه درجام شراب ديو مى ميزد شتابان ناشتاب[1]

فقال الشيخ : « انهم ملؤوا كأسي على هذه الصورة ، حتى لا يبقى بها متسـع لحبة من بخور[2] .

انظر اليها ، هل فيها متسع لذرة ؟ ولقد حمل الغرّ هذا الكلام معنى معوجا ! »

فليست هذه كأس الظاهر ، ولا خمر الظاهر ! فما أبعد هذا عـن ذلك الشيخ البصير بالغيب !

ان كـأس الشراب هي وجود الشيخ أيهـا الأحمق ، وهـذا لا يتسع لقطرة من خبث الشيطان[3] .

٣٤١٠ انه ممتلىء طافح بنور الحق ! ولقد حطم كأس البدن ، فهو نور مطلـق !

ولو أن نور الشمس وقع فوق نفاية قذرة ، فانه يبقى نورا ، ولا يتقبل منها الخَبث .

قال الشيخ : « ليست هذه بكأس ، وليس ما تحتويه خمرا ، فانزل الينا ــ أيها المنكر ــ ثم تأملها ! »

---

(١) اعرضنا هنا عن ترجمة هذا البيت ، حيـث وجدناه غير لائـق بالترجمة . وخلاصته ان المريد قال لشيخه : « الم تكن انت الذى يشتد في النهى عن الشراب ؟ » .

(٢) المراد أن الكأس لم يبق بها متسـع لاضافة شيء مهما صغر .

(٣) ترجمنا الشطر الثانى من البيت بشيء من التصرف ، فعبرنا عن معناه من غير تقيد بالفاظه .

فاقترب منها فرآها عسلا صافيا ، فعمى (من الخجل) ذلك العدوّ الضال التعس !

حينذاك قال الشيخ لمريده : « اذهب ، والتمس لي خمرا ، أيها العظيم !

٣٤١٥ فانى أحس بألم ، وقد أصبحت مضطرا ! لقد تجاوز بى الألم حد المخمصة !

ففى وقت الضرورة تكون كل ميتة نظيفة . فلينزل تراب اللعنة على رأس المنكر ! »

فدخل ذلك المريد الى غرفة الدنان ، وأخذ ــ من أجل الشيخ ــ يتذوق من كل دنّ !

فلم ير في كل غرف الدنان خمرا ، فكل دنان النبيذ كانت قد غدت ممتلئة بالعسل !

فقال : « أيها السكارى ما هذه الحال ؟ ما هذا الأمر ؟ اننى لست أرى عقارا في أى دنّ ! »

٣٤٢٠ فأقبل جميع السكارى نحو ذلك الشيخ ، بعيون باكية وهم يضربون رؤوسهم بأيديهم ،

(قائلين) : « لقد جئت الى حانتنا ، أيها الشيخ الأجل ، فأصبحت ــ بقدومك ــ جملة خمورنا عسلا !

لقد أبدلت الخمر ، (وطهرتها) من الدنس ! فأبدل نفوسنا أيضا (وطهرها) من الخبث ! »

فلو أن العالم امتلأ بالدماء حتى طفح ، فمتى كان عبدالله يشرب غير الحلال !

كيف قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ
للمصطفى ـ عليه السلام ـ : انك تؤدي
الصلاة في كل مكان بدون مصلى

قالت عائشة ذات يوم للرسول : « يا رسول الله ! انك في العلن والخفاء ،

٣٤٢٥ تصلى في كل مكان تجده ! وقد يتجول في الدار النجس والدنيء ، وذات الحيض والطفل والملوث القذر ، وهؤلاء يلوثون كل مكان يقربونه .

فقال الرسول : « اعلمى أن الله يصنع للكبراء من النجس طهرا .

فلطف الحق ـ من هذا الوجه ـ قد طهر لى مكان السجود حتى السماء السابعة ! »

فحذار ، حذار ! لا تضمر حسدا للملوك (الروح) ، والا غدوت شيطانا في هذه الدنيا !

٣٤٣٠ فان (الواحد منهم) لو شرب سما لصار شهدا ، على حين أنك لو شربت شهدا لغدا سما !

انه قد تبدل حاله وتغير ، فأصبح لطفا ، وصارت جملة ناره نورا !

فأبابيلُ الطير كانت (تنعم) بقوة من الحق ، والا فكيف يقتل طائر فيلا ؟

ان جماعة من صغار الطير قد هزمت جيشا ، وذلك لكى تعلم أن تلك الصلابة كانت من الحق !

فان اعتراك وسواس من هذا القبيل ، فاذهب ، واقــرأ سورة الفيــل .

٣٤٣٥ وان أنت سلكت (ازاء العارف) سبيل المراء والمطاولة ، فانسبنى الى الكفر لو أنك نجوت برأسك من هؤلاء (العارفين) .

كيف سحب الفار مقود الجمـل ، وكيف اعتراه العجـب بنفســه

خطف فأر صغير بكفه مقود جمل ثم غدا منطلقا بدافع من المراء !

فانطلق الجمل معه بما لديه من سرعة ، فاغتر بذلك الفأر وظـن نفسه من الأبطال !

وسرى شعاع من تفكير الفأر الى الجمل ، فقـال (هامســا) : « اهنأ الآن بالا ، ولسوف أكشف أمرك » .

(ومضى الفأر) حتى وصل الى شاطىء نهر عظيم ، يضعف أمامه كل أسد وكل ذئب ،

٣٤٤٠ فتوقف هناك الفأر وجمد ، فقال له الجمل : « يا رفيق الجبـل والصحراء !

ما هذا التوقف ؟ ولماذا أنت حائر ؟ ضع قدمك بشجاعة في النهر ثم تقدم !

انك دليلى ومرشدي ، فلا تتوقف في وسط الطريق وتسكن ! »

فقال (الفأر) : « ان هذا ماء هائل عميق ، وأخشى أن أغـرق فيه ، أيها الرفيق ! »

فقال الجمل : « دعني أختبر هذا الماء » ، ثم سرعان ما وضع في الماء قدمه ،

٣٤٤٥ وأردف قائلا : « ان الماء يبلغ الركبة ، أيها الفأر الأعمى ! فلماذا بقيت حيران ، وخرجت عن صوابك ؟ »

فقال (الفأر) : « انه بالقياس اليك نملة ، وهو بالنسبة الىّ تنين ، فهناك فروق بين ركبة وأخرى .

فما كان بالنسبة لك يبلغ الركبة ـ أيها المفضال ـ فهو يعلو مائة ذراع فوق قمة رأسي ! »

فقال الجمل : « فلا تتوقح بعد ذلك مرة أخرى ، حتى لا يحترق جسمك وروحك بهذا الشرر !

وليكن مراؤك مع أمثالك من الجرذان ، فليس يكون للفأر حديث مع الجمل .

٣٤٥٠ فقال (الفأر) : « لقد تبت ، فهلا تصدقت علىّ ، وجزت بي هذا الماء المهلك » .

فاستشعر الجمل الرحمة بالفأر ، وقال له : « الآن اقفز واجلس فوق سنامي .

إن العبور أصبح منوطا بي ، وأنا (قدير) على أن أحمل عبر النهر آلافا مثلك ! »

فما دمت لست برسول فامش على الطريق ، لعلك تنتقل[1] ذات يوم من بئر (الشهوات) الى مستقر الجاه !

(١) حرفيا : « تصل » .

وكن من الرعية ، ما دمت لست بسلطان . ولا تقد السفينة بنفسك ما دمت لست القبطان !

٣٤٥٥ وطالما لم تكن مكتملا فلا تنفرد بتجارة[١] . وكن لينا في الأيدى (كالعجين) ، لتصبح خميـرا .

وكن صامتا ، وأصغ لما أمر به الخالق من الانصات ، وما دمت لست لسان الحق ، فكن أذنا !

واذا تكلمت فليكن كلامك على صورة استفسار . وكن كالمسكين في حديثك مع هؤلاء الملوك[٢] .

ان الشهوة هى بداية الكبر والحقد ، ورسوخ الشهوة ينشأ مـن الاعتياد عليها .

فاذا رسخت عندك بحكم العادة خليقة سيئة ، ينتابك الغضب على من (يسعى) لاقتلاعها منك !

٣٤٦٠ فما دمت قد غدوت آكلا للطين ، فكل من سعى لاقتلاعك من الطين صار عدوا لك !

وعباد الصنم ، حين رسّخوا خلائقهم في تلك العبادة ، أصبحوا أعداء لمن اعترض سبيلهم الى الصنـم !

وابليس ــ اذ كان قد اعتاد على التخلق بالرئاسة ــ نظر الـى آدم بعين الانكار ،

قائلا : « أيوجد رئيس آخر أعظم قدرا منى ، حتى يستحق أن يسجد له كائن مثلى ؟

---

(١) حرفيا : بدكان .
(٢) الملوك هنا هم المرشدون الروحيون .

ان الرئاسة سم ، الا بالنسبة لتلك الروح التى تكون من البداية مترعة بالترياق !
٣٤٦٥ فلو كان الجبل مليئا بالثعابين فلا تخش شيئا ، ما دام في الباطن ترياق غزير !
فاذا ما أصبحت الرئاسة نديما لدماغك ، فكل من خالفك صار لك خصما قديما !
ولو أن انسانا تكلم على خلاف طبعك ، لثار في نفسك نحوه كثير من الأحقاد !
(قائلا) : « انه يريد أن يقتلعنى من أخلاقى ! انه يريد أن يجعل منى تلميذا وتابعا له ! »
فلو لم يكن الخلق السىء قد أصبح راسخا ، فكيف كان بيت النار يشتعل من (مجرد) خلاف !
٣٤٧٠ وقد يسعى (هذا) الى مداراة المخالف ، ويجعل لنفسه مكانة في قلب من خالفه !
ذلك لأن الخلق السىء قد أصبح متمكنا منه ، وصارت نملة الشهوة — بتحكم العادة — مثل الثعبان !
فاقتل — من البداية — ثعبان الشهوة ، والا ، فهاك ثعبانك ، وقد أصبح تنينا !
لكن كل انسان يرى ثعبان نفسه نملة ! فالتمس عند صاحب قلب تفسيرا لحال نفسك !
فما لم يصبح النحاس ذهبا فلن يعرف أنه (كان) نحاسا ! وما لم يغد القلب ملكا فلن يعرف أنه (كان) مفلسا !

٣٤٧٥ فاجعل نفسك النحاسية خادمة للاكسير ، واحتمل الجور – أيها القلب – ممن تملكك .

فمن مالك القلب ؟ ان أهل القلوب (هم مالكوه) فاعلم ذلك جيدا ، وان هؤلاء ليهربون من الدنيا ، كالنهار والليل !

ولا يكن منك ذم لمن كان لله عبدا ! ولا تتهم الملك بأنه أحد اللصوص !

كرامات ذلك الدرويش الذي اتهم بالسرقة في احدى السفن

كان درويش في احدى السفن ، وقد اتخذ لنفسه من بضاعة الرجولة ظهيرا .

وضاعت صرة من الذهب ، وكان نائما ، ففتشوا الجميع ، وهو أيضا ووجه بذلك[1] .

٣٤٨٠ (اذ قالوا) : « فلنفتش أيضا هذا الفقير النائم » ، فأيقظه صاحب المال (المتاع) بالحزن .

(قائلا) : « لقد فقدت في هذه السفينة صرة (من الذهب) ، وقد فتشنا الجميع ، ولا خلاص لك من ذلك !

فاخلع دلقك وتعرّ منه ، حتى تبرأ من ظن السوء بك أوهام الخلق !

فقال (الدرويش) : « يا رب ، ان هؤلاء الأخساء قد اتهموا غلامك ، فأنفذ ارادتك ! »

---

(1) حرفيا : « وهو أيضا ظهر له ذلك » .

وحينما تملك الألم قلب الدرويش من جراء ذلك ، ظهرت برؤوسها
ــ على الفور ــ في كل ناحية

٣٤٨٥ آلافٌ الأسماك من البحر الخضم ، وفي فم كل منها درة عظيمة !

فهاتيك الألوف من أسماك البحر العميق ، كانت كل منها تحمل بفمها درة ، وأية درة !

لقد كانت كل درة تعدل خراج مملكة ، وان هذا (العطاء) من الله ، لا صلة له بسواه !

فنثر في السفينة درّا كثيرا ، ثم قفز ، واتخذ الهواء كرسيا ، وجلس !

وتربع سعيدا فوقه كأنه ملك فوق عرشه ! لقد كان في أوج رفيع، والسفينة أمامه !

٣٤٩٠ وقال : « اذهبوا ، فالسفينة لكم ، والله لى ! فلا ينبغى أن يكون في صحبتكم لص متسول !

(ولننظر) لمن تكون الخسارة في هذا الفراق ! انى سعيد لاتصالى بالحق ، وانفرادى عن الناس !

فهو لن يرمينى بتهمة السرقة ، ولا هو يسلم قيادي الى نمام ! »

فهتف أهل السفينة قائلين : « أيها الهمام ! كيف أعطيت هذا المقام العالى ؟ »

فقال : « كان ذلك بسبب القائكم التهمة على الفقير ، واغضابكم الحق من أجل شيء حقير !

٣٤٩٥ حاش لله . بل ذلك كان لتعظيم الملوك (الروحيين) ، فانى لم أكن سيء الظن بالفقراء ،

هؤلاء الفقراء ذوى اللطف والأنفاس الطيبة ، الذين نزلت في تعظيمهم (سورة) عبس » .

ان التصوف ليس من أجل (اجتناب) تعقيد (الحياة) ، بل التصوف لأنه ليس من موجود حق سوى الله !

فكيف أتهم من جعلهم الحق أمناء على خزائن السماء السابعة ؟

ان التهمة توجه الى النفس ، لا الى العقل الشريف ! المتهم هو الحس ، وليس النور اللطيف !

٣٥٠٠ النفس سوفسطائية فاضربها ، فالضرب هو الذى ينفعها ، لا الجدل والحجاج !

فهى ترى معجزة فيشتعل (بها الوجد) حينذاك ، ثم تعود فتقول:

« ان ذلك لم يكن سوى خيال !

ولو أن هذه الرؤية العجب كانت حقيقة للبثت أمام العين صباح مساء ! »

وهذه تكون مقيمة أمام أعين الطاهرين ، وليست تكون قط قرينة لعين الحيوان[١] .

فان هذه المعجزة تحتقر هذا الحس وتزدريه . وكيف يكون مقر الطاووس حفرة ضيقة ؟

٣٥٠٥ (وهأنذا أسكت) حتى لا تنعتنى بالاسراف في القول . وأنا لا أقول الا لمحة[٢] (مما ينبغى قوله) ، فكأنما هى همسة[٣] !

---

(١) العين الحسية . (٢) حرفيا : « وانا لا اقول الا واحدا بالمائة .. » .
(٣) حرفيا : « فكأنما هذه شعرة » .

كيف ذم الصوفية ـ امام الشيخ ـ

ذلك الرفيق الذى كان يكثر من الكلام

ندد بعض الصوفية بواحد من رفقائهم ، وتوجهوا الى شيخ الزاوية ،

وقالوا للشيخ : « اطلب الانصاف لأرواحنا من ذلك الصوفى ، أيها المرشد ! »

فقال الشيخ : « وما هى الشكوى ، أيها الصوفية » . فقالوا : « ان لهذا الصوفى ثلاث صفات ثقال :

انه في الكلام متتابع النطق مثل الجرس ، وفي الأكل يأكل أكثر مما يأكله عشرون رجلا ،

٣٥١٠ واذا نام فهو مثل أصحاب الكهف ! » ، فهكذا احتشد الصوفية عند الشيخ .

فوجه الشيخ وجهه نحو هذا الدرويش ، (وقال) : « خذ من كل حال وسطه !

لقد جاء في الخبر أن خير الأمور أوساطها . والأخلاط تكون نافعة باعتدالها .

فلو عرض ما يزيد واحدا من هذه الأخلاط ، ظهر المرض في جسم الانسان .

ولا تزد عن قرينك في احدى صفاتك ، فان هذا يأتى بالفراق يقينا في عاقبة الأمر .

٣٥١٥ لقد كان نطق موسى متزنا ، لكنه ـ مع ذلك ـ جاء أكثر من نطق رفيقه الطيب .

فهذا الاكثار مع الخضر جاء بالشقاق ، فقال (لموسى) : « اذهب فانك مكثر ! هذا فراق بيني وبينك !

يا موسى ! ان تكثر من الكلام ، فابتعد عنيّ ! والا فكن معي كمن لا ينطق ولا يرى !

وان أنت لم تذهب بل أقمت على الرغم مني ، فأنت (من جهة المعنى قد ذهبت ، وانقطعت عني ! »

انك حين تنقض وضوءك في الصلاة ، تأمرك (الصلاة) بأن تسارع الى الوضوء .

٣٥٢٠ فان أنت لم تذهب أصبحت متحركا بدون جدوى . لقد ذهبت صلاتك ، فاجلس أيها الغوى !

ولتذهب الى هؤلاء الذين هم قرناؤك ، فهؤلاء هم المتعشقون لقولك ، الظامئون اليه .

ان الحارس لأكثر فضلا من النيام ، وأسماك (بحر الروح) لا حاجة بها الى حارس .

والذين يرتدون الثياب يتطلعون الى الغاسل ، وأما الروح العارى فله رونق بالتجلى .

فابتعد عن جانب هؤلاء العراة ، أو كن مثلهم متحررا من رداء البدن !

٣٥٢٥ وان لم تستطع أن تتعرى على الوجه الأكمل ، فأقلل من الثياب حتى تسلك السبيل الأوسط .

لقد ذكر هذا الفقير عذره للشيخ ، وجعل هذا العذر قرينا لذلك الملام .

وأجاب على أسئلة الشيخ باجابات لطيفة صائبة ، كاجابات الخضر ، تلك الاجابات التى رد بها على سؤالات الكليم ، فباح بها لموسى ، وهى من لدن رب عليم .

فحل له مشكلاته ، وأعطاه ـ فوق ذلك ـ مفتاحا لحل جميع المشكلات !

٣٥٣٠ ولقد كان لهذا الدرويش أيضا ميراث من الخضر ، فأطلق همته فى جواب الشيخ .

وقال : « برغم أن الطريق الأوسط هو الحكمة ، لكن الوسط أيضا أمر نسبى » .

فماء النهر يكون (عمقه) قليلا بالنسبة للجمل ، لكنه يكون بالقياس الى الفأر مثل اليم .

وكل من كان له اشتهاء لأربعة أرغفة ، ثم أكل اثنين أو ثلاثة ، فذلك يكون من التوسط .

فان أكل الأربعة كان بعيدا عن حد الوسط ، فهو أسير للحرص مثل البط .

٣٥٣٥ وكل من كان اشتهاؤه لعشرة أرغفة ، ثم أكل ستة فاعلم أنه قد سلك سبيلا وسطا .

وحينما يكون اشتهائي خمسين رغيفا ، واشتهاؤك ستة ، فلسنا متكافئين (فى القوة) .

فربما يعييك أنت أداء عشر ركعات ، على حين لا يضنيني أداء خمسمائة ركعة !

وهذا يسير الى الكعبة حافى القدمين ، على حين أن سواه يعييه الذهاب الى المسجد !

وهذا يهب الروح بسخاء ، وسواه كاد الجود برغيف يزهق روحه !

٣٥٤٠ ان الوسط يقترن بكل ما كان متناهيا ، فهذا يكون له أول وآخر .

فالبداية والنهاية ضروريتان حتى يمكن أن يتصور الوسط فيما بينهما .

وغير المتناهي ـ وهو ما لا يكون له طرفان ـ كيف يمكن أن يحدد له وسط ؟

فلا أحد يعرف له بداية أو نهاية . « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى[1] » .

ولو صارت البحار السبعة كلها مدادا ، فليس هناك قط توقع لنفادها !

٣٥٤٥ ولو صارت البساتين والغابات كلها أقلاما (تسجل) فلن تتناقص قط تلك الكلمات !

فالحبر والأقلام مآلها جميعا الى النفاد ، وتبقى هذه الكلمات التى لا يحصيها عدّ !

ان حالتى قد تشبه النوم أحيانا ، لكن الضال يحسبها نوما .

فاعلم أن عينى نائمة وقلبى يقظان ! اعلم أننى دائب العمل وان ظهرت لك (وكأننى) بدون عمل !

---

(١) الكهف ، ١٨ : ١٠٩ .

ولقد قال الرسول : « ان عيني تنامان ولا ينام قلبي[1] » .

٣٥٥٠ فعيناك يقظتان ولكن قلبك غارق في النوم . أما أنا فعيناى غافيتان، وقلبي (مترقب) فتح الباب !

ان قلبي له خمس حواس أخرى ، والعالمان كلاهما مشهد لحواس القلب !

فلا تنظر الى من خلال ضعفك ، فما كان بالنسبة اليك ليلا ، فهو ذاته بالنسبة لي مثل الضحى !

انه بالنسبة اليك سجن ، وهذا السجن هو بالنسبة الىّ مثل البستان . ولقد صار انشغالك ذاته عندي فراغا !

وقدماك في الوحل ، أما أنا فقد صار الطين عندي وردا ! وأنت في مأتم ، وأنا في فرحة وطبول !

٣٥٥٥ وأنا أسكن الأرض معك في مكان واحد ، لكنني أنطلق (دونك) الى السماء السابعة ، مثل زحل .

ولست (في الحقيقة) جليسك ، بل ذلك ظلي ! وان منزلتي لأسمى من أن تبلغها الأفكار !

ذلك لأنني قد تجاوزت الأفكار ، وأصبحت منطلقا خارج نطاقها !

ولقد أصبحت حاكما على الأفكار ، لا محكوما بها ، ذلك لأن الباني يكون هو المتحكم في البناء !

أما جملة الخلق فهم مسخرون للفكر ، ولهذا فانهم عليلو القلوب محترفون للأحزان .

---

(١) المنهج القوى ، جـ ٢ ، ٦٥٢ .

٣٥٦٠ واني لأسلم نفسي ــ عن قصد ــ للأفكار ، لكنني أقفز من بينها، حينما أريد .
انني طائر القمم ، وليس الفكر الا بعوضة ! فكيف يكون للبعوضة سلطان عليّ ؟
وربما أنزل ــ عن قصد ــ من الأوج الرفيع ، حتى يلتف حولي من تحطمت سيقانهم .
وحينما يعتريني الملال من سفلي الصفات ، أحلق كما تفعل الطيور الصافات[1] !
وان جناحيّ قد نبتا أيضا من ذاتي ، فأنا لا ألصق حولي جناحين بالغراء .
٣٥٦٥ فهكذا كان لجعفر الطيار جناحان محلقان ! أما جعفر العيار فكان له جناحان كاذبان !
فهذا (القول) ــ عند من لم يتذوقه ــ ليس الا دعوى ، لكنه ــ عند سكان السماء ــ معنى !
ان هذا يكون هراء ودعوى في نظر الغراب ، فالوعاء الخاوي أو الممتلىء يكونان سواء أمام الذباب .
فما دامت اللقم تتحول فيك الى جوهر ، فلا تنكمش ، وكل على قدر طاقتك .
ان شيخا أراد ذات يوم أن يدفع سوء الظن ، فتقيأ في وعاء ،فامتلأ الوعاء بالدر .

(١) انظر : سورة الملك ، ٦٧ : ١٩ .

٣٥٧٠ فالشيخ البصير قد جعل الجوهر المعقول محسوسا ، لكى (يفهم المعترض) القليل العقل .
واذا ما أصبح الطعام النقى ملوثا في معدتك ، فضع قفلا على حلقك ثم خبىء المفتاح .
أما كل من تحولت فيه اللقم الى نور جليل ، فليأكل ما أراد ، فهذا له حلال !

بيان تلك الدعوى التى تكون ذاتها دليل صدقها

لئن كنت صفيا لروحى ، فان قولى الحافل بالمعنى ليس من قبيل الدعوى .
فلو قلت لك في منتصف الليل : « انى أمامك ، فلا تخف من الليل . انى قريبك » ،
٣٥٧٥ لكان لكل دعوى من هاتين معنى عندك ، ما دمت تعرف صوت قريبك .
فكل من المواجهة والقربى كانت دعوى ، لكن كلا منهما كان لها معناها في الفهم الحسن .
وقرب الصوت يقوم شاهدا على أن هذا الكلام ينطلق من صديق مجاور لك .
ولذة صوت القربى أيضاً جاءت شاهداً على صدق ذلك القريب العزيز .

أما الأحمق المجرد من الالهام ، ذاك الذي ــ من جراء جهله ــ لا يعرف صوت الغريب من القريب ،

٣٥٨٠ تكون الدعوى عنده مقصورة على قول القائل ، ولهذا فان جهله صار مصدر انكاره .

أما بالنسبة للذكي ــ الذى أشرقت في باطنه الأنوار ــ فان هذا الصوت ذاته يكون معنى مستقيماً .

وكذلك لو تكلم بالعربية رجل عربي اللسان ، (قائلا) : « انني أعرف لغة العرب » ،

فان نطقه العربى ذاته يكون معنى ، مع أن (قوله) انه يعرف العربية يكون (من قبيل) الدعوى .

أو كتب كاتب فوق ورقة : «انني كاتب، قارىء، من أهل الفضل»،

٣٥٨٥ فان هذه الكتابة ــ وان كانت في ذاتها دعوى ــ تكون أيضاً شاهداً على المعنى .

أو يقول صوفى : « انك قد رأيت بالأمس رجلا يحمل سجادة فوق كتفه ،

ولقد كنت أنا هذا الرجل ، فما حدثتك به فى حلمك ، وأنت نائم ، من شرح للنظر ،

أصغ اليه ، واجعله قرطاً فى أذنك ، واتخذ كلماتى تلك مرشدا لعقلك ! » ،

فأنت ــ حين تستعيد ذكر هذا المنام ــ يكون هذا الكلام ــ بالنسبة اليك ــ معجزة جديدة ، وذهباً قديماً !

٣٥٩٠ ومع أن هذا يبدو وكأنه دعوى (من القائل) ، لكن روح صاحب

الواقعة[1] تؤكد ثبوتها .

فالحكمة اذ كانت ضالة المؤمن ، فانه يوقن بها حين يسمعها من أي انسان !

وهو ــ حينما يجد نفسه وحده فى مواجهتها ــ كيف يتطرق اليه الشك ؟ وكيف يخطيء نفسه ؟

انك حين تقول لظمآن : « سارع ، فان في القدح ماء ، ولتبادر بأخذه » ،

فهل يمكن أن يقول لك الظمآن : « هذا (مجرد) دعوى ! فابتعد عنى ــ أيها المدعى ــ وفارقنى !

٣٥٩٥ أو قدّم لى شاهداً وحجة على أن هذا من جنس الماء ، وأنه من ذلك الماء المعين ! »

وهب أن أماً قالت لطفلها الرضيع : « هلم الىّ ، اننى والدتك هيا أيها الولد ! » ،

فهل يقــول الطفل : « أيتها الأم ، قدمى الحجة حتى أطمئن الى حليبك ؟ »

فكل أمّة في قلبها مذاق من الحق ، يكــون وجه النبى وصوته هما المعجزة !

فحينما ينــادى النبىّ بدعوته في الظاهر ، تسجد أرواح الأمة في الباطن .

٣٦٠٠ ذلك لأن أذن الروح لا تكون قد سمعت جنس قوله من انسان آخر ، في هذه الدنيا .

---

(١) الرجل الذى رأى الحلم .

فهذه الغريبة ــ بتذوقها صوت الغريب ــ تسمع من كلام الحق قوله : « انى قريب[1] » .

كيف سجد يحيى ــ عليه السلام ــ في بطن امه للمسيح عليه السلام

قالت أم يحيى ــ وهى لا تزال حاملا به ــ لمريم ، في الخفاء :
« انى أرى بعين اليقين مليكا في بطنك ، يكون من أولى العزم ، ورسولا نبيا .
فأنا ــ حينما أصبحت قريبة منك ــ سارع الجنين في بطنى الى السجود .
٣٦٠٥ ان هذا الجنين قد سجد لذلك الجنين ، فوقع الألم في جسدى من جراء سجوده ! »
فقالت مريم : « اننى قد أحسست أيضا بسجود هذا الجنين ، في بطنى » .

اثارة اشكال حول هذه القصة

ان أهل الغفلة يقولون : « هذه خرافة ، فاضرب عنها صفحا ، فانها كذب وخطأ .
فمريم ــ أثناء حملها ــ لم تتصل بانسان قط . وهى لم ترجع قط من خارج المدينة .

(١) انظر : سورة البقرة ، ٢ : ١٨٦ .

فهذه المرأة الحلوة المنطق لم تدخل المدينة قبل أن تضع حملها .
٣٦١٠ فلما ولدته حملته على صدرها وأتت به قومها .
فأين أبصرتها أم يحيى لتتحدث اليها بتلك الكلمات عما جرى ؟ »

جواب الاشكال

فليعلم (المعترض) أن ما هو غائب في الآفاق ، يكون حاضرا لأهل الخاطر !

فأم يحيى تجيء في نظر مريم ، برغم أنها تكون بعيدة عن مرأى بصرها ،

فالمرء يستطيع أن يرى الحبيب ، وعيناه مغمضتان ، وذلك اذا ما استطاع أن يكف جسده[1] عن الحركة .

٣٦١٥ فان لم ير الحبيب رؤية الظاهر ولا رؤية الباطن ، فاقتبس من هذه الحكاية معناها ، أيها الضعيف !

(ولا تكن) كمن سمع بعض الأقاصيص ، فتمسك بحرفيتها تمسك « الشين » بلفظة « نقش » .

(قائلا) : « كيف تكلم كليلة هذا بدون لسان ؟ وكيف استمع الى كلام من دمنة ، وقد كان ذلك عاجزا عن البيان ؟

وهب أن كلا منهما كان يفهم لحن الآخر ، فكيف استطاع البشر أن يفهموا هذا ، وهو ليس بنطق !

وكيف استطاع دمنة أن يكون رسولا بين الأسد والثور ، ويسمع كلا منهما بيانه ؟

---

(١) حرفيا : جلده . ومعنى كف الجسد عن الحركة : ان يهدأ الانسان ، ويخلد الى التأمل .

٣٦٢٠ وكيف صار ذلك الثور النبيل وزيرا للأسد ؟ وكيف صار الفيل وجلا من خيال القمر ؟
ان كليلة ودمنة هـــذا كله افتراء ، والا فكيف وقع الجدال بـــين الغراب واللقلق ؟
يا أخي ! ان القصة مثل المكيـــال ، والمعنى فيها مثـــل الحب في المكيال .
فالرجل العاقل يأخذ حصاد المعنى ، ولا ينظر الى المكيال ، وان كان (وسيلة) النقل .
فاستمع الى ما يدور بين البلبل والوردة ، مع أنه ليس هناك كلام صريح !

قول الكلام بلسان الحال ، وفهم ذلـــك الكـــلام

٣٦٢٥ استمع أيضا لما يدور بين الشمعة والفراشة ، واقتبس[1] معناه ، أيها المليح .
فمع أنه ليس هناك قول مسموع ، فهناك سر القول ، فتنبه وحلق نحو القمم ، ولا تتهاو كالبومة في طيرانك !
لقد قال لاعب الشطرنج : « هذا بيت الرخ » ، فأجابه (المتمسك بالحرفية) : « ومن أين له هذا البيت ، وكيف امتلكه ؟ »
هل اشترى هذا البيت أم حصل عليه بالارث ؟ » فما أسعد ذلك الرجل الذى يسارع الى المعنى !

(١) حرفيا : « واختر ... » .

لقـد قال النحوى : « ضرب زيد عمرا » ، فقـال (الأحمق) : « ولماذا أدبه بدون جرم ؟

٣٦٣٠ مـاذا كان جرم عمرو ؟ ان زيدا الفظ قد ضربه ـ بدون جرم ـ كما يضرب الغلام » .

فأجابه (النحوى) : « ان هذا (الكلام) مكيال للمعنى ؛ فخذ من المكيال ما به من قمح ، ورد المكيال !

ان زيدا وعمرا (هنا) وسيلة لتعلم الاعراب ، ومهما يكن هـذا (القول) كذبا ، فاتخذه وسيلة الى الاعراب » .

فقال (الأحمق) : « لا ! انني لست أعرف كيف ضرب زيد عمرا بدون ذنب ولا خطأ ! »

فانصرف النحوى الى اللهو ـ بعد أن يئس ـ وقال : « ان عمرا كان قد سرق واوا زائدة ،

٣٦٣٥ وعلم زيد بذلك ، فضرب السارق ! فما دام هذا قد تجاوز الحد ، فقد حق عليه الحد ! »

كيف يلقى كلام الباطل قبولا في قلـوب أهل الباطل

فقال (الأحمق) : « هـذا هو الصواب ، وقد تقبلته بروحي ! »

ان المعوج يظهر مستقيما في نظر المعوجين !

فلو أنك قلت لأحول ان القمر واحـد ، لقال لك : « بل هنـاك قمران ، فالشك يحيط بتفرد القمر !

ولو أراد شخص أن يسخر منه لقال له : ان هناك قمرين ، فيصدقه (الأحمق) ، فهذا لائق بطبيعته الخسيسة !

ان الكذب يتجمع حول أهل الكذب ، وقوله تعالى : « الخبيثات للخبيثين[1] » يلقى ضوءا على ذلك .

٣٦٤٠ وأصحاب القلوب الرحبة لهم أياد رحبة[2] ، أما من عميت عيونهم فليس لهم الا العثار فوق الصخور .

البحث عن تلك الشجرة التى لا يذوق الموت كل من أكل من ثمارها

قال عالم على سبيل الحكاية : « ان في بلاد الهند شجرة ،
كل من أكل من ثمارها أو حملها ، لا يشيخ ولا يتطرق اليه الموت ! »
وسمع بهذا أحد الملوك من رجل صادق ، فأصبح عاشقا للشجرة وثمارها !
فأرسل في طلبها رسولا عالما من ديوان الأدب الى بلاد الهند .
٣٦٤٥ ودار رسول الملك هذا حول بلاد الهند سنين ، (قضاها) في البحث والطلب .
لقد طوف من مدينة لأخرى بحثا عن هذا المطلوب ، ولم يدع جزيرة ولا جبلا ولا صحراء !
وكلما سأل انسانا سخر منه قائلا : « من ذا الذى يبحث عن هذه سوى مجنون مكبل بالقيود ؟ »
وكان كثير من الناس يصفعونه ساخرين ! وكثيرون قالوا له : « يا صاحب الفلاح !

(١) انظر : سورة النور ، ٢٤ : ٢٦ .
(٢) يقصد « بالأيادي الرحبة » هنا القدرات الواسعة .

أرجل ذكي صافي الفؤاد مثلك يكــون بحثه هكذا خاويا (مــن المعنى) جزافا ؟ »

٣٦٥٠ وهذا (اللون) من المراعاة[1] كان صفعا آخر ، بل انه لأشد من الصفع الصريح !

لقد كانوا يمدحونه ــ بسخرية ــ قائلين : أيها العظيم ! في مكان كذا توجد شجرة شامخة غليظة !

بل عينوا غابــة ذكروا أن بهــا شجرة خضراء ، عظيمــة الطول والعرض ، غليظة الأغصان !

ان رسول الملك ــ الذي كان ينقب بجد بالغ[2] ــ أخذ يستمع من كل شخص الى لون من الخبر .

ولقــد قضى سنين في السياحة هنــاك ، وكــان الملك يبعث اليه بالأموال .

٣٦٥٥ ولما ازداد عناؤه في تلك الغربة ، عجز في آخر الأمر عــن ادراك الطلب .

فلم يظهر قط أى أثر لمقصوده ! ولم ينكشف من هذا المطلب شيء سوى الخبر !

فانقطع بذلك خيط أملــه ، وأصبح ملتَمسَه ولا سبيــل الــى التماسه ، في عاقبة الأمر .

فعزم على العودة الى الملك ، ومضى ينثر الدموع ، وهو مندفع على الطريق .

---

(١) الأدب المفتعل .
(٢) حرفيا : « ان رسول الملك الذى كان عقد زناره للبحث . . . »

كيف شرح الشيخ سر هذه الشجرة
للطـالب المقلـد

وكان هناك شيخ عالم وقطب كريم ، في ذلك المنزل (من الطريق) حيث يئس نديم الملك .

٣٦٦٠ (فحدث نفسه) قائلا : « انني يائس فلأذهب اليـه ، ثم أنطلق من عتبته الى الطريق ،

حتى يكون دعاؤه رفيقا لى عـلى الطريق ، ما دمتُ قد أصبحت يائسا من مطلوبى » .

وتقدم نحو الشيخ بعين مليئـة بالدمع . لقد كـان يمطر الدموع كالسحاب .

وقال : « أيها الشيخ ! هذا وقت الرحمة والرقة ! انني يائس وهذه الساعة هي أوان اللطف ! »

فقال له : « فخبرنى ، من أى أمر قنوطك ؟ وما هو مطلوبك ؟ والى أى شيء وجهتك ؟ »

٣٦٦٥ فقال : « لقد اختارنى الملك ، لأبحث عن شجرة وارفة الأفنان .

انها شجرة نادرة في كل الجهات ، فاكهتها هى سر ماء الحياة !

ولقد بحثت عنها سنين فلم أجد لها أثرا ، (ولم أظفر) الا باستهزاء العابثين وسخرهم ! »

فضحك الشيخ ، وقال : « يـا سليم القلب ! ان هذه هى شجرة العلم (المنطوية) في العليم !

انها سامقة عظيمـة منبسطة وارفة ! انها ماء الحيـاة مـن البحر المحيط !

ولقد قصدت اليها بالصورة ، فضللت السبيـــل ! انك لم تجدها لأنك تركت المعنى !

وهى حينا تدعى « شجرة » ، وحينا « شمسا » ، وحينا « بحرا » ، وحينا « سحابا » !

انها واحـــدة[1] انبعثت منها آلاف الآثار ! ان أقل آثارها حيـــاة الخلود !

وان لها ألف أثر ، مع أنها واحدة ! انها واحدة جديرة بما لا يحصى من الأسماء !

فهذا شخص واحد يكـــون لك أبا ، وهو بالنسبة لشخص آخر يكون ابنا .

وهو ــ بالقيـــاس الى شخص ثالث ــ قاهر وعدو ، وبالقياس الى سواه لطيف طيب !

فهذا الآدمى الواحد تكـــون له آلاف الأسماء ، والمدرك لكـــل أوصافه يكون عاجزا عن وصفه !

فكل من طلب الاسم ــ وان كان من الثقات ــ أصبح مثلك يائسا مشتت (الفكر) .

فلماذا تشبثت أنت باسم هذه الشجرة ، حتى بقيت مرّ الأمانى ، تعس الطالع !

دعك من الاسم وانظر الى الصفات ، حتى تهديـــك الصفات الى سبيل الذات !

---

(١) شجرة العلم .

٣٦٨٠ ان اختلاف الخلق يقع مـن جراء الأسماء ، فاذا ما تقدموا نحو المعنى ساد الوئام .

كيف تنازع اربعة اشخاص حول العنب
لان كلا منهم كان يعرفه باسـم
مختلف عما يعرفـه الآخـر

أعطى رجل درهما لأربعة أشخاص ، فقال أحدهم (وكان فارسيا) : « سأشترى بهذا انكور[١] » .

فقال ثانيهم ، وكـان عربيا : « انى أريـد عنبا ، لا أنكور ، أيها الخبيث » .

فقـال ثالثهم ، وكـان تركيا : « أنا لا أريـد عنبا ، بل أريـد (اوزوم[٢]) » .

فقال رابعهم ، وكان روميا : « دعونا من هذا القول ، فنحن نريد (استافيل[٣]) » .

٣٦٨٥ وأدى التنازع بين هؤلاء الى العراك ، ذلك لأنهم كانـوا غافلين عن سر الأسماء !

وأخذ هؤلاء ـ مـن جراء حماقتهم ـ يتلاكمون ، فقد كانـوا مفعمين بالجهل ، خاوين من المعرفة .

فلو كان هناك رجل متعدد اللغات ـ من أصحاب السر الأعزاء ـ لأقر بينهم الصلح !

---

(١) « انكور » كلمة فارسية ، معناها « عنب » (٢) اسم العنب بالتركية .
(٣) اسم العنب باليونانية .

ولكان قال لهـــم : « سوف أحقق رغائبكم جميعا بهـــذا الدرهم الواحد !

فانكم لو أسلمتم الى قلوبكم ، مجردة من الحقد ، لصنع درهمكم الكثير من أجلكم .

٣٦٩٠ ولأصبح درهمكم الواحد (منفّذا) لأربع رغاب ! ولصار أربعة أعداء ــ بالاتحاد ــ رجلا واحدا !

ان قول كل واحد منكم يجر الى الخصومة والفراق ! وقولي أنا يقر بينكم الوفاق !

فاسكتوا أنتم وكونوا منصتين ، حتى أكون أنا لسانكم في القول والكلام ! »

فمع أن كـــلامكـــم قد يكـــون وثيق التوافـــق ، فـــان أثـــره يكون جرثومة النزاع والفرقة !

ان الحرارة المستعـــارة لا تولد أثرا ، أما الحرارة الطبيعيـــة فلها الفضل (الحقيقي) .

٣٦٩٥ فلو أنك أدفأت الخل بالنار ، فأنت حين تشربه تزداد ــ بدون شك ــ احساسا ببرودته .

ذلك لأن حرارته تلك ظاهرية (مفتعلة) ، وطبيعـــة أصله البرودة والحدة .

ولو كان الدبس مثلجا ــ يا بني ــ فانك حين تشربه يزيد الحرارة في كبدك .

وعلى هذا ، يكون رياء الشيخ خيرا من اخلاصنا ، لأنه يكون عن بصيرة ، على حين أن اخلاصنا لا بصيرة فيه !

ان حديث الشيخ يؤدى الى الوفاق ، وحديث أهـل الحسد يثير الشقاق .

٣٧٠٠ كمثل سليمان الذى انطلق (برسالته) من جانب الحق ـ وكان يعرف منطق الطير كافة ـ

ففى زمان عدله أنس الغزال الى النمر ، وانصرفا عن الصراع !

وأصبحت الحمامة آمنة مـن مخالب الباز ! ولم يكن للحمل من الذئب احتراز !

لقد أصبح سليمان وسيطا بين المتعادين ، وساد الوفاق بين الطير كافة .

وها أنت ذا كالنملة ، تجرى وراء حبة . أفق ، وابحث عن سليمان ! لماذا تبقى غويا ؟

٣٧٠٥ ان طالب الحبة ، تكـون الحبة له شركا ، وأما طالب سليمـان فيظفر بكليهما (سليمان ، والحبة) !

وأطيار النفوس ـ في هذا الزمن الأخير ـ لا يأمن أى منها سواه لحظة واحدة !

ولزماننا هذا أيضا سليمان ، وهو الذى يقر الوئام ، فلا يبقى لدينا جور !

فاذكر قوله تعالى : « وان من أمة الا خلا فيها نذير[1] » .

(ومعنى ذلك) أنه قال : « ان أمتى لا تكـون خالية من خليفة حق ، وصاحب همة » .

---

(١) فاطر ، ٣٥ : ٢٤ .

٣٧١٠ فهو الذى يجعل طيور الأرواح وكأنها قلب واحد ! هو الذى يجعلها ـ بصفائها ـ متحررة من الغش والأحقاد !

فتصبح ذات شفقة كأنها والدة ! ولقد قال (الرسول) : « المؤمنون كنفس واحدة » .

لقد صاروا نفسا واحدة (بفضل) الرسول الحق ، والا ، فان كلا منهم كان عدوا مطلقا لسواه .

ارتفاع الخلاف والعداوة من بين الأنصار ببركات الرسول ، صلى الله عليه وسلم

القبيلتان اللتان عرفتا باسم الأوس والخزرج ، كانت كل منهما متعطشة لدماء الأخرى .

وبفضل المصطفى تلاشت أحقادهم القديمة ، في نور الاسلام والصفاء .

٣٧١٥ ففى البداية أصبح هؤلاء الأعداء اخوانا ، مثل حبات العنب في البستان .

وبنصحه اياهم (بقوله تعالى) : « انما المؤمنون اخوة » ؛ تكسرت (هذه الوحدات المنفصلة) فأصبحوا جسدا واحدا .

ان الاخوان شبيهون بصورة حبات العنب ، وهذه حين تعتصر ، تصبح رحيقا واحدا .

وهناك تضاد بين العنب الناضج والعنب الفج ، فاذا ما نضج العنب الفج صار رفيقا طيبا .

أما العنب الذى يبقى صلبا كالحجارة فجا ، فان الحق هو الذى سماه كافرا أصيلا ، منذ الأزل .

٣٧٢٠ فهذا ليس بأخ ، ولا هو ضمن نطاق النفس الواحدة . انه يكون في شقاوته تعسا ملحدا .

فلو أننى تحدثت عما يضمره في الخفـاء ، لثارت في الدنيا فتنـة للأفهام .

فمن الأفضل ألا يذكر سر ذلك الكافر الأعمى ! فخير لنا ان يكون دخان الجحيم بعيدا عن ارم[١] .

ان الأعناب الفجة الطيبة هى تلك التى تكـون قابلة (للنضج) ، فهذه هى التى تغدو ــ في عاقبة الأمر ــ قلبا واحدا ، بأنفـاس أهل القلوب !

انها تندفع مسرعة نحو طبيعة الأعناب الناضجة ، حتى تزول الثنائية والحقد والصراع .

٣٧٢٥ ثم هى في حـال النضج تمزق جلودها ، حتى تتحد ، وتصـير الوحدة صفة لها .

ان الصديق يصبح عدوا طالما كان ثنائيا . وليس هناك واحد قط يكون في حرب مع ذاته .

فتبارك عشق ذلك الأستاذ الكلى[٢] ، الذى وحد مئات الألوف من الذرات !

---

(١) ارم مدينة عاد ، وكانت ذات فخامة اسطورية . وقد استعيرت هنا رمزا للجنـة .

(٢) فضلنا رواية « كلي اوستاد » على « كل اوستاد » .

انها كـانت مبعثرة كالتراب فوق الطريـق ، فجعلتها يد الخزاف ابريقا واحدا !

(ومع ذلك) فاتحاد الأجسام المفطورة مـن الماء والطين يكـون ناقصا ، فليس اتحاد الأرواح شبيها بذلك .

٣٧٣٠ ولو أنني ذكرت هنا نظائر على سبيل المثال ، لخشيت أن تدفـع الفهم الى الاختلال .

فهنا الآن سليمان ، لكننا نحن في عمى من افراطنا في بعد النظر !

فالنظر الى البعيد يصيب الانسان بالعمى ، كما يكـون النائم في القصر أعمى عن القصر .

اننا مولعون بدقيق الكلام ، متعشقون لحل المشكلات ،

الى حد أننا نعقد الأمور ثم نعمل على حلها ، ونضع الكثير مـن القواعد للمشكلات وحلها !

٣٧٣٥ كطائر يحل عقد الشباك ، ثم يربطها حينا ليصبح مكتمل البراعة.

فهذا يكون محروما من الغياض والمروج ، تنقضى حياته في معالجة العقد !

وفي الحق أنـه ليس يهن أمامـه أى شرك قط ، بل ان جناحيـه يتكسران على الدوام .

فأقلل من مصارعة العقد حتى لا تتقطع قوادمك وخوافيك ، من جراء كرك وفرك .

ان مئات الألوف من الطير قد حطمت أجنحتها ، ومـع ذلك فهى لم تغلق كمين العوارض هذا !

٣٧٤٠ فاقرأ عن حالها في القرآن ، أيها الحريص ! وانظر قوله تعالى :

« فنقّبوا في البلاد هل من محيص[1] » .

ان نزاع التركي والرومي والعربي لم يحل مشكلة « الأنكور [2]» والعنب .

وما لم يتدخل سليمان اللّسن المعنوى فان هذه الثنائية لن تزول !

فيا جماعة الطير المتنازعة ! استمعوا كالبزاة لذلك الطبل الذى يقرعه للباز المليك !

فهلموا من كل جانب ، وانطلقوا من خلافاتكم سعداء نحو الاتحاد!

٣٧٤٥ حيثما كنتم فولوا وجهكم نحوه هذا الذى لم ينهكم[3]

اننا طيور عمياء ، وما أبعدنا عن النضج ، ذلك لأننا غفلنا لحظة عن معرفة سليمان !

لقد صرنا كالبوم أعداء للبزاة ، فلا غرو أننا تخلفنا وأصبحنا من سكان الخراب !

واننا من فرط ما نعانى من جهل وعمى تتعمد ايقاع الأذى بأعزاء الله .

فجماعة الطير التى استنارت بنور سليمان ، كيف تقتلع لبرىء قوادمه وخوافيه ؟

٣٧٥٠ انها لتحمل الحَبّ للعاجزين ؛ فهذه الطيور الطيبة قد برئت من الخلاف والحقد .

---

(١) انظر : سورة ق ، ٥٠ : ٣٦ .

(٢) « انكور » كلمة فارسية ، معناها « عنب » .

(٣) هذا البيت عربى في الأصل . وفيه اقتباس من القرآن الكريم . انظر : سورة البقرة ، ٢ : ١٤٤ ، ١٥٠ .

وهدد هؤلاء ـ من أجل التقديس ـ يقتحم طريــق مائة مثل بلقيس !
وأما غرابهم فهو ـ وان كان في صورة الغراب ـ باز في همته ، وما زاغ[1] (عن السبيل) !
ولقلق هؤلاء الذى يصيــح « لك ، لك » ينفث في الشك نيران التوحيد !
وحمامتهم لا خوف عندها مــن جوارح الطير ! ان البــاز ليحنى رأسه أمام تلك الحمامة !
٣٧٥٥ وبلبل هؤلاء الذى يثير الشجون ، يضم في باطنه حديقة ورد !
وأما ببغاؤهم فكانت دائما متحررة من السكّر . فقــد تجلى لها من باطنها قند الخلود !
وسيقان طواويسهم تبدو للنظر أحلى من أجنحة سائر الطواويس !
ان منطق الطيــور الملكيــة ليس الا صدى . فأين منطق طيــور سليمان ؟
فأنى لك أن تعرف منطق الطير ما دمت لم تر سليمان لحظة واحدة؟
٣٧٦٠ ان ذلك الطائر الذى يطربك نشيده قد تجــاوز جناحه المشرق والمغرب !
فكل نداء له يمتد من الكرسى الى الثرى ، وهو من الثرى حتى العرش في كر وفر !
وأما الطائر الذى يمضى في غير سبيل سليمان، فهو عاشق للظلمة ، مثل الخفاش .

---

(١) انظر : سورة النجم ، ٥٣ : ١٧ .

فاجعل نفسك أليفا لسليمان ، أيها الخفاش المرتد ، حتى لا تبقى مخلدا في الظلام .

فلو أنك خطوت ذراعا واحدة في تلك السبيل لغدوت كالذراع أساسا للقياس !

٣٧٦٥ وان قفزت نحو ذلك الجانب – وأنت أعرج متعثر الخطى – خلصت من كل عاهاتك وأمراضك !

قصة افراخ البط التى ربتها الطيور الأليفة

انك سليل البط ، مع أن طائرا أليفا أظلك بجناحه ورباك .

لقد كانت أمك من بط البحار ، وأما مربيك فكان ترابيا ، يعشق الجفاف .

فذلك الميل للبحار الكامن في قلبك ليس سوى طبيعة لروحك قبستها من أمك .

وأما ميلك للجفاف فهو من مربيك ، فدعك من هذا المربى فانه سيء الرأي !

٣٧٧٠ دع هذا المربى فوق اليبس ، وتقدم ! وخض مثل البط بحر المعانى !

ومهما حذرتك أمك من الماء ، فلا تخف ، بل انطلق مسرعا نحو البحر .

انك من جنس البط ، تعيش فوق اليبس ، وفوق الماء ، ولست كالطائر الأليف مأواك حفرة (في الثرى) .

انك مليــك (على مقتضى قوله تعالى) : « كرمنا بنى آدم[1] »
وانك لتضع قدمك فوق اليابسة وفوق البحر على السواء !
فأنت في روحك (ممن شملهم معنى قوله) : « وحملناهم فــى البحر[2] » . فتقدم الى الأمام متخليا عن الثرى .

٣٧٧٥ فليس للملائكة سبيل الى البر ، كما أن جنس الحيوان لا علم له بالبحر .
انك في الجسم حيوان ولكنــك بروحك مــن الملائكة ، وبذلك يستوى عندك السير فوق الأرض وكذلك فوق الفلك .
وهكذا يكون البصير الذى يوحى الى قلبه ــ في ظاهره ــ بشرا مثلكم .
فهيكله الترابى قد سقط على الأرض ، وأما روحه فدائرة في ذلك الفلك العلوى .
انا جميعا طيور مائية ، أيها الغــلام . وان البحر ليعلم لغتنا حق العلم !

٣٧٨٠ فالبحر جاء (بالنسبة لنا) شبيها بسليمان ، ونحن كالطير . وفي سليمان سيكون مسيرنا حتى الأبد .
فلتخض البحر بقدميك مع سليمان حتى يصنع الماء لك مائة درع شبيهة بما صنع داود .
وان سليمان هذا لماثل أمام الجميــع ، لكن الغيرة ساحرة تحجب البصر !

(١) ، (٢) في البيتين اشارة الى قوله تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر » الآية . (سورة الاسراء ، ١٧ : ٧٠) .

انه أمامنا ، ونحن في ملال منه ، وذلك مـن جراء جهلنا وغفلتنا وفضولنا !

فهزيم الرعد يصيب الظامىء بألم الرأس ما دام لا يعلم أن هذا يجر وراءه سحاب السعد .

٣٧٨٥ فتبقى عينه متطلعة الى النهر الجارى ، ولا علم لـه بمذاق ماء السماء .

لقد حث مركب همته نحو الأسباب ، فلا جرم أنه قد بقى محروما من مسبب الأسباب !

وأما ذلك الذى يرى المسبب عيانا فكيف يسلم قلبه الى الأسباب الدنيوية ؟

كيف عجب الحجاج من كرامات ذلـك الزاهد الذى وجدوه منفردا في البادية

عكف زاهد في وسط البيداء ، وكان مستغرقا في العبـادة كأهل عبادان .

ووصل الحجاج من شتى البلاد الى ذلك المكان ، ووقعت أعينهم على ذلك الزاهد الضامر .

٣٧٩٠ ان مكان الزاهد كان مقفرا مـن الماء ، لكن الزاهد كـان ندىّ المزاج ، فوقاه هذا من سموم البادية !

ولقد تحير الحجاج في أمر وحدته ، وفيما نعم به مـن سلامة بين الآفات !

لقد كان واقفا يصلى فوق الرمال ، تلك الرمال التى يجيش بحرها ماء الابريق .
وكأنما كـان ثملا وسط الخضرة والورود ، أو كأنـه قد امتطى صهوة البراق أو دلدل[١] !
وكأنما قدماه كانتا فوق الحريـر والحلل ، أو كأن ريح السموم كانت عنده ألطف من ريح الصبا !
٣٧٩٥ فوقف الحجاج ينتظرونه ، وأما هو فقد بقى واقفا في الصلاة وقد استغرق في فكر طويل !
وحينما عاد هذا الفقير من استغراقه الفكرى ، فان واحدا من تلك الجماعة ـ كان حى القلب مشرق الضمير ـ
أبصر الماء يقطر من يديه ووجهه ، كما أبصر ثيابه مبللة مـن آثار الوضوء !
فسأله : « من أين لك الماء ؟ » ، فرفع يـده مشيرا الى أنه مـن السماء .
فقال : « وهل يجيئك حين تطلبه ، بدون بئر ولا حبل من مسد ؟
٣٨٠٠ ألا فلتحل مشكلنا ، يا سلطان الدين ، فلعل حالك يلهمنا اليقين !
واكشف لنا سرا من أسرارك حتى نقطّع عن أوساطنا الزنانير[٢] ».
فتوجه الزاهد ببصره نحو السماء ، قائلا : « يا الهى ! أجب دعاء الحجاج !

---

(١) دلدل اسم بغلة كانت للرسول ، وقيل كانت للامام على بن ابى‌طالب.
(٢) « تقطيع الزنار » هنا كناية عن اعتناق الاسلام . ومعنى البيت هـو : ان هؤلاء الحجاج طلبوا من الزاهد أن يكشف لهم سرا من أسراره ليكـون هاديا لهم الى الايمان الحق .

لقد اعتدت أن ألتمس الرزق من السماء . وانك أنت الذى فتحت لى في السماء بابا !

يا من أظهرت المكان من اللامكان ، وجعلتنا نعاين (معنى قولك) : « وفي السماء رزقكم[1] » .

٣٨٠٥ وبينما هو في تلك المناجاة اذا بسحابة لطيفــة قد ظهرت مسرعة ، كفيل يحمل ماء !

وأخذت تمطر الماء وكأنما كان ينصب من أفواه القرب ! ثم استقر الماء في الحفر والكهوف !

لقد كانت السحابة تسكب الدمــوع ، كما تنصب القرب ، وأما الحجاج فانهم جميعا فتحوا قربهم .

فمن جراء تلك الفعال العجيبة أخذ جماعة منهم يمزقون زنانيرهم .

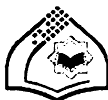
وجماعة أخرى زاد يقينها بتلك العجائب ، والله أعلم بالرشاد .

٣٨١٠ وجماعة ثالثة لم تتقبل ، فهؤلاء أهل مرارة[2] وفجاجة ، وهم في نقص سرمدى . وهنا تم الكلام .

تمت ترجمة الكتاب الثاني من المثنوي

(١) الذاريات ، ٥١ : ٢٢ .
(٢) حرفيا : « أهل حموضة ... » .

شُروح وَدِراسات



المقدمة : قدم جلال الدين للكتاب الثانى من المثنوى بمقدمة قصيرة بين فيها السبب في تأخير نظمه بعض الوقت . ومن المعروف أن الكتاب الثانى قد جاء بعد عامين من الكتاب الأول ، وقد حدد الشاعر تاريخ البدء فيه بعام ٦٦٢ هـ ، كما هو مذكور في المقدمة المنظومة . وذكر الأفلاكى أن جلال الدين قد انقطع عن النظم بعد اكمال الكتاب الأول ، لأن تلميذه حسام الدين كان قد فقد زوجته ، واستسلم الى الحزن نتيجة لذلك .

وقد اختتم جلال الدين الكتاب الأول بأبيات تشيع فيها سحابة من الحزن ، ولكنه لم يذكر بصراحة مأساة تلميذه ، على النحو الذى بينه الأفلاكى .

وها نحن أولاء نراه في مقدمة الكتاب الثانى يذكر أن الحكمة الالهية تتكشف للعبد بمقدار ، حتى يتاح له تذوقها وادراكها ، كما يذكر أن الحكمة الالهية لو كشفت للانسان بصورة متكاملة لحطمت ادراكه ، لأنه يعجز عن تلقيها دفعة واحدة . ولعله يستوحى هذه الفكرة من نزول الرسالات منجمة على الأنبياء . والعارفون ــ الذين يقولون بتلقى الهام من الخالق ــ لن يكون موقفهم في تلقى هذا الالهام أقوى من موقف الرسل . فالشاعر يقرر هنا أن اصدار الكتاب الثانى من المثنوى كان لا بد أن تسبقه فترة كافية من التأمل والتفكر .

(١) ذكر الشاعر في البيت الأول تأخره في نظم الكتاب الثانى من المثنوى ، لكنه يعتذر عن ذلك بأن الحكمة لا بد لها من آن تمكث في فكر الشاعر وقلبه فترة كافية ليستطيع تقديمها سائغة للعقول والأفهام . ان الدم يحتاج الى مهلة ليتحول الى حليب . وكذلك لا بد للحكمة أن تمكث في فكر الشاعر وقلبه فترة كافية قبل ان يستطيع أن يقدم للعقول حكمة روحية لطيفة يستخلصها من تجاربه كما يستخلص الحليب من الدم. والصورة المادية في البيت تشير الى اقتباس من آية كريمة . قال تعالى : « وان لكم في الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » .

(النحل ، ١٦ : ٦٦) .

ويصدق تصور الشاعر هذا على كل ابداع فنى . فلا بد لكل عمل فنى أصيل أن ينضج في نفس صاحبه ، قبل أن يتخذ صورته . فالعجلة والتسرع يهبطان بمستوى الأعمال الفنية . وهناك أعمال فنية عظيمة تم انجازها في أسابيع قليلة ، ومن أمثال ذلك السيمفونيات الثلاث الأخيرة لموتزارت (رقم ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١) . ولكن هذا الانجاز السريع لا ينفى أن هذا الفنان قد جاشت في نفسه هذه الأنغام فترة طويلة من الزمن ، ولم يخرجها الى الوجود الا بعد أن نضجت وتحددت معالمها الفنية المتكاملة .

(٢) ما لم ترزق الهاما جديدا ، فانك لن تستطيع أن تستنبط هذه الحكمة الروحية ، مما يحيط بك من مظاهر العالم المادى . فالالهام الروحى هو مصدر المعرفة عند الصوفية .

(٣) يرتبط نظم المثنوى عند الشاعر بتلميذه حسن حسام الدين . وكانت عودته اليه ــ بعد انقطاع ــ أحد العوامل التى حثت الشاعر على استئناف النظم . وقد عبر عن هذه العودة بأنها كانت عودة من أوج السماء . وليس في هذا البيت اشارة الى أحزان حسام الدين من جراء

فقد امرأتــه . واكتفى الشاعر هنا بأن أشار الى أن حسام الدين كــان قد انطلق الى آفاق التأمل الروحى .

(٤) انصراف حسام الدين الى التأمل ، وانقطاعه عن أستاذه بعض الوقت ، كان في نظر جلال الدين عروجا الى آفاق الحقائق . ولقد انقطع الشاعر عن نظم المثنوى ابان غيبة تلميذه . وقد شبه تلميذه بالربيع الذى اقترن به تفتح الأزاهير في رياض الشعر ، وفي غيبته لــم تكن تتفتــح البراعــم .

(٥) صورة أخرى لسعادة الشاعر بعودة تلميذه . لقد كان مستغرقا في بحر الروح ، وها هوذا يعود الى الساحل ، الى عالمنا الدنيوى ، فكانت هذه العودة مصدر بهجة روحية ، تمثلت في انطلاق المثنــوى بأنغامــه وألحانــه .

(٦) « يوم الاستفتاح » يقصد به هنا أنه يوم يلتمس فيه انفتاح باب الى العالم الروحى .

(٧) استخدم الشاعر كلمة « التجارة » هنا لتدل على معنى روحى . وهو استعمال مستوحى من القرآن الكريم .

قال تعالى : « ان الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور » . (فاطر ، ٣٥ : ٢٩). انظر أيضا : (سورة الصف ، ٦١ : ١٠) .

وهذا البيت يتضمن أيضا تحديدا صريحا لتاريخ بدء الكتــاب الثانى من المثنوى ، وهو عام ٦٦٢ هـ .

(٨) يشير الشاعر بهذا البيت الى ما مرّ به حسام الدين من تطور روحى . لقد انطلق الى التأمل الروحى ، وكان بلبلا غريدا ، يتغنى ، فرجع بعد أن أصبح طائرا قويا كالباز ، قديرا على اصطياد المعانى .

(٩) استعار الشاعر هنا صورة الملك الذى يمد ساعده للباز ، طائر الصيد ، فيقبل ذلك الطائر ويقف فوق ساعد الملك . لقد كانت الطيــور

الجوارح تدرب على الصيد ، وتستأنس بحيث تلبي دعاء صاحبها ،وتقف فوق ساعده . وكانت هذه الرياضة منتشرة بين ملوك العالم الاسلامى في القرون الوسطى .

وقد استخدم جلال الدين الباز هنا رمزا لحسام الدين . أما قوله : « فليكن ساعد الملك مسكنا لهذا الباز » ، فمعناه : لتكن قوة الله مؤيدة لهذا الباز الروحى ، حسام الدين . ويكثر في شعر جلال الدين استخدام نداء المليك للباز رمزا لنداء الله للروح .

وأما قوله : « وليبق هذا الباب مفتوحا ... » فالباب هنا يقصد به السبيل الى عالم الروح .والشاعر يلتمس هنا بقاء ذلك الباب مفتوحا حتى الأبد .

(١٠) الهوى والشهوة هما اللذان يغلقان السبيل أمام الانسان ، ويحولان بينه وبين التأمل الروحي ، وهما اللذان يحرمان الانسان من تذوق لذات الروح . وقد رمز بالشراب الى لذات الروح .

(١١) انتقل الشاعر هنا الى تصوير لذات الحس وأثرها على الروح، فعبر عن ذلك بصور فنية . فالفم والحلق هما الرباط الذى يحجب العالم الروحي عن العين . وهذا التعبير الموجز ينطوى على مضمون واسع . فالفم والحلق رمز للتعلق بلذات الحس . والتعلق بتلك الملاذ معناه اغلاق السبيل أمام التأمل الروحي . وغني عن البيان أن الفم والحلق لا يعنيان مجرد الغذاء الضرورى ، وانما المقصود بهما النهم ، ذلك النهم والاسراف في المتع الحسية ، وما ينطوى عليه من تبلد الاحساس الروحى .

(١٢) تعبيره عن الفم بأنه فوهة النار تشبيه للفم بالجحيم . فالنهم الجشع لا يشبع مهما نال من حظ مادى ، بل يبقى على الدوام في تطلع الى المزيد . وهكذا جهنم . قال تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل مزيد » . (ق ، ٥٠ : ٣٠) .

أما قوله بأن الدنيا شبيهة بالبرزخ ، فصورة مستوحاة من البرزخ

الذى يفصل بين الجنة والنار ، يمشى فوقه الناس يوم القيامه ، ومنهم من ينتقل منه الى النار ، ومنهم من ينتقل منه الى الجنة . فالناس مجتمعون في هذه الدنيا ، وقد اختلط الأخيار بالأشرار كاختلاطهم على البرزخ يوم القيامة . وهناك شبه آخر بين الدنيا وبين البرزخ . فالدنيا مزرعة الآخرة وعمل الانسان فيها هو الذي يقوده الى الجنة أو الى النار . فهي أيضا برزخ الى الآخرة ، يمر فيها الناس حيث يتحدد مصيرهم ، بمقتضى ما قدموه من أعمال .

والدنيا تشبه البرزخ من وجه آخر ، لأن الدنيا ليست دار اقامة ، وكذلك البرزخ ، لا اقامة فيه ، وانما هو مكان للعبور الى الجنة أو الى النار .

(١٣) العالم المادى ليس منفصلا عن عالم الروح . بل هناك اتصال وثيق بينهما . فالخير والشر قد اختلطا في هذه الدنيا .

والانسان ــ وهو أعظم المخلوقات ــ قد ارتبط الروح فيه بالجسد . وقد شبه الشاعر هذا التجاور بين العالم المادى والروحي بما يكون من تجاور بين أوعية الدم وأوعية الحليب داخل الجسد .

(١٤) اذا جعلت للمطالب المادية سبيلا الى الروح ، وسلطانا عليها ، تلوثت الروح ، كما يتلوث الحليب حين يختلط بالدماء . فيجب ان تبقى الروح طاهرة نقية من المادة ، برغم ملابستها للجسد . ويجب أن تبقى لها سبيلها المتحررة من المادة ، كما يكون للحليب مجراه الخاص برغم مجاورته لأوعية الدماء .

(١٥) زلة آدم مثال خالد لتغلب شهوة النفس على الروح . فمخالفته صريح الأمر الالهى ، بدافع من شهوة النفس ، كانت سببا في خروجه من الجنة . وكل انسان غلبت شهوة الحس روحه فقد أصبح أسير جحيم الشهوات ، وكتب عليه فراق جنة الروح .

(١٨) آدم الذى علمه الله الأسماء ، وكشف له أسرار المعرفة[1] كان

(١) انظر : سورة البقرة ، ٢ : ٣١ ــ ٣٣ .

وقوعه في الخطيئة أمرا جللا . ومع أن الذنب الذى ارتكبه كان هينا في ظاهره ، فانه كان عظيما لأنه وقع من آدم . لقد كان كالشعرة التى نبتت في العين ، ليست في ذاتها شيئا ، لكن وقوعها في العين يجعلها شديدة الايلام .

(١٩) روى القرآن الكريم طرفا من اعتذار آدم وزوجه . قال تعالى : « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ». (الأعراف ، ٧ : ٢٣) .

ويروى عن وهب بن منبه أنه قال : « سجد آدم على جبل الهند مائة عام حتى جرت دموعه في وادى سرنديب .... ثم جاءه جبريل فقال له : ارفع رأسك فقد غفر لك ، فرفع رأسه ... » . (المنهج القوى ، ج ٢ ، ص ١٤) .

(٢٠) كان على آدم أن يشاور الملائكة قبل أن يقدم على الأكل من الشجرة المحرمة . فهذه المشاورة كانت بمثابة اقتران للعقل بعقل آخر ، ومثل هذا التعاون العقلى من شأنه أن يمنع سوء القول والفعل .

(٢١) اتباع الهوى والشهوة ، بمؤازرة الشيطان الذى يحث عليهما ، يمثل اقتران نفس أمارة بالسوء بسواها من النفوس . ومثل هذا الترابط بين النفوس الغوية يحجب العقل الانسانى — وهو عقل جزئى — عن ادراك الحقيقة ، ويجعله عاجزا عن أداء وظيفته .

(٢٢) اتخذ الشاعر من اقتران العقول ، وما يؤدى اليه من صلاح ، واقتران النفوس وما يقود اليه من فساد ، منطلقا للدعوة الى أن يتخذ المرء مرشدا عارفا . والتصوف يعتمد على المرشد في التربية ، ويدعو بحرارة الى طاعته . والطالب يسمى في اصطلاح الصوفية مريدا وأما الاستاذ فهو الشيخ أو المرشد . وعلى هذا الأساس التعليمى نشأت الطرق الصوفية في بداية أمرها .

(٢٤) الخلوة والتأمل وحدهما لا توصلان المريد الى ما يطلبه من سلوك سبيل التصوف . بل عليه أن يتعلم من أحد المرشدين .

(٢٥) رمز الشاعر بارتداء الفراء الى الانكماش عن الناس . وقال ان ارتداء الفراء لا يكون الا ابان الشتاء . وقد اتخذ الشاعر من الشتاء رمزا الى رفيق السوء .

أما الربيع ــ وهو رمز الرفيق الصالح ــ فلا يواجه بارتداء الفراء ، بل بالتعرض لأنسامه اللطيفة .

(٢٦ ــ ٢٧) صحبة العارفين الحكماء هي بمثابة اقتران العقول بعضها ببعض ، وفي هذا ما يزيد كلا منها نورا وادراكا . وأما صحبة الأشرار ، فشبيهة باقتران النفوس الأمارة بالسوء ، وفي هذا ما يزيد كلا منها ظلمة فوق ظلمتها .

(٢٨ ــ ٢٩) انتقل الشاعر هنا الى التعبير عما يجب على المريد من احترام لمرشده ، والتزام للأدب في صحبته . فالمرشد هو بمثابة العين للمريد . فيجب على المريد أن يصونه عن الأذى كما يصون عينه . وعليه ألا يسيء اليه بما لا يليق من الكلام . فالكلام القبيح كالغبار ، يثيره اللسان ، وقد شبهه الشاعر بالمكنسة ، وكلا هذين يوقعان الأذى بالعين.

(٣٠) اذا بقيت نفس المرشد صافية ازاء مريده ، كان في ارشاده للمريد كالمرآة الصافية . « فالمؤمن مرآة للمؤمن » . والمرآة الصافية خير معين للمرء على اكتشاف ما قد يصيب وجهه من تلوث .

(٣١) الاساءة الى المرشد بقبيح الكلام شبيهة ــ في نظر الشاعر ــ بالتنفس فوق صفحة المرآة . فهذا الكلام يكدر نفس المرشد كما تغشى الأنفاس صفحة المرآة .

(٣٢) على المرء أن يمتنع عن الكلام الذى قد يكدر نفس المرشد ، والا كان كمن يتنفس فوق صفحة المرآة فيزيل صفاءها ويغشيها .

(٣٣) الشاعر هنا ينكر على بعض الناس قلة احساسهم . فهو يخاطب هذا النمط من الناس قائلا :

« أأنت أقل احساسا من التربة ؟ ان هذه حين أقبل اليها الربيع ازدانت بالأزهار الجميلة ، وأبدت كل ابتهاج بصحبة هذا الرفيق المحب

اليها . فما بالك أيها الانسان لا تحسن صحبة رفيقك ، بل تسيء اليه في هذه الصحبة ؟ »

(٣٤ – ٣٥) من أمثلة الاحساس الرقيق الذى يتجلى عند غير العاقل أن الشجرة تبتهج بالربيع كل البهجة ، فتزدان بالأوراق الخضراء ، وتخضل حين مقدم هذا الرفيق الموافق ، فاذا ما أقبل الخريف ، ذلك الرفيق المخالف ، غرقت في نوم عميق ، وغطت وجهها ورأسها بلحاف من السكون . وقد يكون المقصود باللحاف هنا ذلك الثلج الذى يكسو الشجرة ابان الشتاء .

(٣٦ – ٣٧) انتقل الشاعر في هذين البيتين الى الموازنة بين اليقظة والنوم في مفهومه الصوفى . فالنوم عن الشرور خير من اليقظة . لكن النوم عن القيم الروحية غفلة وجهل . وهكذا يكون كل من النوم واليقظة محمودا في بعض الأحوال مذموما في سواها . فنوم أصحاب الكهف كان خيرا من اليقظة في ظل دقيانوس .

ودقيانوس هو الامبراطور الرومانى دقيوس *Decius* (٢٤٩ – ٢٥١) ، وقد عرف باضطهاد النصارى .

(٣٨) قوله « فيقظتهم كانت مصروفة على دقيانوس » ينطوى على تصوير رائع للحاكم المستبد الذى يملك على الناس حواسهم ، ويسيطر على قلوبهم بما يبثه فيها من ذعر ، فيصبح همَّ الناس وشغلهم الشاغل . فيقظة أصحاب الكهف كانت كلها وقفا على هذا الملك المستبد ، لأنهم كانوا – على الدوام – مهددين بفتكه ، يتملكهم الخوف منه ، أما نومهم فكان صورة نبيلة لفناء الروح في خالقها ، وانصرافها عن العالم الحسىّ .

(٣٩) يقظة الحواس لا جدوى منها ، ان لم تقترن بيقظة الروح . ان يقظة الروح هى اليقظة الحقيقية ، حتى ولو اقترنت بما قد يبدو نوما حسيا . وكذلك لا جدوى من يقظة يقضيها المرء في معاشرة الجهلاء .

(٤٠ – ٤١) اذا ساد الحس طغى على الروح . ولا مكان لأصحاب

القلوب بين عبيد الحس . فلا بد للروح من جوّ يلائمها ، كالبلابل ، لا تنتعش الا في بستان الورد . وفي البيتين تصوير رائع :

فالغربان التى تنتشر في الفضاء ابان الشتاء تبحث عن قوتها تبدو في تجمعها وسواد لونها وكأنما هى خيمة قد ضربت في الجواء .

والغربان رمز الى أسارى الحس ، لأنها معروفة باقبالها على الجيف ،وهذا عند الصوفية شبيه بتعلق أهل الحس بحطام الدنيا . أما البلابل فهى — بشدوها الجميل ورقتها — تصلح رمزا لأهل الروح .

(٤٢ — ٤٣) يعقد الشاعر هنا موازنة بين شمس السماء ، وشمس اليقظة الروحية . ان شمس السماء تضىء الجانب الذى تشرق فيه . فهى تضىء الأرض نهارا ، ثم تنتقل منها — على ما يقول الشاعر — لتضىء ما تحت الأرض من عوالم . أما شمس الروح فليس لها انتقال ، كما أنها تخص باشراقها الروح والعقل ، وهما أسمى من الحواس .

(٤٤) « شمس الروح التى تشرق من ذلك الجانب » يعنى « شمس الروح التى تشرق من عالم الغيب ، حيث أنوار الوحى ، فهذه دأبها الاشراق الدائم » .

(٤٥) في البيت اشارة الى قصة ذى القرنين ، التى وردت في القرآن الكريم . (سورة الكهف ، ١٨ : ٨٣ — ٨٩) . وقد ذكر كثير من المفسرين أن ذا القرنين هذا هو الاسكندر المقدونى ، وبهذا دخل في تفسير هذه الآيات بعض ما يروى من الجانب الاسطورى لقصة الاسكندر . ومن المعروف أن أسطورة الاسكندر قد اتخذت صورا متعددة في آداب الأمم المختلفة .

ومن الصور العربية لهذه الأسطورة ما جاء في كتاب قصص الأنبياء للثعلبى (ص ٤٠٤ — ٤١٨) . وينسب الى الاسكندر أنه وصل الى مغرب الشمس ثم الى مطلع الشمس ، وفي القصة وصف تفصيلى لتلك الأماكن ، ومن كان يسكنها من الناس .

« ومطلع الشمس » في قول الشاعر يرمز الى مشرق الحقيقة الروحية .

فمن كانت له همة الاسكندر فليقصد اليها ، فان تحقق له ذلك غدا ملكا ظاهرا .

(٤٦) من وصل في تساميه الروحي الى مرتبة الانسان الكامل أصبح كالشمس ، فحيثما توجه يتبعه الاشراق . ويكون اشراقه من لون فريد يفوق اشراق الشمس ، بل ان مغربه يفوق في نوره كل اشراق حسي .

(٤٧) يوازن الشاعر هنا بين نوعين من الحس ، الحس المادي والحس الروحي . فأما الحس المادي فهو كالخفاش يتجه نحو الظلام ، وأما الحس الروحي فيتجه نحو النور . والاتجاه نحو الظلام كناية عن الاندفاع نحو المادة ، والعجز عن مواجهة أنوار الروح .

(٤٨) الحس المادي الذي يتمتع به الانسان لا يختلف عن الحس المادي الذي تتمتع به الحمير أو غيرها من الدواب .

(٤٩) الحواس الخمس التي تختلف عن الحواس الجسدية هي حواس القلب . فالصوفية يتحدثون عن ابصار وسمع بالقلب[1] ، وعن تذوق شراب روحي والتمتع بأريج غير حسي . وكل هذه الأمور تشير الى ألوان من الادراك الغيبي ، والذوق الروحي . وهذه الحواس الروحية ليست ذات وجود منفصل أو محدد كالحواس الجسدية ، وانما هي مدارك قلبية ، ومواهب غيبية .

(٥٠) الحس بضاعة لا تلقى رواجا في عالم الروح . فهذا العالم الروحي لا سبيل لبلوغه الا بالروح النقي الطاهر .

(٥٢) « يا من تسعى الى أن تتجه الى الغيب عن طريق الحس ! هل أنت قادر على أن تفعل بالحس الجسدي ما فعله موسى حين أدخل يده في جيبه فخرجت بيضاء من غير سوء ؟ » وفي البيت اشارة الى هذه المعجزة التي أظهرها موسى . انظر الآيات : (٢٠ : ٢٢) ، (٢٧ : ١٢) ، (٢٨ : ٣٢) .

---

(١) ينسب الى ابي يزيد البسطامي انه قال : « انا اكلم الله واسمع منه منذ ثلاثين سنة ، والناس يظنون أني أكلمهم » . المنهج القوي ، جـ ٢ ، ص ٢٦ .

وهذا البيت مرتبط بالبيت رقم ٥٠ الذي يقول فيه الشاعر ان بضاعة الحس لا رواج لها في عالم الروح .

(٥٣ ــ ٥٥) الشاعر يخاطب الانسان الكامل بهذه الأبيات .

(٥٣) يصف الشاعر الانسان الكامل بأن له صفات شمس المعرفة ، وهذه متعددة الصفات ، على حين أن شمس السماء لا تتصف الا بصفة واحدة هي الاضاءة الحسية .

(٥٤) يعدد في هذا البيت بعض صفات الانسان الكامل : فهو كالشمس في الاضاءة ، وكالبحر في الاتساع والعمق ، وكجبل قاف في الرسوخ والثبات والاحاطة ، وكالعنقاء معروف الاسم خفي الذات . وجبل قاف مكان ورد في الأساطير الايرانية التي تصوره مرتبطا بسلسلة جبلية تحيط بالارض . (انظر : كراتشكوفسكي : الادب الجغرافي العربي ، ١ ، ٤٧) .

ويقول ياقوت : « قاف من قاف أثره قوفا اذا اتبع أثره ، فيكون هذا الجبل يقوف أثر الارض فيستدير حولها . وقاف مذكور في القرآن (كذا) . ذهب المفسرون الى أنه الجبل المحيط بالارض » . (معجم البلدان ، مادة قاف) .

(٥٥) يستدرك الشاعر على البيت السابق فيقول : ان هذه الصفات كلها أمور اعتبارية لتقريب المعاني الى الأفهام ، فالانسان الكامل يتجاوز حدود الأوهام ، ويستعصي على الوصف .

(٥٦) لا يتقيد الانسان الكامل بصفات ومعالم حسية ؛ وكذلك الروح لا تتقيد بصورة ولا أشكال . فلا شأن لها باللغات واختلافها ، وانما هي قرينة للعقل ، مدركة لجوهر المعرفة .

(٥٧) يبدو أن الشاعر قد انتقل الى مخاطبة الله في هذا البيت . فهو يصفه بأنه لا صورة له ، وهو مع ذلك يتجلى في متعدد الصور . وهذا المعنى يتمشى مع الفكر الصوفي القائم على تنزيه الخالق عن التشبيه ، لكنه ينادي في الوقت ذاته بأن الله يتجلى في كل مظهر من مظاهر الكون .

فالصوفية القائلون بوحدة الوجود لا يفصلون بين الخلق والخالق .وليس من موجود حقيقي سوى الخالق ، ولا أحد سواه يتصف بوجود حقيقي، وكل مظاهر الكون لمع من تجلياته . ولهذا لا يتقبل الصوفية ما يقوله متكلمو المعتزلة ومن سار على نهجهم ممن يتحدثون عن التوحيد بأسلوب فلسفي ينزه الله عن أية صورة من الصور ويمضون في توحيدهم الفلسفي الى حد القول بوحدة الذات والصفات . كما لا يتقبل الصوفية مذاهب المشبهة الذين يتحدثون عن الخالق وكأنه كائن منفصل عن الوجود ، ويشبهونه بخلقه . وقد عبر ابن عربى عن فكرة الصوفية أصحاب وحدة الوجود بقوله :

ولا تنظر الى الحق وتعريه عن الخلق
ولا تنظر الى الخلق وتكسوه سوى الحق
ونزهه وشبهه وقم في مقعد الصدق
(فصوص الحكم ، جـ ١ ، ص ٩٣) .

ويقول أيضا :

فان قلت بالتنزيه كنت مقيدا وان قلت بالتشبيه كنت محددا
وان قلت بالأمرين كنت مسددا وكنت اماما في العلوم وسيدا

وجلال الدين لا يتحدث بمثل هذا التأكيد الصريح ، وانما يقول ان الموحد والمشبه (من بين المتكلمين) لم يدركا جوهر الحقيقة .

(٥٨) المتكلمون بالتوحيد حينا يخطئهم التوفيق فيقعون في التشبيه، والمشبهون قد يقولون شيئا يكون من التوحيد .

(٥٩) العاشق الصوفى من أهل السكر قد يهتف مخاطبا محبوبه الحق بقوله :

يا صغير السن يا رطب البدن .
وهذا من قبيل الشطح .

وقوله هذا شطر من غزل ينسب الى جلال الدين نفسه ، وقد جاء فيه :

يا غزالا بين غـزلان اليمـن — أنت عيني أنت روحي في البـدن
يا صغير السن يا رطب البدن — يا قريب العهـد من شرب اللبـن
صـح عند الناس أني عاشق — غير أن لم يعرفـوا عشقي لمـن
روحه روحي وروحي روحه — من رأى روحيـن عاشا في البـدن
اقطعوا وصلي وان شئتم صلوا — كل شيء منكمو عنـدي حسـن

ونحن نستبعد نسبة هذا الشعر الى جلال الدين . وهو نفسه قد نسبه الى غيره حين قال : « وحينا يقول لك في سكره أبو الحسن ... » .

(٦٠) هذا الصوفي الذي ينطق بكلام يفهم منه التشبيه ، يكون له في الوقت ذاته سعي حثيث الى التوحيد ، فهو يعمل على افناء ذاته متخذا ذلك سبيلا الى التنزيه ، حيث لا يكون للعبد وجود منفصل عن الخالق.

(٦١ ــ ٦٣) يشير الشاعر هنا الى مذهب المعتزلة . والظاهر أنـه يوجه نقده ــ بصورة خاصة ــ الى ما ذكروه من استحالة رؤية الله بالأبصار[1] . فالمعتزله ذهبوا الى استحالة رؤية الله بالأبصار سواء في الدنيا أو الآخرة ، وحجتهم في ذلك أن العين الحسية المحدودة لا يمكن أن تحيط باللامحدود وهو الخالق . ويستدلون على ذلك بقوله تعالى : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » . (٦ : ١٠٣) .

ويأخذ عليهم جلال الدين هذا الاتجاه في التفكير المبني على التقيد بالحواس . فهم لا يستطيعون تصور أي لون من الابصار الروحي أو القلبي ، ولا سبيل الى الابصار ــ في رأيهم ــ الا بالعين الحسية . ومـن هنا نعتهم بأنهم أسارى الحس . وينطبق هذا النقد أيضا على مذهبـهم في العدل الالهي ، وهو الذي جعل بعضهم يغالي فيقول : ان الله يجب عليه اجراء العدل ، أو أن الله غير قادر على الظلم . فمثل هذه المفهومـات تصدق على الانسان وأفعاله . أما الخالق فلا يجوز التفكير في أعماله على أساس من قياسها على أعمال الناس .

ويخالف جلال الدين المعتزلة أيضا في نظرية الجبر والاختيـار .

(١) يتضح ذلك في البيت رقم ٦٣ .

فالانسان يكون مختارا حتى يفنى ارادته في ارادة الخالق ، واذ ذاك يصبح بالضرورة مجبرا ، ليست له ارادة منفصلة عن ارادة خالقه .

وقد شغل المعتزلة أنفسهم بالتفكير في مسائل حسية ، وأدخلوها ضمن نطاق فلسفتهم . من أمثلة ذلك خلافهم حول قدرة الممنوع ، كما ورد في كتاب مقالات الاسلاميين للأشعرى (ج ١ ، ص ٢٨٢ ــ ٢٨٣) . يقول :

« واختلفت المعتزلة في الممنوع : هل هو قادر أم لا على أربعة أقاويل :

(أ) فقال قائلون : اذا منع الانسان من المشى بالقيد ، ومن الخروج من البيت بغلق الباب ، فهو قادر على ذلك مع المنع بالقيد وغلق الباب ؛ فالمنع لا يضاد القدرة .

(ب) وقال آخرون : القدرة فيه ، ولكن لا نسميه قادرا على ما منع منه .

(ج) وقال قائلون : بل نقول : انه قادر اذا حلّ وأطلق .

(د) وقال جعفر بن حرب : الممنوع قادر ، وليس يقدر على شىء ؛ كما أن المنطبق جفنه بصير ولا يبصر » .

فهذا مثال من مئات الأمثلة التى حفلت بها فلسفة المعتزلة .

(٦٤) يؤيد الشاعر مذهب أهل السنة القائلين بامكان رؤية الله بالأبصار . وهؤلاء يستدلون على ذلك بقوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة ، الى ربها ناظرة » . (٧٥ : ٢٢ ــ ٢٣) . يروى الأشعرى عن جملة أصحاب الحديث ، وأهل السنة أنهم « يقولون : ان الله ــ سبحانه ــ يرى بالأبصار يوم القيامة ، كما يرى القمر ليلة البدر ، يراه المؤمنون ولا يراه الكافرون ، لأنهم عن الله محجوبون . قال الله عز وجل : « كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » (٨٣ : ١٥) . وان موسى ــ عليه السلام ــ سأل الله سبحانه الرؤية في الدنيا ، وان الله ــ سبحانه ــ تجلى للجبل فجعله دكا ، فأعلمه بذلك أنه لا يراه في الدنيا بل

يراه في الآخرة » . (مقالات الاسلاميين ، ج ١ ، ٣٢١ ، ٣٢٢) .

ومن قول الأشعرى يتضح لنا أن ايمان أهل السنة برؤية الله مقصور على الآخرة ، وأنه غير ممكن في الدنيا . والصوفية لا يستبعدون رؤية الله في الدنيا ، ويروى الأشعرى صورا من أقوال الصوفية في زمانه حول رؤية الله في الدنيا ، منكرا عليهم هذه الأقوال . (انظر : حكاية قول قوم من النساك ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣١٩) .

ومع ذلك فجلال الدين ــ وهو الصوفى المتزن في عباراته وآرائه ــ يرى أن مذهب أهل السنة عن رؤية الله يمثل التحرر من النظرة الحسية الضيقة ، التى لا تستطيع تصور ابصار سوى ما يكون لعين الحس . والظاهر أن اتجاه جلال الدين المتحفظ شبيه باتجاه بعض الصوفية القدماء الذين كانوا يقولون عن الرؤية قولا شبيها بما قاله أهل السنة . يقول الكلاباذى : « وأجمعوا لا يرى في الدنيا بالأبصار ولا بالقلوب الا من جهة الايقان لأنه غاية الكرامة وأفضل النعم ، ولا يجوز أن يكون ذلك الا في أفضل المكان ، ولو أعطوا في الدنيا أفضل النعم لم يكن بين الدنيا الفانية والجنة الباقية فرق ، ولما منع الله سبحانه كليمه موسى عليه السلام ذلك في الدنيا ، وكان من هو دونه أحرى ... » . (الكلاباذى : التعرف لمذهب أهل التصوف ، ص ٤٢ ، ٤٣) .

(٦٥) لو كان الابصار مقصورا على العين الحسية لكان في وسع الحيوان الأعجم أن يرى الله .

(٦٦ ــ ٦٧) يعود الشاعر هنا الى الحديث عن « الحس الروحى » ــ وهو غير الحس الجسدى الذى يشترك فيه الانسان والحيوان ــ ويذكر أن هذا « الحس الروحى » هو الذى ميز الانسان وجعله أهلا لتلقى الأسرار الالهية . وقول الشاعر : « فكيف يكون الانسان مكرما .. » يشير الى قوله تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم ... » الآية . (١٧ : ٧٠) .

(٦٨) الانسان الذى يتخذ من صورته الحسية أساسا لادراك حقيقة الخالق لا بد من وقوعه في الخطأ ، لأنه سلك الى ذلك العرفان سبيلا

خاطئة . ان على الانسان أن يتحرر من سيطرة الحواس قبل انطلاقه الى الحديث عن الخالق .

(٦٩) من تحرر من سلطان الحس ، وأدرك حقيقة الانسانية ، لا يبقى أسير الصورة المادية . واذ ذاك يستطيع معرفة خالقه من غير تقيد بالصور والأشباه .

(٧٠) ان كنت محروما من البصيرة الروحية ، ولم تتجاوز مرتبة الحيوانية التى تعتمد في ادراكها على الحواس وحدها ، فلست مطالبا بمثل هذا الادراك الروحى ، لأنك لم توهب سبيلا اليه . ويصدق عليك قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج » . (٤٨ : ١٧) . وأما ان كنت انسانا قادرا على شىء من الابصار الروحى ، فابذل جهدك لعلك تصل ، وكن صابرا في سعيك ، لأن الصبر مفتاح الفرج .

(٧١) السعى في صبر وأناة هو الذى يرفع الغشاوة عن البصر ، ويشرح الصدر ، ويجعله صالحا لتلقى أسرار الغيب .

(٧٢) الهدف الأسمى لجهاد الحس ، ومغالبة النفس ، هو تحقيق صفاء القلب . فحين بلوغ هذه المرتبة ، تنعكس على مرآة القلب الصافية صور يتلقاها من خارج هذا العالم المادى .

(٧٣) قد يبلغ القلب في صفائه درجة تتيح له مشاهدة الخلق والخالق . وتعبر كلمة « الفراش » — في الأصل الفارسى — عن الخالق . وقد اشتق هذا الوصف للخالق من قوله تعالى : « والأرض فرشناها فنعم الماهدون » . (٥١ : ٤٨) .

(٧٤) المقصود بخيال الحبيب هنا تجلى الخالق . فقد تجلى للقلب في صورة جميلة تخلب اللب كما يخلب الصنم لب عابده ، ولكن هذه الصورة ذاتها هى محطمة الأصنام التى يعبدها الناس ، تلك التى تتمثل في التعلق بالمادة ، وتعشق لذات الحس ، وغير ذلك . وقد يكون المراد بالحبيب هنا المرشد الكامل .

(٧٥) « عندما شهدت خالقى تجلت لى حقيقة روحى ، فالروح التى تبصر خالقها لا بد أن تكون روحا نقية طاهرة » . وقد يكون المراد أن المرشد الكامل كشف له حقيقة ذاته على اعتبار أن المؤمن مرآة للمؤمن .

(٧٦) يعبر هذا البيت عن تعظيم المحبوب بأسلوب رمزى . فتراب أعتاب المحبوب فتنة لقلب هذا المحب . ويمثل تراب الأعتاب هذا مرحلة من مراحل القرب .

(٧٧) « لو كانت نفسى جميلة صافية ، لائقة بهذا الوصال ، فانى أستسهل في سبيله كل مشقة . وان لم تكن نفسى كذلك ، بل كانت قبيحة ، فلن أظفر الا بسخرية الحبيب » .

(٧٩) في البيت اشارة الى حديث يروى عن الرسول أنه قال : « ان الله جميل يحب الجمال » .

(٨٤ – ٨٩) يصور الشاعر هنا ما ينتاب الانسان من حزن وهم مقيم لو أغلق قلبه عن شهود نور الله ، وسلك الى العرفان سبيل الاستدلال بالمحسوس على غير المحسوس . يخاطب القارىء قائلا : « انك حين تغلق عينيك يتولاك الحزن . وهذا الحزن قد انبثق في نفسك لأنك فرقت بين نور العين ونور النهار . فاذا كان الفراق بين هذين النورين الفانيين يحدث من الحزن ما يدفعك الى أن تفتح عينيك ، فكيف يكون الحزن الذى يصيبك لو أغلقت عينى قلبك ؟

ان هاتين العينين تنشدان نورا خالدا لا حدود له ، ولا بد أنك تعانى أشد أنواع الحزن لو فرقت بين نور القلب وما ينشده من لقاء النور الخالد » . فهنا دعوة الى أن يوقظ الانسان قلبه ، وينبهه الى ما وراء الحس من عوالم الروح ، تلك التى لو أتيح له شهود أنوارها لتحققت له السعادة الخالدة .

(٨٦) يتحدث الغزالى عن عين الظاهر وعين الباطن بقوله : « العين عينان : ظاهرة وباطنة ، فالظاهرة من عالم الحس والشهادة ، والباطنة من

عالم آخر ، وهو عالم الملكوت . ولكل عين من العينين شمس ونور عنده تصير كاملة الابصار ، احداهما ظاهرة ، والأخرى باطنة . والظاهرة من عالم الشهادة وهي الشمس المحسوسة ، والباطنة من عالم الملكوت وهو القرآن ، وكتب الله المنزلة » . (مشكاة الانوار ، ص ٤٩) .

(٩٠ – ٩١) على المرء أن يسعى الى ادراك حقيقة ذاته . فهو اذا تلقى دعوة المرشد الكامل نظر الى نفسه ليرى أهي جديرة بالارتباط به أم أنها قبيحة ،وليستأهلا لذلك ،ذلك لأن القبيح لا يليق بصحبةالجميل، والا كان ذلك مثارا للسخرية .

(٩٦) التمس الشاعر مرآة لبيان حقيقة روحه ، فلم تكن هذه المرآة بالنسبة له سوى وجه صديق ينتمي الى « تلك الديار » ، وهي عالم الروح .

(٩٨) في البيت اشارة الى قوله تعالى : « فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » . (١٩ : ٢٣) .

(٩٩) « عندما تفتح قلبي على فيض أنوارك أصبح من بعد غفلته حافلا بالرؤى » .

(١٠٤) ان بصيرة الروح لا تخطيء ، ولا يتطرق اليها خيال ولا وهم .

(١٠٥) نظرة الانسان المتعلق بلذات الحياة الدنيوية لا تكون مجردة عن الغرض ، بريئة من الهوى ، فهذه النظرة تتلون بالأغراض والرغاب التي تخضع لتأثيراتها النفس الانسانية . ولهذا يجب ألا يلتمس الحق عند مثل هذا الانسان .

(١٠٦) العين الحسية أسيرة لما تبصره في عالم الحس ، مفتونة بما تراه ، يخدعها ظاهر العالم الحسي عن ادراك حقيقته ومصيره المحتوم .

(١٠٩) ان أدنى تعلق للروح بالأوهام يحجب بصيرة الروح ويجعلها غير قادرة على الابصار الواضح ، فهي ليست أقل احساسا من عين

الحس التي يتأثر ابصارها بشعرة واحدة تعترض سبيلها .

(١١٥) القول الذى ينسب الى عمر في هذا البيت ، وهو : « أنا أقدر منك على رؤية الأفلاك » يشير الى معنى صوفي ، وهو أن الرجل القوى الروح أقدر من سواه على ادراك الحقائق » .

(١٢٢) ان توازن كفتي الميزان قد يكون على أساس صحيح ، وقد يكون على أساس خاطىء . فالذهب لو ووزن بالذهب فالقدران متساويان، أما موازنة الذهب بالشعير فموازنة اعتبارية ، لا حقيقية .

(١٢٤) في البيت اشارة الى قوله تعالى : «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » . (٤٨ : ٢٩) .

(١٢٧) انك تشعل النار بالبخور لتتخلص من الحسد ، وأولى بك أن تشعلها بمصدر ذلك الحسد . ان هؤلاء الحاسدين لشبيهون بالذئاب البشرية التى آذت يوسف ، فهم أعداء الجمال والكمال ، وهم بهذا جديرون بنار غضبك .

(١٢٨ ـ ١٣١) يصور الشاعر هنا الصراع بين الانسان والشيطان بأسلوب لطيف ، وصور بارعة : الشيطان يخاطب الانسان بلطف ، وكأنه أب ناصح : فيقول له : « يا روح أبيك ! » ، لكن هذا الأسلوب الرقيق ، كان السبيل الى خداع آدم . ثم تأتى بعد ذلك صورة الانسان والشيطان وهما متواجهان يلعبان الشطرنج ، ويحذر الشاعر الانسان من الشيطان بقوله : ان الشيطان أمام الشطرنج ملاعب بارع ، سريع كالغراب ، فلا تتعرض لمباراته وأنت مثقل بالكرى . انه يعرف الكثير من الألعاب البارعة ، التى تقف في حلقك ، فلا تستطيع منها خلاصاً » . ويفسر الشاعر بعد ذلك هذه الحيل التى يستخدمها الشيطان فى الخداع ، فاذا هي حب المال والجاه .

وقد وفق الشاعر فى الرمز الى الشيطان بالغراب ، فهذا الطائر بلونه الأسود ، وبما ارتبط به في الأذهان من النحس ، وما عرف عنه من اختطاف

أشياء قد لا تنفعه ، وقبح سيره وسرعة طيرانه ، يوحي للخيال بصفات تعين على تصور الشيطان .

(١٣٣) يصف الشاعر محب المال بأنه « عديم الثبات » ، ويقصد بذلك أن محب المال لا تقدر نفسه على الصمود أمام اغرائه .

(١٣٩) في البيت اقتباس من قوله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . (٢ : ٢١٦) .

(١٤١ ـ ١٥٣) : القصة التي رواها الشاعر في هذه الأبيات وردت بصورة أخرى في كتاب « الهى نامه » للعطار . وقد نقل فروزانفر نص أبيات هذه القصة ، كما رواها العطار . (مآخذ قصص وتمثيلات مثنوى ، ص ٤٣ ، ٤٤) .

وتختلف القصة ـ كما رواها جلال الدين ـ في حوادثها ومغزاها عن قصة العطار .

فالعطار يروى أن الأبله الذى رافق عيسى طلب منه أن يعلمه اسم الله الأعظم . فرفض عيسى في أول الأمر قائلا ان هـذا لن ينفع الأبله ، لكن الرجل ألحف في الرجاء والقسم فعلمه عيسى هذا الاسم . وبينما كان هذا الرجل الأبله سائراً في الصحراء رأى عظاما نخرة ، فأحب أن يجرب أثر الاسم عليها ، وبالفعل استطاع أن يبث فيها الحياة ، لكن هذا كان وبالا عليه ، اذ انطلق من تلك العظام أسد مفترس ، سرعان ما ضرب الرجل بمخالبه ، وقضى عليه . وحين علم عيسى بذلك قال لأصحابه : « ان هذا الرجل طلب من الحق ما لم تكن نفسه جديرة به ، فلم يسمح الحق بذلك . فالانسان لا يجوز له أن يطلب من الحق كل ما يطيب له ، وليس يجدر به أن يطلب سوى ما يكون على قدر استحقاقه » .

أما قصة جلال الدين فتروى أن عيسى أبى أن يعلم الأبله اسم الله الأعظم ، قائلا : ان هذا لن يجديه نفعا . فمثل هذا الاسم لا ينطق به الا من كانت

أنفاسه أنقى من المطر ، وسلوكه أقوم من سلوك الملائكة . فما كل من أمسك بعصا موسى يستطيع أن يحقق بها ما حققه موسى . وتذكر القصة بعد ذلك تعجب عيسى من هذا الرجل الذي يطلب أن يتعلم احياء الموتى ، لكي يبث الحياة في العظام النخرة ، على حين أنه تخلى عن روحه الميتة ، ولم يفطن اليها . ويكمل جلال الدين القصة بعد أن ينتهي من تفسيراتها وما يدور حولها ، ويستغرق ذلك نحو ثلاثمائة بيت ، فيذكر أن عيسى نادى باسم الحق على العظام ، فانطلق منها أسد أسود ، ضرب هذا الفتى الأبله بمخالبه « فدمر كيانه الصورى » ثم يمضى بعد ذلك في تفسير معانى القصة . (البيت ٤٥٧ وما يليه) .

(١٤٢) « الاسم السنى » هو « اسم الله الأعظم » ، ويتضح ذلك بصريح العبارة في قصة العطار . ويرد ذكر « اسم الله الأعظم » في تفسير بعض قصص القرآن ، وفي كتابات الصوفية ، وكذلك في كتابات مؤرخى الفرق الاسلامية .

وينسب الى العارفين بهذا الاسم القدرة على احداث المعجزات . ولهذا فقد قيل ان الانبياء كانوا يعرفون هذا الاسم . وكذلك ينسب العلم به الى بعض الأولياء . فممن نسب اليهم ذلك ابراهيم بن أدهم .(السلمى، طبقات الصوفية ، ص ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤) .

ونسب بعض غلاة الشيعة الى قادتهم معرفة « اسم الله الأعظم » . يقول الأشعرى عن فرقة المغيرية ، أصحاب المغيرة بسعيد : « يزعمون أنه كان يقول : انه نبي ، وانه كان يعلم اسم الله الأكبر ... » (مقــالات الاسلاميين ، ج ١ ، ص ٦٨) .

ويروى ابن الاثير أن المغيرة قال : « ان الله تعالى لما اراد أن يخلق الخلق تكلم باسمه الأعظم .. » (الكامل ، حوادث عام ١١٩ ، ج ٤ ، ص ٢٣٠) .

(١٥٠) الأبله في هذه القصة يمثل رجلا ميت الروح طغت عليه

حواسه .

(١٥٧) ان هذا الأبله كان يسعى الى احياء العظام النخرة التى رآها في الجب ، في حين أن روحه كانت ميتة ، فلم يلتفت اليها ؛ وما كان أحراه بأن يلتمس العون لنفسه من عيسى ، وبذلك يبدأ باصلاح نفسه قبل أن يسعى لاصلاح غيره .

(١٥٨) «فأصبح مع رفقائه مراقباً » أى دخل معهم حال المراقبة . والمراقبة ، كما يقول القشيرى ، هى « علم العبد باطلاع الرب سبحانه وتعالى عليه ، واستدامته لهذا العلم مراقبة لربه ، وهذا أصل كل خير ، ولا يكاد يصل الى هذه الرتبة الا بعد فراغه من المحاسبة ، فاذا حاسب نفسه على ما سلف ، وأصلح حاله في الوقت ، ولازم طريق الحق ، وأحسن بينه وبين الله تعالى مراعاة القلب ، وحفظ مع الله تعالى الأنفاس ، راقب الله تعالى في عموم أحواله ، فيعلم أنه سبحانه عليه رقيب ، ومن قلبه قريب ، يعلم أحواله ، ويرى أفعاله ، ويسمع أقواله ، ومن تغافل عن هذه الجملة ، فهو بمعزل عن بداية الوصلة ، فكيف عن حقائق القربة » . (الرسالة القشيرية ، ص ٨٧) . وانظر أيضا : (السراج : اللمع ، ص ٨٢ ، ٨٣) ، (الأنصارى : مشارق أنوار القلوب ، ص ٧٨ — ٧٩) .

وقوله : « وان حضور الرفيق لدفتر ، بل أكثر من ذلك » ، يشير الى طريقة الصوفية في التعلم من المرشد ، فالتصوف معرفة وسلوك يتلقاهما المريد عن المرشد في أول الأمر ، ثم يسلك بعد ذلك سبل التأمل والمجاهدة . فالرابطة بين الصوفية رابطة محكمة ، وهى عندهم أهم في تحصيل العرفان من الكتاب والدفتر .

(١٥٩) قلب الصوفى — حين يصبح نقيا من علائق المادة — يغدو كالمرآة ، تتجلى فيه شتى المعارف ، وتشرق عليه الحقائق . ولا حاجة به حينذاك الى دفتر ولا كتاب . والدفتر والكتاب يرمزان الى العلم التقليدى.

(١٦٠) العالم الدنيوى يعتمد في تحصيل علومه على آثار القلم ، أما

الصوفي فاعتماده يكون على « آثار القدم » ، أي اقتفاء سبيل المرشد حتى يتحقق له ما تحقق للمرشد . فالسلوك عند الصوفية يجيء قبل القراءة والدرس .

(١٦١) بداية الطريق بالنسبة للمريد أن يدخل في طريق التصوف . فهو يكون بذلك شبيها بصياد ، سار في طريق ليحقق غاية . فعليه في بداية الأمر أن يتبع آثار القدم ، وهذا المعنى يرمز الى اقتفاء شيوخ التصوف .

(١٦٢) يكون المريد في بداية أمره قليل الخبرة ، وقد يقتصر سلوكه في تلك المرحلة على تقليد شيخه ، حتى اذا ما أصبح متحققا بالعرفان ، صار جوهرُ السلوك وغايته هدفاً له .

(١٦٣) المريد الذى تصدق همته في اقتفاء المرشد ، يقوده اخلاصه هذا الى غايته ، فيصبح هو أيضا من أهل الحقيقة .

(١٦٤) عندما يصبح السالك من أهل التحقيق ، فكل خطوة يخطوها بعد ذلك تكون أعظم من مائة خطوة من خطاه أيام كان من أهل التقليد .

(١٦٥) القلب ــ بالنسبة للعارف الواصل ــ يصبح مَشرقاً لأنوار المعارف ، وسبيلا للنفوذ الى عالم الروح ، في حين أنه يكون سدا أمام غير العارف .

(١٦٦) يصور الشاعر القلب بالنسبة للعارف ، فيقول انه باب ، ذلك لأنه مفتوح أمام أسرار الغيب ، تتكشف له المعارف اليقينية .

أما من لم يكن من أهل العرفان فقلبه مغلق يفصل بينه وبين عالم الروح ، كأنه حائط . أما قوله : « وهو عندك كالحجر ... » فهذا يشير الى معان عدة . فالقلب بالنسبة للصوفي جوهر نفيس ، لا يتركه نهبا للعبث أو الأحقاد والضغائن ، بل هو للتأمل والتفكر ، والسعي الى الكمال . أما الانسان الغارق في ماديته فلا قيمة للقلب عنده ، فالقلب ــ بالنسبة له ــ كقطعة من الحجر . ولفظة « الحجر » هنا تفيد انحطاط

القيمة ، كما تشير الى ما توصف به القلوب القاسية من غلظ يجعلها شبيهة بالأحجار . قال تعالى : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة » . (٢ : ٧٤) .

(١٦٧) يعبر هذا البيت بطريقة رمزية عن معنى شبيه بقول القشيرى عن الصوفية : « مذاهبهم أقوى من قواعد كل مذهب ... فالذي للناس غيب فهو لهم ظهور ، والذى للخلق من المعارف مقصود ، فلهم من الحق سبحانه موجود ، فهم من أهل الوصال ، والناس من أهل الاستدلال ، وهم كما قال القائل :

ليلى بوجهك مشرق — وظلامه في الناس سارى
فالناس في سدف الظلا — م ونحن في ضوء النهار

(الرسالة ، ص ١٨٠) .

(١٦٨) ان أرواح العارفين كانت موجودة قبل أن يخلق هذا العالم المادى ، وكانت تنعم في بحر الجود . فهؤلاء قد سلفت لهم الحسنى ، وسبق التقدير بسعادتهم .

(١٦٩) قبل أن تحل أرواح هؤلاء العارفين في الأجساد كانت قد أمضت أعمارا طويلة في عالم الروح . وقد ظفرت بنعيم الله وكرمه من قبل أن تعمل عملا تستحق عليه الجزاء ، فهذا الكرم والنعيم الذى لقيته قبل حلولها في الأجساد لم يكن جزاء على عمل قامت به .

(١٧٠) لقد تكشفت لهذه الأرواح حجب المستقبل ، فعرفت ما يكون قبل أن يصبح كائنا .

(١٧١ ــ ١٧٢) حين أخبر الله الملائكة باعتزامه خلق آدم ، كانت هذه الأرواح مدركة لارادة الله . وبينما كانت الملائكة تتساءل عن حكمة الله في خلق آدم ، كانت أرواح العارفين تسخر من الملائكة .

ولقد روى القرآن الكريم اعتراض الملائكة على خلق آدم في قوله تعالى : « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل في الأرض خليفة ، قالوا

أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال اني أعلم ما لا تعلمون » . (٢ : ٣٠) .

(١٧٣) لقد كان في وسع هذه الأرواح أن تطلع على صورة ما يكون من الكائنات . فهي قبل أن تعلق بالأبدان كانت نقية من علائق المادة ، بعيدة عما يعكر صفاء رؤيتها . يروى ابن عربى عن أبى يزيد البسطامي قوله : « لو أن العرش وما حواه مائة ألف ألف مرة في زاوية من زوايا قلب العارف ما أحس بها » .

ويزيد ابن عربى على ذلك قوله : « وهذا وسع أبي يزيد في عالم الأجسام . بل أقول : لو أن ما لا يتناهى وجوده يقدر انتهاء وجوده مع العين الموجدة له في زاوية من زوايا قلب العارف ما أحس بذلك في علمه» . (فصوص الحكم ، ج ١ ، ص ٨٨) .

ويقول الأنصارى : « والنفوس اذا صفت ورقت ، تشبهت بالملأ الأعلى ، وانتقشت فيها أمثلة الكائنات ، واطلعت على المغيبات ، وأثرت في السفليات » . (مشارق ، ١٠٠) .

فاذا كان هذا رأيهم في قلب العارف ومدى احاطته ، فلا عجب اذن أن يكون رأيهم في روح العارف ــ قبل خلق الجسد ــ أعظم من ذلك .

(١٧٥ ــ ١٧٦) لقد كانت الأفكار تنتقل الى هذه الأرواح بالهام الهى ، ولم تكن بحاجة الى وسائل لتلقيها ، كالدماغ والقلب . كما أن هذه الأرواح قد تحقق لها أعظم قدر من الظفر بدون كدح يشبه كفاح الدنيا .

وأرواح العارفين تبصر ما وراء الحس . فكل ما تشهده فهو بالنسبة لها فكرة ، لأنها تنفذ الى حقيقة جوهره . أما الحسيون فان كل ما يشهدونه لا يتعدى الرؤية الحسية بالنسبة لهم .

(١٧٧) ان التفكر في صورته المعروفة للناس يرتبط بالماضى وبالمستقبل . أماهذه الأرواح التى تحررت من سيطرة الزمن فلم يعد

التفكر عندها مقيدا بهذا القيد ، ولهذا فقد حلت ـ بالنسبة لها ـ مشكلة المعرفة .

(١٧٨ ـ ١٧٩) ان أرواح العارفين ـ بتحررها من الزمن ـ قد استطاعت أن ترى كل ممكن الوجود من قبل أن يوجد . فمعرفتها جوهرية كلية ، وليست مرتبطة بالجزئيات التي تتكشف خلال الزمن .

(١٨٠) هذا البيت شبيه بقول ابن الفارض :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

(١٨١ ـ ١٨٢) هذان البيتان مرتبطان بفكرة الكشف والالهام عند الصوفية ، تلك التي تتيح للعارفين منهم الماما بكليات الحقائق ، فلا يصرفهم جانب منها عن الجانب الآخر ، ولا يحول مظهر للحقيقة أمام أعينهم دون مشاهدة المظاهر الأخرى الكامنة في طي الامكان . وتنطبق هذه القدرة المبصرة على عالمي الغيب والشهادة . يقول ابن عربي : « ثم لتعلم أن الحق وصف نفسه بأنه ظاهر باطن ، فأوجد العالم عالم غيب وشهادة لندرك الباطن بغيبنا والظاهر بشهادتنا » . (فصوص الحكم ، ج ١ ، ص ٥٤) .

(١٨٣) يرتبط معنى البيت بفكرة الانسان الكامل ، وأنه محور الوجود . يقول ابن عربي : « فلا يزال العالم محفوظا ما دام فيه هذا الانسان الكامل ، ألا تراه اذا زال وفك من خزانة الدنيا لم يبق فيها ما اختزنه الحق فيها ، وخرج ما كان فيها ، والتحق بعضه ببعض ، وانتقل الأمر الى الآخرة ، فكان ختما على خزانة الآخرة ، ختما أبديا . فظهر جميع ما في الصورة الالهية من الأسماء في هذه النشأة الانسانية ، فحازت رتبة الجمع والاحاطة بهذا الوجود » . (فصوص الحكم ، ج ١ ، ص ٥٠) .

وقد عبر جلال الدين عن هذا المعنى بأسلوب شعري . فبدلا من أن يتبع الطريقة الاصطلاحية في التعبير فيذكر أن كل مظاهر الوجود خلقت من أجل الانسان الكامل ، قال ان السماوات نشوى بشراب العارفين ،

على اعتبار أن الله أنعم عليها بالوجود ، من أجل الانسان الكامل ،وكذلك الشمس يرتبط وجودها بوجوده ، « فهى من جوده ترفل في وشى الذهب » .

وهناك حديث قدسي يذكر في كتب الصوفية ، ويروى عن الله تعالى أنه خاطب الرسول بقوله :

« لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك » .

(١٨٤) « اذا رأيت رفيقين من العارفين فأعلم أنهما من حيث وحدة الروح رجل واحد ، أما من حيث القوة والمقدرة فهما يعدلان ألوفا كثيرة » .

(١٨٥) ان ظهور العارفين كأشخاص متعددين لا يعنى أنهم متعددو الروح ، فما تعددهم الظاهري الا كتعدد أمواج البحر ، تلك التى تبدو كأنها وحدات متفرقة ، ولا حقيقة لهذه الفرقة ، فكلها من البحر واليه ، وماؤها جميعا ماء واحد ، لكن الريح هى التى تظهرها على هذه الصورة . والريح هنا رمز للارادة الالهية التى تظهر العارفين على هذه الصورة .

(١٨٦ ــ ١٨٧) الروح الانساني واحد . وقد أشرق على الأبدان، فاقتبست منه الحياة . فهو كالشمس تشرق من قرص واحد ، وكل مكان يقتبس النور منها . وهذا تصوير شعرى لوحدة روح الانسانية ، وهو مبنى على الذوق الصوفى ، وليس على أساس فلسفى .

ومن الصوفية من أنكر ذلك بشدة . فالسهروردى الاشراقى يقول: « وجماعة من الناس لما تفطنوا أن هذه (النفس) غير جسمية توهموا أنها البارى تعالى ، وقد ضلوا ضلالا بعيدا ، فان الله واحد ، ولو كانت نفس زيد وعمرو واحدة ، لأدرك أحدهما جميع ما أدرك الآخر ، ولاطلع كل الناس على ما اطلع عليه الكل وليس كذلك . ثم كيف تستأمر قوى البدن اله الآلهة ، وتسخره رهين شهوات ، وعرضة بليات ، فى خبط عشوات » . (هياكل النور ، ٥٤ ، ٥٥) .

وهذا موقف فلسفي يختلف عن الموقف الذوقي الذي عبر عنه جلال الدين . ومع ذلك نجد السهروردي يعبر عن وحدة النفوس في أصلها وذلك بصدورها جميعا عن العقل الفعال . يقول : « ومن جملة الأنوار القاهرة أبونا ورب طلسم نوعنا ، ومفيض نفوسنا ، ومكملها بالكمالات العلمية والنفسية ، روح القدس ، المسمى عند الحكماء بالعقل الفعال » . (المصدر السابق ، ص ٦٥) .

ويعبر الأنصاري عن اتحاد الأرواح بقوله : « واعلم أنه ليس في العالم شيء الا وله مغناطيس يجذبه ، لطيفا كان أو كثيفا . ومغناطيس النفوس شعاع نور الجمال ، فلهذا كان تعاشق الأرواح انجذاب بعضها الى بعض حتى تتحد » . (مشارق ، ٩٧) .

ويقول أيضا : « واتصال النفسين هو اتحادهما حتى لا يكون بينهما فرق الا بالجسم ، والجسم زائد على ماهية النفس ،والانسانية تعقل في الذهن دون جسم ، اذ هي معنى كلي يتصور في النفس دون أمر زائد من شكل أو حامل وسائر الأعراض » . (المصدر السابق ، ٩٩ ـ ١٠٠).

(١٨٨) يميز الشاعر بين الروح الانساني والروح الحيواني .فالروح الانساني هو مصدر الحياة الواعية المدركة التي يعيشها الانسان . أما الروح الحيواني فهو مصدر الحياة في الجسد ، وبه تحيى أجساد البشر والحيوانات على السواء .

ولعل الروح الانساني هو الذي يعبر عنه بالنفس الناطقة في كتابات بعض الصوفية . يعرف السهروردي النفس الناطقة بقوله : « وهذه النفس الناطقة لها قوى من مدركات ظاهرة ، وهي الحواس الخمس ، وهي اللمس والذوق والشم والسمع والبصر وقوى من مدركات باطنة ،كالحس المشترك وهو الذي يشاهد صور المنام معاينة لا على سبيل التخيل . ومن الحواس الباطنة الخيال .. والقوة الفكرية .. والوهم .. والحافظة » (هياكل النور ، ص ٥١ ـ ٥٣) .

أما الروح الحيواني فيتحدث عنه بقوله : « وللحيوانات قوة شوقية ذات شعبتين : منها شهوانية جعلت لجلب الملائم ، وغضبية خلقت لدفع ما لا يلائم . وقوة محركة تباشر التحريك . وحامل جميع القوى المحركة والمدركة هو الروح الحيواني ، وهو جرم لطيف بخاري مولد من لطائف الأخلاط ، وينبعث من التجويف الأيسر من القلب ، وينبث في البدن بعد أن يكتسب السلطان النوري من النفس الناطقة . ولولا لطفه ما سرى فيما يسرى ، اذا وقعت سدة تمنعه من النفوذ الى عضو يموت ذلك العضو . وهو مطية تصرفات النفس الناطقة . وتتصرف النفس في البدن ما دام ، واذا انقطع انقطع تصرفها في البدن . وهذا الروح الحيواني غير الروح الالهي الذي يأتي في كلام النبوات ، فانه يعني به النفس الناطقة التي هي نور من أنوار الله تعالى ، القائمة لا في أين ، من الله مشرقها ، والى الله مغربها » . (المصدر السابق ، ٥٣ ، ٥٤) .

ولو أردنا أن نلخص آراء السهروردي في كلمتين جامعتين لقلنا انه يعني بالنفس الناطقة القوى المدركة ، وبالروح الحيواني القوى المحركة من غضب وشهوة وطاقـة .

(١٨٩) ما دام الروح الانساني جوهرا واحدا فاض عن الخالق ، فليس من الممكن أن يقع انقسام في هذا الجوهر .

(١٩٠) الشاعر يدرك أنه أفاض في الحديث عن معان رمزية عميقة الدلالة ، وانصرف عن رواية قصة الصوفي التي بدأها قبل معالجة تلك المعاني . ولهذا فانه يحث المستمع على الاصغاء اليه ليحدثه بلمحة عما تشهده روحه من جمال التجلي .

(١٩١) ليس البيان بقادر على أن ينقل الى المستمع لمحة من جمال الشهود . وكيف يتسنى له ذلك ، والعالمان بأسرهما ليسا سوى لمحة من أنوار هذا الجمـال .

(١٩٢) « لو أنني تحدثت عن لمحة من لمحات هذا الجمال ، لكاد

كياني الجسدي يتبدد ، فمثل هذا الحديث الروحي لا تقدر عليـــه عبارات الحس وأوصافه » .

(١٩٣) مثل هذا الكشف الروحي أمانة ينوء بحملها كيان العارف ، ومع ذلك يكون سعيدا بها ، كما تكون النملة سعيدة في بيدر القمح ، برغم ما يحيط بها من أثقال ينوء بها كيانها .

(١٩٤ ــ ٢٠٠) يبين الشاعر في هذه الأبيات ، كيف مال مستمعوه الى سماع صورة الحكاية التى كان يرويها (حكاية الصوفي) ، وكيــف صرفه هذا الميل من جانب مستمعيه عن تقرير معنى الحكاية .

(١٩٥) هناك فيض غزير من القول ، يندفع كمد البحر ، ثم يعود الى الانكماش كالجزر .

(١٩٦) ان انصراف خاطر المستمع عن الاصغاء للمعاني الروحيــة جعل الشاعر يعرض عن الافضاء بها .

(١٩٩) الصوفي ليس بصورته الظاهرة ، وانما هو بجوهره وحقيقته. والقصة ليست قيمتها بوقائعها السطحية ، بل هي بمغزاها ومعانيهاالدقيقة. والولع بظاهر الحكاية مبعثه لذة سطحية ، كتلك التى تجعل الأطفال مولعين بالجوز والزبيب .

(٢٠٠) ولع الرجال بلــذات الحس شبيه بولع الأطفــال بالجوز والزبيب . فاللذات الحسية مذاقها وقتى ، ومن كان رجلا فلذته أسمى من ذلك ، لأنها ذات طبيعة روحية .

(٢٠١) ان لم تكن قادرا على أن تتخلى عن لذات الحس ، فالله قادر على أن يجعلك تتنزه عنها ، وترتفع فوق طباق السماء .

(٢٠٣ ــ ٢٥٠) في هذه الأبيات يقص الشاعر قصة الصوفي والخادم والحمار ، وهي القصة التى بدأ في روايتها في البيت رقم ١٥٦ ، ثم مــا لبث أن انصرف عنها ، مستطردا الى الحديث عن الصوفية وأحوالهم .

ونلحظ في هذه القصة كغيرها براعة الشاعر القصصية . وقــد

تجلت في هذه القصة الخصائص الآتية :

اولا : روح الفكاهة الغالبة على القصة .

ثانيا : براعة الحوار .

ثالثا : مقدرة الشاعر على تصوير هواجس النفس .

رابعا : براعته في تصوير شخصياته القصصية . ولم تقف هذه البراعة عند حد تصوير الانسان بل تعدته الى الحيوان . فحمار الصوفى هنا يثير العطف بما يلاقيه من آلام ، وله أيضا هواجسه وأحلامه !

(٢٥١) على الانسان ألا ينخدع بلطيف المقال حتى لا يخدعه هذا عن حقيقة الحال .

(٢٦١) في هذا البيت دعوة قوية صريحة الى الحزم ، والاعتماد على النفس .

(٢٦٤) عاد الشاعر هنا الى حديث الروح والجسد . فالجسم الترابى غريب عن جوهر الانسان .

(٢٦٥) تغذية الجسم ورعايته لن تفيد جوهر الانسان . فالجسم يتضخم من هذا الغذاء ، في حين أن الجوهر يتضاءل .

(٢٦٦) مهما أحيط الجسم بالرعاية والعناية ، فانه لا محالة هالك ، والموت يكشف طبيعته الخسيسة ، فمهما أحيط بالمسك ، فلا بد من ظهور رائحته الخبيثة بعد الموت .

(٢٦٧) المسك الذى يلطخ المرء به جسده لا جدوى منه ، لأن أثره سطحى ، وأولى بالانسان أن يعطر بالايمان قلبه .

(٢٧٥) ما دمت تنطوى على نفس أمارة بالسوء ، تغلى بلهيب الشهوات ، فكن يقظا ، والا قادتك الى الجحيم .

(٢٧٧) هذا المعنى شبيه بقول زهير بن أبى سلمى في معلقته :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم

(٢٨٠ ـ ٢٨٢) في هذه الأبيات صورة مشتقة مما يقع تحت أبصار

الناس في حياتهم اليومية . فهناك دكان العطار وقد صفت أمامه أوعية تشبه الطبول ، ووضع في كل وعاء صنف من الأصناف . والعطار قد جعل كل صنف منها على حدة . واذا وقع اختلاط بين الأصناف فانه يحرص كل الحرص على الفصل بينها . وقد اتخذ الشاعر من هذا منطلقا للحديث عن الأنبياء ، وكيف أرسلوا ليفصلوا بين أهل الصلاح وأهل الفساد .

(٢٨٣ ــ ٢٨٤) قبل بعث الرسل ، لم يكن هناك فيصل بين الطيبين والخبيثين . فكانت الأرواح الطيبة والخبيثه يختلط بعضها ببعض . فأرسل الله الرسل ليكونوا فيصلا بين الفريقين . قال تعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » . (٢ : ٢١٣) .

(٢٩٣ ــ ٢٩٤) قلب العارف يشرق فيه من نور العرفان ما يزرى في اشراقه بنور النهار . أما الأستار التى يسدلها على أسراره فشبيهة بظلمات الليل . وقد يكون المراد بالستر هنا الجسد الذى يحجب حقيقة الولىّ العارف . (انظر البيت رقم ٢٩٩) .

(٢٩٥ ــ ٣٠١) تذكر هذه الأبيات تفسيرا صوفيا لقوله تعالى : « والضحى والليل اذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى » . (٩٣ : ١ ــ ٣).

فالشاعر يذكر أن الله أقسم بالضحى لأنه نور ضمير المصطفى ، أو لأنه فيض من نور الخالق . ولولا ذلك لما جاز القسم بالضحى لأنه فان ، وهو بهذا غير جدير بقسم الخالق . ان الخليل قال : « لا أحب الآفلين »، فكيف يقسم رب العالمين بما هو عرضة للفناء ؟

وبعد هذا ينتقل الشاعر الى تفسير « والليل » ، فيقول انه رمز لستره أى جسده الذى يخفى حقيقة جوهره . وحينما أشرقت شمس الوحى على الرسول ، قالت لجسده : « ما ودعك ربك » ، أى أن الله لم يتركك برغم أنه قطع الوحى عنك أياما . أما قوله : « ولقد تجلى الوصل

من عين البلاء » ؛ فمعناه أن جمال الوصل قد تجلى واضحا بعد الانقطاع ، فالشيء يتضح بضده ، ولهذا فان الله تعالى قال : « وما قلى » . فهذا الانقطاع لم يكن منبعثا عن اعراض أو كره من الله .

وهذا تأويل صوفي يحمل الألفاظ أكثر مما تحتمل ، في بعض المواقف . والمعروف عند المفسرين أن هذه الآيات نزلت على الرسول بعد أن تأخر الوحي عنه خمسة عشر يوما ، وقال الكفار : ان محمدا ودعه ربه وقلاه .

(٣٠٢) ان كل عبارة رمز لحال . فالحال هو الموجه لمعنى العبارة ، وليست العبارة سوى الأداة التي يعبر بها الحال عن حقيقته . ان الحال كاليد والعبارة كالآلة .

(٣٠٣) لا جدوى من اطلاق العبارات على ما ليست ترمز اليه من الأحوال ، والا كان ذلك كوضع الآلة في يد لا تحسن استخدامها . فلا بد أن تحمل العبارة تعبيرا صادقا عن الحال .

(٣٠٥) يتضمن هذا البيت مثالا لاستخدام العبارة في موضعها ،ومثالا لاستخدامها في غير موضعها .

(٣٠٦) عصا موسى ، في يد موسى ، كانت آلة وضعت في موضعها الصحيح . أما العصا في أيدي السحرة ، فقد ذهبت هباء ، لأن تلك الأيدي لم تكن — في مقام اظهار المعجزة — جديرة بتلقيها .

(٣١٠) انتقل الشاعر من الحديث عن اقتران الأحوال والعبارات ، واقتران الأيدي والآلات ، الى ذكر الواحد الذي لا قرين له ، ولا آلة . وبين كيف أن كل عدد يكون عرضة للخطأ ما عدا الواحد فانه لا شك فيه .

(٣١١ — ٣١٢) يقول ابن الفارض في هذا المعنى :

وان عبد النار المجوس وما انطفت   كما جاء بالأخبار في ألف حجة
فما قصدوا غيري وان كان قصدهم   سواي وان لم يظهروا عقد نية

وجلال الدين يقول : ان كل من عبدوا اثنين أو ثلاثة أو أكثر من ذلك

هم ـ في الوقت ذاته ـ قائلون بالواحد ، مؤمنون به . ويروى القرآن الكريم عن مشركى العرب قولهم عن الأصنام : « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » . (٣٩ : ٣) .

فهؤلاء المشركون كانوا مؤمنين بالاله الواحد . ويعزو جلال الدين هذه الألوان المختلفة من الشرك الى الحَوَل ، وهو مرض يجعل العين تبصر الشىء الواحد متعددا . فاذا شفى هؤلاء المشركون من حولهم العقلى ، فهم لا شك عائدون الى الايمان بالاله الواحد .

(٣١٣) من قال بالوحدانية فقد سلك السبيل الحقّ الى ربه .

فعليه أن يستسلم لخالقه على أكمل وجه ممكن ، فلا تكون له حركة الا بدافع من الله ، كما تندفع الكرة في الميدان بدفع الصولجان .

(٣١٤) كلما ازداد كمال الكرة كانت أكثر استجابة لدفع الصولجان، وكلما ازداد كمال الانسان كان أسرع استجابة لارادة الله .

(٣١٥) على الأحول الذى أخطأ الرؤية أن يحسن الاستماع بعقله ، فلعله يستطيع أن يتلقى بسمعه ما يعينه على التخلص من علة ابصاره .

(٣١٦) حسن الاستماع ، مع عمق التأمل ، قد يعين القلب على الابصار . أما الاستماع بدون تأمل فلا جدوى منه للقلب الأعمى ، لأن نور العرفان لا يستقر فيه ، بل يرجع الى أصله .

(٣١٧) سحر الشيطان يجد له مستقرا ملائما في القلب المنحرف ، كما تستقر القدم الموجاء في الحذاء الأعوج .

(٣١٨ ـ ٣٢٠) الحكمة لا تتحقق لانسان ما لم يكن من محبيها المخلصين لها ، الذين يتقبلونها بقلوبهم وأرواحهم . وبدون هذا فلا سبيل لانسان اليها ، فكثرة القراءة والحفظ ، والتشدق بالحكمة ، كلها لا تجدى نفعا ، ما لم تستقر الحكمة في قلب الانسان ويتحقق اخلاصه لها .

(٣٢١) الاخلاص قد يعين صاحبه على أن يحصل من الحكمة ما لم يحصله المجتهد الذى تجرد من الاخلاص . وهذا المعنى مرتبط بفكرة

الالهام عند الصوفية ، تلك التي تقول بان القلب النقيّ الذي صفا من الأكدار يتلقى من العرفان ما لا يتحقق لمن أضاع عمره بين الأسفار .

(٣٢٣ ـ ٣٣٥) تروى هذه الأبيات قصة ترمز الى الروح الذي يفر من كنف خالقه ، ويستسلم للدنيا ولذاتها . فالباز في القصة رمز للروح ، وقد هرب من مليكه الى عجوز شمطاء ، (وترمز للدنيا) فساء جزاؤه من جراء ذلك .

وتروى هذه القصة في مصادر عدة من أهمها أسرار نامه للعطار ، وجوامع الحكايات لعوفى[1] . والقصة كما رواها العطار لا تنطوى على تلك النظرة العاطفية التى صور بها الملك حبه للباز .

وقد ذكر فروزانفر مواضع أخرى وردت فيها اشارات لهذه القصة ، وهى كشف المحجوب للهجويرى ، وديوان شمس تبريز لجلال الدين الرومى ، وكتاب المقالات المنسوب لشمس الدين التبريزى « مخطوط مكتبة الفاتح باستنبول ، رقم ٢٧٨٨ » . (انظر مآخذ قصص ، ص ٤٤ ، ٤٥) .

(٣٣٥) هذا البيت شبيه بقول أبى نواس :

ان كان لا يرجوك الا مؤمن فبمن يلوذ ويستجير المجرم

(٣٣٦) ان الروح قد تنحرف عن قصد السبيل معتمدة على لطف الله وكرمه .

(٣٣٧) الانسان يقترف السيئات ، مع أن حسناته لا تكاد ترقى الى المستوى الذى يجعلها جديرة بقبول الخالق .

(٣٣٨ ـ ٣٤٠) من أسباب خطيئة الانسان أن يعتقد أن عبادته لله أمر مستلزم للقبول الالهى ، فيركن الى هذا الاعتقاد ، ويصيب الغرور

---

(١) انظر تعليقات نيكولسون .

قلبه ، ويظن أنه قد أصبح من خاصة الله . ومثل هذا الغرور يـؤدى الى الضـلال .

وقد عقد عبد الرحمن بن الجوزى فصلا حول هذا المعنى بعنوان : « غرور المتعبدين » .

يقول : « وفي المتزهدين أهل تغفيل ، يكاد أحدهم يوطن نفسه على أنه ولي محبوب ومقبول ..... وربما احتقر غيره ، وظن أن مجلته محفوظة به ، تغره ركيعات يتتصب فيها ، أو عبادة ينصب بها » . (صيد الخاطر ، ١٣٥ ــ ١٣٦) .

(٣٤١) لا يجوز أن يكون احساس المرء بالاقتراب من ربه دافعا الى اساءة الأدب.ويروى عن أبي يزيد البسطامى ــ في هذا المعنى ــ قوله : « قعدت ليلة في محرابى ، فمددت رجلى ، فهتف بى هاتف : من يجالس الملوك ينبغى أن يجالسهم بحسن الأدب » . (السلمى : طبقات الصوفية ، ص ٦٩) .

(٣٤٣) الباز قد اغتر بنفسه ، فظن أنه قادر على صيد الأسود ، ولم يدر أن الصياد الحقيقى هو المليك ، وليس الباز ــ في حقيقة الأمر ــ الا ملتقط الصيد . فهو هنا يعتذر لمليكه عن الخطأ الذى وقع فيه نتيجة لغروره وسوء فهمه . وهذا تعبير رمزى عن الانسان الذى يكرمه ربه فيقدره على فعل الأمور العظام ، فيظن أن ذلك قد تحقق له بقدرته الذاتية ، وينسى فضل الخالق ، فيعتريه الغرور من جراء ذلك .

(٣٤٤) تكشف للباز ــ بعد أن ابتعد عن كنف مليكه ــ أن قدرته كانت مقتبسة من قدرة هذا المليك . وهكذا الانسان ، لا قدرة له لو تخلى عنه الخالق . فالباز يقول : « مع أن أظافرى قد قلمت ، فأنا قادر على اقتلاع الشمس من مدارها ، لو أنك كنت لى » . والانسان ــ المؤيد بالقدرة الالهية ــ لا تكون هناك حدود لطاقاته .

(٣٤٥) « لعب الفلك » يقصد به هنا ما كان يُعتقد للفلك من تأثير

على الأحداث . ومعنى البيت : « مع أننى قد غدوت مقصوص الجناح فانك لو تقبلتنى برضاك تضاءلت قوة الفلك أمام قوتى » .

(٣٤٦) « المئزر » في البيت رمز للتأهب للعمل . والمعنى : « لو دفعتنى الى العمل لهدمت الجبال ، ولو وهبتنى قلما لحطمت به السيوف والرماح .

ويقول جلال الدين أيضا في هذا المعنى : « ان ملك الملوك حين ينزل الى الميدان ، يصبح كل عجز آلة ووسيلة » . (مثنوى ، ١ : ٢٦٩٦).

(٣٤٧) اشارة الى قصة البعوضة التى أهلكت النمرود بن كنعان . (انظر : الثعلبى ، قصص الأنبياء ، ص ٩٧ .

وانظر أيضا : مثنوى جلال الدين ، جـ ١ ، ص ٤٩٧) .

(٣٤٨ ـ ٣٤٩) اشارة الى قصة الطير التى أهلكت أصحاب الفيل ، وهم في طريقهم الى مهاجمة الكعبة . ويروى أن هذا الحادث وقع في زمن عبد المطلب جد الرسول .

يقول المسعودى : « فأرسل الله عليهم الطير الأبابيل ، أشباه اليعاسيب ، ترميهم بحجارة من سجيل ، وهو طين قد خلط بحجارة من البحر ، مع كل طير ثلاثة أحجار ، فأهلكهم الله عز وجل » . (مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ١٢٨) .

(٣٥٣) اشارة الى معجزة شق القمر التى تروى عن الرسول عليه السلام .

(٣٥٤) « حتى يعلم الجاهل بالسعد والنحس أن الرسول كان أعمق أثرا في توجيه المقادير من القمر ، وسائر الكواكب » . والجاهل بالسعد والنحس هو المنجم ، الذى يربط مصائر الخلق بالنجوم .

(٣٦٤) هذا البيت عربى في الأصل ، ويشير الى حديث قدسى يروى

عن الله قوله : « كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق لأعرف » .

(٣٦٩) التخلص من عبادة الأصنام هو بداية الطريق للتخلص من صنم الباطن . وقد وصف جلال الدين النفس بأنها صانعة الأصنام . وأصنام النفس هي شهواتها المختلفة . فالتخلص من أصنام الباطن يقتضي جهادا روحيا عظيما .

(٣٧٢) في البيت اشارة الى بعض الأساطير الفارسية القديمة . زال هو ابن سام بن نريمان الذى كان من أمراء سجستان . أما رستم فهو ابن زال ، وقد اشتهر — في تلك الأساطير — ببطولة خارقة .

(٣٧٥) مهد الشاعر بهذا البيت لقصة يرويها عن الشيخ أحمد بن خضرويه ، وهو من قدامى الصوفية ، (توفى عام ٢٤٠ هـ) . ذكره السلمى بقوله : « أحمد بن خضرويه البلخى ، وهو من كبار مشايخ خراسان ، صحب أبا تراب النخشبىّ وحاتما الأصم ، ورحل الى أبى يزيد البسطامى ، وهو من مذكورى مشايخ خراسان بالفتوة ... » . ونقل السلمى بعض أقواله (طبقات الصوفية ، ١٠٣ — ١٠٦) .

وقد ذكر السلمى أن أحمد بن خضرويه كان يقترض الأموال لاطعام الفقراء ، وأن دينه قد بلغ مائة ألف درهم . أما القشيرى فقد ذكر قصة شبيهة بقصة المثنوى . يقول : « وكان عليه سبعمائة دينار دينا ، وغرماؤه عنده ، فنظر اليهم وقال : اللهم انك قد جعلت الرهون وثيقة لأرباب الأموال ، وأنت تأخذ عنهم وثيقتهم ، فدعنى . قال : فدق داق الباب وقال : أين غرماء أحمد ؟ فقضى عنه ثم خرجت روحه ، ومات رحمه الله سنه ٢٤٠ » .(الرسالة ، ص ١٦ ، ١٧) . وروى العطار هذه القصة ذاتها في « تذكرت الأولياء » ، ونقلها عنه فروزانفر .(مآخذ قصص ، ص ٤٦) .

أما قصة الصبي بائع الحلوى فقد عثر عليها نيكولسون مرتبطـة بأبي سعيد بن أبي الخير (انظر شروح نيكولسون ، ص ٢٥٢) . وذكر فروزانفر نص هذه القصة (مآخذ قصص وتمثيلات ، ٤٦ ، ٤٧) .

وقد ذُكر أحمد بن خضرويه في حلية الأولياء للاصفهاني ، وكشف المحجوب للهجويري ، ونفحات الأنس للجامي ، الى جانب المراجع السالفة الذكـر .

(٣٧٩) في البيت اشارة الى معجزة تنسب الى ابراهيم ، عليه السلام، وتروى بصور مختلفة ، خلاصتها أن ابراهيم أبى أن يدين بألوهية النمرود، كما كان يفعل أهل زمانه ، فرده النمرود بدون طعام ، فمر على كثيـب رمال وملأ منه كيسا يدخل به على أهله ، لكن الله أحال الرمال في الكيس الى دقيق . (الثعلبي ، قصص الأنبياء ، ص ٩٥ ــ ٩٦) .

(٣٨٠ ــ ٣٨١) انظر : مثنوى ، ج ١ ، (٢٢٢٣ ــ ٢٢٢٥ وتعليقنـا على الأبيات) ، ص ٢٨٣ .

(٣٨٢) « الجود بالروح ، وتقديمها قربانا لخلاق الوجود » ، تعبير عن دعوة الصوفية الى افناء الذات في الخالق . فكأن الشاعر يقول : ان الصوفية الصادقين أكثر الناس سخاء لأنهم ضحوا بأرواحهم ، وجعلوهـا قربانا لخالقهم . والبيت شبيه بقول الشاعر :

يجود بالنفس اذ ضنّ الجواد بها   والجود بالنفس أقصى غاية الجود

(٣٨٣) جاء في قصة ابراهيم أنه حين هم بذبح ابنه اسماعيل لـم تفعل السكين فعلها في عنقه . يقول الثعلبي : « ثم انه وضع السكين على حلقه فلم يجزع ولم تعمل السكين شيئا .... وضرب الله صحيفة مـن نحاس على حلقه .. ثم انه وضع السكين على قفـاه فانقلبـت .. » . (قصص الأنبياء ، ص ٩٤) . ويشير الشاعر بذلك الى أن من ضحى بالذات في سبيل الخالق ، تحقق له البقاء .

(٣٨٤) الشهداء يموتون في حومة الوغى ، ومع ذلك يوهبون حياة

الخلود ، على مقتضى قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون » . (٣ : ١٦٩) . وكذلك الصوفية ـ الذين حققوا فناء الذات ـ ظفروا بالبقاء . وليست العبرة ببقاء الجسد ، كما يتوهم الكفار .

(٣٨٥) لا يقتصر جزاء الشهداء على خلود الروح ، بل تقترن بذلك البهجة والفرح . ولقد أتبع الله قوله : « ولا تحسبن الذين قتلوا ... » بقوله : « فرحين بما آتاهم الله .. » الآية . (٣ : ١٧٠) .

وكذلك الصوفية ، لا يكون البقاء وحده هو ما يتحقق لهم ، نتيجة لافنائهم الذات ، بل ان لهم بالفناء بقاء مقترنا بالبهجة والسرور .

(٤٣٥) انظر قصة الأصم الذى ذهب ليعود جاره المريض (مثنوى، ج ١ ، الأبيات ٣٣٦٠ ـ ٣٣٩٥ ، ص ٣٨٦ ـ ٣٨٩) .

(٤٣٦ ـ ٤٣٧) قصة موسى والعبد الصالح ـ الذى ذكر المفسرون أنه الخضر ـ قد رويت في القرآن الكريم (سورة الكهف ، ١٨ : ٦٥ ـ ٨٢) .

(٤٣٨) « يا موسى زماننا » معناها « يا من تنظر الى الصالحين نظرة موسى الى الخضر » .

(٤٤١ ـ ٤٤٣) انظر : مثنوى ، ج ١ ، الأبيات ٨١٨ ـ ٨٢٢ ، ص ١٥٠ .

(٤٤٤) « اذا أردت أن تظفر بهذا العطاء الالهى ، فليكن انسان عينك باكيا آسفا على ما يكون من تهاون الجسد » .

(٤٤٥) انظر الأحاديث النبوية في « فضل البكاء من خشية الله تعالى وشوقا اليه » . (النووى : رياض الصالحين ، ص ٢٠٨ ـ ٢١٠) .

(٤٤٩) « المسيح » هنا رمز للروح . فالزاهد يقول : « على الانسان ألا يأسى على عين الحس ، ان كان قوى الروح ، ذلك لأن الروح كالمسيح، تهب الابصار للأعمى » .

(٤٥١) لا تجعل الروح ـ في كل لحظة ـ مسخرا لجسم غليظ .

(٤٥٢) انظر : قصة الأبله الذى رافق عيسى (الأبيات ١٤١ ـ ١٥٥).

(٤٥٣) الأبله الذى رافق عيسى طلب منه أن يبث الحياة في عظام نخرة ، ولم يلتمس منه حياة لروحه . ان على الانسان ألا يسخر الروح لرغاب الجسد ، والا كان كمن يلتمس من موسى أن يعمل عمل فرعون .

(٤٥٤) « لا تثقل فؤادك بهم التفكير في المعاش » : في هذه العبارة دعوة للانسان الى أن يتجنب اغراق فؤاده في هموم العيش ، حتى لا يكون هذا سببا في انصرافه عن كل تأمل روحى .

(٤٥٦) طالما كانت الروح في الدنيا فلن تعدم الاستقرار في أحد الأجساد ، ولها حينذاك رعاية من الخالق . انها كالتركمانى لا بد له من أن يستقر في احدى الخيام طالما كان مقيما في الحى .

(٤٦١) ان هذا الفتى الأبله كان خاليا من اللب ، ولهذا كان القضاء على جسده قضاء عليه ، لأنه لم يكن ينعم بذلك الروح الذى يعيش بعد فناء الجسد .

(٤٦٣) الأسد كان قد فارق الدنيا ، وانقطع بذلك رزقه الدنيوى ، فبعثه المؤقت على يد عيسى لم يكن يعنى أنه استأنف حياته الدنيوية . (انظر البيت ٤٦٩) .

(٤٦٤) الأسد الضارى قد قتل الرجل ، ومع ذلك ، لم يستطع أن ينال منه رزقا ، لأن الرزق مقسوم . وكثير من الرجال يعيشون في هذه الدنيا بقدرة كاملة على الصيد وحظ قليل من الرزق .

(٤٦٥) يصور الشاعر بهذا البيت الحرص الذى يتملك بعض الرجال للحصول على رزق لا يتحقق ، فهم يقضون حياتهم بين دفع الحرص وامتناع الرزق . وليس معنى هذا أن الشاعر لا يؤمن بالسعى ، ففى المثنوى كثير من المواقف التى تحث على السعى . لكن الشاعر ينتقد الحرص المرير الذى يكدر الحياة ، ويجعل صاحبه ضحية لسلسلة

لا تنتهى من الرغاب الجامحة ، والفشل المتكرر .

(٤٦٨) العبرة المقصودة من البيت هى أن المرء ــ برغم بالغ حرصه ــ قد يحرم من ثمرة يحققها له هذا الحرص .

(٤٧٠ ــ ٤٧١) انتقل الشاعر الى الحديث عن الجزاء الذى لقيه الفتى الأبله . لقد واجه هذا الهلاك ، لأنه ــ وقد لقى نبعا لحياة الروح هو المسيح ــ اختار حياة البدن ، فكان كمن يلوث النبع بدلا من أن ينهل من مائه .

(٤٧٢ ــ ٤٧٣) هذا الأبله قد لقى هذا الرسول ، الذى وهبه الله مثل هذه القدرة على بعث الحياة في الأرواح ، فكيف يلتمس منه حياة الجسد ؟

(٤٧٤) النفس الأمارة بالسوء تسعى وراء اللذات ، كما يسعى الكلب وراء العظام . وحياة النفس الأمارة بالسوء يكون فيها القضاء على حياة الروح . فهناك هذا التضاد في الذات الانسانية بين النفس الأمارة بالسوء وبين الروح .

(٤٧٥) العظام هنا رمز للذات الحس التى تشتهيها النفس ، كما يشتهى الكلب العظام . وقد تكون رمزا لوجود الانسان المادى ، الذى تتعلق النفس بلذاته . أما قول الشاعر :

« تحول بين الكلب وبين صيد الروح » فمعناه : أن لذات الحس تصرف النفس عن تذوق ما يتيحه لها الروح من لذات .

(٤٧٦) « ان لم يكن أسير الشهوات كالكلب المولع بالعظام أو كالضبع المولع بالدماء ، فلماذا هو أسير لشهوات الحس ؟ »

(٤٧٧) الانسان المجرد من البصيرة الروحية ، كالعين المجردة من الابصار ، فهذه عند الامتحان لا جدوى منها ، وهكذا يكون مثل هذا الانسان .

(٤٧٨) المحروم من البصيرة الروحية قد يعتمد على الظن الذى

يخطيء حينا،ويصيب حينا آخر ،ويكون هذا الظن مبنيا على الاجتهاد العقلى أما الظن الذى لا يبصر فأعتقد أنه كناية تقليد المقلدين الذين حرموا من الالهام الروحى ، كما حرموا من الاجتهاد العقلى . وفي الأبيات التالية يتحدث الشاعر عن التقليد ومساوئه .

(٤٧٩) يخاطب الشاعر بهذا عين المقلد ، فيقول : « أيتها العين التى تبكى على سواها ! ان حالك أسوأ من حال سواك ، فليكن بكاؤك على نفسك ، فحالك أولى بالبكاء » . يقصد الشاعر بذلك أن المقلد يردد نغمات الأسى على سواه وينسى نفسه ، كما يفعل جهال الواعظين .

(٤٨٠) يذكر الشاعر في مواضع كثيرة أن دموع الندم تجلو القلب ، وتجعل الروح مزدهرا ، فهى كالسحاب الباكى تزدهر به الرياض ، أو كدموع الشمعة تزيدها نورا .

(٤٨١ ــ ٤٨٣) الانسان الذى يبكى على ما يفنى خير من المقلد الجامد الاحساس . فالباكى على الفانى يكون غافلا عن كنوز الحياة الروحية الخالدة ، لكنه ــ مع ذلك ــ خير من المقلد الذى أصاب التقليد قلبه بالجمود .

(٤٨٤) التقليد يكون كالجبل المنيع ، يجعل صاحبه غير قابل للتأثر ، أو يحول بينه وبين ادراك الحقائق الكامنه وراء ظاهر الأشياء . فالتقليد ــ في ذاته ــ أسلوب واه كالقشة .

(٤٨٥) لا قيمة للمقلد مهما كان عظيم الجسم شديد الانفعال . وهذا تصوير لمن يدعون العلم مع تجردهم منه ، فمثل هؤلاء الأدعياء قد يعتمدون على المظهر المهيب ، أو اصطناع مظاهر التحمس والانفعال ، ولا يكون وراء ذلك قيمة جوهرية . فمثل هذا المقلد كجاهل أعمى ، تجرد من البصر والبصيرة ، فهو لا يعدو أن يكون كتلة من اللحم .

(٤٨٦) قد يتحدث المقلد بكلام دقيق ، لكن قلبه لا يدرك حقيقة معناه .

(٤٨٧) قد تظهر على المقلد نشوة بما ينطق به ، لكنها نشوة مفتعلة، بعيدة عن صدق الاحساس ، وعمق التأثر .

(٤٨٨) تشبيه رائع للمقلد ، يصطنع المعرفة ، ويتفوه بالعلم ، من غير أدنى قدر من التذوق ، فهو كالنهر ، يمر الماء بمجراه ، ولا يكون له أى تذوق لهذا الماء . وقد يوجد من المستمعين من هو أكثر من المعلم المقلد فهما لما يقوله هذا المقلد ، وهكذا يكون الشاربون متذوقين لطعم الماء ، في حين أن النهر الذى يحمله اليهم مجرد من الذوق .

(٤٩٠) المقلد ينطق بأقوال لا يدركها ، كالناى يترنم بألحان الأسى ولا علم له بهذا الاحساس .

(٤٩٣) عرف داوود بجمال الصوت والعزف – انظر ما جاء عن ذلك في القرآن الكريم (٣٤ : ١٠) .

والشاعر يشبه قول المحقق بغناء داوود ، أما قول المقلد فهو كرجع الصدى .

(٤٩٥) المقلد يصطنع الانفعال بدون احساس حقيقى ، أما المحقق فيحمل العبء صامتا . وهكذا يكون شأن العربة والثور ، يحمل الثور العبء الحقيقى ويمضى صامتا على حين أن العربة هى التى تردد الأنين .

(٤٩٨) المتسول يهتف باسم الله من أجل الخبز ، والمقلد يهتف بالعرفان طلبا للمنفعة الدنيوية ، ولا يستشعر ذوقا لما يقول ، أما العارف فيهتف باسم الله من أعماق قلبه ، وهذا هو المحقق الذى يتذوق بروحه ما ينطق بـه .

(٤٩٩) لو أن المقلد أدرك مضمون قوله لهان في نظره ما يهدف اليه من منفعة دنيوية جعلته يتخذ من ادعاء العلم سبيلا اليها .

(٥٠٠) المقلد يصطنع العلم من أجل هدف تافه ، هو تحقيق شىء من الربح المادى ، كالحمار يحمل المصحف ليكون جزاؤه على ذلك وجبة من التبن . وفي البيت اقتباس من قوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة

ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » . (٦٢ : ٥) .

(٥٠٢) ان اسم الشيطان يستخدم في السحر ليحقق الثراء العريض ، فهل يجوز أن يستخدم اسم الله لتحقيق ربح تافه ؟

(٥٠٣ ــ ٥١٢) يروى الشاعر هنا حكاية عن التقليد ثم يعود بعدها الى بيان مثالبـه .

(٥٠٨) اشارة الى تصدع جبل الطور حين تجلى له الخالق .

قال تعالى : « فلما تجلى ربه للجبل جعله دكـا ، وخـر موسى صعقا » . (٧ : ١٤٣) .

(٥٠٩) اشارة الى قوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبـل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » . (٥٩ : ٢١) .

(٥١٤) يبدأ الشاعر هنا حكاية أخرى عن آفات التقليد . وأسلوب الشاعر في هذه الحكاية بعيد كل البعد عن الوعظ والتعليم ، فهى تنطوى على صور رائعة لحياة الخانقاه ، وسلوك أدعياء التصوف . والشـاعـر هنا ، وفي كل موقف مشابه يكشف عن قدرته التصويرية الرائعة ، التى تشغل الحواس والخيال بالألوان والظلال والأصوات والروائح في وقـت واحد ، وتشتق من الحياة صورا معبرة مؤثرة ترقى الى أرفع المستويـات الفنية . ويقترن هذا كله بأسلوب ساخر ممتع .

(٥١٧) يروى عن الرسول أنه قال : « كاد الفقر أن يكون كفرا » .

(٥٣٣ ــ ٥٣٤) يحرص الشاعر على أن يميز بين الصوفية العارفين، وبين المرتزقة من أدعياء التصوف .

(٥٤٤) قول الخادم : « انظر الى لحيتك » ، تعبير ساخر ، معناه : « لا تكن أحمق ، وتصرف بحكمة تناسب لحيتك » .

(٥٤٨) يرى صاحب المنهج القوى أن هذا البيت يشير الى الحديث الذى يروى عن الرسول قوله : « الآخذ ضامن والزعيم غارم » .

(٥٥٥) « لو أنك أخبرتنى بما جرى لابتعت الحمار ممن قد اشتراه،

أو حصلت على ثمنه قبل أن يقتسمه الصوفية » .

(٥٦٤) اشارة الى قوله تعالى حكاية عن ابراهيم : « لا أحب الآفلين » (٦ : ٧٦) . و « الآفلون » في البيت هم المسخرون للنفس الأمارة بالسوء ، وهي آفلة لأنها ليست بذات بقاء .

(٥٦٧) تقليد المريد للمرشد العارف هو أول مراحل التحقيق .

(٥٧٢) لو أن المرآة أصيبت بالطمع لما أظهرت حقيقة الحال ، ولصارت منافقة كالناس . وهكذا القلب الانسانى ، اذا دخله الطمع ، لم تبق له قدرة على الادراك الصحيح . وينطبق هذا أيضا على العقل الذى يصرفه الحرص عن سلامة التفكير .

(٥٧٤) حكى القرآن الكريم عن الأنبياء ما يفيد هذا المعنى . انظر (٦ : ٩٠) ، (١١ : ٥١) ، (٢٦ : ١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤، ١٨٠)، (٤٢ : ٢٣) .

(٥٧٦) يروى أن أبا بكر أنفق أربعين ألف درهم على الدعوة المحمدية . وقيل انه أنفق أربعين ألف دينار . (انظر تعليق نيكولسون على هذا البيت) . وقد أورد فروزانفر مصادر متعددة لهذا الخبر منها طبقات ابن سعد ، وقد جاء فيه قوله : « كان أبو بكر معروفا بالتجارة . لقد بعث النبى وعنده أربعون ألف درهم ، فكان ينفق منها ويقوى المسلمين ، حتى قدم المدينة بخمسة آلاف درهم ، ثم كان يفعل فيها ما كان يفعل بمكة » . (انظر : مآخذ قصص ، ٥٢) .

(٥٧٧) الأجر المادى لا يمكن أن يرقى الى مستوى الجزاء الروحى ، ولا مجال لأن يقاس هذا بذاك .

(٥٧٨) الحكاية التى يشير اليها الشاعر هى حكاية « القاضى والمفلس » التى تبدأ روايتها بعد أبيات قليلة . وقد أوردها الشاعر ليبين أن الطمع يحجب الأذن عن استماع الحقائق .

(٥٨٣) الصوفى الذى فقد حماره كان بعيدا عن نشوة الشهود ،

لتعلقه بلذات الحس ، واندفاعه وراءها . ولولا الحرص الذى أعماه لكان بوسع الخادم أن ينبهه الى فقد حماره .

(٥٨٥) ذكر فروزانفر أصلا بسيطا للقصة التى تبدأ روايتها في هذا البيت . وقد ورد هذا الأصل في محاضرات الراغب (ج ١ ، ص ٢٩٧). يقول : « وفلس القاضي رجلا فاركبه حمارا فطوف به ، ونودى عليه أن لا يبايع فانه مفلس ، فلما أنزل قال له صاحب الحمار : هات الكراء . فقال له : فيم كنا من أول النهار يا أبله » . كما أورد فروزانفر صورة أخرى لهذه القصة مأخوذة من كتاب « أخبار الظرفاء والمتماجنين » لابن الجوزى (انظر : مآخذ قصص ، ص ٥٢) .

وهذه الحكاية البسيطة لا تكاد ترتبط بعمل جلال الدين الا ارتباط البذرة الصغيرة بالدوحة الباسقة .

(٥٨٦) « جبل قاف » ــ في الأساطير الفارسية ــ هو أعظم جبال الأرض . انظر تعليقنا على البيت ٥٤ .

(٥٨٨) كل من حرم من الرضى والقناعة وغنى الروح ، بقى حريصا على متاع الدنيا حرص المتسول ، حتى ولو تحقق له ثراء السلاطين .

(٥٩٠ ــ ٥٩١) حياة الدنيا لا يمكن أن تخلو من الآفات ، والانسان في كل جانب من جوانبها عرضة للعدوان والأذى .

(٥٩٢) يروى عن الرسول أنه قال : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » . فهذا السجن الذى فرض على المؤمن يتقاضاه أجرا ويفرض عليه تكاليف .

(٥٩٤) بعد أن تحدث الشاعر عن متاعب الدنيا ، انتقل الى الحديث عن موقف الانسان ازاءها . فهو يقول في هذا البيت ان الانسان يستطيع بجميل الخيال أن يجمل الحياة .

(٥٩٥) الخيال السيء والأوهام القبيحة تقضى على الانسان .

(٦٠٠ ــ ٦٠١) في البيتين اشارة الى حديث يروى عن الرسول قوله : « الصبر رأس الايمان » ، وكذلك قوله : « من لا صبر له فلا ايمان له » .

(٦٠٣ ــ ٦٠٥) يبين الشاعر هنا أن الهوى يلون الحكم على الأشخاص ، فعين الرضى يخفى عليها عيب الانسان وعين السخط تبدى مساوئه . ويعجب الشاعر من هذا ، فيقول ان مثل هذا الشخص الذى تتناقض حوله الآراء يكون حينا سمكة وحينا شصا ، أو يكون نصفه مؤمنا ونصفه كافرا ، لو كان لنا أن نصدق هذه الآراء المتناقضة .

(٦٠٦) يبين الشاعر خطأ الناس في أحكامهم المتناقضة على الفرد الواحد ، ويستشهد على ذلك بقوله تعالى : « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ، والله بما تعملون بصير » (٦٤ : ٢) . فالمرء لا يكون كافرا ومؤمنا في الوقت ذاته .

(٦٠٩) من الأمثلة الدالة على خطأ النفس الساخطة في الحكم على الأفراد ما لقيه يوسف من كره اخوته وسوء فعلهم . فسخط نفوسهم عليه جعله يبدو قبيحا في أعينهم .

(٦١٠ ــ ٦١١) ينتهى الشاعر هنا الى النتيجة التى مهد للوصول اليها ، وهى أن الخيال القبيح يضل عين العقل ، وهذه بدورها تضل عين الحس .

(٦١٢ ــ ٦١٣) الانسان ــ في ظاهره ــ يبدو حسيا مقيدا بالمكان، ولكنه بأصله الروحى ينتمى الى اللامكان . فلو أنه تخلص من سلطان الحس ، فتحت أمامه عوالم الروح الفساح . ان عليه أن يتخلص من هذا العالم الحسي لأنه يفرض عليه موقعا سيئا ، يجعل الهزيمة حتما عليه .

وقوله « العالم ذو الجهات الست » يقصد به العالم الحسى المقيد بجهات ست هى : اليمين والشمال والأمام والوراء ، والفوقية والتحتية.

ويشبه الشاعر جهات العالم الست بالأقسام الستة فوق لوحة النرد .

(٦٢٠) في القرآن الكريم آيات كثيرة ورد بها فعل الأمر « كلوا » . انظر مثلا : (٢ : ٥٧ ، ٥٨) ، (٥ : ٨٨) . والشاعر يسخر من هذا النهم الأكول الذى أراد أن يصور الشره على أنه طاعة لأمر الهى .

(٦٣٤) الشيطان يهدد ويغرى ، يهدد الناس بالفاقة ، فيلتزمون البخل ، ويغريهم بلذات الحياة فيوقعهم في المعاصى .

(٦٣٥) الايمان في « سجن » الدنيا قليل . ومع قلته فهو مهدد بعدوان الشيطان .

(٦٣٨ — ٦٣٩) يروى عن الرسول حديث نصه : « الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » .

(٦٤٠) اذا لم يظهر الشيطان في صورة مجسدة ، هى أحد مواقف الاغراء ، ظهر في الخيال .

(٦٤١) لا يقتصر اغراء الشيطان على اللهو ، بل هو يغرى بالربح في التجارة ، واتخاذ العلم سبيلا الى التظاهر وتحقيق المغانم المادية ، وكذلك بامتلاك الدور والقصور .

(٦٧٩) ان في الغيب صورا كثيرة ، لكن عين الحس لا تبصرها ، وفي الغيب أيضا أصداء كثيرة ، لكن أذن الحس لا تسمعها .

(٦٨٠) الله وحده هو القادر على أن يفتح العين على ما يشاء من مشاهد الجمال والكمال .

(٦٨٤) الحديث الذى أشار اليه الشاعر يروى عن الرسول قوله : « ان الله خلق لكل داء دواء » .

(٦٨٦) لعل في البيت اشارة الى الحديث الذى يروى عن الرسول قوله : « ان الروح اذا قبض تبعه البصر » .

(٦٨٨) يراد بالعدم هنا الوجود غير المادى .

(٦٨٩) ان العالم الروحى ، (العالم الذى تنعدم فيه المحسوسات)،

هو المكان الذى يتحقق للانسان فيه الربح الكامل ، ذلك لأن حياته فيه أبدية ، وسعادته خالدة ، أما هذا الوجود المادى فهو مكـان الانفاق ، ينفق الانسان فيه أيام حياته فيما لا يجدى ، ويضيع فيـه ألوانا مـن السعادة الروحية ، تحول المادة بينه وبين تحقيقها .

(٦٩٠) « العدم مقر مصنع الحق » يعنى أن الله يخلق كل شىء من العدم .

(٦٩٢) « فالدعاء منك والاستجابة أيضا منك » ، يعنى « أن الله يلهم الروح الدعاء المستجاب حينما تصبح ارادة الانسان منبثقة مـن ارادة الخالق » .

(٦٩٨ ـ ٧٠١) الشاعر يتحدث في هـذه الأبيات عن الصوفيـة العارفين ، الذين تحرروا من سلطان العـالم المادى ، ونجـوا مـن مغرياته ، وأصبح الحـس بألوانه لا يغريهم ، بـل قنعوا بـما وراء الحس ، وعاشوا في هذه الدنيا وأعينهم وقلوبهم متعلقة بعالم الروح .

(٧٠٢ ـ ٧٠٣) كل تعشق للصور الحـسية يحجب بصيرة الروح ، ويصرف الانسان عن حب ما يبقى الى حب مظاهر براقة لا بقاء لها .

(٧٠٤) العشق الجسدى لا بقاء له . ولـو كان له بقـاء حقيقى فلماذا يتخلى العاشق عن معشوقه اذا فارقته الروح ؟

(٧٠٥) الجسـد يبقى على صورته المحسوسة بعد أن تفارقه الروح.
فلماذا ينصرف محبه عن التعلق به ؟ ان هـذا مدعاة لأن يفكر الانسان في المعشوق الحق ، الذى لا يعتريه مـن التغير ما يصرف عنه القلوب .

(٧٠٦) لو كـان المعشوق هو الجسد المحسوس ، لبقـى حس العاشق متعلقا به ، وان فارقت الروح هذا الجسد .

(٧٠٧) من طبيعة العشق أنه يزيـد الوفـاء . فأين الوفاء لجسد المحبوب اذا فارقته الروح ؟ ان الوفاء حينذاك يتخذ صورة أخرى .

(٧٠٨) ان العاشق الصورى ينخدع بالجسد حين يكون حيا بالروح ، ويغفل عن حقيقة حياة الجسد ، وما الجسد الا كجدار أشرق عليه نور الشمس ، فالنور من الشمس لا من الجدار ، والحياة من الروح لا من الجسد .

(٧٠٩) الافتتان بالجسد الحى كالافتتان بالنور المشرق فوق جدار. فالجسد سرعان ما تفارقه الروح ، والجدار سرعان ما يزول عنه النور . فالأولى بالانسان أن يتعلق بمصدر الحياة ، الذى يبث الحياة في جميع الأحياء ، كما تنشر الشمس نورها فوق كل مكان .

(٧١٠) المفتون بالعقل الانسانى وقدراته ، مضلل كالمفتون بالحس سواء بسواء ، ذلك لأن قدرة العقل الانسانى محدودة .

(٧١١) النور المشرق على الحس قبس مستعار من نور العقل الكلى . فهذا النور قد استضاءت به الحواس بصورة وقتية ، فأصابت به بعض الادراك ، وما اشراق هذا النور فوق الحواس الا كالتماع قشرة التذهيب فوق النحاس .

(٧١٢) وهكذا يكون جمال الجسد بريقا مؤقتا كبريق قشرة التذهيب ، وسرعان ما يزول هذا البريق . وان لم يكن الحال كذلك ، فلماذا تغدو المرأة الفاتنة قبيحة كالحمار الهرم عندما تبلغ الشيخوخة ؟

(٧١٥) الجسم ينحل بطول البقاء ، على حين أن الروح خالدة ، لا تتأثر بالزمان . فعلى الانسان أن يتعلق بالقلب ، ويتخلى عن التعلق بكيان قوامه العظام البالية .

(٧١٧) عندما يتحرر الانسان من ذاته يصبح هو الساقى والشارب والنشوة ؛ ذلك لأن ذاته ــ بعد فنائها في الذات الالهية ــ لا يبقى لها وجود منفصل ، كانفصال الشارب عن الساقى ، أو انفصال طبيعة الاحساس بالنشوة عن تقديم الشراب أو ارتشافه .

(٧١٨) ادراك مثل هذه الوحدة لا يمكن تحقيقه بالجدل والقياس ؛

فلا سبيل اليه الا بالطاعة الكاملة والخضوع المطلق .

(٧١٩) ان المتعلقين بالمجادلات والقياسات العقلية يحسبونها جوهر الحقيقة ،وما هذه الا صور ظاهرية براقة . انها كالقافية في الشعر ، تروق برنينها ، لكنها لا تعبر عن جوهر المعنى .

(٧٢٠ ــ ٧٢١) المعنى الحقيقى لو تجلى لروح الانسان ، لم تبق له حاجة الى الصور . والمراد بالصور هنا ألوان المناقشات والمجادلات التى يتعلق بظاهرها الحسيون والعقليون . فهذه المعارف هى التى تجعل الانسان حائرا حيرة الأعمى والأصم ، وتصرفه الى ظاهر العبارات ، وليست هى جوهر الحقيقة ، فهذه لو تجلت للروح ، زالت حاجة الانسان الى كل هذه المعارف الحسية والعقلية .

(٧٢٢) ان الحسى كالأعمى ، يتخبط على غير هدى ، في البحث عن الحقيقة ، وحظه من ادراكها كحظ الأعمى من ادراك المبصرات : كل ما يناله منها هو ما يحمله اليه خياله الضيق . أما صاحب البصيرة الروحية فهو كالعين المبصرة ، تكشفت له حقائق العرفان بعد أن تحرر من سلطان ذاته الحسية .

(٧٢٣) يدافع الشاعر هنا عن طريقة الصوفية في تفسير القرآن . فهم ينشدون المعنى الباطنى للآيات . ويقول الشاعر ان الجاهل هو الذى يقف به الفهم عند حروف القرآن ، ويحسب أنها جوهر الكتاب الكريم . ومثل هذا شبيه بمن أخطأ رؤية حماره ، وأخذ يسوق سرجه .

(٧٢٤ ــ ٧٢٥) من أحاط بالجوهر ظفر بالعرض أيضا . أما من ركز اهتمامه في الأعراض ، فلا سبيل له الى الجوهر .

(٧٢٦) الحمار في البيت رمز للجوهر ، والسرج رمز للأعراض .فظهر الحمار هو الذى يجلب الربح ، وليس السرج الذى يوضع فوق ظهر الحمار . والروح هى التى تمثل القيمة الحقيقية للانسان ، وليس الجسد الذي يكبلها بالقيود ، كما يثقل السرج ظهر الحمار .

(٧٢٧ ــ ٧٢٨) لا يزال الشاعر يستخدم « الحمار » هنا بصورة رمزية ، وهى أنه جوهر بالقياس الى السرج . وقوله : ان الرسول امتطى حمارا عارى الظهر ، كناية عن سلوكه سبيل الروح وابتعاده عما يكبلها من علائق المادة . وقوله « انه أيضا قد سافر ماشيا » كناية عن تجرد روحه من سلطان الجسد بصورة كاملة ، فكأنما كان روحا يسعى بين الناس .

(٧٢٩) ترك الشاعر هنا استخدام « الحمار » في المعنى الرمزى الذى أشرنا اليه من قبل (٧٢٧ ــ ٧٢٨) ، ونظر اليه من زاوية أخرى ، وهى أنه ذلك الحيوان الذى يسعى وراء حاجات الجسد ، فشبه به النفس الأمارة بالسوء في تمسكها بالحس ولذاته .

(٧٣٠) على النفس أن تحمل أعباء الصبر والشكر ، مهما طال بها الزمن ، لعلها تتخلص من قيود الحس ونزعاته .

(٧٣١) كل نفس مسئولة عن حمل أعبائها ، فلن تحملها عنها سواها. وكل نفس سوف تلقى من الجزاء ما يكافىء جهدها ، فلا سبيل الى الحصاد الا الزراعة .

(٧٣٢ ــ ٧٣٤) في هذه الأبيات دعوة صريحة الى العمل والجد وبذل الجهد ، ولا تقتصر هذه الدعوة على الجهاد الروحى ، بل تمتد الى الجهاد العملى في هذه الحياة الدنيا . فالأبيات تنتقد التواكل ، والركون الى الحظ ، وتنادى بوجوب الكسب ما دام الجسم قادرا ، وتدعو الى العمل وتصفه بأنه هو السبيل الى الكنز الذى يحلم المتواكلون بالعثور عليه .

وهذا المعنى العملى ينطبق أيضا على جهاد الروح . فلا سبيل الى المعرفة بدون الصبر والشكر ومجاهدة النفس ، فهى الكنز الذى يظفر به الصوفى لقاء سعيه المتواصل .

(٧٣٧) يذكر شراح المثنوى في تفسير هذا البيت حديثا يروى عن الرسول قوله : « اياكم وكلمة (لو) فانها من كلام المنافقين » .

(٧٣٨) في هذا البيت اشارة الى قوله تعالى : « وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق وأكون من الصالحين » . (سورة المنافقون ، ٦٣ : ١٠).

(٧٣٩ – ٧٤٣) إن كلمة « لو » شبيهة بالمنزل الخراب . فهذه الكلمة لا تصلح لأن تكون محورا للفكر المستقيم ، كما أن المنزل الخراب لا يصلح للسكنى . والحياة الدنيا شبيهة بالمنزل الخراب ، والناس يبحثون فيها عن السعادة فلا يجدونها ، فتواجههم دائما كلمة « لو » . ولو عرفوا السعادة الحقيقية ، لأدركوا أن ما يشقون من أجله في الدنيا ليس هو السعادة الحق ، ولكان بوسعهم أن يميزوا بين الأصيل والزائف ، واذ ذاك لا يشقون بامتناع السعادة ، لامتناع أسبابها .

(٧٤٤) الناس جميعا يبحثون عن السعادة بدون أن يدركوا حقيقة جوهرها .

(٧٤٥) لقد اختلطت القيم أمام الناس ، وظهرت كلها براقة أمام أعينهم . ومن هذه ما هو صحيح ومنها ما هو زائف . والانسان في حاجة الى محك صادق للتمييز بينها ، كما يُميز الذهب الخالص من الزائف .

(٧٤٦) اذا كان الانسان قد تحققت له القدرة الذاتية على التمييز ؛ فليمض في اختياره ، والا فان عليه أن يلتمس مرشدا يهديه .

(٧٤٧) المحك الصادق هو الذى ينبثق من الادراك الروحى . فمن لم يكن لديه مثل هذا المحك فلا بد له من مرشد صادق ، يقيه أخطار الطريق .

(٧٤٨) « الغيلان » هنا رمز للمغريات والشهوات . وصوتها يكون « مألوفا » لأنه ينبثق من الكيان الحسى للانسان . وهذه الألفة ذاتها هى التى تقود الانسان الى الدمار .

(٧٤٩) ان الشهوات الدنيوية تنادى الانسان بصوتها المغرى ليتبع سبيلها المهلك ، كما تفعل الغول حين تدعو المسافرين في الصحراء الى اتباع سبيل الضلال والهلاك .

(٧٥٠) قول الشاعر : « ان الغول ينادى كل شخص باسمه » ، يعني: أن كل انسان يتلقى النداء الذى يؤثر فيه ، فمحب المال يغرى بالمال ومحب الجاه يغرى به وهكذا .

(٧٥١) في البيت صورة فنية رائعة ، تمثل نتيجة الاستجابة لداعى الهوى والشهوة . ان ذئاب الشهوات وأسودها تحيط به ، ويكون قد ابتعد عن طريق النجاة ، ولم يبق من العمر ما يتسع لايجاد مخرج أو خلاص .

(٧٥٢) كشف الشاعر في هذا البيت عما كان يرمز اليه بصوت الغول ، فذكر أنه نداء الحرص على المال والجاه والرونق .

(٧٥٥) « لتكن قادرا على تمييز الحقيقة من الأوهام ، فسعادة الدنيا شبيهة بالفجر الكاذب ، أما سعادة الروح فهى الفجر الصادق » .

(٧٥٦) الصبر والمثابرة على التأمل الروحى ، والاخلاص القلبى في التعبد وجهاد النفس قد تتيح للعينين بصرا روحيا ، يختلف عن ابصارهما الحسى . ووصفه العينين بأنهما « تبصران الألوان السبعة » كناية عن تعلقهما بشتى ألوان العالم المادى التى يشبهها الشاعر بألوان الطيف .

(٧٥٧) الابصار الروحى يختلف عن الابصار الحسى ، فابصار الروح يقع على الحقائق الجوهرية ، على حين أن ابصار الحس يقف عند المظاهر الصورية .

(٧٥٩) ان العدم (عالم الفناء المطلق) هو مصنع الحق ، ولا سبيل للانسان الى رؤية الحق الا اذا دخل في هذا العالم . ويتحقق له هذا بنفى الذات الانسانية .

(٧٦٠) هذه المخلوقات المتعددة ، والمظاهر المتنوعة ، تحجب العيون

عن مشاهدة الصانع ، أى أنها تشغل العيون بتعددها وتنوعها ، فتقف حجابا بينها وبين شهود خالقها . ولهذا فالعدم (عالم النفى) هو وحده مكان شهود الخالق .

(٧٦٢ ـــ ٧٦٣) عالم الامكان هو الذى يظهر قدرة الخالق وروعة صنعة بأجلى صورة ، فهو دائم الخلق ، يصنع من العدم وجودا ، فمن دخل في « العدم » شهد روعة الصنع .

(٧٦٤) « فرعون » رمز للانسان الحسى ، الذى لا يؤمن بقدرة وراء عالم الحس . لقد كان مغرورا بملكه وقوته ، وغفل عن قدرة الله الخالقة، فأمر بقتل الذكور من بنى اسرائيل ، حتى لا يظهر من بينهم من يقوى على أن يزيل ملكه .

(٧٧٠) لو كان فرعون مدركا لقدرة الله التى لا نهاية لامكاناتها ، لجمدت يداه وساقاه عن ارتكاب مظالم ما كانت لتجديه نفعا .

(٧٧٤) الانسان الحسى يتصور أن له عدوا خارج كيانه ، فيجهد نفسه في البحث عنه ، مع أن ألد أعدائه نفسه التى بين جنبيه . وهكذا كان فرعون يبحث عن عدوه في كل مكان ، على حين أن العدو الحقيقى « موسى » كان ينعم بالسلامة في منزل فرعون .

(٧٧٦ ـــ ٧٨٥) يروى الشاعر حكاية رجل قتل أمه لأنها قد ارتكبت الزنى فلما عوتب لارتكابه تلك الفعلة ، وذكر بأنه كان أولى به أن يقتل شريكها في الزنى قال : « كان على اذن أن أقتل كل يوم رجلا ! » وهذه القصة قد رويت لتصوير النفس الحسية ، وما ينبثق عنها من شرور . فهى تدفع الانسان الى العدوان ، والجرم ، ولا سبيل الى التخلص من شرها الا بقتلها ، واذ ذاك يتحقق للانسان الأمن والسلام والسكينة ، ويسود بين الناس الوئام .

(٧٨٦ ـــ ٨٠١) يجيب الشاعر في هذه الأبيات عن شبهة قد تثور في نفس القارىء حول الأنبياء والأولياء ، وطبيعة صلتهم بالناس .

فالأنبياء والأولياء قد قتلوا نفوسهم الحسية ، فلماذا لم يتحقق السلام بينهم وبين الناس ؟

ويجيب الشاعر على هذه الشبهة بأن هؤلاء الناس الذين عادوا الأنبياء ، كانوا في حقيقة الأمر أعداء لانفسهم .

فالخفاش الذي يكره الشمس ليس عدوا لها ، لكنه غير قادر على ابصار نورها ، على حين أن الشمس ذاتها لا تتحمل منه عناء . وجميع الكافرين حجبوا أنفسهم عن الشعاع الذى فاض من جوهر الأنبياء . فالكفار الذين عادوا الأنبياء مثلهم كمثل المرضى يعادون الطبيب ، أو الصبيان يعادون المعلم .

(٧٩٠) لم يكن كفر الكافرين مضرا بالأنبياء ، لكنّ ضرر ذلك وقع على الكفار أنفسهم .

(٨٠٢) « ان كنت قد خلقت قبيحا فلا تزدد قبحا بحسدك سواك » .

وقد بدأ الشاعر هنا ينتقل الى الحديث عن الحسد ، وهو خليقة مرتبطة بحقد الكفار على الأنبياء .

(٨٠٣) هذا البيت قد فسر تفسيرات غريبة لا أرى داعيا لها .

(أنظر أمثلة منها في تعليقات نيكولسون) . وأعتقد أن الشاعر يريد بهذا البيت أن الانسان اذا كان محروما من احدى النعم ، فعليه ألا يضيف الى الحرمان ما هو أقسى منه ، ألا وهو الاحساس بالحسد . واذا كان الانسان موزع الخاطر بين أمرين ، فعليه ألا يزيد الأمر سوءا ، ويصبح مشتتا بين أربعة أمور متعاكسة .

(٨٠٤ـ ٨٠٥) انتقل الشاعر من الرمز للحسد الى الحديث عنه بصريح العبارة ، وذكر أنه أسوأ من جميع النقائص . فالحاسد الذى يستشعر التخلف عن سواه ، يوقعه الحسد في شر النقائص .

(٨١١ ــ ٨١٣) ان بعث الرسل يكشف عما كمن في نفوس الناس من الحسد . فالناس لا يستنكرون الخضوع للخالق ، وليس منهم من هو

حاسد لله ؛ لكنهم يحسدون الرسول اذ يحسبونه بشرا شبيها بهم .

(٨١٥) ليس يخلو أى زمن من ولى قائم ، ويكون ظهوره امتحانا للخلق ، يكشف عن كامن الحسد في نفوسهم .

(٨١٧) الامام الحق هو الولى . ولا عبرة بالنسب في استحقاق مثل هذه الامامة ، ذلك لأنها مبنية على صفاء الروح والتقوى .

(٨١٨) مثل هذا الامام هو المهدى والهادي ، وقد يكون بين الناس، أو بالقرب منهم ، ومع ذلك تخفى عليهم حقيقته . وهذا وصف القطب الأكبر ، الذى اعتقد الصوفية أنه امام الزمان .

(٨١٩) هذا القطب الأكبر يستمد من الله نور العرفان .

أما الولى الذى هو أدنى درجة فيستمد النور من عقل القطب ، فالقطب يحمل العرفان الى تابعه المباشر ، كما حمل جبريل رسالة السماء الى الرسل . والأولياء الذين يجيئون في المرتبة بعد القطب الأكبر هم الأبدال . ويقال ان عدد هؤلاء سبعة .

(٨٢٠) هناك بعد الأبدال أولياء آخرون هم أقل مرتبة من الأبدال، ودرجتهم في النور أقل من درجة هؤلاء ، فنورهم كالمشكاة ، ونور الأبدال كالقنديل .

(٨٢١ — ٨٢٦) يروى عن الرسول أنه قال : « ان الله سبعمائة حجاب من نور وظلمة » . فكأنما كل ولىّ — على مقتضى درجته — ينتمى الى طبقة من طباق هذا النور .

وقد أورد الغزالى هذا الحديث في « مشكاة الأنوار » على النحو التالى : « ان لله سبعين حجابا من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره » . يقول : وفي بعض الروايات سبعمائة ، وفي بعضها سبعين ألفا . (ص ٨٤) . وقد شرح الغزالى معنى هذا الحديث في الفصل الثالث من « المشكاة » ، وعنده أن الأعداد «سبعمائة» أو « سبعين ألفا » وردت على سبيل التكثير لا على سبيل الحصر . وقد

حاول أن يذكر أصناف المحجوبين على سبيل المثال لا الحصر وانتهى الى قوله : « فانهم انما يحجبون بصفاتهم البشرية ، أو بالحس ، أو بالخيال ، أو بمقايسة العقل ، أو بالنور المحض » . (ص ٩٣) .

وذكر عبد الرحمن الانصارى هذا الحديث ، ثم علق عليه بقوله : « أما الحجب فقد ثبت بالبراهين أن الحق تعالى لا يسره حجاب ، وانما الذى حجبه عن خلقه شدة ظهوره ، وعجز الخلق عن رؤيته لقوة نوره ». (مشارق أنوار القلوب ص ١٢٥) .

(٨٢٥) النور الذى يطيقه القطب وينعم به ، لا يكون في وسع صاحب الحس الأحول أن يقترب منه .

(٨٢٦) « اذا تجاوز المرء الأستار السبعمائة فني في بحر الوحدة » .

(٨٢٧ ــ ٨٣٩) كل انسان يأخذ من النور على قدر طاقته الروحية . وفي هذه الأبيات أمثلة متعددة يصور الشاعر بها هذا المعنى . فالحديد يحتاج في صياغته الى لهب قوى ، على حين أن التفاح أو السفرجل يطبخ بلهب لطيف ، وهكذا .

(٨٢٩) « التنين » رمز للنار القوية المستعرة .

(٨٣٦) القطب الأكبر بمثابة القلب ، والعالم بمثابة الجسد ، وتدبير العالم بحكمة منوط بالقطب ، كما أن تدبير الجسد منوط بالقلب .

(٨٣٩) قلب العارف هو المعدن الصافى ، وأما قلوب العامة فكدرة شبيهة بالأجساد .

(٨٤١) « قد يسىء العوام فهم ما نقول ، فتصبح محاسننا مثالب في نظر هؤلاء ، برغم أن كل قولنا صادر عن تجرد من الهوى » .

(٨٤٢) من كان معرضا عن الذوق الصوفى فخير له ألا يدعى الى ذلك ، فتلك دعوة لا تلائمه ، ومن الأفضل أن يبقى خارج نطاقها . فهو

في معرفة الروح فقير متسول ، ولا مكان له في محفل أصحاب القلوب .

(٨٤٨) قد يعثر في الخرائب على كنز ويكون الى جانبه ثعبان .وقد استعار الشاعر هذه الصورة للانسان الذى يكون قوى الروح نقي الفؤاد، ومع ذلك لا يخلو من بعض نزعات الحس . فالكنز هو العرفان الروحى ، والثعبان هو نزعات الحس .

(٨٥٣) عندما يصبح نور القرآن هو نور البصيرة الانسانية ، يكون لدى الانسان الجواب عن كل ما يثور في نفسه من شبهات .

(٨٥٤) اذا لم يتحقق للعين سداد النظر بنور القرآن الكريم ، فهى عين حولاء ، ثنائية الشهود ، أسيرة الشبهات .

(٨٥٦) « الفكر شعاع ذلك الجوهر » يعنى أن الفكر شعاع من نور القرآن الكريم .

(٨٥٧) بعد دعوة الفكر الى التأمل والمشاهدة ، يسفه الشاعر هنا المعارف النقلية التى يعتمد في تلقيها على السماع .

(٨٥٨) « ليست المعرفة الروحية المبنية على العيان والمشاهدة كالمعرفة النقلية ، فهذه تبدو سوقية ، اذا قورنت بعرفان أهل الوصال » .

(٨٥٩) المعرفة النقلية محدودة الأثر . انها قد تؤدى الى تبديل في صفات متلقيها ، أما تبديل الذات من حال الى حال ، فلا سبيل اليه الا بالشهود والعيان .

(٨٦٢) الأذن حين تحسن الاستماع يمكن أن تصبح سبيلا الى العلم اليقينى . فالمريد يتلقى من المرشد ــ عن طريق السمع ــ ما يمهد له السبيل الى التأمل الروحى .

(٨٨٣) السمنى هو عابد الصنم . ويشبه الشاعر من يركز نظره على سواه ، ويغفل عن ذاته بعابد الصنم الذى يلهيه الصنم عن ادراك حقيقة روحه وجوهر كيانه .

(٨٨٤) من عرف نفسه فقد عرف خالقه . فادراك الانسان لحقيقة ذاته يجعله أكثر استنارة من سواه من مخلوقات الله ، وهو ان فنى عن ذاته بالشهود ، بقي له هذا الشهود ، اذ أنه يغدو مبصرا بعين الله .

(٨٨٦) معرفة الذات ليست مما يمكن ادراكه بالحس . فالانسان لا يرى بالحس سوى الصورة الظاهرية .

(٨٩٢) من لم يكن مدركا قدرة الله الخالقة لم يَجُد بالروح .

(٨٩٣) الانسان الذي يكون بصيرا بقدرة اللهالخالقة لا يضن بحياته على الله ، لأنه يعلم أن الجود بها سوف يجعله مستحقا — من جزاء الله — ما يعوضه عنها بحياة خالدة لا زوال لها .

(٨٩٧) ان الجود بالروح مبعثه رؤية الجزاء . فمن أدرك حقيقة ذلك الجزاء الالهي ، هان عليه البذل والعطاء .

(٨٩٨) البخل — في نظر الشاعر — عجز عن ابصار الجزاء . فمن هذا الوجه يكون البخل جحودا وانكارا لما وعد به الله من حسن المثوبة .

(٨٩٩) لا وجود اذن للبخل في العالم ، وانما مرد ذلك الى الجحود. فمن لا يعتقد بالجزاء ، لا يتقبل بالرضى مبدأ الجود .

(٩٠٠) رؤية الجزاء الأوفى هى التى تدفع الى السخاء . ولهذا فان البصيرة هى الدافع الى السخاء . والمشاهدة الروحية هى وحدها سبيل النجاة .

(٩٠٩) ترجمة البيت على هذا النحو هى السبيل الوحيد لتفسيره. فكلمة « بركرفت » يجب أن تفهم على أساس « الامساك » فالله خلق النور الصافي ، وأمسك عنه حرارة النار . أما أن يفهم من البيت أن الله خلق النور الصافى من النار ، فهذا ما لا يمكن تأويله ، فسواء أكان المقصود بالنور الصافي نور محمد ، أو كان هذا النور هو النور الابداعى الأول ، الذى يتحدث عنه الاشراقيون ، فهو لم يخلق من النار .

يقول السهروردي عن النور الأول : « فأول ما يجب بالأول واحد لا كثرة فيه ، وليس بجسم فتختلف فيه هيئات مختلفة كالشكل ، ولا هيئة فيحتاج الى محل ، ولا نفس فيحتاج الى بدن ، بل هو قائم مدرك لنفسه ولبارئه . وهو النور الابداعي الأول ، لا يمكن أشرف منه ، وهو منتهى الممكنات ، وهذا الجوهر ممكن في نفسه ، واجب بالأول » . (هياكل النور ، ص ٦٢ ، ٦٣) .

وهذا النور الابداعي الأول ، هو الذي يقول عنه الصوفية انه النور المحمدي . (انظر : الجيلي : الانسان الكامل ، الباب الثامن والخمسون : « في الصورة المحمدية ، وأنها النور الذي خلق الله منه الجنة والجحيم ، والمحتد الذي وجد منه العذاب والنعيم » ، ج ٢ ، ص ٣١) .

(٩١٠) « لقد اقتبس آدم العرفان من النور المحمدي » .

يقول ابن الفارض في التائية الكبرى :

واني وان كنت ابن آدم صورة فلي فيه معنى ناطق بأبوتي

(٩١٢) « الجوهرة » التي كان نوح جديرا بها هي الخلافة في الأرض .

أما قول الشاعر : « فكم كان يمطر الدر في جواء بحر الروح » ، فيشير الى خرافة قديمة ، تحكي أن اللآلىء تتكون من قطرات المطر المتساقط في أجواء البحار » .

(٩١٣) اشارة الى قصة القاء ابراهيم في النار بأمر النمرود ، وخروجه منها سالما (انظر : مثنوى ، ١ ، ٥٤٧ في الترجمة والتعليقات) ، وانظر القصة في القرآن الكريم (٢١ : ٦٨ ــ ٦٩) .

(٩١٤) اشارة الى قصة اسماعيل واستسلامه لنصل أبيه ابراهيم ، تصديقا للرؤيا التي كان ابراهيم قد رآها . وقد ذكرت هذه القصة في القرآن الكريم (٣٧ : ١٠١ ــ ١٠٧) . واسم اسماعيل لم يرد بصريح

القول في هذه الآيات ، لكن بعض المفسرين ، وكذلك الثعلبى صاحب قصص الأنبياء يذكر أن الغلام المقصود بقوله تعالى : « فبشرناه بغلام حليم » ، هو اسماعيل ، وأنه هو الذى استسلم للقتل تصديقا لرؤيا أبيه، ففداه الله بذبح عظيم .

(٩١٥) عرف داوود ببراعته في صنع الدروع . وقد أشار الى ذلك القرآن الكريم بقوله : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون » . (٢١ : ٨٠) .

(٩١٦) ذكر القرآن الكريم في أكثر من موضع أن الجن سُخِّرت لسليمان . ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : « فسخّرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين في الأصفاد » . (٣٨ : ٣٦ ــ ٣٨) .

(٩١٧) كان يعقوب قد فقد بصره من كثرة بكائه على ابنه يوسف . لكن بصره عاد اليه حينما ألقي على وجهه قميص يوسف . (سورة يوسف ، ١٢ : ٨٤ ، ٩٦) .

(٩١٨) انظر ما رواه القرآن الكريم عن تأويل يوسف للأحلام . (١٢ : ٤٣ ــ ٤٩) .

(٩١٩) ان موسى أظهر بعصاه معجزة قضت على ملك فرعون . قال تعالى عن موسى وسحرة فرعون :« فألقى موسى عصاه فاذا هي تلقف ما يأفكون » . (٢٦ : ٤٥) . ولم يقتصر أثر هذه المعجزة على السحرة وحدهم ، بل كان من آثارها القضاء على ملك فرعون .

(٩٢٠) يقول الثعلبى في قصة عيسى بن مريم : « رفعه الله وكساه الريش وألبسه النور وقطع منه شهوة المطعم والمشرب ، فهو يطير مع الملائكة حول العرش ، فكان انسيا ملكيا ، أرضيا سماويا » . (قصص الأنبياء ، ص ٤٥٤) .

(٩٢١) اشارة الى معجزة شق القمر التى ظهرت على يد الرسول ،

وتروى في تفسير قوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر » . (٥٤ : ١) . فالذين فسروا الآية على هذا الوجه ذكروا أن المشركين سألوا رسول الله آية ، فأشار الى القمـر فانشق .

(٩٢٦ ــ ٩٣٠) ذكر الشاعر في هذه الأبيات بعض المشهورين مـن الصوفية . وهؤلاء هم الجنيد ، وأبو يزيد البسطامى ، ومعروف الكرخى، وابراهيم بن أدهم ، وشقيق البلخى ــ ولهؤلاء تراجم كثيرة في كتب التصوف . انظر : أبو نعيم الاصفهانى : حلية الأولياء ، السلمى : طبقات الصوفية ، الشعرانى : لواقح الأنوار ، اليافعى : مرآة الجنان ، العطار : تذكرة الأولياء ، القشيرى : الرسالة . وانظر كذلك كتب التراجم العامة كوفيات الأعيان لابن خلكان ، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلى .

(٩٢٦) الجنيد البغدادى ،من مشهورى الصوفية .توفى عام ٢٩٧ هـ .

(٩٢٧) المقصود هنا الصوفى المشهور أبو يزيد البسطامى ، المتوفى عام ٢٦٠ هـ ، ويقال عام ٢٦١ هـ .

(٩٢٨) الكرخى هو أبو محفوظ معروف بن فيروز أو ابن الفيروزان. وهو من صوفية بغداد المعروفين . توفى عام ٢٠٠ هـ ، وقبره ببغداد . وقد ولد لأبوين نصرانيين ، واعتنق الاسلام ــ كما يروى ــ علـى يد علـى بن موسى الرضى ، امام الشيعة .

(٩٢٩) ابراهيم بن أدهم ، ويذكر السلمى في ترجمته أنه « من أهل بلخ ، كان من أبناء الملوك والمياسير . خرج متصيدا ، فهتف به هاتف أيقظه من غفلته . فترك طريقته في التزين بالدنيا ، ورجع الى طريقة أهل الزهد والورع . وخرج الى مكة ، وصحب بها سفيان الثورى ، والفضيل بن عياض ، ودخل الشام ، فكان يعمل فيه ، ويأكل من عمل يده » . (طبقات الصوفية ، ص ٢٧) . توفى بالشام عام ١٦٠ هـ .

(٩٣٠) شقيق البلخى هو المقصود بهذا البيت . يقول السلمى : « شقيق بن ابراهيم ، أبو علىّ الأزدى . من أهل بلخ . حسن الجرى

على سبيل التوكل ، وحسن الكلام فيه . وهو من مشاهير مشايخ خراسان . وأظنه أول من تكلم في علوم الأحوال بكور خراسان . كان أستاذ حاتم الأصم ؛ صحب ابراهيم بن أدهم ، وأخذ عنه الطريقة » . (طبقات الصوفية ، ص ٦١) . توفى عام ١٩٤ هـ .

(٩٣١) يروى عن الرسول حديث قدسي نصه : « أوليائى تحت قبابى لا يعرفهم غيرى » . ويستشهد السلمى[1] على وجود أولياء مجهولين بقوله تعالى في سورة الفتح : « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء » . (٤٨ : ٢٥) . وهذه الآية تذكر أن من أسباب كف أيدى المؤمنين عن الكفار يوم فتح مكة أنه كان بين الكفار مؤمنون ومؤمنات لا يعرفهم المؤمنون الفاتحون . وعند الصوفية أن الله « لم يخل وقتا من الأوقات من داع اليه بحق ، أو دال عليه ببيان وبرهان » . (المصدر السابق) .

(٩٣٩) « ماذا حصلت أنت من العرفان ، وأية درة ظفرت بها من بحر الروح ؟ »

(٩٤٣) « ما دامت هذه الحياة المادية لا تبقى فمن الواجب على المرء أن ينشد حياة الروح الخالدة » .

(٩٤٤ — ٩٥٧) في هذه الأبيات يعالج الشاعر موضوع الأعمال . وهل قيمة الفعل الحسن في الفعل ذاته ، أم في نتيجة ذلك الفعل .والشاعر قد جعل الملك يشرح لغلامه أن العبرة ليست بالفعل بل بنتيجته . فقوله تعالى : «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها» ، لا يقصد به أن الثواب نتيجة للفعل ذاته — وهو عرض — بل هو نتيجة لتقديم الفعل الى الله وهذا هو جوهر الفعل . وكأنما يريد الشاعر باجراء هذا الرأى على لسان الملك ، أن يقول : ان الله لا يكافىء على الفعل ذاته بل على النية الدافعة

(١) طبقات الصوفية ، ص ١ .

اليه والنتيجة المترتبة عليه بالنسبة لفاعله فتسبيح المرائي لا قيمة له ، وصلاة المنافق لا جدوى منها . والهدف من الأعمال الحسنة ليس الفعل ذاته ، بل نتيجة الفعل وهي تنقية النفس وتطهيرها ، والتقدم بها الى الله نقية بريئة من السيئات . وهذا البحث في قيمة الفعل مرتبط بالأخلاق ارتباطا وثيقا ، وهو يختلف عن أبحاث الفعل التى قام بها المتكلمون ، والمعتزلة منهم بوجه خاص ، وكانت أبحاثهم مرتبطة بأسباب الحسن والقبح وهل هي عقلية أو شرعية ، ومتعلقة بالاستطاعة ، وهل هي من الله أو من الانسان. لكنهم لم يتناولوا هذا الجانب الأخلاقى الدقيق ، الذى يتناول علاقة الفعل بالفاعل من حيث النية والأثر .

(٩٤٧ ــ ٩٤٨) الأفعال الحسنة في ذاتها أعراض تفنى بانتهاء وقتها. لكن هذه الأعراض تنقى جوهر الروح من الأمراض . فمثل هذه الأعمال لا تنفع الخالق ، بل تنفع صاحبها اذ تنقى روحه ، وتسمو بنفسه.

(٩٤٩) « العرض يغدو بالجهد جوهرا » ، فالأفعال الحسنة التى هى أعراض تغدو جوهرا حين تنقى الروح الانسانى وتبلغ به درجة الكمال . ذلك لأن الفعل في ذاته لا بقاء له ، لكن نتيجته تبقى ببقاء الجوهر الذى أثرت فيه ، وهو الروح الانسانى .

(٩٥٨ ــ ٩٦٣) يعرض الشاعر وجهة نظر أخرى عن الأعمال على لسان الغلام . فالخادم ــ الذى هو أدنى مقاما من الملك ــ هو في أسلوب الرمز أدنى عرفانا من الملك . فهو هنا يمثل الاتجاه العامى في تقويم الأفعال ، وأنها ــ ليست كما يقول الملك ــ أعراضا لا توجد في زمانين ، بل تفنى بفناء وقتها ، وانما هى ــ في رأى الخادم ــ تعود ، وتحشر مع الانسان ، وتكون لها صورتها الخاصة بها يوم الحشر . ولو كان مآل الأفعال الحسنة الى الفناء ، لكان ذلك مدعاة لقنوط فاعليها .

(٩٦٤ ــ ٩٨٢) يقدم الخادم أمثلة كثيرة للأعراض التى أصبحت جواهر ، فيذكر أمثلة لكثير من الأمور العرضية التى تنبثق عنها جواهر

مكتملة . فالديار والقصور الجميلة ، أولم تكن أفكارا عارضة في ضمير المهندس ؟ وكل عمل فنى متكامل ، أولم يكن في أول الأمر خيالا عارضا ؟ فما كان في أول الأمر فكرا مجردا ، أصبح عملا . والزارع حين يزرع يكون دافعه الى ذلك ما يجنيه من ثمار، وهذه لا تظهر الا في النهاية . والعالم كله كان عرضا في عالم الامكان ، فأصبح جوهرا في عالم الوجود .

وكل هذه الأمثلة التى ذكرها الغلام تشير الى امكان حشر الاعمال ، برغم أنها من الأعراض .

ولقد أبدع الشاعر في عرض وجهتى النظر ، ودافع عن كل منهما بأسلوب بارع . ومع أنه قد رجح في النهاية رأى الملك ، فهو قد أتاح لكل رأى عرضا جميلا ، ودفاعا حارا .

(٩٧٤) كان ظهور محمد ــ وهو الانسان الكامل ــ غاية لخلق هذا الكون كله . ويروى الصوفية حديثا قدسيا نصه : « لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك » ، وعندهم أن هذا الحديث يعنى أن محمدا هو الغاية من خلق العالم .

(٩٧٥) هذا البحث والحديث المتبادل بين الملك والغلام كان عرضا يهدف الى ادراك الحقيقة . وهكذا أيضا قصة الأسد وابن آوى (من قصص كليلة ودمنة) ، ان هى الا صورة ، تستخلص منها الحقيقة .

(٩٧٦) هذا البيت يقبل تفسيرين : أولهما أن البشر قبل أن يخلقوا ، كانوا أعراضا لا وجود لها الا في عالم الامكان . لقد كانوا عدما ، ولم يكن يربطهم بهذا الوجود سوى امكان خلقهم . أما التفسير الثانى فهو أن جميع الناس يخلقون من نطفة لا صورة لها ، ثم يتخذون بعد أن يخلقوا تلك الصورة التى يكونون عليها .وقد يؤيد هذا الشرح أن الشاعر يستشهد هنا بسورة الانسان ، والآية الثانية منها تتحدث عن خلق الانسان من نطفة . قال تعالى : « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ، انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا

بصيرا » . (٧٦ : ١ ـــ ٢) .

وبرغم ذلك أعتقد أن التفسير الأول الذى ذكرناه أقرب الى السياق . ذلك لأن الشاعر يتحدث في الأبيات التالية عن العقل الكلي ، ومعنى الأبيات يشير الى أن الشاعر كان يتحدث عن نظرية الخلق ، بلغة القائلين بوحدة الوجود .

(٩٨٣) الملك يخاطب خادمه قائلا : « لو سلمنا جدلا برأيك ، وهو أن الأعراض تنجب الجواهر ، فلماذا لم يتحقق ذلك بالنسبة لك ، وبقيت على ظاهرك ، ولم تغير من هذا الظاهر حقيقة باطنك ؟ »

(٩٨٤) أجاب الخادم الملك بقوله : « ان العقل الكلى حجب صورة الباطن عن الناس في هذه الدنيا . فالدنيا عالم امتزج فيه الخير بالشر ، والارادة الالهية قد قضت بألا تتبين فيها حقيقة الضمائر والأرواح » .

(٩٨٥) « لو كانت خلجات النفوس وخبايا الضمائر تُرى في هذه الدنيا ، لاختفى منها الخبث ، وتساوى الناس في نقاء القلب » . وشرح نيكولسون لهذا البيت بعيد كل البعد عن معناه .

(٩٨٦ ــ ٩٨٧) « لو كان الكفر بقبحه يرتسم على الجبين ،والايمان يتجلى على الوجوه بجماله ورونقه ، فهل كان يبقى كافر واحد في هذه الدنيا ؟ وهل كان انسان يجترىء على الجحود ؟ »

(٩٨٨) لو أن الخير والشر ظهرا على حقيقتهما للناس لكانت هذه الدنيا كالعالم الآخر ، ولما كان هناك مقترف للآثام .

(٩٩٢) الملك يقول لخادمه : « اذكر لى علامة واحدة تشير الى عرفانك الصوفى ، ولسوف أعلم منها كل شىء ، وأدرك أسرار عرفانك مهما أحاطت به الحجب » .

(٩٩٣ ــ ٩٩٤) يقول الخادم للملك : « ما دمت قادرا على كشف المحجوب فما حاجتك الى قولى ؟ » فيجيبه الملك بقوله : « ان الحق ذاته أراد العيان لعلمه ، فخلق الدنيا » .

(٩٩٥) طبيعة العيان تختلف عن طبيعة العلم . فالخالق لم يلق على الخلق أعباء الأمانة والمسئولية الا بعد أن جاء بهم الى عالم الوجود . وهذا الوجود الدنيوى قد فرض على الخلق ألم المخاض في سعيهم للتحرر مما يفرضه عليهم من أثقال ، سعيا الى حياة أسمى ، ووجود أبقى .

(٩٩٦) من طبيعة الوجود الدنيوى أن الانسان يكون فيه عرضة للدوافع المختلفة . فهذه الدوافع تحركه نحو الخير أو الشر .

(٩٩٧) من شأن الدوافع التى تحرك الانسان أن تؤدى الى كشف سره وبيان طبيعته .

(٩٩٨) طالما أن الضمير يتحرك ، ويثير الدوافع ، فلا سكون للجسد .

(٩٩٩) دفع الضمير للانسان يجعله يعانى من القلق المستمر . وهذا الاحساس ذاته هو الذى يجعل خلو الانسان من العمل أمرا شديد الايلام ، كأنه نزع الروح .

(١٠٠٠) في هذا العالم ، وكذلك في العالم الآخر ، تولد الأسباب على الدوام ، وهذه الأسباب تترتب عليها الآثار . فحركة العالمين مبنية على الأسباب ، وما تولده من آثار . ووراء ذلك كله مسبب الأسباب .

(١٠٠١) كل أثر ترتب على سبب يصبح بدوره سببا تترتب عليه آثار ، فالبذرة سبب في نمو الشجرة . فالشجرة اذن أثر للبذرة . لكنها من جهة أخرى سبب للثمار . والثمار أثر للشجرة ، ولكنها من جهة أخرى سبب للغذاء ، وهكذا .

(١٠٠٣) استطاع الملك — بحديثه مع الغلام — أن يرى علامة خفية دلته على ما كان عليه هذا الغلام من العرفان .

(١٠٢٣ — ١٠٢٤) كل الأجساد تنطوى على أرواح ، ولكن هذه الأرواح ليست جميعا صافية طاهرة نبيلة .

(١٠٢٦ — ١٠٤٥) عالج جلال الدين في هذه الأبيات الصورة والمعنى ،

أى الجسد والفكر . وبين أن العبرة ليست بالضخامة ، فالجبال الضخمة أقل قيمة من اليواقيت الصغيرة . والجسد العظيم يسيره فكر خفى . وقدم صورا فنية كثيرة لايضاح هذه المعانى . فالملك وهو فرد واحد ، يتبعه الآلاف من الناس . وهذا الملك ذاته يخضع لسلطان الفكر . والعين وهى صغيرة الحجم أكثر ادراكا من الأيدى والأرجل والشعر ، مع أن هذه تفوق حجم العين مئسات المرات . والخلق كلهم يتحركون مندفعين بسيل الفكر . وهذا العالم الواسع الأرجاء ، بأرضه وشمسه ونجومه وأفلاكه ، يتحكم فيه سلطان الفكر . ويوم تقوم الساعة فان سلطان الفكر هذا يجعل كل هذه الظواهر – التي تروعنا برونقها وجلالها – حطاما وعهنا منفوشا وهباء . فعلى الانسان أن يدرك أين تكمن القوة في الانسان ، فلا يعد الجسد سلطانا في قوة سليمان ، في حين أنه يحسب الفكر نملة .

فالفكر أساس كل الحرف . والفكر هو الذى عمر الأرض بالديار والقصور والمدائن .

(١٠٤٩) أياز كان غلاما تركيا جميلا ، من عبيد السلطان محمود الغزنوى (٣٨٩ – ٤٢١ هـ) . وكان محمود شديد التعلق بأياز ، وقد اشتهر ذلك الحب في تاريخ محمود . (انظر : نظامى عروضى : جهار مقاله ، ص ٣٩ ، طبعة لندن) .

(١٠٥٠) الأولياء كانوا ذوى أرواح حية مدركة قبل أن يخلق هذا العالم . لقد سبق لجلال الدين ذكر ذلك (انظر الأبيات ١٦٨ – ١٧٥) . فالشاعر يعزو هذه الألفة بين الملك وغلامه ، الى سابق محبة كانت بين روحيهما قبل خلق هذا العالم .

(١٠٥١) حياة الجسد لا اعتبار لها اذا قورنت بحياة الروح قبل الجسد ، ويصدق ذلك – بوجه خاص – على الأولياء ، الذين نعموا

بحياتهم الروحية قبل خلق الأجساد .

(١٠٥٢) العارف ذو النظر السديد لا يخطىء الرؤية ، ويبصر الأشياء على حقيقتها ، فيدرك بذلك جوهرها الأصيل ، غير حافل بما آل اليه ظاهر حالها .

(١٠٥٣) العارف يبصر الحقيقة في جوهرها ، سواء نظر اليها في النهار المضيء أو الليل المظلم .

(١٠٥٤) ما سبق تقديره فلا سبيل الى الفرار منه . ومهما احتال المرء للخلاص من قدر الهي سابق ، فان حيلته لا بد أن تذهب هباء . (انظر : المثنوي ، ج ١ ، الأبيات ٩٥٠ — ٩٧٠) .

(١٠٥٥) في هذا البيت اقتباس معنوى من قوله تعالى : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » . (٣ : ٥٤) .

(١٠٥٨) مهما احتال الانسان ليغير الأقدار ، فلا سبيل له الى ذلك : فالقضاء راسخ لأنه ارادة الله ، وارادة الانسان — أمام الارادة الالهية — واهية عاجزة .

(١٠٦٢) ليكن سعيك وجهدك كله من أجل الله ، ان كنت بحق تستشعر المحبة الالهية .

(١٠٦٤ — ١٠٦٥) يصور الشاعر النفس الأمارة بالسوء بلص يختلس المتع ، تحجب حقيقته هذه الحياة الدنيا ، فاذا تجلى صبح البعث وتكشفت السرائر ، كان في ذلك افتضاح النفس السارقة . وكل ما سرقته يبقى عالقابها ، لأنها تبعث على ما كانت عليه في حياتها الدنيا ، ويتكشف ما كان خافيا من نقائصها ، فكأنها لص ضبط متلبسا بالسرقة .

(١٠٦٨ — ١٠٧٠) بعد أن بين الشاعر أن الانسان في هذا الوجود أسير القضاء ، تصور أن سائلا يسأله : « ما فائدة الوجود اذن ، وما جدوى خلق الانسان ؟ » ويجيب الشاعر على ذلك بأن مجرد السؤال عن

فائدة الوجود ، هو في ذاته فائدة محققة . فمثل هذا السؤال رمز للتفكر والتأمل .

(١٠٧١) لئن كانت الحياة الدنيا ـ من جهة لذاتها ومتعها ، وصرفها الناس عن خالقهم ـ تبدو عديمة الفائدة ، فهى من جهة أخرى حافلة بالفوائد : انها مجال لتجلى القدرة الالهية ، وهي ميدان لتأمل هذه القدرة ، ثم هى السبيل الذى يسلكه الخلق الى الآخرة .

(١٠٧٢) اذا كانت الحياة الدنيا تبدو غير مفيدة للعارفين ، فليس معنى ذلك أنها غير مفيدة لسواهم . فمن الممكن أن تصير هذه الحياة ـ بالنسبة للمحرومين ـ سبيلا الى العرفان ، ووسيلة للتحقق به .

(١٠٧٥) انظر البيت رقم ٦٩٤ .

(١٠٧٦) اشارة الى قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » . (٣ : ١٦٩) .

(١٠٧٩) النفس المتعلقة بلذات الدنيا تكون متعلقة بقوت عارض . فهذه الحياة المادية صورة مؤقتة للانسانية ، ترجع منها الى أصلها الروحى . ولهذا فان النصح والتهذيب يردان النفس عن هذه الطبيعة المنحرفة .

(١٠٨٤) القلب العليل أصابه ما أصاب النفس الحسية ، فتعلق أيضا بلذات الحس (الماء والطين) .

(١٠٨٥) لقد خارت قوى القلب من جراء التعلق بالماء والطين ، « فأصبح شاحب الوجه ، واهى الساقين ، خفيف اللب . وما ذاك الا لانصرافه عن غذاء السماء .

(١٠٨٦) الغذاء الروحي لا يقتضى تناوله حلقا ولا أداة طعام .

(١١٠٢) دأب جلال الدين على ذكر الأفلاك التسعة في المثنوى ، بالرغم من أن المعروف أن السموات سبع . وقد ذكر بعض شراح المثنوى أن الفلك التاسع هو « العرش الأعظم » (المنهج القوى ، ٢ : ٢٦٧) .

انظر أيضا : (تعليقات نيكولسون على هذا البيت) . ورأيي أن جـلال الدين يقصد بالفلك التاسع السماء السابعة . والسماء السابعة هي الفلك التاسع ، اذا أخذنا في اعتبارنا أن بعض الصوفية يضيفون الى أفلاك السموات السبع فلكين آخرين يحيطان بالأرض هما فلك الهواء أو « كرة الهواء وفلك النار أى « كرة النار». (انظر : الجيلى : الانسان الكامل، ٢ ، ٦٦) . فمعنى البيت أن هذه المعانى التى لا تبدو في الدنيا ذات مجد ورواء ، تنتمى الى أعالى السماء ، ولها مجد ورواء مستمد من تلـك الأعالـى .

(١١٠٦) أعتقد أن المتحدث هنا هو الولىّ الذى ينكر على الناس اندفاعهم وراء مجد زائف ، على حين أنه ينعم في عزة ، تغمرها شمس الحقيقـة .

(١١٠٧) قول الشاعر : « ومشرق الشمس برج أسود اللون»، يحتمل أحد تفسيرين . أولهما أن الناس يترقبون اشراق الشمس من سماء مظلمة . وثانيهما أن الشمس التى تغرب في عين حمئة مظلمة ، (انظر سورة الكهف ، ١٨ : ٨٦) ، تعود الى الشروق من حيث غربت . أما « الشمس التى هى فوق المشارق » ، فالمقصود بهـا شمس الحقيقـة ، واشراق التجلى الذى لا يحده مكان ولا زمان .

(١١٠٨) ليس معنى شروق شمس التجلى أنها قابلة للمغيب ، فهى في تجل دائم . فالحديث عن شروقها لا يكون الا باعتبار الذرات العالقة بها ، فهى التى ينقلها تعلقها بالشمس الى حال الشروق .

(١١٠٩) « مع أننى لست من الأولياء المقربين ـ وهؤلاء هم الذرات العالقة بشمس التجلى ـ فان النور الذى يغشانى بتجليه يجعلنى شمسا لا تغشاها الظلال » .

(١١١٠) المحبة تنبعث من المحبوب ، ولا فضل للمحب في ايجادها .

(١١١١) في العلاقة بين المحب والمحبوب يكون الجمال والجـلال

من بين الأسباب التي تجذب المحب الى المحبوب ، هذا من وجهة نظر المحب . أما المحبوب فليس الجمال والجلال عنده أسبابا ، وانما همـا من صفات الذات . فالعبد قد ينظر الى بعض الأمور على أساس أنهـا أسباب ، والخالق يكون مدركا لهذه الأسباب ، لكنه لا يتأثر بها .

(١١١٤) الخالق صانع كل شيء . وهذه حقيقة لا تقبل استثـناء فاليأس الذي قد يصيب النفس هو أيضا من خلق الله .

(١١١٥) النفس التي صنعها الخالق تبقى مرتبطة بخالقها حتى فـي حالة اليأس ، لأن الصنع لا ينفصل في وجوده عن ذات الصانع .

(١١١٦) البراق والخيل العراب والحمير كلها رموز للناس ، علـى تفاوتهم في قواهم الروحية ، أو تعلقهم بغرائزهم الحسيـة . وجميـع الموجودات مهما كانت طبيعتها تقتبس وجودها من الوجود المطلق .

(١١١٧) من غفل عن حقيقة الصانع ، توجه الى سواه ، ظانا أنـه صاحب القدرة . ويظل يتخبط في هذا الجهل فيقع في كل يوم فريسة لوهم جـديد .

(١١١٨) قول الشاعر : «فهو قد شرب من البحر العذب ماء ملحا » ، يعني أن هذا الغافل الذي يسعى الى خالقه لم يسلك في سعيه السبيل القويم ، ولهذا فان هذا السعي قاده الى الضلال والتيه ، بدلا من أن يقوده الى أمن اليقين .

(١١١٩) « الشرب باليد اليمنى من البحر » رمز للسلوك القـويم الذي يحقق الغاية المنشودة .

(١١٢٢) الشاعر يقول ان عشق شمس الدين قد شغله عن كل ما سواه ، فلم يكن لديه مجال للعناية بمن عميت بصيرتهم الروحية . وشمس الدين المقصود هنا هو شمس الدين التبريزي . ولعل الشاعر أشـار بذلك الى ما كان يعانيه حينذاك من أحزان لفقد أستاذه الروحي .

(١١٢٣) يدعو الشاعر تلميذه حسام الدين الى أن يقوم عنه بمداواة من كلت بصائر أرواحهم .

(١١٢٥) قدرة الله وحدها هي التى تستطيع أن تكشف عن النفس والروح ما تراكم فيهما من ظلمات الجهل .

(١١٢٦) الحسد يحجب صاحبه عن تلقي نور الهداية ، ويمثل عقبة يصعب على الروح تخطيها . أما الجهلاء الذين خلت نفوسهم من الحسد فهم قابلون لتلقي نور العرفان .

(١١٢٨ ــ ١١٣٠) الحسد احدى الرذائل التى أكثر الشاعر من بيان أخطارها . فالحسد هو الذى دفع بعض مريدى جلال الدين الى القضاء على شمس الدين . وكان الحسد دائما مصدر حقد على الأولياء . وهو علة لا دواء لها ، لأنه ــ كما يقول الشاعر ــ يجعل المرء يسعى الى اطفاء نور لا يخبو ، وشمس لا تغيب .

(١١٣١) روح العارف تهتدى الى خالقها ، كما يهتدى الباز الىالملك فيعود اليه . أما الروح التى تضل سبيلها فشبيهة بالباز الأعمى .

(١١٣٢) « الهبوط في احدى الخرائب » كناية عن الركون الى عالم الدنيا ، هذا الذى حق عليه الخراب ، والفرار من عالم الروح . أما « البوم » فرمز لعشاق الدنيا الذين يتعلقون بها ، كما تتعلق البوم بالأرض الخراب .

(١١٤٦ ــ ١١٤٧) البوم تكذب الباز حين يذكر لها صلته بالملك . وكذلك الكفار والمنافقون يكذبون النبى حين يذكر لهم صلتهبالخالق .

(١١٥٤ ــ ١١٥٥) بالرغم من أن الشاعر قد استخدم الباز رمزا للولى أو النبى ، وذلك على اعتبار أن رجل الله يرتبط بالله ارتباط الباز بمليكه ، فقد استخدمه في هذين البيتين رمزا لمعنى حسى هو القوة والسطوة . فالبوم لا تقدر على ايذاء باز المليك ، بل ان البيزان الجارحة ــ وهى هنا رمز لأهل السطوة من الكافرين ــ تعجز عن أن تمس بالسوء

باز المليك . ولا مناسبة بين باز الملك وبين البيزان الجارحة ، فالأول وفيّ لمليكه ، مطيع لندائه ؛ وأما البيزان الأخرى فمتوحشة تحكمها قوة حسيــة عارمة .

(١١٥٧) الباز يباهي بأن خياله مقيم في قلب السلطان ، وأن قلب السلطان يغدو سقيما لو غاب عنه هذا الخيال . وفي هذا تعبير رمزي عن محبة الخالق للانسان الكامل ، تلك المحبة التي جعلته ــ في رأى كثيــر من الصوفية ــ يخلق الأكوان من أجله .

(١١٦٢) يمكن تفسير هذا البيت على أساس أن الانسان الكامل يشفع للخلق عند الخالق . كما يمكن النظر اليه من زاوية العقيدة الصوفية ، فيكون معناه أن الله قد حرر ــ على يد الانسان الكامل ــ كثيرا من الخلق ، كانوا يرسفون في أغلال سجن المادة .

(١١٦٣) لقد حل الانسان الكامل بين الكفار ــ أشباه البوم ــ برهة من الزمان ، فصاروا بفضله ذوى قوة روحية ، وحلقوا في السماء كالبيزان .

(١١٦٧) المحب الصادق مهما قاسى من الآلام فانه يكون سعيدا في آلامه ، بما أوتيه من سعادة الروح .

(١١٦٩) ان المحب الصادق يلبى نداء خالقه : « يا أيتها النفــس المطمئنة، ارجعي الى ربك راضية مرضية». (٨٩ : ٢٧ ــ ٢٨). فهذا النداء بالنسبة للمؤمن كالطبل بالنسبة للباز .

(١١٧٠) يبين الشاعر هنا أن الانسان الكامل مختلف عــن خالقه ، وهو ليس سوى عبد لملك الملوك .

(١١٧١ ــ ١١٧٣) ليس معنى فناء العبد في الخالق أن هناك تشابهــا بين ذات العبد وذات الخالق . فالتجانس لا يحتم التشابه بين المتجانسين. فالماء يتجانس مع التراب في النبات . والخمر تتجانس مع الطبع الانساني. والفناء في الخالق لا يقتضى تشابها في الذات بين العبد وخالقه .

(١١٧٤) صورة فنية للأرواح التى تفنى في حب خالقها ، فلا يبقى لها وجود منفصل ، بل تصبح في حضرته هباء ، ويبقى الخالق وحده ، لا شريـك له .

(١١٧٥) في هذا البيت صورة فنية أخرى لفناء الروح في الخالق . « فالروح تغدو ترابا » وهذا رمز الى فنائها « وتبقى أقدامه منطبعة فوق ترابها » وهذا رمز الى بقائها ، فهى بالفناء تحقق لها البقاء .

(١١٧٦) الفناء في ذات الخالق يحقق لصاحبه أنبل مجد ، وأخلـد بقـاء .

(١١٧٧) هذا البيت يجرى على لسان الولىّ الذى يخاطب سـواه بقوله : « لا تنخدع بظاهرى ، وتحسبنى مجرد انسان مادى ، بل تذوق ما أقدمه لك من غذاء روحى ، قبل انتقالى من هذه الحياة » .

(١١٧٨) كم من أناس خدعوا بظاهر الصورة ، فحسبوا رجـل الله أو النبى انسانا عاديا ، وغرهم ما شاهدوه من ظواهر انسانيـته ، فتهجموا عليه ، فكان تهجمهم على الله .

(١١٧٩) الصلة بين الله وبين نبيه أو وليه قائمة ، ولا ينفيها مـا يكون من بعد الشبه بين ذات الله وذات عبده . ويستدل الشاعر ــ في هذا البيت وفي الأبيات التالية ــ على امكان قيام هذه الصلة ، وذلك بما يكون من صلة بين الروح والجسد ، أو بين العين المكونة من شحـم وماء وبين البصر ، وهكذا فمثل هذه الصلات بين المعنى والمادة صور تبين امكان قيام الصلة الوثيقة بين الانسان والخالق .

(١١٨٣ ــ ١١٨٨) أوّل الشراح هذه الأبيات تأويلات مختلفة لا تستند الى النص . ورأيى أن هذه الأبيات تتضمن أفكارا عن خلق العالم مستوحاة من مذاهب الاشراقيين . ولسنا نستطيع أن نجزم بأن الروح الكلى هنا يشير الى الخالق ، أو الى الحقيقة المحمدية . ثم هناك في البيت رقم ١١٨٦ عبارة « روح الروح » ، وتتضمن معنى لا يمكن تحديـده

على وجه اليقين . والشاعر يستخدم هذه المصطلحات كلها في سياق شعري ، يعبر به عن صدور العالم عن الخالق ، وفق نظرية الاشراقيين . ولكننا لا نستطيع أن نجزم بتفسير يحدد معنى كل مصطلح من المصطلحات ، كما أننا لا نستطيع أن نقطع بمرحلة الخلق التى بدأت بالحديث عنها هذه الأبيات ، وهل هى الفيض الأول الذى صدر عن واجب الوجود ، أم أنها مرحلة تالية لذلك . وخلاصة مضمون هذه الأبيات هى أن هذا العالم المتعدد المظاهر والأشكال قد صدر عن الواحد ، « روح الروح » ، الذى أبدع الروح الكلىّ ، ففاض منه هذا العالم ، وأن هناك في كل وقت فيضا جديدا ، وأن هذا العالم سوف يلد العالم الآخر ، واذ ذاك تتضح للخلق حقيقة الحشر .

(١١٨٤) لقد كان ميلاد هذا العالم المادى من أصل روحى ، كما كان ميلاد المسيح بصورة حسية صادرا عن أصل روحى .

(١١٨٥) ومع أن هذا المسيح قد ظهر للناس وخالطهم ، وأظهر من المعجزات ما بهرهم (ومنها المشى على الماء) ، فحقيقته أسمى مما شهده الناس منه وعرفوه ، لأنه روح تسامى فوق حدود المكان .

(١١٨٦) العالم فيض من الروح الكلى ، والروح الكلى فيض من الخالق .

(١١٨٧) عالم الدنيا يلد بدوره عالم الآخرة ، واذ ذاك تنجلى للخلق حقيقة الحشر .

(١١٨٩) يقول الشاعر ان كل هذه الأقوال التى قدمها ليست فى جوهرها سوى دعاء لله ، انطلقت كلماته من شفاه طيبة ، ملتمسة من الخالق جواب الدعاء .

(١١٩٢) يبدأ الشاعر هنا قصة رمزية جديدة ، تصور البدن بصورة جدار عال يقف في سبيل الروح ويعوقها عن الانطلاق الى عالمها ، وأن الروح تتمنى لو حطمت هذا السجن ، وتحررت منه .

(١١٩٤) كان صوت الماء في أذنه كخطاب فرج همه ، وبشره بالخلاص .

(١٢٠٣) اشارة الى حديث يروى عن الرسول قوله : « انى لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن » .

(١٢٠٧) كل غريزة من غرائز الجسد ــ أمكن التغلب عليها واقتلاعها من النفس ــ كان في التغلب عليها اقلال من سلطان الجسم على الروح .

(١٢٠٨) الاقلال من سلطان الجسد هو السبيل الى خلاص الروح ، فهو الذى يقف حائلا بينها وبين اللحاق بعالمها .

(١٢٠٩) أعمال العبادة تؤدي الى التخفيف من سلطان الجسد ، وتتيح للروح بعض الانطلاق . وقد رمز لهذه الأعمال في القصة بمتابعة هدم الجدار الذى يقف حائلا بين الرجل وبين الماء .

(١٢١٠) لا يتسنى خفض الرأس اذا كان العنق شامخا ، وكذلك لا يمكن الاخلاص في العبادة ، اذا كان الجسد مسيطرا على الروح .

(١٢١٢) كل من كانت روحه أكثر اخلاصا وشوقا ، كان أكثر اجتهادا في التخلص من سلطان الحواس ونزعاتها .

(١٢١٣) بقدر ما يكون الاخلاص الروحى تكون القدرة على اخضاع الجسد .

(١٢١٤) كل اتصال بعالم الروح (كما يكون في التعبد مثلا) يغمر الصوفى بالنشوة ، على حين أن الحسى لا يتجاوز ذلك عنده حد أداء العبادات في صورها الحسية .

(١٢١٦ ــ ١٢٢٥) صور الشاعر الشباب والشيخوخة ، فرسم لنا بأسلوبه البارع صورا فنية رائعة .

(١٢٢٧ ــ ١٢٤٠) ذكر الشاعر في هذه الأبيات قصة رجل زرع الشوك، فلما نهى عن ذلك وعد باقتلاعه ، ودأب على اخلاف وعده حتى قويت شجرة الشوك ورسخت ، وأما هو فضعفت قوته ازاءها . بهذه

الصورة أراد الشاعر أن يقدم مثالا لمن يترك الأخلاق السيئة تستقر في نفسه ، ولا يسعى الى اقتلاعها حتى تتأصل وترسخ ، ولا تبقى لديه قوة على مقاومتها .

(١٢٤١) ان صاحب الخلق السيّء ـ الذى تأصل عنده هذا الخلق ـ يسىء الى نفسه من غير أن يشعر بذلك .

(١٢٤٤) الرجل المكتمل الرجولة يكون قادرا على أن يقتلع ما رسخ في نفسه من خلق سيء ، كما اقتلع عليّ باب خيبر ، فكان ذلك تحطيما لما كان يمثله هذا الباب ، وهو تحصن الكفر وراء الأسوارالمنيعة. وقد فتح المسلمون خيبر عام ٧ هـ / ٦٢٨ م .

(١٢٤٥) « ان لم تستطع الخلاص من الخلق السيء فاتخذ لك رفيقا من رجال الله ، حتى يكون شوكك هذا مقترنا بشجرة ورد ، ونارك مقترنة بالنور الصافى » .

(١٢٤٦) لعل النور الصافى (ويمثله رجل الله) يخلصك مما يضطرم بنفسك من النار ، وتغدو أشواكك بفضل صحبته ورودا .

(١٢٤٧) ذو الخلق السيء شبيه بنيران الجحيم ، أما المرشد فهو مؤمن ، والمؤمن لا يخشى النار .

(١٢٤٨ ـ ١٢٤٩) انظر : مثنوي ، جـ ١ ، ٣٧٠٠ .

(١٢٥٣) يروى عن الرسول أنه قال : « الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه » . فلعل هذا الاحسان هو المقصود من قول الشاعر :

« روح المحسن الطاهر » .

(١٢٥٨ ـ ١٢٥٩) كما كانت النار بردا وسلاما على ابراهيم ، كذلك يكون جحيم النفس بردا وسلاما على المؤمن ، فلا يحرق بستان صفائه واطمئنانه ، ولا يضرم النار في عدله واحسانه .

(١٢٦٠) « النمام » نبت شبيه بالريحان عطريّ قوى الرائحة ،وسمي بذلك لسطوع رائحته .

(١٢٦١) « لقد انصرفنا عن موضوعنا الأصلي الى سواه ، وأطلنا البحث في ذلك ، فلنعد الى موضوعنا الأصلي » .

(١٢٦٢) يعود الشاعر هنا الى الحديث عن الخلق السيء ، وكيف يصعب اقتلاعه اذا رسخ في النفوس . وهو يربط قوله هنا بما كان قد انتهى اليه في البيت ١٢٢٥ .

(١٢٦٤) « ان الفساد قد تأصل في النفس ، فلم يبق لها سبيل الى الشفاء الا بالفناء » .

(١٢٦٦) « ابذل قصارى جهدك وأنت بعد في عنفوان قدرتك ، فهذه القدرة لا تدوم طويلا » .

(١٢٦٧) الانسان الذى يحسن استثمار أيام الحياة ـ على قلتها ـ يستطيع أن يحقق لنفسه عمرا روحيا مديدا .

(١٢٦٨) « السراج اللألاء » في الانسان هو قلبه أو روحه ، لأن القلب ينير للانسان سبيل الحياة . فعليه أن يعنى بهذا القلب ، ويحافظ عليه وينقيه ، حتى لا تخبو أنواره ، وتتلاشى في ظلمات الحياة الجسدية.

(١٢٧١) يدعو الشاعر هنا الى الاقلال من الكلام ، مع الاكثار من صالح الأعمال . ويحث على التخلي عما اقترن بالجسد من البخل ، ويدعو الى الاقبال على ما ارتبط بالروح من السخاء والجود .

(١٢٧٤) ورد ذكر « العروة الوثقى » في موضعين من القرآن الكريم . قال تعالى : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى » . (٢ : ٢٥٦) . وقال : « ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى » . (٣١ : ٢٢) .

(١٢٧٦) « يوسف الحسن » رمز للروح للطاهر . والبئر رمز للدنيا ؛ فكما ألقى يوسف الصديق في البئر ، كذلك دفع الروح الطاهر الى هذه الدنيا ، وهى بئر الشهوات .

(١٢٨٤ ـ ١٢٩٣) يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن نور الحس ،

ونور القلب أو الروح ، وهو النور الذى يفيضه الله على قلوب أهـل الصفاء ، فيجعل لنور الحس ادراكا أوسع ، وشهودا لا يقتصر علـى الواقع المحسوس ، وانما يتعداه الى الغيب المحجب . وقد بحث الغزالى هذا الموضوع في مشكاته . قال : « اعلم أن نور بصر العين موسوم بأنواع النقصان فانه يبصر غيره ولا يبصر نفسه ، ولا يبصر ما بعـد عنه ، ولا يبصر ما هو وراء حجاب . ويبصر من الأشياء ظاهرهـا دون باطنها . ويبصر من الموجودات بعضها دون كلها . ويبصر أشياء متناهية ولا يبصر ما لا نهاية له . ويغلط كثيرا في ابصاره : فيرى الكبير صغيرا والبعيد قريبا والساكن متحركا والمتحرك ساكنا . فهذه سبع نقائـص لا تفارق العين الظاهرة . فان كان في الأعين عين منزهة عن هذه النقائص كلها فليت شعرى هل هى أولى باسم النور أم لا ؟

واعلم أن في قلب الانسان عينا هذه صفة كمالها ، وهى التى يعبر عنها تارة بالعقل وتارة بالروح وتـارة بالنفس الانسانى ... » ويمضى الغزالى بعد ذلك في بيان تنزه نور القلب عن هذه النقائص التي يعانى منها ابصار العين . (مشكاة الأنوار ، ٤٣ ــ ٤٩) .

وأسلوب جلال الدين في الموازنةبين النورين قائم على التصويـر الفنى ويكثر فيه استخدام الرمز .

والصبر على أمر الله هو سبيل الخلاص . لقد صبر يوسف ، فأرسل الله اليه من خلصه من البئر . والروح الصابر أيضا يمد الله له أسباب النجـاة .

(١٢٧٩) « عالم الروح الجديد » يعنى « العالم الحافل بالرؤى ، المتجدد على الدوام » .

(١٢٨٠ ــ ١٢٨٣) يشبه الشاعر في هذه الأبيات عالم الحس وعالم الغيب بالتراب والهواء .

فالتراب ينتشر في الفضاء ، ويبدو كأنه موجود متحرك ، أما الهواء

فيكون خفيا ، مع أنه هو الذى ينشر الغبار ويحركه . فهذا التراب ليس الا ألعوبة في أيدي الهواء .

(١٢٨٤) « من كانت العين الحسية سبيله الوحيد الى الابصار فسوف يعجز عن مشاهدة الهواء ، ورؤيته تكون مقصورة على مشاهدة التراب » .

(١٢٨٥) العين الترابية (الحسية) يقتصر ادراكها على ما يكون في مستواها وهو التراب . وشبيه بذلك معرفة الحيوان لأبناء جنسه ، فالحصان يعرف الحصان ، وهكذا . أما الابصار الروحى فمن طراز آخر . انه شبيه بمعرفة الفارس لنظيره .

(١٢٨٦) عين الحس ـ بدون نور الله ـ تبقى بعيدة عن الابصار الصحيح ، كالحصان يبقى ـ بدون الفارس ـ قاصرا عن ادراك السبيل . فنور الله يوجه عين الحس ويرشدها ، كالفارس يوجه حصانه ويحسن قيادته .

(١٢٨٧) اذا لم يهذب الحصان ، فانه لا يكون لائقا بالمليك ، وكذلك العين الحسية لا تكون جديرة بنور الله ، ما لم تسلك السبيل الى ذلك بالتزام العفة والتهذب ، والاعراض عن الطمع ، والطموح الى لذات الحس.

(١٢٨٨) بدون نور الله يسوء حال العين الحسية ، وتضطرب رؤاها، فهي كالحصان يتخبط في سيره ، اذا لم يكن له فارس يهديه .

(١٢٨٩) اذا لم يهتد الابصار الحسىّ بنور الله ، فأى مطمع يكون له سوى لذات الحس ؟ كالحصان اذا ترك وشأنه فلا مطمح له اذ ذاك سوى المرعى . أما النفع الذي يحققه الحصان فلا يكون الا بهداية الفارس .

(١٢٩٠) حين يسيطر نور الله على نور الحس ، يكون هذا سبيل اهتداء الروح ، وباعث شوقها الى عالمها .

(١٢٩١) الطريق الملكى هو الطريق الى الله . والفارس الملك هو

الرجل الكامل .

(١٢٩٣) يشير الشاعر هنا الى قوله تعالى : « نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء » . (٢٤ : ٣٥) . وهذه الآية ــ في نظر الشاعر ــ دليل واضح على افتقار الحس الى الهداية ، بدون نور الله .

والهداية هنا روحية ، والله يهب لمن يشاء مثل هذه الهداية . وللنور أهمية كبرى في فلسفة الصوفية . وعليه تقوم عقائدهم الاشراقية . انظر : (الغزالى : مشكاة الأنوار) ، (السهروردى : حكمة الاشراق ، وهياكل النــور) .

(١٢٩٦) الحس الباطنى الذى يوجه الحس الظاهرى لا يظهــر الا في جميل الأثر ، وطيب الكلم .

(١٢٩٧) نور الحس الذى هو ــ بالقياس الى نور الروح ــ غليظ كثيف يكون محتجبا في سواد العين . وكان الأقدمون يعتقدون أن الابصار أشعة تنطلق من العين الى المرئيات ، وهذه الأشعة لا ترى لأن النــور محتجب في سواد العين .

(١٢٩٨ ــ ١٢٩٩) من بين ما ذكره الغزالى عن نقائص نور العين أنه « يبصر غيره ولا يبصر نفسه » . (المشكاة ، ٤٣) . وما دامت العين تعجز عن مشاهدة نورها المحسوس، فكيف تستطيع أن تشاهد النور الروحى ، وهو أكثر من النور الحسى لطفا وخفاء ؟ وهذا البيت أيضــا مرتبط بفهم الأقدمين لطبيعة الابصار ، وهو أنه أشعة تنطلق من العين الى المرئيات .

(١٣٠٤) قول الشاعر : « وتأمل كيف أن الأرواح ظاهرة » يعنى أنها ظاهرة الفعل والأثر .

(١٣٠٥) قول الشاعر : « ولا تحطم السهم » يعنى : « ولا تغالب القضاء الالهى » ، أما قوله : « فانه سهم المليك » فيعنى أنه نافذ لا محالة.

(١٣٠٦) انظر المثنوي ، جـ ١ ، ٦١٤ ، ٦١٥ .

(١٣٠٧) الغضب مما تأتي به الأقدار يعمى الانسان عن ارادة الله في ذلك . فالانسان يحارب القضاء ، مع أنه وقع بمشيئة الله ، وينظر الى الأقدار بسخط مع أنها فعل الله .

(١٣١٣) المخلص لا يكون في مأمن من شباك الأقدار الا اذا خلص من ذاتيته . فالفناء عن الذاتية يجعل الانسان في رحاب الله ؛ وبذلك يستعصى على ضربات القدر .

(١٣١٥ — ١٣١٦) في هذين البيتين يوازن الشاعر بين الاخلاص والخلاص . فالاخلاص مرحلة اولى في سبيل الخلاص . فلو وقف المرء عند هذه المرحلة الأولى ؛ فهو رجل مخلص فحسب ، لكنه لم يظفر بعد بمراده ، وهو تحقيق النجاة الكاملة ، فهذه النجاة لا تتحقق الا بتنقية القلب حتى يصبح مرآة صافية . وبدون ذلك فليست هناك نجاة ، بل سعى الى النجاة . والساعي الى النجاة كالصياد الذى يبحث عن صيد ، أما مدركها فهو كصياد ظفر بصيده . والفائز بالنجاة يبلغ مقام الأمن الذى لا يشوبه خوف .

(١٣١٧ — ١٣١٨) الواصل الذى بلغ مقام الأمن لا يبقى بعد ذلك عرضة للتغير . فالمرآة التي بلغت درجة الصقل لا تعود حديدا خشنا ، والخبز لا يرتد قمحا ، والعنب الناضج لا يرجع الى الفجاجة ، وهكذا .

(١٣١٩) يذكر الشاعر أستاذه برهان الدين محقق بوصفه مثالا لبلوغ النضج ، الذي يجعل الانسان في مأمن من التغير . وقد ذكر الجامى برهان الدين محقق بقوله : « السيد برهان الدين محقق رحمه الله هو شريف حسنى ترمذى ، وكان من مريدى مولانا بهاء الدين ولد ، وممن ربوا على يديه .واشتهر في خراسان وترمذ بالسيد المطلع على الأسرار، وذلك بسبب اشرافه على الخواطر . وفي اليوم الذى مات فيه مولانا بهاء الدين ولد كان جالسا مع الجماعة في ترمذ ، فقال : واأسفاه ! لقد

مات أستاذي وشيخي . وبعد أيام سافر الى قونية لتربية مولانا جلال الدين » . ويذكر الجامي بعد ذلك أن جلال الدين تتلمذ تسع سنوات على برهان الدين محقق ، وأن برهان الدين قد ذاع صيته في أرض الروم ، وأن السهروردي[1] قد ذهب لزيارته ووصفه بأنه بحر مواج من درر المعاني . (نفحات الأنس ، ص ٢٩٨ ، طبع الهند ، ١٨٩٣) .

(١٣٢١ - ١٣٢٣) يذكر نيكولسون أن هذه الأبيات لم ترد في أقدم مخطوطات المثنوى ، وأنها ظهرت لأول مرة في مخطوط يرجع الى منتصف القرن الرابع عشر . كما يذكر أن هذه الأبيات وردت في حاشية احدى النسخ تحت عنوان « ولدي » . وقد استنتج نيكولسون من ذلك أن هذه الأبيات ربما كانت من نظم سلطان وَلَد ، الذى كان متزوجا من ابنة صلاح الدين زركوب ، وأراد أن يذكر صهره في المثنوى الى جانب شمس الدين التبريزى ، وبرهان الدين محقق ، وحسن حسام الدين . (انظر تعليقات نيكولسون) . ومهما يكن من أمر فان صلاح الدين زركوب كان من تلاميذ جلال الدين المقربين . وقد ذكره جلال الدين في كثير من غزليات الديوان . وكان صلاح الدين فريدون زركوب (الصائغ) من مريدى برهان الدين محقق . ويُروى أن برهان الدين قال: « وهبت حالى لصلاح الدين ، ومقالى لجلال الدين » . (نفحات الأنس ، ٢٩٩) . ويذكر الجامى أن صلاح الدين تخلى عن دكان الصياغة الذى كان يملكه ولزم جلال الدين . وانتهى الأمر الى ارتباطهما بالمصاهرة ، حيث تزوج سلطان ولد بابنة صلاح الدين زركوب ، وكان جلبى عارف من أبنائهما . ويذكر الجامى أن جلال الدين قال في صلاح الدين :

---

(١) المقصود هو ابو حفص عمر بن محمد المتوفى ٦٣٢ ، وصاحب كتاب عوارف المعارف . أما السهروردى الاشراقى فقد مات قبل ذلك بكثير (عام ٥٨٨) .

يكى كنجى بديدآمد دريـــن دكـــان زركوبـــى

زهى صورت زهى معنى زهى خوبى زهى خوبى

« لقد ظهر كنز في دكان الصياغة هذا ، فما أجمل الصورة ، ومـــا أجمل المعنى ، وما أروع هذا الحسن والبهاء » . (انظر : نفحات الأنس ، ٣٠٤ ، ٣٠٥) .

(١٣٢٣) للشيخ سلطان على القلوب مقتبس من قدرة الله . وهـــذا السلطان يجعله ذا أثر على القلوب بدون آلة يستعين بها في تحقيـــق ذلـــك .

(١٣٢٥) أثر الشيخ المرشد على القلوب شبيه بأثر الخاتم علـــى الشمع ، ولكن من ذا الذى صنع في الأصل نقش الخاتم ؟

(١٣٢٦) صانع هذا النقش هو الصائغ ، وهو هنا رمز للخالق . فهناك سلسلة مترابطة الحلقات ، تربط المسببات بأسبابها حتى تصلهـــا بالخالـــق .

(١٣٢٧) من القلوب ما يتردد في جوانبه صوت رسالات السماء ، ومنها ما يكون خاليا من هذا الصوت .

(١٣٢٩) تختلف الجبال في مقدار الصدى الذى تردد به ما تتلقاه من أصوات ، فمنها ما يكون رجع الصدى فيه محدودا ، ومنها مـــا يكون رجع الصدى فيه عظيما مدويا . وهكذا شأن القلوب بالنسبـــة لصوت السماء ، فمنها ما يستجيب له بقدر محدود ، ومنها ما يكون عظيم الاستجابة .

(١٣٣٠) ان مئات الألوف من ينابيع الحكمة والمعرفـــة تتفجر مـــن استجابة العارفين والمؤمنين لدعوة السماء .

(١٣٣١) اذا ما فارق القلوب صوت السماء صارت المعارف التى تصدر عنها غير سائغة المذاق . ومع أن الأصل في طبيعة القلوب أن تكون لطيفة ، لا يصدر عنها الا ما هو لطيف، فانها بالخبث والجحود تفـــارق

طبيعتها فلا يصدر عنها غير ما يؤذى ويضر .

(١٣٣٢) « المليك الأكبر » هنا هو موسى ، عليه السلام ، فقد صعد فوق جبل الطور ، وناجى ربه ، فتجلى له الله . ولقد بورك الجبل بهذا التجلى الالهى . ولعل الشاعر يستخدم الرمز هنا أيضا ، فيكون مرور موسى فوق جبل الطور رمزا لاشراق نور الرسالات السماوية على قلوب العارفين ، وليس سوى هذا ما يسمو بها ، ويعلى قيمة جوهرها .

(١٣٣٣) « ان الجبل قد أصبح ذا روح وادراك حين تجلى له الخالق ، فكان أن دُكَّ ساعة التجلى . فما هو هذا الجمود الذى أصاب بنى الانسان ازاء رسالات السماء ؟ فهل يكون الناس أقل ادراكا من الحجر ؟ » . (انظر : مثنوى ، ج ١ ، ٢٥ ــ ٢٦) .

(١٣٣٤ ــ ١٣٣٥) ينتقد الشاعر في هذين البيتين ما يعانيه الناس من جمود روحىّ وجسدى .

(١٣٣٦) « أين الحمية التى تجعلهم يعملون على افناء هذا الكيان الذاتى الراسخ الذى يقف كالجبل حائلا بينهم وبين تلقى نور الرسالات» .

(١٣٣٧) لعل فناء النفس الحسية ــ التى تقف حائلا دون التأمل الروحى ــ يتيح للقلب أن يتلقى لمحة من أشعة التجلى ، فيستضىء بنورها الكيان الانسانى .

(١٣٣٨ ــ ١٣٣٩) يوازن الشاعر هنا بين القيامة الكبرى التى تعنى نهاية العالم ، وفيها يصيب العالم الدمار « وتصير الجبال كالعهن المنفوش» ، وهذه القيامة لا يهون أمرها على الانسان ، فهى موقف فيه هول ورعب ، على حين أن تلك « القيامة الروحية » تحقق الراحة والأمن والسلام . فالقيامة الروحية هى بعث الروح الذى أزهقته الشهوات ، وخنقته الأطماع . ان خلاص الروح من الشهوات والأطماع يمثل لونا من البعث ؛ يتيح للانسان حياة جديدة . (انظر ما كتبه الجيلى عن « الساعة الكبرى » ، و « الساعة الصغرى » . الانسان الكامل ، ٢ : ٥٢ ــ ٥٧) .

(١٣٤٠) كل من استطاع أن يبلغ هذه اليقظة الروحية ، فقد تحقق له الأمن في موقف البعث الرهيب . وهذه اليقظة ذاتها هى السبيل لمحو ما سبقها من سيئات .

(١٣٤٥ ــ ١٣٤٧) يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن الصوفية الذين يسعون الى افناء ذواتهم في ذات الله ، ويستشعرون التحقق بالفناء، فيدفعهم هذا الى التعبير عن هذا الاحساس بعبارات تعرف عادة بالشطح . وهناك عبارات كثيرة تروى عن أهل السكر من الصوفية . ومن أمثلـه ذلك قول أبي يزيد البسطامي : « سبحاني ، ما أعظم شأني ! » ، وقـول الحسين بن منصور الحلاج : « ما في الجبة غير الله » .

(١٣٤٨) من الصور التي يتخذها جلال الدين رمزا للفناء الصوفي تلاشي لون الحديد في لون النار . وقد سبق أن قدم صورا مماثلة لهـذه الصورة . (انظر : مثنوى ، ج ١ ، ١٥٣١ ــ ١٥٣٥) .

(١٣٥٣) الانسان الذي أصبح ــ بفنائه في الذات الالهية ــ مغمورا بنور الله ، يكون جديرا بأن تسجد له الملائكة ، كما سجدت لآدم .

(١٣٥٤) كل انسان خلصت روحه من الشك والطغيان ، يصير كالملائكة ، واذ ذاك ، يخلص في متابعة هذا الانسان الكامل، لأن اللـه هو الذي اجتباه .

(١٣٥٥) خشى الشاعر من تعلق المستمع بالتمثيلات ، وانصرافـه عن جوهر المعنى فقال : « وأى قيمة للنار والحديد في هذا البحث . انهما ليسا سوى مثالين ، فلا تقع أسير التشبيه ، في حين أنك تسخر مـن التشبيـه » .

(١٣٥٦) « ما دمت قد تعلقت باللفظ وانصرفت عن الجوهر ، (وقد تجلى هذا في تعلقك بظاهر المثال ، وانصرافك عن جوهره) ، ما دمـت كذلك فلا تتقدم نحو بحر الوحدة ، وأقلل من حديثك عنه . والزم الصمت والحيرة ازاء هذه الأسرار ، ولا تخض في الحديث عنها » .

(١٣٥٧) البحر رمز للخالق الذى يستوعب في وجوده كل الموجودات. والشاعر يقول انه برغم ضعفه البالغ أمام مثل هذا البحر فهو حريص على خوضه ، لا يطيق ابتعادا عن الفناء في لجّه . والمقصود بخوض اللج السعى الى افناء الذات الانسانية .

(١٣٥٨) قول الشاعر : « هذا البحر هو الذى أدى دية العقل والروح » ، يعنى أن الخالق يمنح البقاء جزاء لمن أفنى ذاته في السعى اليه.

(١٣٥٩) « سوف أسعى الى البحر ما دامت الى ارادة . فاذا ما بلغته — بافناء ارادتى — بقيت ملازما له ، لا أحيد عنه » .

(١٣٦٠) من تحقق له هذا الوصول — مهما كان مشوبا بشىء من النقص — خير ممن تخلى عن السعى اليه . فالحلقة فوق الباب تكون نافعة حتى ولو كانت معوجة . « والحلقة » هى الأداة التى يقرع بها الباب ، وربما قصد الشاعر أن يجعل منها رمزا للسعى .

(١٣٦١) « الحوض » هنا رمز للقلب . فالشاعر يدعو المتعلقين بالحس — ممن تلوثت أجسادهم — الى أن يكون تعلقهم بالقلب لا بالجسد، فالقلب هو الحوض الذى ينضح بماء الطهر ، ولا سبيل الى الطهر بدونه.

(١٣٦٢) من كان طاهر الجسد لا يكون طاهر الذات ، اذا تخلى عن حياة القلب .

(١٣٦٣) طهارة القلب لا حدود لها ، أما طهارة الجسد فهيّنة الأمر، طفيفة القيمة .

(١٣٦٤) القلب هو الحوض الذى يفيض منه الطهر ، ذلك لأن له اتصالا خفيا ببحر الطهر ذاته .

(١٣٦٥) هذه الطهارة التى تتحقق بالتقوى تحتاج الى مدد دائم من القلب ، والا تناقصت على مرّ الزمن ، اذ أن العبادات تصبح مجرد عادات ما لم تستند الى الايمان القلبى المتجدد . فبدون هذا الايمان تخلو العبادات — بمرور الزمن — من روحها .

(١٣٦٩) الجسد يسبب تلوث القلب ، في حين أن القلب يسعى الى تطهير الجسد .

(١٣٧٥) « واهي العرى » معناها « ضعيف منحل » .

(١٣٨٢) انك لتتخلق فى مختلف الأحوال ، وكل حال من هذه مختلف في وقعه وتأثيره عن سواه » .

(١٣٨٤) استخدم الشاعر المثل المعروف « الجنون فنون » رمـزا لتعدد الأحوال وتنوعها . وبما أن الأحوال هبات الهية يتوالى ورودها الى العارفين ، فقد رمز الشاعر اليها بعبارة :

« سلاسل هذا الأمير الأجل » . و « السلاسل » لا تعنى تتابـع الحلقات فحسب ، بل ترمز الى سلطان هذه الأحوال على النفوس .

(١٣٨٦) يبدأ الشاعر هنا رواية قصة عن ذى النون ، تروى في بعض كتب التصوف عن الشبلى البغدادى . (انظر تعليقات نيكولسون ، وانظر أيضاً : فروزانفر : مآخذ قصص ، ص ٥٣) .

وتروى القصة أن الشبلى البغدادى كان قد ظنّ مجنونا ، ووضع في بيمارستان ، « فدخل عليه جماعة فقال : من أنتم ؟ فقالوا : أحباؤك جاؤوك زائرين . فأخذ يرميهم بالحجر ، وأخذوا يهربون ، فقال : يـا كذابون ! لو كنتم أحبائى لصبرتم على بلائى » .

(١٣٨٨) « الأرض الملحة » رمز للمرارة التى لا طائل وراءها . فالأرض الملحة لا تنبت . أما أهل العرفان فقد يكونون ذوى أخـلاق شديدة ، وطباع مريرة ، لكن وراء ذلك صفاء الروح ونقاء القلب . فليس يجوز لجاهل فج الطباع أن يقيس نفسه بهم .

(١٣٨٩) قول الشاعر : « كانت ناره تمحو لحاهم » ، يعنى أن عنف طبعه كان يفزعهم ، ويذهب بوقارهم .

(١٣٩٠) « لما أفزع ظاهر حاله العوام ظنوا ذلك جنونا وأدخلـوه السجن » .

(١٣٩١) « ليس في الامكان وقف اندفاع الصوفى ، مهما ضاق العوام بما قد يظهر عليه من أحوال ، لا يروقهم ظاهرها .

(١٣٩٢) قول الشاعر : « والملوك ليست لهم علامة ظاهرة » ، يعنى أن العارفين لا يظهر عليهم ما يميزهم في نظر العوام .

(١٣٩٣) « اذا كان الحكم في يد أسارى الحس الجهلاء ، فلا غرابة اذا أصبح السجن مصير العارفين » .

(١٣٩٤) ان الصوفى مَلِك بقوته الروحية وبعرفانه . لكن قوة الروح والعرفان لا يظهرانه في أبهة المُلك التى يعرفها العوام . فكأنه ملك يمشى وحيدا (مجردا من أبهة الملك)، فيعبث به الصبية . و « الصبية » هنا رمز لجلاء الناس وعوامهم . وهم في سوء تقديرهم للعارف الكامل كالأطفال اذ يعبثون بالدرة اليتيمة ، ولا يعرفون شيئا عن قيمتها .

(١٣٩٥ ــ ١٣٩٧) سبق للشاعر أن وازن بين ظاهر الولى وبين حقيقة حاله ، وضرب مثالا لذلك بالنبى صالح الذى كان فردا واحدا فانتصر ــ بقدرة الله ــ على قبيلة بأسرها . والأبيات هنا قريبة المعنى من أبيات جاءت قبل ذلك في المثنوى (جـ ١ ، ٢٥٠٢ ــ ٢٥٠٨) .

(١٣٩٦) قد يبدو الولى في بداية الأمر بسيط المظهر ، لكن حقيقته ــ المحتجبة وراء مثل هذا المظهر ــ تتكشف بعد ذلك رويدا رويدا .

(١٣٩٧) « اذا تجلى الانسان الكامل تلاشت في ضيائه الكائنات جميعا ، وسكرت بكماله ، ثم صحت على وجود أسمى » . (انظر : الجيلى : الانسان الكامل ، جـ ٢ الباب ٦٠ ، ص ٤٧ وما يليها) .

ومن أمثلة ما قاله عن الانسان الكامل : « وقد جرت سنته صلى الله عليه وسلم أنه لا يزال يتصور في كل زمان بصورة أكملهم ، ليعلى شأنهم ويقيم ميلانهم » . (ص ٥٠) . وكذلك قوله : « والانسان الكامل أيضا مرآة الحق ، فان الحق تعالى أوجب على نفسه ألا ترى أسماؤه وصفاته الا في الانسان الكامل » . (ص ٥٢) .

(١٤٠١) كيف يلتمس المسيحى الأمان من السيد الذى صلب ، وما دام هذا السيد ذاته قد تعرض للصلب ، فكيف يستطيع أن يدفع عن غيرة السوء . ويعتقد المسلمون أن السيد المصلوب ليس المسيح عيسى بن مريم .

(١٤٠٢) « ان كان المسيح قد صلب على أيدى اليهود ، وفقا لاعتقاد ذلك المسيحى ، فكيف يستطيع أن يمده بالعون ؟ »

(١٤٠٣) مهما كانت محبة ذلك الرسول الكريم (عيسى) لقومه ، وحرصه عليهم ، فلا سبيل الى أن يتحقق لهم بعد ارتفاعه ما كان يتحقق لهم من الأمان ابان وجوده بينهم . ويستند هذا المعنى على آية كريمة خوطب بها الرسول في سورة الأنفال . قال تعالى : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » . (٨ : ٣٣).

(١٤٠٤) انتقل الشاعر هنا الى تصوير حياة الولى بين قومه . وقد قدم لها بالحديث عن حياة الأنبياء بين أقوامهم . فالرجل الكامل يكون دائما عرضة لزيف المزيفين ، وتزوير أهل الخيانة ، كما يكون الذهب وصائغه هدفا للمزيفين والمزورين .

(١٤٠٥) الحسد هو القوة التى تدفع الناس الى محاربة أهل الكمال. وهو قوة مدمرة ، تجعلهم يعيشون في لهيب مستعر ، وتدفعهم الى الايذاء دفعا . ومن هنا كان ميل أهل الكمال الى اخفاء حقيقتهم وانصرافهم عن اظهار مزاياهم .

(١٤٠٦) الجبّ الذى ألقى به يوسف كان نتيجه لحسد اخوته . فالحسد هو الجبّ الحقيقى . وأهل الكمال هدف وضحية لهذا الجب الذى يكمن في طريقهم ، وهو الحسد . فالحاسدون يسعون الى اهلاك كل من تفوق عليهم .

(١٤٠٧) الذئب الذى تحدث عنه اخوة يوسف وذكروا لأبيهم أنه أكل أخاهم ، لم يكن سوى ذئب الحسد الذى كمن له في الخفاء ، ذلك

لأنه لم يكن هناك ذئب حقيقى . وفي البيت اشارة الى قوله تعالى ، حكاية عن اخوة يوسف : « قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » . (١٢ : ١٧) .

(١٤٠٨) حينما طلب اخوة يوسف من أبيهم أن يرسله معهم يرتع ويلعب عبر لهم يعقوب عن خوفه من أن يأكله الذئب وهم عنه غافلون . قال تعالى حكاية عن يعقوب : « قال انى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » . (١٢ : ١٣) . فالذئب الذى خاف منه يعقوب هو في رأى الشاعر ذئب الحسد الذى كان يغلى في نفوسهم ، وكان من الممكن أن يدفعهم الى ايذائه وهم في غفلة عما بينه وبينهم من اخاء . وفي آيات القرآن الكريم ما يوضح خوف يعقوب على يوسف من حسد اخوته له . قال تعالى : « قال يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا » . (١٢ : ٥) .

(١٤١١) آلاف الذئاب لا يكون لها من المكر ما يكون لذئب الحسد. ذلك لأن ذئب الحسد يدبر كيده في الخفاء . لكنّ أمره لا بد أن يفتضح في النهاية .

(١٤١٢ ــ ١٤١٥) ذكر الشاعر الصور التى يحشر عليها الحاسدون والحريصون والزناة وشاربو الخمر . أما أصحاب القلوب النتنة ، الذين لا يظهر في الدنيا نتن قلوبهم ، فسوف يصبح نتنها ــ في الآخرة ــ ظاهرا محسوسا .

(١٤١٦ ــ ١٤١٧) في البيتين تصوير رائع للوجود الآدمى . فقد شبهه الشاعر بغابة كثيفة الأشجار ، لا يعرف أحد ما يجوس خلالها من الوحوش الضوارى . فالانسان لا ينبىء بظاهره عن حقيقة باطنه .

(١٤٢٠) الكيان البشرى قابل لاكتساب الصفات الجميلة والقبيحة . فقد تنفذ اليه صفة غادرة شبيهة بصفات الذئب ، وقد تنفذ اليه صفة جميلة ، كأنها يوسف في جمال محياه .

(١٤٢٢) لا يقتصر اكتساب الصفات على الانسان وحده ، بل ربما اكتسبها الحيوان من الانسان .

(١٤٢٧) الصدور يرتبط بعضها ببعض خلال طريق خفي يدركه العارفون . فالصدور تمد شباكها لتتصيد المعارف والخصال من سواها . وقد رمز الشاعر الى العارفين بالأسود . ولا داعي للأخذ بالتفسيرات القديمة (انظر المنهج القوى ، ٢ ، ص ٣٣٢) ، كما أنه لا ضرورة لتفسير « الأجمة العجيبة » في هذا البيت بأنها « أجمة الذات الالهية المشتملة على كل ألوان الوجود والعقل الالهى المتضمن لجميع الأفكار » . فالشاعر هنا يتحدث في موضوع تعليمى ، هو امكان اكتساب المعارف من العارفين. وفي البيت التالي لهذا يحث المريدين على سرقة جواهر المعرفة من صدور العارفين . « فالأجمة العجيبة » هنا ليست سوى صدر الانسان بما ينطوى عليه من عجائب .

(١٤٢٨) قول الشاعر : « يا من أنت أقل من كلب » توبيخ للمريد الذى لم يستطع أن يقتبس المعرفة من الشيخ العارف ، وبهذا لم يبلغ ما بلغه كلب أصحاب الكهف ، حين اكتسب الصلاح من أصحابه .

(١٤٢٩) في البيت اشارة الى مثل عربى نصه : « اذا سرقت فاسرق الدرة » . فالشاعر يخاطب المريد قائلا : « ان كان لا بد لك أن تسرق ، فدرة العرفان هى أثمن شيء يسرق . وفي هذا المعنى دعوة الى تحويل الرذائل الحسية الى فضائل روحية .

(١٤٣٤) « العقلاء » هنا هم العقلاء الدنيويون .

(١٤٣٦ ــ ١٤٤١) تشير هذه الأبيات الى قصة وردت في تفسير آيات من سورة البقرة . يقول الزمخشرى : « كان في بنى اسرائيل شيخ موسر ، فقتل ابنه بنو أخيه ليرثوه ، وطرحوه على باب مدينة ، ثم جاءوا يطالبون بديته . فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيا فيخبرهم بقاتله ....

وروى أنهم لما ضربوه قام باذن الله وأوداجه تشخب دما ، وقال : قتلنى فلان وفلان لابنى عمه ، ثم سقط ميتا ، فأخذا وقتلا » . (الكشاف ج ١ ، ص ١٤٨ ، ١٥٣) . وقد وردت هذه القصة في تفسير الآيات ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٣ من سورة البقرة . قال تعالى : « واذ قتلتم نفسا فادّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون » . (٢ : ٧٢ — ٧٣) .

(١٤٤٢) هذا البيت يتضمن التفسير الصوفى للقصة السابقة . فحينما تقتل شهوات الجسد الغليظ ويقضى على تسلطه ، يبعث الروح حيا . والبقرة في القصة السابقة رمز للكيان الجسدى الغليظ .

(١٤٤٣) حينما قتلت البقرة — رمز الكيان الجسدىّ الغليظ — تكشفت الأسرار ، وظهر ما كان خافيا . وهكذا الحال عندما يُقضى على الجسد ، فالروح يتحرر حينذاك ، ويطلع على عالم الغيب ، وخفىّ الأسرار .

(١٤٤٤) حينذاك يصبح الروح قادرا على كشف حقيقة الشياطين المستترين ، ولا يكون للخداع والمكر سبيل للايقاع به . وربما كانت « الشياطين المستترة » هنا رمزا لشهوات الحس التى تزين اللذات للناس، كما يفعل الشيطان . ووصف الشياطين بأنها « دائبة على سفك الدماء » رمز الى أنها مثابرة على قتل الأرواح .

(١٤٤٥) « قتل البقرة » ، يعنى قتل رغبات الحس ، وشهوات الجسد .

(١٤٦٤) رُوى عن مجاهد أنه قال : « كان لقمان عبدا أسود ،عظيم الشفتين مشقق القدمين » . (الثعلبى : قصص الأنبياء ، ص ٣٩١) .

(١٤٦٥) يبدأ الشاعر هنا رواية حكاية عن مَلِك وصوفى . وتتضمن هذه الحكاية حكمة في الزهد نسبت الى مصادر متعددة . ومن أقدم من نسبت اليهم ديوجانس الكلبى . يذكر الشهرستانى أن ديوجانس سئل :

كم عبد لك ؟ قال : أربابكم ، يعني الغضب والشهوة . (الملل والنحل ، ٢ ، ١٥٠) .

وقد بين نيكولسون ورود قصة الملك والصوفى في كشف المحجوب لنهجويرى ، كما تتبع فروزانفر هذه القصة في مختلف مصادرها . (مآخذ قصص ، ٥٣ ــ ٥٥) .

وتروى القصة أن ملكا التقى بأحد الدراويش . فخاطب الملك الدرويش قائلا : « سلنى حاجة » . فقال الدرويش : « لست أريد شيئا ممن هو عبد لعبيدى » . فقال الملك : « وكيف كان ذلك ؟ » فقال الدرويش : « ان لى عبدين كلاهما سيد لك ، أحدهما هو الحرص وأما ثانيهما فهو طول الأمل » .

(١٤٦٩) الملك الحق هو الذى لا يكون للملك سلطان على نفسه، فلا يتسرب اليها ــ من جرائه ــ الغرور والحرص .

(١٤٧٠) الكنز الحقيقى هو الروح اليقظ . وصاحب هذا الروح هو مالك الكنز ، لأنه ظفر بالوجود الحق . أما المعتد بوجوده الحسى فلا سبيل له الى الوجود الحق .

(١٤٧٢) قول الشاعر : « فالجوهر أدنى في نظرهم من القش » ، يعنى أن الناس يقبلون على الزائف ويقدرونه ، على حين أنهم يعرضون عن الجوهر الأصيل ، ولا يدركون قيمته .

(١٤٧٨ ــ ١٤٧٩) جاء في رسالة القشيرى (ص ١٠٧) ،رواية عن أحمد بن عاصم الأنطاكى : « اذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق، فانهم جواسيس القلوب ، يدخلون في قلوبكم ويخرجون منها من حيث لا تحسون » .

ويتصل هذا المعنى بملكة الفراسة التى تنسب الى العارفين . ويبنى القول بها على حديث يروى عن الرسول قوله : « اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله » . يقول القشيرى (ص ١٠٥) : « وهى (الفراسة) على

حسب قوة الايمان ، فكل من كان أقوى ايمانا كان أحد فراسة » . وقد فسِّر قوله تعالى : « ان في ذلك لآيات للمتوسمين » (١٥ : ٧٥) ، بأن « المتوسمين » هم أهل الفراسة ، العارفون بالسمات .

ونقل القشيرى عن الواسطى قوله : « ان الفراسة سواطع أنوار لمعت في القلوب ، وتمكين معرفة حملت السرائر في الغيوب ، من غيب الى غيب ، حتى يشهد الأشياء من حيث أشهده الله الحق سبحانه اياها ، فيتكلم على ضمير الخلق » . (الرسالة ، ١٠٥) .

(١٤٨٣) في البيت اشارة الى قوله تعالى : « ولقد آتينا داوود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير وألنّا له الحديد » . (٣٤ : ١٠) .

فمن لان في كفه الحديد فما أهون الشمع في كفيه ، ومن كان عالما بأسرار الوحدانية فما أهون أسرار الخلق عليه .

(١٤٩٥) السيادة في الدنيا ليست دليلا على السيادة فى الآخرة ، ولا ضعة الشأن مقدمة لحدوث ذلك في الآخرة ، بل كثيرا ما يكون الوضيع في الدنيا سيدا في الآخرة ، والسيد في هذا العالم وضيع المقام خاوى الوفاض في العالم الآخر .

(١٥٠٠) ليس كتمان السر عن الأشرار فعلا عظيما يستدعى الاعجاب، فهذا من الأمور التى لا يقتصر ادراكها على خاصة العارفين . ان الفعل العجب يتجلى في مقدرة المرء على كتمان سره عن نفسه . و « كتمان السرّ عن النفس » ، يعنى الامتناع عن الاحساس بالذات ، لأن ذلك يبعث الغرور في النفس . وتهذيب النفس على هذا النحو يُعتبر — عند الصوفية — نهجا رفيعا من الاخلاص . روى عن أبى على الدقاق أنه قال : « الاخلاص هو التوقى عن ملاحظة الخلق وصدق التنقى من مطالعة النفس. فالمخلص لا رياء له ، والصادق لا اعجاب له » . (رسالة القشيري ، ٩٥).

(١٥٠٢) « اسلام النفس الى شباك المثوبة » ، كناية عن تقديمها الى الله . وحينما يتحقق هذا الموقف لا يبقى للمرء حرص ذاتى ،ويستطيع

ـ في غمرة هذا الاخلاص ـ أن يقتلع الأنانية من ذاته .

(١٥٠٣) انتزاع الأنانية من النفس الحسية يهون ، حين يسلم المرء قلبه الى الخالق . فمثل هذا التوجه يخرج النفس الحسية عن وعيها ، فيسهل حينذاك اقتلاع الشرور منها ، كما يسهل بالتخدير اقتلاع رأس الحربة من الجريح .

(١٥٠٥) اذا ركز فؤاد المرء في احدى الأفكار سُلب منه ما سواها . فلو كان اهتمامه الكلي بمتاع الدنيا ، سُلبت منه معارف الروح .

(١٥٠٦) مهما يكن لك من عرفان تعتقد أنه يقيك ، أو علم تركن اليه ، فان الشيطان يستطيع أن ينفذ الى قلبك ساعة اشتغالك بما سواهما .

(١٥٠٧) لو اشتغل الانسان بما هو أهم ـ وهو العرفان الروحي ـ سُلب منه ما هو أدنى ، وهو التعلق بالمادة ، والحرص على مطالب الحس .

(١٥٠٨ ـ ١٥٠٩) اذا كانت بعض الخواطر لا بد أن تضيع من المرء ، فخواطر الشر هي الأحرى بالضياع . فالتاجر حين تسقط بضائعه في الماء يسارع الى استنقاذ أثمنها .

(١٥١٠ ـ ١٥٢٨) القصة التي يرويها الشاعر عن لقمان في هذه الأبيات وردت في مصادر متعددة ، لكن بطلها ـ طبقا لهذه المصادر ـ لم يكن لقمان . ولعل الشاعر قد وجد فيها من الحكمة ما يشبه حكمة لقمان فنسبها اليه . وقد بين فروزانفر بعض المصادر التي وردت بها هذه القصة ، وهي الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ، وكذلك منطق الطير للعطار ، وجوامع الحكايات لمحمد عوفي ، وأسرار التوحيد . (مآخذ قصص وتمثيلات ، ٥٥ ـ ٥٦) .

وفيما يلي ترجمة لأبيات العطار ، التي روى فيها هذه القصة :

« يحكى أن ملكا طيب السيرة أعطى ذات يوم فاكهة لأحد غلمانه . فأكل الغلام هذه الفاكهة ملتذا ، وكأنه لم يذق طعاما مثلها !

فكان التذاذ الغلام بالفاكهة ، على هذه الصورة ، مما أثار رغبة السيد في تذوقها .

فقال : « هب لى نصفها أيها الغلام ، فانك تبدى غاية التلذذ بهذا الطعام الطيب » .

فناوله الغلام نصفها ، فلما تذوقه المليك ، وجده مر"ا ، فقطب حاجبيه .

وقال : « ما أكل أحد مثل هذا قط أيها الغلام . ومن ذا الذى يجد الحلاوة في مثل هذه المرارة ؟ »

فقال هذا السالك الملك : « أيها المليك . ما دمت قد تناولت من يدك ألوفا من التحف ،

فلست أستيغ رد حبة من الفاكهة المرة ؛ أفلتت ذات مرة من يدك .

فما دام لى في كل لحظة كنز من يدك ، فكيف تزعجنى حبة واحدة من الفاكهة المرة ؟ »

(١٥٢٦) قول الشاعر : « وما دمت غريق حبك وشبابك » يعنى : « وما دمت غريق فضلك أسير انعامك » .

(١٥٢٧) قول الشاعر : « فليحث فوق كل أعضائى تراب مائة طريق » : حثو التراب على رأس انسان يعد صورة بالغة من صور الاهانة والتحقير . وكثيرا ما يرد هذا التعبير في المثنوى وغيره . وقد بالغ الشاعر هنا في هذه الصورة ، فجعل لقمان يرجو الله أن يحثى فوق كل أعضائه تراب مائة طريق لو أنه تنكر لسيده ، من جراء هفوة واحدة .

(١٥٣٢) العرفان يجعل من تحقق به محبا صادق الحب . ولا سبيل الى الوصول الى مقام المحبة ما لم يتحقق المرء بكامل العرفان .

(١٥٣٣) ان من نقص العرفان أن يتعلق الانسان بالجماد أو بالمادة . ولو تحقق لانسان كامل العرفان ما ارتضى أن يشغل قلبه بشىء يصرفه عن

الخالق . ذكر القشيرى قولا منسوبا الى يوسف بن علىّ جاء فيه : « لا يكون العارف عارفا حقا حتى لو أعطى مثل ملك سليمان لم يشغله عن الله عز وجل طرفة عين » . (الرسالة ، ١٤٢) .

(١٥٣٧) روى في الجامع الصغير عن ابن مسعود أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « ذهاب البصر مغفرة للذنوب ، وذهاب السمع مغفرة للذنوب ، وما نقص من الجسد فعلى قدر ذلك » . (المنهج القوى ، جـ ٢ ، ٣٥٢) .

(١٥٤٢) بدون صفاء الرؤية لا يستطيع الانسان أن يميز بين النور الآفل وبين النور الخالد ؛ يبهره البرق الخلب ، فيتصور دوامه ، فلا يلبث البرق أن يختفي ويتركه للظلام . والعرفان الروحى هو النور الخالد ، أما المعارف الدنيوية فهى البرق الخلب .

(١٥٤٤) ان أنوار الفلك كسيحة مقطعة الأرجل ، تشرق وتغيب ، ومن الممكن حجبها . فأين هى من نور الله الخالد ، الذى لا يؤثر فيه شروق ولا غروب .

(١٥٤٩) « المشترى » كوكب سعد ، وأما زحل فهو كوكب نحس . يقول البحترى ، في قصيدته عن ايوان كسرى :

عكست حظه الليالى وبات المشترى فيه وهو كوكب نحس

(١٥٥٠) « تأمل بنظرك العقلىّ هذا النحس الذى وقعت فيه ، لعلك بذلك تدرك حقيقة النفس الأمارة بالسوء ، وكيف أنها جرت عليك كل هذا النحس » . هذا هو المعنى الواضح للبيت . وتفسير نيكولسون له فيه كثير من التكلف والتأويل البعيد عن النص .

(١٥٥١) النظر المدرك الذى يشهد ما يصيب الانسان من جزر ومدّ ، قد استطاع أن يشق له سبيلا الى السعد برغم ما يحيط به من حجب النحس .

(١٥٥٢) الله قادر على أن يحول الانسان من حال الى حال . وهو

يقوده الى هذا التحول بما وهبه من ملكات ، منها ادراك الضد بضده . فالموازنة والمقارنة المبنية على الادراك السليم تنقل الانسان من النحس الى السعد ، أى من الحسية المظلمة ، الى مشرق الروح .

(١٥٥٣) « عندما يظهر لك الله الشر وأخطاره ، في مواجهة الخير ، يتولد الخوف في قلبك من أن تذهب ضحية الشر ، وتصبح من أصحاب الشمال . ويأتى حينذاك الأمل في لذة أصحاب اليمين ، وهم هنا العارفون الروحيون . ومثل هذا الأمل لا يطمح اليه سوى الرجال ، الذين صدقت رجولتهم بالاستقامة والايمان .

ووصف الشاعر للأشرار بأنهم « أصحاب الشمال » وكذلك وصفه للأخيار بأنهم « أصحاب اليمين » مقتبسان من القرآن الكريم . (٥٦ : ٢٧ ، ٤١) .

(١٥٥٤) « الجناحان » في البيت رمز للخوف والرجاء . فلا بد للانسان من هذين الدافعين ، يحركانه بصورة متوازنة . فالخوف بدون رجاء ، قنوط لا يرجى معه عمل . والرجاء بدون الخوف سذاجة وطمع لا يستندان الى أساس . فالخوف والرجاء ضروريان لاتزان السلوك الانسانى ضرورة الجناحين للطائر . يروى السلمى عن أبى عثمان المغربى أنه قال : « من حمل نفسه على الرجاء تعطل ، ومن حمل نفسه على الخوف قنط ، ولكن من هذه مرة ومن هذه مرة » . (القشيرى : الرسالة ، ٦٣) .

(١٥٥٧) حكمة الله في أعماله لا يدركها حق ادراكها سوى الأنبياء والصديقين . وأصعب ما يكون ادراك الحكمة حينما تقترن ببلاء يقع فيه الانسان . ولا بد من روح شبيه بروح ابراهيم ليقدر على اختراق حجب البلاء ، ويبصر الحكمة الكامنة وراءها . فهذا الرسول ـ وهو في صميم النار ـ أبصرت روحه الفردوس .

(١٥٥٨) لا بد من الروح المبصر لكى يرقى الانسان في درجات الكمال

والاشراق الى القمر ثم الى الشمس ، ولا يبقى أسير هذا الوجود المادىّ كما تبقى الحلقة أسيرة الباب . والمعروف عند الفلكيين العرب أن القمر أقرب الكواكب الى الأرض ، وان الشمس في السماء الرابعة .

(١٥٥٩) ان الروح المكتملة بالعرفان لتتجاوز في تساميها السماء السابعة ، ولا يكون نور الأفلاك الآفلة شيئا بالقياس الى ما تراه من النور الخالد . وهذا ما كان من ابراهيم، ذلك الرسول الكريم ، الذى قال عنه الخالق : « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » . (٦ : ٧٥) . فقد ظلت روحه تنشد النور الخالد وتعرض عن النور الآفل ، وانتهى بها البحث والطلب الى الاهتداء اليه .

(١٥٦١ ــ ١٥٦٢) رجع الشاعر هنا الى قصة كان قد بدأ روايتها في البيت رقم ١٠٤٧ ، ثم استطرد منها الى سواها بعد أبيات قليلة .

(١٥٦٣) بستانىّ الملك هو العارف الكامل ، وهو الذى رمز الشاعر اليه بالملك في هذه القصة . والاستفهام هنا انكارىّ . فالمراد تأكيد عرفانه وقدرته على التمييز .

(١٥٧٤) قول الشاعر : « كان يصفق بيديه ساخرا من هؤلاء الخزافين » ، يعنى أن الملك كان يسخر من هؤلاء القوم الذين لم تكن لهم عناية الا بأبدانهم ، وهى الهياكل الترابية ، فكأنهم خزّافون ، لا هم لهم الا تشكيل الطين وصقله .

(١٥٧٧) « لقد كانوا يحيكون شبكة للمليك ، لكنهم عرفوا في النهاية كيف أن الملك كان أحكم منهم تدبيرا » . ذلك كان على مقتضى قوله تعالى : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » . (٣ : ٥٤) .

(١٥٨٠ ــ ١٥٨١) ان عين الشيخ العارف تنفذ خلال الحجب ،وتطلع على ما يكتم التلميذ المريد في قلبه ، في حين أن التلميذ يسعى الى أن يحجب حقيقته عن أستاذه بستار بال ، هو قلبه المهلهل .

(١٥٨٣) يخاطب الأستاذ تلميذه الخالى من الوفاء بقوله : « يا أخس

من كلب » ، على أساس أنه لا يملك الوفاء ، مع أن الوفـاء من صفات الكلـب .

(١٥٨٥) قول الأستاذ لتلميذه : « وبدونى ما كان ينساب من أجلـك ماء » ، يعني : « بدون ارشادى ما كنت بمستطيع أن تتلقى أى قبـس من العرفان الروحى » .

(١٥٨٧) يقول الأستاذ لتلميذه : « أنت تقول : لقد كنت أقدح النار في الخفاء » ، فالأستاذ هنا يوبخ تلميذه على اعتقاده بأن الظن الفاسـد لم يتجاوز عنده الخفاء الى العلن . ويؤكد له الأستاذ ـ بعد ذلـك ـ أن القلب الصافى يطلع على خبايا القلوب .

(١٥٩٣) دخول الشمس في برج الحمل يكون من نتائجه قـدوم الربيع . (أنظر : نلينو : علم الفلك ، ص ١٢٧) .

(١٥٩٦) « اذا رأيت الذبول يشيع في بستان روحك ، فاعلم أن ذلك قد أصابك لأن الشيخ غاضب عليك » .

(١٥٩٧) لا معنى لتفسير « برج العتاب » هنا بأنه « برج الجدى » كما فعل ويلسون . وقد تبعه في ذلك نيكولسون . (انظر تعليقه علـى البيت) . ان التعبير هنا مجازى ، والمراد به أن الشيخ ـ الذى شبهه الشاعر بالشمس ـ لو دخل برج العتاب ، لاسود بذلك وجه المريـد . فالبروج التى يمكن أن يدخل بها الشيخ هى برج الرضا ، وبـرج العتاب ، وبرج الغضب ، وما الى ذلك . فحالاته النفسية ومشاعره نحو مريده يكون لكل منها أثر مختلف على المريد ، كما تختلف آثار الشمس بين بـرج وآخـر .

(١٥٩٨) الشاعر هنا يشبه الشيخ بعطارد ، كاتب السماء . فالشيخ يخط في قلوب مريديه ما يشاء من قبض وبسط ، فيكون ما يتركـه عليها من سواد وبياض ميزان ترددها بين هاتين الحالتين .

(١٥٩٩) « الأحمر والأخضر » هنا كناية عن الربيع . فمعنى البيت

أن الشيخ يعود فينشر في القلوب ربيعا من البهجة والبشر ، يخلصها من الكآبة والعجز .

(١٦٠٠) بين الشاعر في هذا البيت ما قصد اليه من الرمز باللون الأحمر والأخضر ، وهو الربيع . ثم قال ان الربيع يبدو ــ عند التأمل ــ شبيها بقوس قزح ، يعنى أن من يحسن تأمل الربيع يجد أن ألوانه لا تقتصر على الأحمر والأخضر ، بل هى متنوعة تنوع ألوان الطيف. والتعبير بالألوان المتعددة هنا يشير الى تنوع احساسات البهجة والتفاؤل التى ينشرها الولى في نفوس مريديه .

(١٦٠١) يبدأ الشاعر هنا رواية قصة بلقيس ملكة سبأ مع النبى سليمان . ويبدو من السياق أن تفسيره الصوفى لهذه القصة هو أن بلقيس تمثل المريد الطيع ، اذ سرعان ما أدركت أسرار دعوة سليمان من كلمات قليلة نقلها اليها الهدهد .

(١٦٠٢) ذكر القرآن الكريم نص كتاب سليمان على لسان ملكة سبأ .

قال تعالى : « قالت يا أيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم . انه من سليمان وانه باسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتونى مسلمين ». (٢٧ :٢٩ ــ ٣١) .

(١٦٠٤) يشير الشاعر بهذا الى أن المظهر المتواضع قد يحجب حقيقة عظيمة . وكثيرا ما أكد الشاعر هذا المعنى ، حين حديثه عن الأنبياء الذين حسبهم الناس أفرادا عاديين ، ولم يفطنوا لما كان يدعمهم من تأييد الهى .

(١٦٠٥) ان العقل يكون دائما على خلاف مع الحس في مواجهة هذه الطلسمات ذات اللونين ، أى التى تفهم من جانبين ، جانبها الحسى ، وجانبها المعنوى . فالعقل ينفذ وراء الظاهر ، والحواس تقف عند ظاهر الحس ، فينشأ خلاف في الادراك . والشاعر قد ذكر الرسول بوصفه أسمى من تحقق له الادراك الروحى ، وأبا جهل بوصفه صورة للغفلة الناجمة من

الخضوع الكامل لسلطان الحس .

(١٦٠٨) في البيت اشارة الى قوله تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها » . (٧ : ١٧٩) .

(١٦١٠) « سيد الغد والحال » هو الخالق . أما قول الشاعر عن العين الحسية انها « لا ترى من الكنز مثقال شعيرتين » فمعناه : أن هذه العين لا تبصر من كنز العرفان الا أقل القليل .

(١٦١٥) انشقاق السماء يكون يوم البعث . فلعل الشاعر يتحدث هنا عن بعث الروح الغافل ، وأن هذا البعث أيضا يجعل السماء تنشق ،فيرى الروح ما كمن وراءها من عالم الغيب . ويؤيد ذلك قوله عن الانسان في البيت التالى (١٦١٦) : « تأمل ذلك التراب الذى جاوز العرش مسرعا ».

(١٦١٦) التراب ـ بطبيعته ـ يرسب في الماء ، ولكن الله صاغ من التراب كائنا تسامى الى العرش . هذا المخلوق هو الانسان الكامل . وشبيه بهذا المعنى (تسامى التراب) قول الشاعر : « ان العشق جعل الجسد الترابى يعلو على الأفلاك » (مثنوى ، ١ ، ٢٥) .

(١٦٢٤) قول الشاعر : « وأنت يا ابليس ، أيها النارى ! اهبط الى حضيض الثرى » ، يمكن أن يفهم على ضوء قول الجيلى :

« وأما الطبقة السابعة من الأرض فانها تسمى أرض الشقاوة . وهى سطح جهنم ، خلقت من سفليات الطبيعة ، يسكنها الحيات والعقارب وبعض زبانية جهنم ... وحياتها وعقاربها كأمثال الجبال ، .. وهى ملحقة بجهنم ... أسكن الله هذه الأشياء في هذه الأرض لتكون أنموذجا لما في جهنم من عذابه » . (الانسان الكامل ، ٢ ، ٧٥) .

(١٦٢٥) يسخر الشاعر من الفلاسفة الذين ينسبون التحول في الأشياء الى الطبائع الأربع ، الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة . (انظر تعريف كل من هذه الطبائع عند ابن سينا : تسع رسائل في الحكمة الطبيعية ، الرسالة الرابعة « في الحدود » ، ٩٥ ــ ٩٦) .

ويذكر الجيلى أن الطبيعيين عبدوا الطبائع الأربع مدعين أنها أصل الوجود ، اذ العالم مركب من حرارة وبرودة ويبوسة ورطوبة . (الانسان الكامل ، ٢ : ٨١) .

ويسخر الشاعر هنا أيضا من بعض المتفلسفين الذين وصفوا الخالق بأنه « العله الأولى » . ويعرف الشهرستانى العلة بقوله :

« المبدأ والعلة يقال لكل ما يكون قد استتم له وجوده في نفسه ، ثم حصل منه وجود شيء آخر ، وتقوم به » . (الملل والنحل ، ٢ : ١٨٦).

(١٦٢٦) قول الشاعر : « وليس بذى علة » فيه تورية . فقد يعنى وصف فعل الخالق بأنه لا سبيل الى أن ينسب اليه اعتلال ، وقد يعنى أن فعل الخالق ليس مبنيا على علل وأسباب ، اذ أنه يفعل ما يشاء .ويصدق هذا التفسير أيضا على قوله : « وتقديرى لا علة فيه » .

(١٦٣٠) في البيت اشارة الى قوله تعالى : « وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر » . (٧٥ : ٨ ــ ٩) .

(١٦٣١) قول الشاعر ان الخالق يجعل بالقدرة « عين الدم مسكا » يعنى أن الخالق يستطيع أن يجعل عين الشمس الملتهبة الحمراء مظلمة سوداء كالمسك . ومع أن الشاعر يعبر هنا عن المعنى تعبيرا لونيا ، فليس هناك ما ينفى الاشارة الى الحقيقة المعروفة ، وهى أن المسك يستنبط من دم ، هو دم الغزال ؛ فتحول الدم الى مسك هو فى ذاته صورة من صور القدرة الالهية المشهودة .

(١٦٣٢) الشمس والقمر ــ عند قيام الساعة ــ يشرقان من المغرب، فيصيران مظلمين ، ويمضيان على هذا النحو مسخرين ، كأنهما ثوران أثقل عنقاهما بالأعباء . (انظر : الجيلى : الانسان الكامل ، ٢ ، ٥٧) .

(١٦٣٣ ــ ١٦٤٠) يروى الشاعر في هذه الأبيات قصة وردت فى تفسير قوله تعالى : « قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين » . (٦٧ : ٣٠) .

يقول الزمخشرى في تفسير هذه الآية : « وعن بعض الشطار أنها تليت عنده فقال : تجىء به الفؤوس والمعاول . فذهب ماء عينيه » . (تفسير الكشاف ، ٤ ، ٥٨٣) .

وأورد فروزانفر صورا أخرى لهذه القصة من مصادر متعددة . (مآخذ قصص وتمثيلات ، ٥٦ ــ ٥٨) .

(١٦٤٦) شعيب هو النبى الذى أرسل الى أهل مدين . يقول صاحب المنهج القوى : « روى من معجزات سيدنا شعيب أن المحل الذى يسكنه كان جبلا محجرا لا يقبل الزراعة ، فدعا الله تعالى أن يبدله بأرض ذات تراب تقبل الزراعة ، ففعل » . (المنهج القوى ، ٢ ، ٣٧٨) . ولم أعثر على أصل ذلك فيما قرأت من سيرة شعيب . وليس في القرآن الكريم نص على معجزة شعيب ، بل فيه اشارة اليها . قال تعالى : « والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم » . (٧ : ٨٥) . يقول الزمخشرى : « فان قلت ما معجزته ؟ قلت : قد وقع العلم بأنه كانت له معجزة لقوله : (قد جاءتكم بينة من ربكم) ..... غير أن معجزته لم تذكر في القرآن ، كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم فيه » . ويستطرد الزمخشرى ــ بعد ذلك ــ بذكر معجزات رويت عن شعيب ، ليس من بينها ما أشار اليه الشاعر . (الكشاف ، ٢ ، ١٢٧) .

والشاعر يتساءل في هذا البيت عن ولىّ يكون له من الكرامة عند الله ما كان لشعيب ، فيجعل من الجدب خصبا .

(١٦٤٧) « الأمر الصعب المستحيل » الذى يشير اليه الشاعر هو خوض النيران من غير احتراق بها ، وهو ما حدث للخليل ، حين ألقى في النار ، فكانت عليه بردا وسلاما .

(١٦٤٨) أورد فروزانفر ما يمكن أن يكون أصلا لهذه القصة ، وذلك في نص نقله عن معجم البلدان لياقوت الحموى ، جاء به قوله :

« سأل المقوقس عمرو بن العاص أن يبيعه سفح المقطم بسبعين ألف دينار، فتعجب عمرو من ذلك ، وقال : أكتب بذلك الى أمير المؤمنين ، فكتب بذلك الى عمر ، فكتب اليه أن سله لم أعطاك به ما أعطاك ، وهى أرض لا تزرع ، ولا يستنبط فيها ماء ، ولا ينتفع بها ، فقال : انـا نجد صفتها في الكتب وأنها غراس الجنة ، فكتب الى عمر بذلك فكتب اليه عمر : انا لا نجد غراس الجنة الا للمؤمنين » . (مآخذ قصص وتمثيلات ، ٥٩) .

(١٦٥١ ــ ١٦٥٢) ليست التوبة مجرد ارادة ينويها المرء ، فيقترف الذنوب ، معتمدا على أنه سوف يتوب يوما الى الله ، فتُمحى ذنوبه . ان التوبة هبة الهية . والقرآن ملىء بالآيات التي تذكر أن الله يتوب على الناس ، وتصفه بأنه هو التواب الرحيم . قال تعالى : « فتلقى آدم مـن ربه كلمات فتاب عليه انه هوالتواب الرحيم » . (٢ : ٣٧) . وقال : « ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات » . (٣٣ : ٧٣) . وغير ذلـك كثير . وهذه الهبة مقترنة بصدق اخلاص المرء في طلبها .

(١٦٥٣) قول الشاعر : « لا بد للتوبة من لهيب وماء » ، يعنى أنه لا بد للتوبة من حرقة القلب ودموع العينين .

(١٦٥٤) لا بد من الدمع ولهيب القلب لكى تحقق الحياة الروحية ثمارها . فثمار الحياة الروحية شبيهة بثمار البستان في حاجتها الى الحرارة والمـاء .

(١٦٥٥ ــ ١٦٦٤) انتقل الشاعر من حديثه عن الحرارة والمـاء ، وضرورتهما لنضج الثمار ، الى التوسع في بيان ما لهما من أثر علـى الحياة . وقد اتخذ الشاعر من الحرارة والماء رمزا لحرارة القلب المخلص ، ودموع الخوف والرجاء . وبيَّن ما يكون لهذين من الأثر علـى بستان الروح ، ثم صور هذا البستان حافلا بالورد والأزهار والأشجار ، مفعم الجنبات بشدو البلابل ، وهتاف الحمام .

(١٦٦٢) « اللقلق طائر أعجمى طويل العنق ، وكنيته ــ عند أهـل

العراق ــ أبو خديج .. وصوته اللقلقة .. ويوصف بالفطنة والذكاء » .
(انظر : الدميرى : حياة الحيوان ، جـ ٢ ، ص ٣١٩) .

(١٦٦٥)هذهالهبات الروحية التى يتلقاها العارف أدلة يهتدى بها ، وعلامات يقتفيها ، في سلوك السبيل الى خالقه .

(١٦٦٦) من كان عارفا بالخالق سعد بتلك الآثار الروحية التى يتلقاها . أما من حرم هذا العرفان فان هذه الآثار تحدث له فلا يفطن اليها ولا يدرك معناها .

(١٦٦٧ ــ ١٦٦٨) ساعة « ألست » اشارة الى قوله تعالى : « واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » . (٧ : ١٧٢) . فالعارفون ــ قبل خلق العالم ــ تذوقوا خمر المحبة ، ولهذا فانهم يعرفون هذه الخمر في الدنيا ، أما سواهم فلم تتحقق لهم مثل هذه النشوة من قبل، فهم في هذه الدنيا غافلون عنها .

(١٦٦٩) في البيت اشارة الى الحديث المشهور : « الحكمة ضالة المؤمن » . وقد أورده الترمذى بسند ينتهى الى أبى هريرة .

ان الحكمة ــ بالنسبة للمؤمن ــ كالناقة الضالة ، يبحث عنها ويطلبها ، فاذا ما لقيها عرفها ، لأن روحه كانت قد تذوقتها قبل هذه الحياة . فالحكمة ــ التى هى ضالة المؤمن ــ تكون دلالة له على أصله الروحى . وينسب الى الامام على أنه قال : « الحكمة دلالة المؤمن » . أما الملوك ــ المذكورون في هذا البيت ــ فيقصد بهم الصوفية العارفون .

(١٦٧٠ ــ ١٦٧١) قد يوحى للعارف بالبشائر الالهية ابان النوم .

(١٦٧٣) قول الشاعر : « ومن علاماته أنه سوف يطوى أمامك ساعديه » ، يعنى أن « من علاماته أن يقف أمامك مبديا احترامه لك ، وطاعته لأمرك » .

(١٦٧٥) هذه الآيات التى يبديها الحق للعارفين شبيهة بالآية التى أبداها الحق لنبيه زكريا .

(١٦٧٦ ـ ١٦٧٧) النهى ـ في هذين البيتين ـ تفسير للنهى عن الكلام الذى وجهه الله الى زكريا .

(١٦٧٨) عاد الشاعر هنا الى الحديث عن العارف الذى يتلقى في منامه حلما ينبئه بآيات وعلامات لتحقق مراده .

(١٦٨٠ ـ ١٦٨٦) يصور الشاعر في هذه الأبيات حال المحب الذى يطلب الحق باخلاص ، وما يقدم من تضحيات ، وما يصيبه من آلام في سبيل ذلك . فهو يبكي ويتضرع خلال الليالي والأسحار . وهو يشعر بالتعاسة أثناء النهار ، ويغدو عنقه ـ من كثرة المجاهدة ـ نحيفا كالمغزل . وهو يجود بكل شيء ، ويتخلى عن كل ما يملك . ويخاطر في كل سبيل ، غير مبال بالأخطار .

(١٦٨٧) يصور الشاعر هذا المحب ـ الذى ضحى وبذل كل هذا الجهد ـ وقد استيقظ ذات صباح ، بعد ليل من الأنس ، تلقى فيه أثناء النوم بشرى بتحقيق مراده .

(١٦٨٨ ـ ١٨٩٦) في الأبيات صور متعددة لهذا الحالم الذى تلقى البشرى ، فهو في الغداة يتلفت في كل اتجاه ، وينظر في كل جانب ، لعله يصادف تلك الآيات التى تبشره بتحقيق مراده .

(١٦٩٠) في البيت تعبير رمزى يشير الى أن الحكمة ضالة تدفع العارف للبحث عنها ، كما تدفع الممتلكات الدنيوية الناس للبحث عنها ، والجد في طلبها .

(١٦٩١) في البيت تعبير عن دهشة العوام لسعى العارف وراء شيء غير محسوس ولا ملموس .

(١٦٩٤) في البيت اشارة الى تهمة الجنون التى كثيرا ما كان يُرمى بها من غلب عليه الوجد الصوفى .

(١٦٩٦) قوله : « أيها الراكب » يعنى : « يا من أنت مستريح ناعم مغتر بأبهتك ... » .

(١٦٩٩) قول الشاعر : « فيقول من لا خبر عنده : ان هذا لخداع

وتفاق » ، يعنى أن أحوال الصوفية لا يمكن أن يعرفها سواهم ، لأن هؤلاء لم يجربوها .

(١٧٠٠) المنكرون على الصوفية ظاهر حالهم لا يعلمون حقيقة الحال التي يكون عليها هؤلاء . وهكذا من حرم من الآيات والعلامات الروحية ، لا يستطيع ان يفطن لما يفطن اليه من وهب هذه الآيات . والأرواح منذ وقفت أمام خالقها ، قبل خلق الدنيا ، كان منها ما انتشى بهذا الموقف ، وكان منها اكتفى باظهار الطاعة .

(١٧٠٤) روح العارف سرعان ما تصدق الأنبياء ، لأنها تكون مدركة لما يظهرونه من آيات .

(١٧٠٦) « وكيف يستطيع انسان أن يحصى ما لا يحصى من آيات الله .. » .

(١٧١٩) لو كان تنزيه الخالق يستند الى وصفه بأنه ليس بحائك أو ماشابه ذلك من الصفات الجسدية ، فليس هذا بتنزيه . ولا يصدر مثل هذا القول الا عن جاهل .

(١٧٢٠ ــ ١٧٦٠) يروى الشاعر في هذه الأبيات قصة عن موسى ــ عليه السلام ــ وأحد الرعاة ، توضح التباين في تصور الله بين الراعى ، وبين ذلك النبى المرسل . ثم يتحدث الشاعر بعد ذلك عن مدى مسؤولية الجاهل عن هذا التصور الخاطىء .

وقد وردت في العقد الفريد صورة بسيطة لهذه القصة ، لم يذكر فيها موسى ، ولكن جوهرها مشابه لجوهر قصة موسى والراعى ، كما رواها الشاعر . وفيما يلى نص قصة العقد الفريد :

« قال الأصمعى : كان الشعبى يحدث أنه كان في بنى اسرائيل عابد جاهل قد ترهب في صومعته ، وله حمار يرعى حول الصومعة ، فاطلع عليه من الصومعة فرآه يرعى ، فرفع يديه الى السماء ، فقال : لو كان لك حمار كنت أرعيه مع حمارى ، وما كان يشق علىّ . فهم به نبىّ كان فيهم في ذلك الزمان ، فأوحى الله اليه : دعه ، فانما أثيب كل انسان على

قدر عقله » . (العقد الفريد ، ٦ ، ١٦٤) .

وذكر فروزانفر صورا متعددة لهذه القصة من مصادر مختلفة . (مآخذ قصص وتمثيلات ، ٥٩ ــ ٦١) .

وقد تناول جلال الدين هذه القصة بأسلوبه الفني ، فصاغ لها حوارا رائعا ، وأغناها بكثير من الصور .

(١٧٣٧ ــ ١٧٣٩) يصف الشاعر في هذه الأبيات الانسان الكامل . ويقول على لسان موسى : ان مثل هذه الأوصاف الجسدية التي تحدث بها الراعي عن الخالق لا تجوز في حق الانسان الكامل ، فهي ــ من باب أولى ــ غير جائزة في حق الله ، جل وعلا .

(١٧٣٧) « العبد الذى قال عنه الحق : انه ذاتى وأنا ذاته » هو العبد الذى أفنى ذاته في ذات الحق ، فصدق عليه قوله تعالى : « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » . (٨ : ١٧) .

(١٧٣٨) يتضمن هذا البيت اشارة الى حديث رواه أبو هريرة عن الرسول . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله عز وجل يقول يوم القيامة ، يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدنى ! قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده . أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمنى ! قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقنى ! قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه . أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى ؟ » . رواه مسلم . (النووى : رياض الصالحين ، ٣٦٩ ــ ٣٧٠) .

(١٧٣٩) « بعد ان غدوت له سمعا وبصرا » : هذه العبارة تتضمن اشارة الى الحديث القدسى الذى رواه الرسول بقوله : « يقول الله

تعالى : ما زال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت عينه التي يبصر بها ، وسمعه الذي يسمع به ، ويده التي يبطش بها ». (السراج : اللمع ، ٤٦٣) .

(١٧٤٦) « هذا الجانب من النهر » ، كناية عن عالم الدنيا .

(١٧٥٢) في البيت اقتباس من حديث يَروى عن الرسول قوله : « ما خلق الله مباحا أحب اليه من العتاق ، وما خلق الله مباحا أبغض اليه من الطلاق » . (المنهج القوى ، ٢ : ٣٩٦) .

(١٧٥٣ — ١٧٥٤) كل مؤمن يعبد ربه ، ولكن درجة الادراك لمعنى العبادة ، وأسلوب التعبير عنها ، يختلف من شخص الى آخر . فتعبد الرجل الساذج لا يمكن أن يكون شبيها بتعبد النبيّ أو العارف .

(١٧٥٥ — ١٧٥٦) ذات الخالق منزهة عن كل طهر وتلوث ، فمقاييس الانسان في هذين الأمرين لا تصدق عليها ، كما أن الخالق غنى عن العالمين ، لا حاجة به الى عبادة الناس . وقد فرض عليهم التكاليف لا لربح ينشده منها ، وانما لتكون سبيل الناس للسمو بأنفسهم ، والوصول الى درجة الكمال الروحي ، وهذان هما السبيل الى رضى الله ، وتحقيق السعادة الأبدية .

(١٧٦٠) في هذا البيت يبدو أن الشاعر يدافع عن أهل الشطح من الصوفية ، الذين قد ترد على ألسنتهم عبارات منافية لمألوف القول ومعقوله ، ومع ذلك لا يعوز قلوبهم الاخلاص والايمان والخشوع .

(١٧٦٥) يدافع الشاعر هنا عن أهل الشطح من الصوفية . فعنده أن هؤلاء من العشاق الذين تحترق قلوبهم في كل لحظة . فليس يفترض فيهم ما يفترض في أهل الصحو من مراعاة للآداب ، فالعاشق صار — من جراء احتراقه — مثل القرية الخربة ، وهذه لا يفرض عليها خراج ولا عشور .

(١٧٦٨) الصلاة في كل اتجاه جائزة في الكعبة .والتوجهالى اللهممكن

في كل اتجاه ، لأن الله منزه عن المكانية . وكما لا يكون الغواص بحاجة الى ارتداء ما يقيه من الغوص ، فكذلك طالب الوصال لا يتوسل الى ذلك بما هو من معوّقات الوصال .

(١٧٦٩) سكارى المحبة لا يكون سلوكهم من ذلك اللون التقليدي المعروف ، فهؤلاء لا تلتمس عندهم الهداية التى ينشدها العوام . ومن يفترض فيهم الاقلاع عن سلوكهم فهو شبيه بمن يطلب الى من تهلهلت ثيابه أن يقوم برفوها .

(١٧٧١) افتقار العارف المحب الى الصور الظاهرية لا ينتقص منه ، كما لا ينتقص من الياقوتة أن تكون مجردة من نقش الخاتم . واذا كان العاشق غريق بحار الأسى ، فلا ضير عليه من آلام العشق .

(١٧٨٨) « سدرة المنتهى » هي نهاية المكانة التي يبلغها الانسان ، في سيره الى الله تعالى . (انظر : مثنوى ، ١ ، شرح ١٠٦٦) .

(١٧٩٠) يعتبر الحلاج من أقدم من تحدث عن الناسوت واللاهوت في الاسلام . قال :

سبحان من أظهر ناسوته سرّ سنا لاهوته الثاقب

وقال : « اللهم انك المتجلى من كل جهة ، المتخلى عن كل جهة ، بحق قيامك بحقى ، وبحق قيامى بحقك ، وقيامى بحقك يخالف قيامك بحقى ، فان قيامى بحقك ناسوتية ، وقيامك بحقى لاهوتية ، وكما أن ناسوتيتى مستهلكة في لاهوتيتك ، فلاهوتيتك مسؤولة عن ناسوتيتى ، غير مماسة لها » .

وقول جلال الدين ــ على لسان الراعى ــ لا يتعدى دعاء الله أن يجعل كيانه الانسانى جديرا بأن يكون نجى سرّ الخالق .

(١٧٩٢ ــ ١٧٩٥) انتهى حديث الراعى الى موسى في البيت ١٧٩١.

وعاد الشاعر من جديد الى سرد آرائه . وقد وقعت شبهات حول تفسير البيتين (١٧٩٢ ــ ١٧٩٣) اذ اعتبرهما بعض الشراح من كلام

الراعي لموسى . والواقع أنهما حديث مباشر من الشاعر ، وهما مرتبطان بالبيتين التاليين لهما . فالشاعر يحذر المتعبدين من الاغترار بما يوجهونه الى الخالق من مدح وثناء ظانين أنهم بذلك قد وفوه حقه . فالثناء مهما علا لن يتجاوز ما يفهمه قائله من معنى الكمال. ولهذا فان الانسان يستمد تصوره المثالي من صورة نفسه ، ظانا أن هذا التصور شيء خارج عن ذاته ، وليس الأمر كذلك . فهو كمن نظر الى المرآة فرأى صـورته ، فحسبها شيئا مختلفا عن ذاته ، أو كمن نفخ في الناى ، وحسب الأنغـام أمرا منفصلا عن أنفاسه .

(١٧٩٧) المستحاضة ، هي الحائض التي لا ينقطع عنها الدم بعـد انقضاء فترة الحيض .

(١٧٩٩ ــ ١٨٠٠) من اليسير التطهر من النجس الذى يصيـب ظاهر الانسان ، أما النجس الذى يصيب باطنه فيصعب التطهر منه .

(١٨٠٨) عبر الشاعر عن اغترار الكافر بحياته الدنيوية ، وحرصه عليها ، بأنه اختار الخروج عن ترابيته ، ثم يقول : انه لـو بقى ترابـا ، لاستطاع أن يكون كالتـراب ، يتلقـى الحبـة وينميهـا . فالخروج عن الترابية يرمز الى غرور الكافر ــ في تناسيه أصله ــ وكذلك يرمز الى عقمه ، وعجزه عن الاثمار .

(١٨٠٩) ان رحلة الكافر في الحياة الدنيا لم تكن رحلة مثمرة ، ولهذا فقد عاد منها بدون أن يحصل شيئا .

(١٨١١) الاعراض عن طريق اليقظة الروحية مبعثه الحرص والطمع، وأما الانطلاق في هذا السبيل فدافعه الصدق والاخلاص .

(١٨١٧) « اعتراض الملائكة » ، هو القول الذى روى القـرآن الكريم أنهم خاطبوا به ربهم حين أخبرهم بخلق آدم . قال تعالى : « قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء .. » . (٢ : ٣٠) .

(١٨٢١) يريد موسى أن يطمئن بالشهود والعيان ، كما فعل ابراهيم. قال تعالى : « واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى ، قـال

أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى » . (٢ : ٢٦٠) .

(١٨٢٣) « لقد كشفت للملائكة سر خلق آدم ، وأظهرت لهم أن مثل هذا المخلوق كان جديرا بأن يتخلق ، برغم أنه كان عرضة لارتكاب المعاصى ، فهو قد تحقق بصفات كمالية تفوق ما كان يتوقع أن يقترف من مخالفات » . وقد رمز الشاعر للروح الآدمى بالشهد ، وأما الجسد فقد رمز له بالابر .

(١٨٢٤) حين عرض الخالق نور آدم على الملائكة تبين لهم ما لم يكونوا يعلمون ، وأدركوا حكمة الله في خلق الانسان .

(١٨٢٥) كل ما بدا للادراك الآدمى سرا غامضا ، يكشفه الله في نهاية الأمر . فهو الذى كشف للملائكة سر خلق آدم . وهو الذى يكشف بالحشر سر الموت ، كما تكشف الثمار عن سر الأوراق .

(١٨٢٦) الموجودات تبدأ بداية متواضعة ، ثم تتجلى بعد ذلك امكاناتها . فالدم والنطفة هما بداية الوجود الانسانى . ومن هذه البداية يتشكل الجمال الانسانى بصورته ، ثم بمعناه .

(١٨٢٧ ــ ١٨٢٨) العلم هو أحد الأمور التى تكون ذات بداية متواضعة . فالعالم يكون ــ في أول أمره ــ طفلا يغسل اللوح ليكتب فوقه . وكذلك القلب الانسانى ، هو ــ في بداية أمره ــ دم ودموع (أى مجرد حياة حسية عاطفية) ، ثم ينتهى به الأمر الى أن يكون موضعا لتجلى الأسرار الالهيــة .

(١٨٢٩) لكى يحقق كل عمل امكاناته الكاملة يجب أن يتضح هدفه منذ البداية . فالطفل الذى يغسل اللوح يجب أن يعلم أن ذلك للتعلم ، وليــس للعــب .

(١٨٣٠) من الواجب أن يبدأ العمل على أساس سليم . فعند الشروع في بناء منزل ، يجب أن يزال من موقعه الأساس القديم ، قبل وضع الأساس الجديد .

(١٨٣١) للوصول الى النتيجة المثمرة لا بد من التعب والعناء . لا بد من الحفر ، ورفع الطين ، من أجل الوصول الى الماء .

(١٨٣٢ ــ ١٨٣٣) عناء الكد والسعي يكون بغيضا الى الجهلاء ، الذين لا يدركون عاقبة الأمور . أما العارفون المدركون لتلك العاقبة فالعناء محبب الى نفوسهم . ان الجهلاء شبيهون بالأطفال الذين لا يدركون من ابرة الحجام سوى وخزها . أما العارفون فهم شبيهون بالرجال المدركين لجدوى ابرة الحجام ، ولهذا فانهم يقبلون عليها راغبين ، ويبذلون في سبيلها المال .

(١٨٣٤ ــ ١٨٣٥) كل من أدرك نتيجة الجهد سارع الى بذله . فهو كالحمال الذى يسابق الآخرين الى حمل الأثقال ، لأنه يعلم ما يعود عليه من ربح لقاء ذلك . وهكذا البصير بالعواقب . يبذل جهده في هذه الحياة ، لأنه يعلم نتيجة ذلك .

(١٨٤٢ ــ ١٨٤٤) من صفت نفسه ، وأصبح ذا بصيرة روحية فهو قادر على ادراك الحقائق من غير حاجة الى أسباب ومبررات . أما من يعتمد في معارفه على الحواس فهو أسير الأسباب والعلل . وليست تتحقق منزلة الكشف الا لمن تحررت روحه من سلطان المادة . فمثل هذا يكون قادرا على ادراك معجزات الأنبياء ، على أساس حقيقتها الروحية المستمدة من عالم الغيب ، ولا يقف ازاءها موقف أسير الحس ، الذى ينظر اليها نظرة سطحية ، لا تخرج عن نطاق العالم المادى .

(١٨٤٥) « الأسباب » قادرة على أن تبين أمورا حسية محدودة ، كما يكون من شفاء المريض بمعالجة الطبيب ، أو اضاءة السراج باشعال الفتيل .

(١٨٤٦) « ابذل جهدك لتصحيح هذه الأسباب التى تستند اليها في تحصيل المعارف . وكن على يقين أن هناك عرفانا أسمى من كل ذلك ، يشبه نور الشمس ، على حين أن معارف الحس شبيهة بنور السراج » .

(١٨٤٧) الطين الذى يتكون منه سقف الدار رمز للأسباب التى تُستمد منها معارف الحس . أما سقف السماء فهو رمز لعرفان الروح . وهذا العرفان منزه عن الأسباب .

(١٨٤٨) « لقد انقضت خلوة التجلى بما شاع فيها من أنس ،وبزغ صبح الوعى الحسىّ » .

(١٨٤٩) لا بد للقلب أن يلقى العناء حتى يتحقق له مثل هذا التجلى. فالبدر لا يتجلى الا في الظلام .

(١٨٥٠) « نبى الله عيسى وقد امتطى الحمار » رمز للروح وهى مرتبطة بالجسد .فمن عُنى بجسده وغفل عن روحه شبيه بمن يرعى الحمار ويعرض عن عيسى . فلا جرم أن من يفعل هذا يكون خارج نطاق العرفان.

(١٨٥٢) « أنين الحمار » رمز لنداء البدن وهو يلتمس الشهوات . فمن استجاب لهذا النداء شبيه بمن وقع تحت سيطرة حمار ، لأن البدن في حسيته وتعلقه باللذات شبيه بالحمار .

(١٨٥٣) « كن رحيما بالروح ، ولا تكن رحيما بالجسد . ولا تتح لغرائزك سبيل التحكم في عقلك » .

(١٨٥٦) في البيت اشارة الى حديث يَروى عن الرسول قوله :

« أخروهن من حيث أخرهن الله » . ويقال ان المقصود من هذا الحديث تأخير النساء عن الرجال في صلاة الجماعة ، أى جعلهن فى الصفوف الخلفية . وقد فسر الشاعر هذا الحديث تفسيرا رمزيا ، فاعتبر المرأة رمزا للنفس الأمارة بالسوء ، وهذه يجب أن تتنحى جانبا لكى يتقدم عليها العقل .

(١٨٥٧) العقل الوضيع ينحط في تفكيره ، ولا يبقى له نشاط خارج نطاق الحس . واذ ذاك يصبح شريكا للجسد ، لا هم له الا تحصيل اللذات .

(١٨٥٨ ــ ١٨٥٩) لقد تغلبت روح عيسى على جسده وأخضعته ،

فالروح القوية يتضاءل أمامها الجسد .

(١٨٦٠) الجسد الضعيف يقوى ويتسلط ،حينما يقترن بعقل ضعيف.

(١٨٦١) « فلو أن المرشد الروحي قسا عليك وآلمك ، فلا تعرض عنه ، فان هذا الألم هو السبيل الذى تكسب منه روحك قوة ومناعة » .

(١٨٦٢) ان المرشد العارف يلقى جحودا وحسدا من الناس ، برغم أنه كنز روحى أتيح لهم . فهذه الآلام التى يعانيها العارف شبيهة بالثعبان الذى يحرس الكنز . فهناك خرافة شعبية تؤمن بأن كل كنز لا بد له من ثعبان يحرسه . فكأنما يريد الشاعر أن يقول ان كل مرشد عارف لا بـد له أن يقابل بحسد الحاسدين وكيدهم .

(١٨٦٣) المرشد العارف يلقى من الحاقدين والحاسدين ما لقيـه عيسى من اليهود ، وما لقيه يوسف من اخوته الحاسدين .

(١٨٦٥) لا فضل عند الحاقدين ذوى الوجوه الصفراء . انهـم شبيهون بمرض الصفراء ، لا فضل له سوى ما يحدثه من صداع . وفي الشطر الثانى من البيت تأكيد للذم بما يشبه المدح .

(١٨٦٦) ورد الشطر الثانى من البيت : « ما نفاق ... » بدلا مـن « بانفاق .. » ، في بعض الروايات . فيكون معنى البيت :

« فلتفعل أنت (أيها المرشد) ما تفعله شمس المشرق . وأما نحـن (أهل الدنيا) ففعلنا نفاق واحتيال وسرقة وخداع » .

(١٨٦٧) « أنت ـ أيها المرشد ـ في تساميك ، واستقامتك فـى الدين والدنيا ، شبيه بالعسل ، ونحن في سوء أخلاقنا شبيهون بالخل . ولا علاج لعلتنا الا باقتباسنا من أخلاقك » .

(١٨٦٨) « لتزدد ـ ايها المرشد ـ فضلا كلما ازددنا نحن سوء خلق ا ذلك لأن سوء خلقنا ناشىء من اعتلالنا ، فنحن في حاجة الى مزيد مـن عنايتك وكرمك » .

(١٨٦٩) « لئن ساءت أفعالنا فهذا مدى قدرتنا . فالنفس السيئة لا يصدر عنها سوى السوء . وكل ما يصدر عنها من سوء يزيدها خبثا ، كالرمل في العين يزيدها عمى » .

(١٨٧٠) أفعال المرشد الخيرة جديرة بنفسه الخيرة . انه كالكحل ينير لضعاف النظر أبصارهم . وهو لا يبخل بعونه على أحد ، مهما بلغ هوان أمـره .

(١٨٧١) الانسان الكامل يكتوى بنار الظالمين ، ومع ذلك لا يحقد عليهم ، بل انه لا يضن عليهم بالحب والحنان . وهذا ما أثر عن الرسول عندما أصيب في غزوة أحد ، فدعا ربه قائلا : « اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمـون » .

(١٨٧٢ ـ ١٨٧٥) في هذه الأبيات يصف الشاعر الانسان الكامل .

(١٨٧٢) « منجم العود » : العود بطبيعة الحال نبات . فكلمة « منجم » هنا استعملت استعمالا مجازيا . وقد ترجمنا بها كلمة « كـان » الفارسية . ويقصد بمنجم العود منبته أو مصدره .

(١٨٧٧) لم يقف الشاعر عند مفهوم هذا الحديث ، وهو أن عداوة العاقل خير من صداقة الجاهل ، بل تعدى ذلك الى بيان النفع الـذى يتحقق من عداوة العاقل ، والضرر الذى يحدث من صداقة الجاهل ، فساق قصتين لبيان ذلك : أولاهما قصة « الأمير والرجل الذى دخلت في بطنه حية » (الأبيات ١٨٧٨ ــ ١٩٣٠) ، والثانية قصة « الرجل الذى صاحب الدب » (البيت ١٩٣٢ وما يليه) .

(١٨٧٨) الفارس العاقل في هذه القصة رمز للمرشد الروحى ، أما الرجل النائم فهو رمز للجاهل الغافل .

(١٩١١ ــ ١٩١٣) لعل الحديث المشار اليه بهذه الأبيات هو ذلك الذي ذكره صاحب المنهج القوى (مرويا عن أبى الدرداء ، باخراج الطبرانى

والحاكم) ، ونصه : « لو تعلمون ما أعلم ، لبكيتم كثيرا ، ولضحكتم قليلا ، ولخرجتم الى الصعدات تجأرون الى الله تعالى ، لا تدرون تنجون أو لا تنجون » . (المنهج القوى ، ٢ ، ٤٢٦) .

وعن أنس بن مالك أن الرسول عليه السلام خطب فقال : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا » . (النووى : رياض الصالحين ، ص ٢٠٩) .

(١٩١٤ ــ ١٩٢٠) مضى الشاعر في شرح الحديث ، وتصوير معناه . وقد أجرى هذا الشرح على لسان الرسول ، لتقريب المعنى الى أفهام سامعيــه .

(١٩١٦) مما يكثر ذكره في كتب الصوفية أن الرسول عرف الأولياء الذين جاءوا بعده ، وأنه كان يظهر لهم ويخاطبهم . وهم كثيرا ما ينسبون الى الرسول أقوالا ، يذكرون أنه حدث بها هؤلاء الأولياء . ولهذا لا يستغرب أن ينسب اليه معرفة أبى بكر الربابى ، وما اشتهر به من طول الصمت .

أما قوله : « وهأنذا أضرب الحديد بيدى مثل داوود » ، فمعناه : « وهأنذا ألين تلك القلوب القاسية ، وأسعى الى تغييرها ، كما كان داوود يصنع بالحديد » .

(١٩٢٠) معجزة شق القمر أظهرت ــ فوق السماء ــ ما كان ليد الرسول من المقدرة .

(١٩٢١) قول الشاعر : « وهذه الصفة أيضا هى من جراء ضعــف العقول » ، يمكن أن يفهم على وجهين ، حسب تفسيرنا لما أراده الشاعر بكلمة « الصفة » . فربما كان المقصود بهذه الصفة لزوم الصمت حتى لا يخطىء ضعاف العقول فهم المعانى . وربما كان المقصود بها الحديث عن قدرة الله بأسلوب تمثيلى ، ينسب الى الله اليد ، وغيرها من الأعضاء .

(١٩٢٦) انظر التعليق على البيت ١٨٧١ .

(١٩٣٢) يبدأ الشاعر هنا حكاية معروفة هى حكاية الدب الذى قتل صاحبه . (انظر : تعليقات نيكولسون ، وانظر أيضا : فروزانفر : مآخذ قصص ، ٦٢) .

(١٩٣٨) الرجل الشجاع لا يهدف الى نفع من وراء أعماله الخيرة ، وليس له من دافع ولا هدف سوى المحبة . انه كالدواء ، لا غاية لـه سوى ازالة المرض .

(١٩٤٣) « هتاف الأفلاك » : كان المعتقد في زمن الشاعر أن للأفلاك أنغاما وألحانا . والنص التالى ــ وهو من رسائل اخوان الصفاء ــ يوضح لنا هذا المفهوم :

« ولما كانت الأفلاك دائرات ، والكواكب والنجوم متحركات ،وجب أن يكون لها أصوات ونغمات . ولما كانت مستوية في نظامها ، محفوظة عليها صورة تمامها وكمالها ، وجب أن تكون حركاتها منفصلة ، وأصواتها متصلة ، وأقسامها معتدلة ، ونغماتها لذيذة ، وألحانها بديعة ، ومقالتها تسبيحا وتقديسا وتكبيرا ، وتهليلا تفرح له نفوس المستمعين لها ،والحافين بها من الملائكة والنفوس التى تقدم عليها ، وتصعد اليها . وتلك الحركات والأصوات هى مكيال الدهور والأزمان التى بها يحكم على عالمها بالبقاء من حيث هى ... وقد استمعتها النفوس وهى في عـالم الكون والفساد ، فتذكرت بها عالم الأفلاك ولذات النفوس التى هناك ، من فسحة الجنان ، وروضة الريحان ، وعلمت أنها في أحسن الأحوال ، وأطيب اللذات ، وأتم الأشكال وأدوم السرور .. » . (رسائل اخوان الصفاء : ٣ ، ٩٠ ــ ٩١).

(١٩٤٤) «نزه بصرك وبصيرتك عن الحسية ، والتعلق بالمادة ، واذ ذاك تستطيع شهود حديقة الغيب » .

(١٩٤٦) « خلّص كيانك من علل الحس وأمراضه ، لأن هـــذه الأمراض تعوقك عن تذوق حلاوة العرفان الروحى » .

(١٩٤٧) « الرجولة » هنا رمز لقوة الروح وانطلاقها ، و « العنة » رمز لضعفها وتراخيها . والشاعر يدعو الى تقوية الروح حتى تصبح بقوتها وتحررها مجلى للشهود ، وما يكشفه من ألوان الحسن والجمال .

(١٩٤٩) « الفلك العتيق » ، هو عالم الحس الذى يؤول الى بلى وفنـــاء .

(١٩٥١) قول الشاعر : « فالنواح والبكاء ذخيرة عظيمة » ، يعنى أن دموع الندم والخوف هما من أسباب رحمة الله وغفرانه .

(١٩٥٦) « ان لكم في السماء أرزاقا روحية عظيمة ، فلماذا تشبثتم بعالم الحس الوضيع ؟ » .

(١٩٥٧) « صوت الغول » رمز للضلال . فالخوف واليأس يبعـدان المرء عن سلوك سبيل اليقظة الروحية ، ويقودانه الى الهلاك ، كما تفعل الغول بالمسافرين في البيداء .

(١٩٥٩) « صوت الذئب » هو نداء الحرص والشهوات الحسية .

(١٩٨٠ ــ ١٩٨٢) السامرى : (انظر : مثنوى ، جـ ١ ، البيت ٢٢٥٨ ، وشرحه) .

(١٩٨٧) قول الشاعر : « انه أنت فابحث عن ذاتك فيه » ، يعنى : أن المرشد بمثاليته وتساميه يمثل حقيقة جوهرك ، فاطلب عنده تلـك الحقيقة .

(١٩٨٨) « فان أعرضت عن المرشدين العارفين ، فأنت أسير الحرص والطمع ، ومآلك الى هلاك محقق ، كما كان مآل ذلك الدب بـين فكى التنيـــن » .

(١٩٩٣) بدأ الشاعر في هذا البيت قصة قصيرة ، هى حكاية السائل الأعمى . وقد وردت هذه القصة في محاضرات الراغب الأصفهانى على الوجه التالى :

« كان أعمى يقول : ارحموا ذا الزمانتين ، فقيل : ما هما ؟

قال العمى ، وقبح الصوت . أما سمعتم :

فبى عيبان ان عدا فخير منهما المـــوت

فقير مـا له قدر وأعمى ما لـه صـوت

كما وردت بصوزة مشابهة لهذه في شرح نهج البلاغة ، نقلا عـن الجاحظ . (انظر : فروزانفر : مآخذ قصص وتمثيلات ، ٦٥) .

(٢٠٠٦)« قبيح الصوت الذى يكون ثملا بدم الخلق » هو مـن يجيز لنفسه قذف الأعراض ، ويتناول بالسوء سيرة الخلق .

(٢٠٠٩) الجزح القديم لا سبيل الى مداواته الا بالكى . والنفس الموغلة في الآثام والخطايا هى في أمس الحاجة الى مثل هذا العلاج القاسي.

(٢٠١٠) في الأبيات التالية يصور الشاعر ذلك الرجل الذى أنقـذ الدب وكأنه شخص عنيد أبله . ولا تناقض بين هذه الصورة ، وبين مـا سبق وصفه به من الشجاعة والنجدة . فهذا الرجل الشجاع ، كانت تنقصه اليقظة الروحية ، وسلامة الادراك ، ولهذا فان شجاعته لم تنقذه مـن المصير الذى ينتظر أمثاله .

(٢٠٢٣) قول الشاعر : « انني مؤمن وقد أصبحت ناظرا بنور الله »، يتضمن اقتباسا من حديث يروى عن الرسول قوله : « اتقوا فراسـة المؤمن ، فانـه ينظر بنـور الله » . (انظر : المثنوى ، ١ ، البيت ١٣٣١ وشرحه) . أما قوله : « اهرب من بيت النار هذا » ، فمعناه : « دع عنك محبة الدب ـ (وهى هنا رمز لصداقة الأبله) ـ لأنها شبيهة بعبـادة النار » .

(٢٠٤٠) في البيت اشارة الى قوله تعالى : « واذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون » . (٢ : ٥٠) .

(٢٠٤١) في البيت اشارة لبعض معجزات موسى التى ورد ذكرهـا في القرآن الكريم . قال تعالى : « وأنزلنا عليكم المـن والسلـوى » . (٢ : ٥٧) . وقال : « واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصـاك

الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أنـاس مشربهـم » . (٢ : ٦٠) .

(٢٠٤٤) في هذا البيت يعاتب موسى عابد العجل ، ذلك الذى شك فيما أظهره موسى من معجزات عظيمة ، على حين أنه خر ساجدا عندما سمع صوت العجل . فكأن صوت العجل طوفان جرف الى نفسه الأوهام، وكل ما ثار عنده من شكوك حول الدين والايمان ، وكأنما عقل هـذا الكافر المخالف قد غلبه نوم الغفلة ، فلم تبق له أية مقدرة على التفكير .

(٢٠٤٧) السامرى : (انظر : المثنوى ، ١ ، البيت ٢٢٥٨ وشرحه) .

(٢٠٦٨ ــ ٢٠٧٥) في هذه الأبيات تعبير عن قصة معروفة ، رويت على أنهـا سبب لنزول سورة « عبس » ، وأوردها صاحب الكشـاف على الوجه التالى :

« أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أم مكتوم (الأعمى) .. وكـان عنده صناديد قريش : عتبـة وشيبـة ابنا ربيعـة ، وأبـو جهل بن هشـام ، والعباس بـن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة ، يدعوهم الى الاسلام ، رجاء أن يسلم باسلامهم غيرهم . فقال: يا رسول الله ، اقرئنى وعلمنى مما علمك الله ، وكرر ذلك ، وهو لا يعلم تشاغله بالقوم ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه ، وعبس وأعرض عنه ، فنزلت « عبس وتولى » . فكان رسول الله يكرمه ويقول اذا رآه : مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى . ويقول : هل لك من حاجة ». (الزمخشرى : تفسير الكشاف : ٤ ، ٧٠٠ ــ ٧٠١) .

(٢٠٧١)الحبش : من الواضح أن المقصود بهذه الكلمة تلك الجماعة التى كانت تعرف « بأحابيش قريش » . وهناك خلاف حول تفسير كلمة أحابيش ، فقد فهمها البعض على أنها تعنى عبيدا من الحبشة ، ولكـن نصوصا تاريخية متعددة بينت أنهم كانوا جماعات تنتمى الـى بعض

القبائل العربية ، وكانت قريش تستخدم هذه الجماعات في حراسة قوافلها التجارية ، فكأنهم كانوا لها بمثابة الحلفاء . (انظر : عبد الحميد العبادي : أحابيش قريش ، هل كانوا عربا أو حبشا ؟ بحث في مجلة كلية الآداب — جامعة القاهرة ، مايو ١٩٣٢) .

(٢٠٧٢) « بصره » تمثل في هذا البيت مشكلة تاريخية . فان كان المقصود بها مدينة البصرة العراقية ، فانها لم تنشأ الا بعد وفاة الرسول بضع سنوات . واجتماع الرسول بصناديد قريش كان قبل الهجرة ، فمعنى ذلك أن هذه المدينة قد ذكرت في قصة جرت وقائعها قبل بناء هذه المدينة بنحو خمسة عشر عاما . فهل هذا خطأ تاريخي وقع فيه الشاعر ؟ أم أن المقصود مدينة بُصرى ، «من أعمال دمشق ، وهي قصبة حوران[1] » والتي يصفها ياقوت بأنها « مشهورة عند العرب قديما وحديثا » ، وقد فتحها العرب عام ١٣ هـ . ومما يساعد على مثل هذا التفسير أنها اقترنت في ذكرها هنا بتبوك « وهي أيضا من أرض الشام » توجه اليها النبي عليه السلام في عام تسع للهجرة — وهي آخر غزواته — ولما وصلها وجد أن من تجمع فيها من الروم وبعض القبائل العربية قد تفرقوا[2] .

وربما كان ذكر الشاعر للبصرة هنا مبنيا على استبعاد عنصر الزمن في مثل هذا المقام . فالأبيات تعبر عن تفسير عتاب الخالق لرسوله ، كما ورد في سورة « عبس » . ويكون المراد بذكر البصرة هنا الموقع الذي قامت عليه هذه المدينة .. بعد فتح العراق .

ومما روى عن علي بن أبي طالب أن الرسول ذكر البصرة ، وتنبأ بحدوث موقعة الجمل . قال : « سمعت رسول الله يقول : تفتح أرض

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ، مادة بصرى . (٢) المصدر السابق : مادة تبوك .

يقال لها البصرة[1] ... الخ » . وهذا الخبر ـ برغم ما يمكن أن يوجه اليه من النقد ـ يشيع أن الرسول ذكر البصرة ، وتنبأ بما يحدث فيها . ومما له مغزاه أن هـذا الخبر مذكور في معجم البلدان لياقوت . وهذا المؤلف ـ مثل جلال الدين ـ من رجال القرن السابـع ، كما أنه جمع الكثير من معلوماته في ذات المنطقة التى عاش بها جلال الدين .

(٢٠٧٧) روى أبو هريرة عن الرسول أنه قال : « الناس معـادن كمعادن الذهب والفضة » . (المنهج القوي : ٢ ، ٤٥٢) .

(٢٠٨٦) « الجعل » حشرة صغيرة تقبل عـلى الروائح الكريهة ، وتنفر من الروائح الطيبة .

(٢٠٩٠) « انني أميز بين أهل الصورة وبين أهل المعنى » .

(٢٠٩٥ ـ ٢١٠٢) رويت هذه القصة في مصادر أخرى بشىء من الاختلاف عن رواية جلال الدين . فقد ذكرها ابن حزم في طوق الحمامة ، وهى في روايتـه تدور حـول أبقراط . وذكرها صاحب قابوس نامه ، وروايته أشبه بروايـة جلال الدين ، الا أن بطلها هو محمد بن زكريا الرازى ، وليس جالينوس . (انظر : تعليقات نيكولسون ، وانظر أيضا : فروزانفر : مآخذ قصص ، ٦٦) .

(٢١٠٣ ـ ٢١٠٥) تنـاول الغزالى المعنى الذى عبرت عنـه هـذه الأبيات على الوجه التالى : « وكان مالك بن دينار يقول : لا يتفق اثنان في عشرة الا في أحدهما وصف من الآخر ، وأن أجناس الناس كأجناس الطير ، ولا يتفق نوعان من الطير في الطيران الا وبينهما مناسبة . قال : فرأى يوما غرابا مع حمامة ، فعجب من ذلك فقال : اتفقا وليسا من شكل واحـد ، ثـم طارا ، فاذا هما أعرجـان » . (انظر : فروزانفر ، مآخذ قصص ، ٦٦) .

---

(١) المصدر السابق : ١ ، ٤٣٦ .

(٢١٠٧) سجّين : هـذه الكلمـة تعنى هنا الجحيـم . (انظـر : المثنوى : ١ ، ٦٤٠) .

(٢١١٨) « الورد » في الأبيـات السابقـة رمز لأهـل الكمـال . والشاعر ــ في هذا البيت ــ يقـول : « لقد خلصت من الحسية خلاصا كاملا ، وكانت بى آثار منها . فالله ــ الذى طهرنى منهـا ــ لن يرجعها الىّ » .

(٢١٣٥ ــ ٢١٣٦) عبر الشاعر عن مثاليته الخلقية بقوله : ان من لا يتقيد بعهده ، فانه لا يتقيد بقسمه . ويمضى في تحليل هـذه الفكرة على أساس نفسى فيقول : ان القسم يكون بمثابة قيد فرض عليه ، وهذا القيد يجعل نفسه الحسية أكثر ميلا الى الثورة على العهد ، والتخلى عنه.

(٢٩٣٧ ــ ٢١٣٨) « الأسير » في هذيـن البيتـين رمز للعقـل ، و « الحاكم » رمز للنفس الحسية . فالانسان المتعلـق بشهوات الحس ولذاته تحكمه نفسه الحسية . فاذا حـاول عقله أن يقيد هـذه النفس بقسم أو عهد كان بمثابة أسير وضع قيدا على حاكمه . والحاكم لا يبقى في القيد بل ينطلق منـه ، ثم يحطم عبده الذي قيده . وهكـذا النفس الطاغية ، ما لم تهذب فان العقل لا يستطيع السيطرة عليها بأية صورة ، ولئن حاول أن يحد من طغيانها عن طريـق الزامها بالعهود ، كـان ذلك مدعاة لازدياد ثورتها واندفاعها .

(٢١٤٠) قول الشاعر : « يجعل مـن جسده خيطا ، ويلتف حول صاحب عهده » ، يعنى أنه يرهق جسده في الوفاء بالعهـد لمن عاهده ، ولا يحيد قط عن دائرة الوفاء له .

(٢١٤١) بدأ الشاعر في هذا البيت روايـة قصة وردت في أحـد الأحاديث النبوية . وقد أطـال الشاعر الوقوف عند مختلف دقائق هذه القصة ، واستطرد استطرادات كثيرة . والحديث المشار اليه روى على الوجه التالي :

« عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد رجلا من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ . فقال له رسول الله : هل كنت تدعو بشيء أو تسأله اياه . قال : نعم . كنت أقول : اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة ، فعجله لي في الدنيا . فقال رسول الله : سبحان الله . لا تطيقه (أو لا تستطيعه) ، أفلا قلت : اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . قال : فدعا الله له فشفاه » .

وقد ورد هذا الحديث في صحيح مسلم ، وغيره من المصادر (انظر : تعليقات نيكولسون . وانظر أيضا : فروزانفر : مآخذ قصص ، ٦٦) .

(٢١٤٣) تروى أحاديث متعددة في الحث على عيادة المريض ، وبيان ثوابها . (انظر : النووى : رياض الصالحين ، ٣٦٨ ــ ٣٧٣) .

(٢١٥٠) قول الشاعر « وكصانع الأصنام ، انحت لك من الحجر صديقا » ، تعبير رائع عن الدعوة الى اكتساب الأصدقاء . فالحجر الصلد أبعد الأشياء عن الاستجابة ، وهو هنا رمز للانسان العنيد ، الذى يغلق قلبه دون الناس . ومثل هذا ــ في رأى الشاعر ــ يجب ألا يستعصى على المرء اكتساب وده . وكأنما المرء في اكتساب هذا النوع من الأصدقاء صانع أصنام ، ينحت من الحجر تماثيل يتعلق بها قلبه .

(٢١٥٤) « ما دمت ــ أيها المريد ــ عاجزا عن معرفة الأولياء الصادقين ، فاقصد كل درويش ، والتمس حقيقة حاله ، فلعلك ببحثك تهتدى الى العارف الكامل ، وشأنك في ذلك شأن الباحث عن الكنز ، ينقب عنه في كل خربة حتى يهتدى اليه » .

(٢١٥٦ ــ ٢١٦١) في هذه الأبيات اشارة الى حديث سبقت الاشارة اليه . (انظر البيت ١٧٣٨ وشرحه). ولم يتضمن هذا الحديث ذكر موسى .

(٢١٥٦) قول الشاعر : « يا من شهدت طلوع البدر من جيبك » يشير الى معجزة موسى اذ أدخل يده في جيبه ، فخرجت بيضاء من غير

سوء . انظر الآيات الكريمة : (٧ : ١٠٨) ، (٢٦ : ٣٣) ، (٢٧ : ١٢) .

(٢١٦٧) يبدأ الشاعر في هذا البيت رواية قصة وردت في كتاب « جوامع الحكايات » لمحمد عوفي . والقصة ـ كما رواها عوفي ـ تذكر أن البستاني وجد في بستانه أربعة أشخاص ، أحدهما فقيه والثاني شريف والثالث جندي والرابع بائع « جوّال » . والقصة في رواية عوفي تخلو من كثير من التفصيلات التي جاءت في رواية المثنوي . لقد أضاف اليها جلال الدين من التفصيلات ما جعلها تبدو أكثر واقعية ، كما صورها بأسلوب ساحر يختلف كثيرا عن أسلوب عوفي . وقد رأيت أن أورد هنا ترجمة عربية للقصة ، كما وردت في كتاب عوفي .

قال : « حكى أن أربعة أشخاص من أصناف البشر دخلوا بستانا ، وشغلوا بأكل الفاكهة . وكان واحد من هؤلاء فقيها وثانيهم علويا ، وثالثهم جنديا ورابعهم سوقيا . ودخل صاحب البستان فرآهم وقد أتلفوا كثيرا من الفاكهة . وكان رجلا ذكيا فتفكر قائلا : انهم أربعة أشخاص ، ولن أقدر على الأربعة مجتمعين . فتوجّه اليهم ثم قال للعالم (الفقيه) : انك رجل عالم ، وأنت لنا قدوة ومرشد . وقد ارتبطت مصالح دنيانا وأخرانا ببركة أقدام العلماء وحركة أقلامهم . وأما ثانيكم فهو سيد كبير من أسرة النبي ، ونحن جميعا موالي أسرته ، ذلك لأن محبتها واجب أمرنا به الله حين قال : « قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى » . وأما ثالثكم فجندي من أرباب السيف ، وان عمران ديارنا وأرواحنا منوط بسيف هؤلاء . فلو أنكم دخلتم بستاني ، وأكلتم كل فاكهتي بدون حق ما ضننت بها عليكم ، ولكن من ذا يكون هذا الرجل السوقي ؟ وبأية وسيلة دخل في بستاني ؟ وما فضيلته التي تتيح له أكل فاكهتي ؟ ثم مد يده وأمسك بجيب السوقي ، وحمل عليه حملة قوية حتى طرحه أرضا ، ووضع القيد في يديه ورجليه . ثم توجه الى الجندي وقال : انني عبد للعلماء ولأبناء النبي . وأما أنت ، أفلم تعلم

أنني دفعت للسلطان خراج هذا المال ، وأنه لم يبق لـه قبلي شيء أكثر مما دفعت ؟ فلـو أن الأئمـة والأشراف تقاضوني روحـي (لبذلتها) وعددت نفسي مقصرا ! أمـا أنت فلم تقل لي مـن أنت ، ولا بأي حق عدوت على مالي ! وأمسكه هو أيضا ، وأدبه تأديبا كاملا ، وأحكم قيد يديه ورجليه . وبعد ذلك توجه الى العالم وقال : ان الناس جميعا عبيد لآل بيت الرسول ، وحرمة نسب هؤلاء ظاهرة للجميع . أما أنت ، يا من تدعي العلم ، أما حصلت من العلم ذلك القدر الذي تعرف به أنه لا يجوز دخول بستان سواك بغير اذن ؟ فأي قدر من العلم بقي لك ؟ اني ومالي وروحي فداء لآل الرسول أما كل جاهل يدعي العلم ، ويستحل أموال المسلمين ، فانه يكون جديرا بالتأديب ، مستحقا للتعذيب . ولقـد أدبه أيضا أدبا بالغا ثم قيده . واذ ذاك ، بقي العلوي وحيـدا ، فتوجه اليه وقال : أيها المدعي الخسيس ، يا صاحب الشعر الكثيف والجهل الوافر ! انك لم تقل لي بأي سبب أجزت التطاول عـلى بستاني ، وأضعت على مالي ؟ وهل قال الرسول عليه السلام أن مالي حلال للعلويين ؟ ثم انـه قيد ذلك الرجل أيضا ، وبهذه الطريقة استطاع أن يقيد الرجال الأربعة ، ثم استوفى منهم ثمن كرومه » . وقد نقل فروزانفر النص الفارسي لهذه القصة (مآخذ ، ٦٧ ــ ٦٩) ، أما نيكولسون فترجمها الـى الانجليزية في تعليقاته .

(٢١٨٣) الجنيد البغدادي ، وأبو يزيد البسطامي امامان مـن أكبر أئمة الصوفية . توفى أبو يزيد عام ٢٦٠ هـ ، وتوفى الجنيد عام ٢٩٧ هـ .

(٢١٩٦ ــ ٢١٩٧) يدافع الشاعر في هـذه الأبيات عن الأشراف المنتمين الـى بيت الرسول ، ازاء مـا اتهمهم به البستاني مـن الزيف والانتساب الكاذب . وخلاصة دفاعه أن المرء اذا ساءت أحواله وأفعاله ساءت ظنونه بسواه . فما قاله البستاني عن الأشراف ، لم يكن الا صدى لخبث نفسه ، وسوء ظنه . وهذا شبيه بقول الشاعر العربي :

اذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه
وصدق ما يعتاده من توهم

(٢٢٠٤) شمر ، هو شمر بن ذى الجوشن قاتل الحسين يوم كربلاء، في العاشر من محرم عام ٦١ هـ. وكان قتله للحسين مثالا للخسة والجبن ، لأنه لم ينازله منازلة الرجال ، بل تحين الفرصة حين تكاثر الرجال على الحسين ، فركب صدره واحتز رأسه . أما يزيد فهو يزيد بن معاوية ثانى الخلفاء الأمويين ، وهو الذى حدثت في عهده مأساة الحسين .

(٢٢١٨) يبدأ الشاعر بهذا البيت رواية قصة تحكى عن أبى يزيد البسطامى . (انظر أصول هذه القصة في « مآخذ قصص » لفروزانفر ، وكذلك في تعليقات نيكولسون) .

(٢٢٢١) أورد الشراح تفسيرات متعددة لهذا البيت ، وهى جميعا تدخل في باب التأويل البعيد . (انظر — على سبيل المثال — شرح صاحب المنهج القوى . جـ٢ ، ص ٤٧٣) . ولقد نشأت هذه الصعوبة من تفسير كلمة « حق » في البيت على أنها تعنى الله . فالقرآن الكريم لا توجد به آية تعبر عن المعنى الذى أشار اليه البيت . وكل ما ذكره الشراح من الآيات لا تعبر عن هذا المعنى الا بكثير من التأويل .

ولعل خير وسيلة لفهم هذا البيت هى أن تفسر كلمة « حق » هنا بمعناها الحرفى . فتكون ترجمة البيت : « ان القول الحق في السفر هو أنك حيثما توجهت يجب عليك أن تلتمس رجلا » . وبذلك يكون معنى البيت مطابقا للقول العربي : « خذ الرفيق قبل الطريق » .

(٢٢٢٢ — ٢٢٢٤) « عليك أن تطلب الجوهر الحقيقى قبل كل شىء ، واذا ما تحقق لك الجوهر ، تحققت لك معه أعراض كثيرة ، تابعة له . أما من ركز همه في الأعراض فلن يتحقق له الجوهر قط . ومثال ذلك من يزرع القمح ، فهو بالضرورة يحصل على التبن ، الى جانب

القمح ؛ أما من يزرع التبن ؛ فلن يحصل قط عـلى القمح . ومن طلب الله باخلاص قلبى ، وصل الى الله ، وتحقق له بهذا الوصول كـل ما تصبو اليه النفوس من آمال .

(٢٢٢٥) من قصد الكعبة للحج ، فسوف يرى مكة ـ الى جانب قيامـه بالحج . فالحج الى الكعبـة هو القصد الجوهرى ، ورؤية مكة عرض جانبي تحقق بدون قصد خاص .

(٢٢٣١) « خضر زمانه » . (انظر : المثنوى ، جـ١ ، الأبيات ٢٢٤ ، ٢٩٦٩ ، ٢٩٧١ وشروحها) .

(٢٢٣٣) « الفيل الذى يرى في منامه بلاد الهند » ، رمز للصوفى العارف الذى يشهد في تأمله عالم الروح ، وطنه الحبيب الذى يحلم به ؛ فكأنما هو فيل مغترب رأى في منامه بلاد الهند .

(٢٢٣٤ ـ ٢٢٣٥) النوم يمثل انطلاق الروح من عقـال الجسد . (انظر : المثنوى ، ١ ، ٣٨٧ ـ ٣٨٩) . ولهذا فان الانسان يرى في النوم ما لا يراه في اليقظة .

(٢٢٣٦) العارف ـ وهو من استطاع تخليص روحه مـن سلطان الجسد ـ يتحقق له في يقظته شهود روحى .

(٢٢٤٤) يتفق معنى هذا البيت مع ما يقوله الصوفية عن « الانسان الكامل » ، وهو أنه أفضل مخلوقات الله .

(٢٢٤٥) في هذا البيت تعبير عن معنى حديث قدسي ، نصه :

ما وسعنى أرضى ولا سمائى ، ولكـن يسعنى قلب عبدى المؤمن التقى النقى الورع .

(٢٢٤٧ ـ ٢٢٤٩) في هذين البيتين تعبير عن الفناء في الله والاتحاد به ، وهما من النظريات المشهورة عند الصوفية ، والقول بهما مبنى على التجربة الروحية ، التى يتحدث بها العارفون من أهل التصوف .

(٢٢٥٢) يعود الشاعر هنا الى رواية « قصة الصحابى المريـض »

التى بدأها في البيت ٢١٤١ ، ثم استطرد منها الى سواها من الموضوعات.

(٢٢٥٧ ـــ ٢٢٦٥) في هذه الأبيات يعبر الصحابى عن الألم ، وأثره في تنبيه الروح ، وايقاظ القلب والضمير . وقد سبق له أن عبر عن مثل هذا المعنى في حديثــه عــن الحزن . (انظر المثنوى ، جا ، الأبيــات ٨١٧ ـــ ٨٢٢ وشرحها) .

(٢٢٧٠ ـــ ٢٢٧١) « لو أن المستشار كان امرأة أو طفلا (وكلاهما مجرد من الحكمة) ، فان مشاورتهما تجوز ، شريطة أن يعمل المرء بخلاف ما أشارا به » . وفي هذا البيت تعبير عن معنى الحديث الذى يروى عن الرسول قوله : « شاوروهن وخالفوهن » .

(٢٢٧٨) « النفس قادرة عــلى الخداع ، تقــدم الوعود البراقة ، وتخلفها ، ومع ذلك لا تفقد مقدرتها على الخداع » .

(٢٢٨١) يذكر هذا البيت خرافة عن أثر السحر على رجولة الرجال، وهى من الخرافات التى لا تزال شائعة بين السذج والجهلاء . وقد اتخذ الشاعر مــن حالــة العجز ـــ التى يقــال انها تصيب الرجل مــن جراء « الربط » ـــ رمزا الى حالة العجز الروحى الذى يقعد الرجل عن التحرر من سلطان المادة . والنفس هى مسببة هــذا العجز الروحى ، بما تزينه للمرء من لذات الحس وشهواته .

(٢٢٨٢) حسام الدين مثال للعارف الكامل . ولا سبيل الى خلاص أسارى الحس من غفلتهم الا بمعونة العارفين أصحاب الكمال .

(٢٢٨٣) لقد ألقى الله حجابا على قلوب الخلق من جراء ما ارتكبوه من مظالم . وهذا القضاء ينزل بالنــاس لو توجه بالضراعة الى الله قلب جريح .

(٢٢٨٥) النفس الحسية تكون في بداية أمرها صغيرة كالدودة ثم تكبر فتصبح كالثعبان ، ثم يتعاظم أمرها فتصبح تنينا .

(٢٢٨٦ ـــ ٢٢٨٧) هذه النفس الثائــرة العصية تغدو طيعة بفضل

تعليم العارف وارشاده ، وقوته الروحيـة ، فكأنما هى الحية ، وقـد أصبحت عصا طيعة في كف موسى . قال تعالى : « فألقاها فاذا هى حية تسعى ، قال خذها ولا تخفسنعيدها سيرتها الأولى » . (٢٠ : ٢٠ ـ ٢١).

(٢٢٨٨) لا يزال الشاعر يشبه حسام الدين بموسى . ويشير الـى معجزة أخرى من معجزات موسى ، ذكرت في قـوله تعالى : « واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى » . فهو يطلب من حسام الدين (مثال الرجل الكامل) يدا بيضاء (أى مكرمة جديدة) ، وهى أن يكشف بعرفانه دياجير الظلمة التى غمرت الناس .

(٢٢٩٠) للنفس مكر يخدع الناس ، فهى تظهر لهم في صورة تبديها أهون من حقيقتها ، فيستهينون بأمرها ، عـلى حين أنها تقودهم الـى الهلاك وهم لا يشعرون .

(٢٢٩١) ظهور النفس قليلة الخطر أمـام العارف ، لا يخدعه عن حقيقتها ، كما هو الحال بالنسبة لعامة الناس ، بـل يقويه ، ويزيد من قدرته علـى مقاومتها . وهـذا شبيه بما حدث للرسول في وقعة بدر ، حينما ظهرت جيوش المشركين قليلـة في عينيه ، فزاده ذلـك استهانـة بأمرها ، واقداما على القتال . (انظر : سورة الأنفال ، ٨ : ٤٣ ـ ٤٤) .

(٢٢٩٢ ـ ٢٢٩٧) هذه الأبيات تتحدث عن غزوة بدر ، وما حققه الرسول من نصر فيها ، بعون الله وتأييده . وقد وصف القرآن الكريم هذه الغزوة في سورة الأنفال . وأبيات الشاعر هنا تعبر عن معنى الآيات الكريمة ، التىسبقت الاشارة اليها في التعليق على البيت ٢٢٩١ .

(٢٢٩٦) التأييد الالهى للرسول أظهر الكفار قلة في عينيه ، فيسَّر له ذلك ما كان ميسورا ، وجعله يقبل على الأمر العسير ، بـدون خشية ولا وجل . قال تعالى : « اذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر » . الآية . (٨ : ٤٣) .

(٢٢٩٨) من لم يظفر بمثل هذا التأييد الالهى الذى ظفر به الرسول ، يكون من خذلان الله له أن يظهر لعينيه الأمر العسير يسيرا ، فهذا المخذول شبيه بمن أبصر الأسد هرة ، أو رأى المائة مقاتل شخصا واحدا ، فدفعه الغرور وسوء التقدير الى القتال .

(٢٣٠٠ ــ ٢٣٠١) من خذلان الكافرين أن سيف الرسول ظهر لهم وكأنه حربة واهية ، وأن هذا الرسول القوى المؤيد بالله بدا لهم ضعيفا، فتجاسروا على قتاله ، فحاقت بهم الهزيمة .

(٢٣٠٢) ظهور الرسول ضعيفا للكفار كان استدراجا الهيا ، أدى الى هزيمتهم ، وقادهم الى جزائهم في النار .

(٢٣٠٣ ــ ٢٣٠٤) النبى يظهر لخصومه ضعيفا ، فهو في بداية أمره يكون قليل الأنصار ، فيظنون أنهم قادرون على القضاء عليه بأقل جهد. وهم لا يدركون أن وراء هذا المظهر قوة لا قبل لهم بها ، هى قوة الله . فظاهر النبى أنه ــ بالقياس الى خصومه ــ ضعيف كالقشة ، وحقيقته أنه أكثر ثباتا من الجبال ، يزول معاندوه ، ويحيق بهم قهر الله ، وتبقى دعوة النبى بين الناس ، ضاحكة من خصومها .

(٢٣٠٥) عوج بن عنق : من الشخصيات الأسطورية التى عرفها المسلمون عن أساطير بنى اسرائيل شخصية عوج بن عنق . وعنق اسم أمه التى قيل انها احدى بنات آدم من صلبه . وقد جاء وصف عوج بن عنق في قصص الأنبياء على الوجه التالى :

« قال ابن عمر : كان طول عوج ثلاثة وعشرين ألف ذراع وثلثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعا بالذراع الأول . وكان عوج يحتجز السحاب ويشرب منه الماء ؛ ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس، يرفعه اليها ، ويأكله .

ويروى أنه أتى نوحا أيام الطوفان فقال له : احملنى معك في سفينتك ، فقال له : اذهب يا عدو الله ، فانى لم أومر بك . فطبق الماء

الأرض من سهل ومن جبل ، وما جاوز ركبتيه . وعاش ثلاثة آلاف سنة حتى أهلكه الله على يد موسى . وكان لموسى عسكر فرسخ في فرسخ ، فجاء عوج ونظر اليهم ثم جاء الى الجبل وقدّ منه صخرة على قدر العسكر ، ثم حملها ليطبقها عليهم ، فبعث الله عليه الهدهد ومعه الطيور ، فجعلت تنقر بمناقيرها حتى قورت الصخرة ، وانثقبت فوقعت في عنق عوج بن عنق ، فطوقته وصرعته ، فأقبل موسى وطوله عشرة أذرع ، وطول عصاه عشرة أذرع وقفز الى فوق عشرة أذرع فما أصاب منه الا كعبه وهو مصروع في الأرض ، فقتله . قالوا فأقبل جماعة كثيرة ومعهم الخناجر فجهدوا حتى حزوا رأسه ، فلما قتل ، وقع على نيل مصر ، فحسره سنة » . (الثعلبي : قصص الأنبياء ، ص ٢٦٥) .

وقد استخدم الشاعر شخصية عوج في تصوير استدراج الله للكفار ، اذ يظهر لهم الماء ضحلا لا يتجاوز عمقه كعب الرجل ، في حين أن الماء يكون عميقا بحيث يغرق مائة من أمثال عوج بن عنق . وفي البيت اشارة الى أن قوة الحس ، مهما عظمت ، فهي ضعيفة أمام قوة الروح .

(٢٣٠٧ ــ ٢٣٠٨) في البيتين اشارة الى قصة هلاك فرعون . (انظر : سورة البقرة ، ٢ : ٥٠) .

(٢٣١٨) الدهرى هو المادى الذى يؤمن بقدم العالم وأزليته . وكان في بلاد العرب قبل الاسلام جماعة آمنوا بذلك . وقد أشار اليهم القرآن الكريم بقوله تعالى : « وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » . (٤٥ : ٢٤) .

(٢٣١٩) « لولا الأنبياء ما استطاع الناس ادراك أسرار الفلك وأنه مثلهم مخلوق محدث » .

(٢٣٢٠) « النبى المطلع على أسرار خلق السموات والأرض هو الذى يخبر عن حدوث الأفلاك . ولا سبيل للانسان الى ادراك ذلك بتجربته الذاتية ، لقصر عمره . فالانسان بالقياس الى الأفلاك ،

كالعنكبوت بالقياس الى الدار . فبينما صاحب الدار يدرك سر بنائها ، فان العنكبوت ينسج خيوطه في جوانبها ، من غير أن يدرك من سرها شيئا .

(٢٣٢١ ـ ٢٣٢٢) في البيتين صورتان بيانيتان ، تعبران عن المعنى الذى ورد في البيت السابق ، وهو أن الكائنات الحسية لا تستطيع أن تتجاوز الحس ، الى مدركات سبقت وجودها الحسي . وحياة الحس أيضا قصيرة المدى ، وهذا مما يزيدها عجزا فوق عجزها . فالبعوضة لا تستطيع أن تعرف أصل البستان . ودودة الخشب لا علم لها بأصل الخشب .

(٢٣٢٣ ـ ٢٣٢٥) الادراك الحق يكون للعقل وحده . وليس المقصود بالعقل هنا ذلك العقل الجزئى الذى يعتمد بقدرته الانسان . فهذا ـ في نظر جلال الدين وغيره من الصوفية ـ محدود المعرفة . فالعقل المقصود هنا هو العقل الكلى الذى يظهر ذاته في كثير من الصور ، فكأنما هو جنى يتجلى في مختلف الصور ، بل اين منه الجنى ، وهو أسمى من الملك . ولولا عجز المستمع عن ادراك عميق المعانى ، لما جاز تشبيه العقل الكلى بالجن في قدرته على الظهور بمختلف الصور .

(٢٣٢٨) « الجنون » هنا معناه الخروج على ما تعارفت عليه عقول أهل التقليد . فالعقل المقلد والعلم التقليدى يتنافيان مع العرفان الصوفى .

(٢٣٣٣ ـ ٢٣٣٧) في هذه الأبيات حكاية قصيرة ساقها الشاعر لايضاح معنى البيت ٢٣٣٢ ، وفيه يسخر الشاعر من العقل (المقلّد) ، ويفضل عليه عرفان الروح (وهو ما قد يصفه بعض المقلدين بأنه جنون) . فهذه الحكاية ترمز الى أن عشقا روحيا ظاهره الجنون وباطنه العقل خير من عقل مقلد ، ظاهره العلم ، وهو في حقيقة أمره أسير الجهل.

(٢٣٣٨) بدأ الشاعر هنا قصة رجل عاقل كان يتظاهر بالحمق ،

فيركب قصبة كالأطفال ، ويمضي بها في الطريـق . والظاهر أن هـذه القصة ــ كما يقول نيكولسون ــ كانت شائعة قبل زمن الشاعر . وقد ذكر نيكولسون صورا متعددة لهذه القصة نقلها عـن بستان العارفين ، لأبي الليث السمرقندي ، وكذلك عن جوامع الحكايات لمحمد عوفي . (انظر تعليقات نيكولسون) . كما أورد فروزانفر صورا أخرى لهـذه القصة عن العقد الفريـد لابن عبد ربه ، وربيـع الأبرار للزمخشري ، واسكندرنامه (المنثور) . (مآخذ قصص ، ٧٠ ــ ٧٢) .

ويعزى تظـاهر الرجل بالجنون في هـذه القصص ، الى أسباب مختلفة . فمنها ما ينسب اليه أنه أراد بذلك الفرار من منصب حكومى كان يراد اسناده اليه . ومنها ما ذكر أنه انما فعل ذلك ليستطيع الأمـر بالمعروف والنهي على المنكر من غير ان يقع تحت طائلـة العقاب . وقد وجدتُ في العقد الفريد صورة أخرى لهذه القصة ، مرويّة عن العتبيّ ، وهي كما يلي :

« سمعت أبا عبد الرحمن بشرا يقـول : كـان في زمن المهديّ صوفي ، وكان عاقلا عالما ورعا ، فتحمق ليجد السبيل الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان يركب قصبة في كـل جمعة يومين : الاثنـين والخميس ، فاذا ركب في هذين اليومين فليس لمعلم عـلى صبيانه حكم ولا طاعة . فيخرج ، ويخرج معه الرجال والنساء والصبيان ، فيصعد تلا وينادي بأعلى صوتـه : ما فعـل النبيون والمرسلون ؟ أليسوا في أعلى عليين ؟ فيقولون نعم : فيقول : هاتـوا أبا بكر الصديق . فأخذ غـلام فأجلس بين يديه ، فيقـول : جزاك الله خيرا أبا بكر عن الرعية . فقـد عدلت ، وقمت بالقسط ، وخلفت محمدا عليه الصلاة والسلام فأحسنت الخلافة ... » . وهكذا يذكر الخلفاء الواحد بعد الآخر ويبين ما لهم وما عليهم ، حتى بلغ دولـة بنى العباس ، فسكت . فقيل لـه : « هذا أبو العباس أمير المؤمنين . قال : بلغ أمرنا الى بنى هاشم . ارفعـوا حساب

هؤلاء جملة واقذفوا بهم في النار جميعا » . (العقد الفريد ، ٦ ، ١٥٢ — ١٥٤) .

(٢٣٤٣) السامرىّ . (انظر : المثنوى ، ١ ، البيت ٢٢٥٨ وشرحه) . والشاعر هنا يحذر من اعتبار الجنون علامة من علامات الولاية . وهذه الخرافة كانت منتشرة بين السذج حتى وقت قريب ، فكثيرا ما ظنوا البله أولياء .

(٢٣٤٧) « لو أبصرت بعين اليقين لرأيت تحت كل مظهر متواضع جنديا من جنود الله ، كما قد يجد المرء كنزا كان مختفيا تحت قطعة من الحجر .

(٢٣٤٨) العين القادرة على ابصار اليقين لا يحجبها عن ادراك جوهر العارف بساطة مظهره . انها ترى — في رداء كل صوفى — رجلا يناجى ربه ويسمع منه ، شبيها بموسى الكليم .

(٢٣٥١ — ٢٣٥٣) « العَمى » في هذه الأبيات مستخدم بطريقة رمزية . وهو يعنى هنا العجز عن معرفة الأولياء والمرشدين . فمن سلبت المادية والحسية بصيرته ، وصرفته عن جوهر الروح ، لا يستطيع أن يكتشف هذه العلة في نفسه ، لأنه ذو بصيرة مظلمة ، فهو كالأعمى الذى لا يعرف سارقه ، حتى ولو اصطدم به ذلك السارق ، على الطريق.

(٢٣٥٤) يبدأ الشاعر هنا حكاية تمثيلية صغيرة عن الأعمى الحكيم ، والكلب العقور . وقد استخدم « العَمى » هنا في معناه الحسى . فالعمى الحسىّ لا يقف حائلا دون الحكمة ، ولا يعوق صاحبه عن تحصيل العرفان . وليس افتقاد البصر مؤديا — بالضرورة — الى الجهل ، لأن بصيرة الروح أقوى وأعمق من ابصار العينين . والكلب العقور في هذه الحكاية رمز للطاغية الظالم الذى يؤذى الدراويش الصالحين . « والعمى الحسىّ » هنا يشير الى انصراف العارفين عما حولهم من المظاهر التى تأسر الحس ، من غير أن يكون لذلك أثر على حكمتهم وعرفانهم ، بدليل

أن الدرويش الأعمى ، قد استطاع أن يخلص نفسه من الكلب الضارى.

(٢٣٦٢ ــ ٢٣٦٣) « الكلب العالم » رمز للمتعلــق بالحس الذى حصّل شيئا من العلم . فمثل هذا يميز بين الكسب الحلال ، والكسب الحرام .

(٢٣٦٤) قول الشاعر : « والكلب حــين صار عالما أصبح سريــع الوثبات » ، يعنى أن المتعلــق بالحس ، حينما حصّل العلم ، تحقق له بعض التحرر من سلطان الحس . وهو حين صار عارفا غدا من أصحاب الكهف . والاشارة هنا الى كلب أصحاب الكهف الذى يشار اليه كثيرا على أنه قد تحققت له مرتبة البشرية المكرمة ، وذلك بملازمته لأصحاب الكهف . قال سعدى :

« ان ابن نوح عاشر الأشرار ، فضاع بذلــك بيت نبوته . وكلب أصحاب الكهف اقتفى أثر الصالحين بضعــة أيــام ، فصار كالبشر » . (الكلستان ، الحكاية الرابعة) .

وانظر أيضا : المثنوى ، ١ ، ١٠٢٢ وشرحه .

(٢٣٦٥) « لقــد غدا كلــب (أصحاب الكهف) عارفا بخالقه ، فيا الهى ، ما أعجب نور العرفان ، وما أقواه على كشف الحقائق ! » .

(٢٣٦٦) بيّن الشاعر هنا أن افتقــاد بصر العينين لا يعنى فقدان البصيرة .

(٢٣٦٨) قارون : (انظر : المثنوى ، ١ ، ٨٦٤ وشرحه) .

(٢٣٦٩) قول الشاعر : « ولقد رجفت لاهلاك كــل دعىّ » يشير الى قوله تعالى في قصة صالح : « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين » . (٧ : ٧٨) . انظر : المثنوى ، ١ : ٢٥٠٩ ــ ٢٥٦٩ ، وشرح هذه الأبيات .

أما قول الشاعر : « وفهمت مــن الحق قوله : يــا أرض ابلعى ماءك » ، فيشير الى قصة نوح والطوفــان ، وكيف أطاعت الأرض أمر

ربها بعد الطوفان ، حين أمرها أن تبلع ماءها .

(٢٣٧٠ ــ ٢٣٧١) قد يعرف بعض الجماد عن الله أكثر مما يعرف بعض عقلاء البشر . يستشهد الشاعر على ذلك بطاعة السموات والأرض لأمر الله . (انظر أيضا : المثنوى ، ١ ، ٥١٢ ــ ٥١٣) .

(٢٣٧٢) هذا البيت يشير الى قوله تعالى : « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » . (٣٣ : ٧٢) . انظر : المثنوى ، ١ ، ١٩٥٨ وشرحه .

(٢٣٧٣) يفسر الشاعر اعراض السموات والأرض والجبال عن حمل الأمانة بأنه نفور من تلك الحياة التي يصبح فيها المخلوق شديد السعى الى الخلق والبعد عن الحق .

(٢٣٧٤) ان الانقطاع عن الخلق يجعل المرء يتيما منفردا . لكن مجرد الانقطاع عن الخلق لا يعنى الأنس بالله ، بل لا بد لذلك من قلب سليم . والقلب السليم قد ذكر في القرآن الكريم مرتبطا بابراهيم الخليل . انظر الآيات : (٢٦ : ٨٩) ، (٣٧ : ٨٤) .

(٢٣٧٥ ــ ٢٣٧٨) « اللص » هنا رمز للشيطان ، أو للنفس الحسية وشهواتها . والأعمى هو الانسان الذى لم يرزق الكشف الروحى . ومعنى « الامساك باللص » مراقبة الشيطان ، أو النفس ، حتى يستطيع المرء أن يتخلص من سلطان الشر .

(٢٣٧٩) « الجهاد الأكبر » هو جهاد النفس الأمارة بالسوء . فعلى المرء أن يقوى في مراقبتها ومحاسبتها حتى يتخلص من آثارها السيئة .

(٢٣٨٠) النفس الحسية تغشى بصيرة الروح . وأولى مراحل الابصار الروحى تكون بعد اخضاع تلك النفس .

(٢٣٨١) « أصحاب القلوب » هم المرشدون العارفون .

(٢٣٨٣) « الجماد » هنا رمز لمن متجرد من الحياة الروحية . وهو

المقابل المضاد لأصحاب القلوب .

(٢٣٨٤) عاد الشاعر هنا الى قصة « الحكيم الذى كـان يتظاهر بالحمق » . وهى التى بدأها بالبيت ٢٣٣٨ .

(٢٣٨٥) قوله : « تخل عن حلقة الباب » يعنى لا تطرق البـاب . وهذا القول ــ عـلى لسان الحكيم ــ يعنى أنـه ليس عـلى استعداد للتباحث مع المستفسر ، فالباب لن ينفتح ، لأن ذلك اليوم لم يكن يوم الأسرار . وهذا المعنى يتضح في البيت التالى . فالعارف لا يقبل عـلى التعليم من أجل الكسب والزهو ، كما يفعل العلماء المقلّدون ، فقد يمر بحالات تجعله راغبا في العزلة والتأمل .

(٢٣٨٦) « لو كنت من علماء الحس المقلدين ، لكـان سبيلى أن أجلس فوق دكان وأمارس التعليم » .

(٢٣٨٧) « المحتسب » هو الموظف الادارى الذى كـان يناط به الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومراقبة الأسواق والآداب العامـة . وقد خصص فصل لبيان واجبات المحتسب في كتاب الأحكام السلطانية ، للماوردى ، وكذلك وصلت الينا بعض كتب الحسبة ، ومن أهم مؤلفيها الشيزرى صاحب « نهايـة الرتبة في طلب الحسبة » ، ومحمد القرشي صاحب « معالم القربة في أحكام الحسبة » . وتضم الموسوعات العربية القديمة فصولا عـن الحسبة ، ومن أهمها ما ورد في « نهايـة الأرب » للنويرى .

(٢٣٩٢) طلب المحتسبُ الى السكران أن يقول (آه) ، حتى يشم أنفاسه ، لكن السكران لـم يستجب له ، وأخذ يهتف « هو ، هو » ، وهو هتاف الصوفية عندما تنتابهم سكرة الوجد .

(٢٤٠٠) عاد الشاعر الى قصة الحكيم الذى كان يتكلف الحمق .

(٢٤١٢) جاء في نص عربى لهذه القصة رواه صاحب العقد الفريد : « البكر لك ، والثيّب عليك ، وذات الولد لا تقربها » .

(٢٤٢٥) يقول الحكيم ان هـذا الجنون الذى تظـاهر به ، برغم اكتمال عقله ، يشبه أرضا خرابا تخفى في باطنها كنزا . فظاهرها يدعـو الى الزهد فيها ، لكن باطنها عامر بالكنز النفيس .

(٢٤٢٦) « العسس » رمز للحكام الدنيويين الظالمين ، الذيـن يهرب منهم الصوفية ، ذلك لأن الصوفية لا يقبلون التورط فيما يرتكبه مثل هؤلاء الحكام من المظالم .

(٢٤٢٧) يقول هذا الحكيم انه لا يبيع علمه من أجل أغراض دنيوية عارضة ؛ فعلمه جوهر خالد ، وليس عرضا فانيا .

(٢٤٢٨) يعبر الحكيم في هـذا البيت عن تساميه عـلى الأغراض المادية . فقلبـه الصافى يتلقى العرفان مـن الخالق ، وهو سعيـد بهذا العرفان الذى يتكشف له .

(٢٤٣٦) « علم الكلام يتوقف ازدهاره على مقدار ما يلاقيه مـن اقبال المستمعين . فهو علم يستمد وجوده مـن غرور أصحابه ، وحبهم للظهور ، وليست له حياة ذاتية » .

(٢٤٣٩) انظر : المثنوى ، ١ ، ١٧٥٠ وشرحه .

(٢٤٤٠) أى عطاء يقدر عليه أهل الدنيا ؟ وماذا يكون عطاؤهم اذا قيس بعطاء الخالق الوهاب ؟

(٢٤٤١) « أكل الطين » رمز للاسراف في التعلـق بالماديـة . ومن أصيب بمثل هذا الاسراف اعتل كيانه .

(٢٤٤٢) « غذاء الروح » هو الذى يجعل الانسان دائم الشباب . والروح ذاتها لا تشيخ ، أمـا الجسد فيشيخ ويفنى . وقـول الشاعر : « اغتذ بقلبك » يعنى : اجعل غذاء الروح قوام وجودك .

(٢٤٤٨) في البيت اشارة الى قوله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس بـه نفسه ونحن أقرب اليـه مـن حبل الوريد » . (٥٠ : ١٦) .

(٢٤٤٩) الدعاء والصلوات ــ التي يرفعهــا البشر الى خالقهم ــ مستمدة من الخالق ذاته ، فهو الذى علمهم اياها ، فتساموا بهــا ، والا فان الوجــود الانسانى الذى غلب عليــه الحس لا تنبثق منــه هــذه الصلوات . ان هذه الأفعال الروحية الصادرة عن البشر ، شبيهة بورود نبتت في رماد الموقد .

(٢٤٥٠) كرم اللــه أيضا هو الذى بث الفهم والادراك في اللحــم والدم ، وجعل المعانى الفكرية المجردة متعلقة بكيان حسيّ .

(٢٤٥١) الابصار ــ كما يقول الشاعر ــ نور يفيض مــن العينين فتلاطم أمواجه السماء . وفي هذا تعبير عن اتساع البصر لكل هذه المشاهد المتجلية في السموات والأرض .

(٢٤٥٥) جنة الروح هى أصل السعادة ونبعها ومجلاها .

(٢٤٥٦) يعود الشاعر هنا الى قصة الرسول والصحابى المريض ، وهى القصة التى بدأت في البيت ٢١٤١ .

(٢٤٥٧ ــ ٢٤٥٨) انظر شرح البيت ٢١٤١ .

ويشير هذان البيتان الى نوع مــن صحابة الرسول تلقوا تعاليمه بتزمت . وهؤلاء هم الأصل في ظهور فرقة الخوارج التى بنيت تعاليمها على هذا التزمت في التفسير .

وقد أشار الشاعر الى هؤلاء مــن قبــل . (انظر : المثنوى ، ١ ، ٣٦٦ ــ ٣٧٠) .

(٢٤٦٨ ــ ٢٤٧٠) انظر قصــة هاروت وماروت . (المثنوى ، ١ ، شرح الأبيات ٣٣٢١ ــ ٣٣٥٤) .

وفي هذه الأبيات تفسير جديــد للقصة ، هو أن هاروت وماروت آثرا أن يلقيا ــ في الدنيا ــ نصيبهما من العذاب ، لقاء ما اقترفا من الاثم والخطيئة ، بدلا من معاناة ذلك في الآخرة .

(٢٤٧١) « ألم الدخان » رمز لعذاب الدنيــا ، فهو بالقياس الــى

عذاب الآخرة شبيه بالدخان ، اذا قيس بالنار .

(٢٤٨١) انظر حديث الرسول في شرح البيت ٢١٤١ .

(٢٤٨٤) كان موسى يريد أن يسير ببني اسرائيل الى الأرض المقدسة ، بعد أن خرجوا من مصر ولكنهم خافوا دخولها على من كان بها من الحكام والأقوام ، وجبنوا عن القتال . قال تعالى : « قالوا يا موسى انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون » (٥ : ٢٤) . فحزن موسى لذلك وشكاهم الى الله ، فكان عقابهم أن الله أوقعهم في التيه ، وحرم عليهم دخول الأرض المقدسة أربعين سنة . قال تعالى : « قال رب انى لا أملك الا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » . (٥ : ٢٥ ــ ٢٦) .

يقول الزمخشرى عن التيه : « التيه المفازة التى يتاه فيها . روى أنهم لبثوا أربعين سنة في ستة فراسخ ، يسيرون كل يوم جادين ، حتى اذا سئموا وأمسوا اذا هم بحيث ارتحلوا عنه ...... فان قلت : هل كان معهم في التيه موسى وهارون عليهما السلام ؟ قلت : اختلف في ذلك ، فقيل لم يكونا معهم ، لأنه كان عقابا . وقد طلب موسى الى ربه أن يفرق بينهما وبينهم . وقيل : كانا معهم الا أنه كان ذلك روحا لهما وسلامة ، لا عقوبة ، كالنار لابراهيم » . (تفسير الكشاف ، ١ ، ٦٢٢ ــ ٦٢٣) .

ويمكن أن يفسر البيت تفسيرا رمزيا على أساس أن التيه رمز للعالم المادى الذى تاهت الأرواح فيه عن أصلها . وأن الرسول يرشد الأرواح في هذا التيه . وأن الاثم (وهو التعلق بلذات الدنيا ومتاعها) هو الذى يبقى الأرواح في التيه رهن البلاء .

(٢٤٨٥) مضمون هذا البيت شبيه بما أصاب قوم موسى حين

وقعوا في التيه ، فقد لبثوا أربعين سنة في ستة فراسخ (انظر شرح البيت السابق) .

(٢٤٨٦) استخدم موسى في هذا البيت رمزا لمحمد صلى الله عليه وسلم . وفي البيتين ٢٤٩٣ ــ ٢٤٩٤ تعليل لهذا الرمز .

(٢٤٨٧) « الموائد » التى كانت تنزل على بنى اسرائيل هى المن والسلوى . قال تعالى : « وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى » . (٢ : ٥٧) .

(٢٤٨٨) في البيت اشارة الى معجزة لموسى ذكرت في القرآن الكريم . قال تعالى : « واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا » . (٢ : ٦٠) .

(٢٤٨٩) اذا غضب الرسول على قومه أصابهم العذاب . ولا يقتصر هذا على ما يصيبهم في الآخرة ، بل ان بعضه قد يصيبهم في الدنيا .

(٢٤٩٠) « القلبان » هما الرضى والسخط . والرسول يرضى عن قومه اذا أحسنوا ، ويغضب عليهم ان أساؤوا . وكل انسان عرضة لحالى الرضى والسخط ، على مقتضى أفعاله .

(٢٤٩٣ ــ ٢٤٩٤) في هذين البيتين يعتذر الصحابى عن اتخاذ موسى رمزا للرسول في أعماله ــ وهو خاتم النبيين وسيد المرسلين ــ فيقول انه فعل ذلك لأن مدح الحاضر مدعاة للحرج . فهذا الصحابى كان يدلى بهذه الأقوال في حضرة الرسول ، فلجأ الى الرمز ، والا فان موسى ذاته ما كان ليجيز أن يذكر اسمه على أنه مثال للتعبير عن كمال محمد .

(٢٤٩٦) انتهى الكلام الموجه الى الرسول في هذا البيت .

(٢٤٩٧) بدأ الشاعر هنا مجموعة من الأبيات ، في مناجاة الله . فالصفات التى تضمنتها هذه الأبيات لا تصدق الا على الخالق . وليس من المستطاع أن نعرف ما اذا كان الشاعر يتحدث بهذه المناجاة حديثا

مباشرا ، أم أنه يجريها على لسان الصحابي الذي كـان يكلم الرسول . وهذا الأمر ــ على أية حال ــ لا يخلق صعوبة في فهم الأبيات .

(٢٥٠٧) اشارة الى قوله تعالى : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم » . (٢ : ٣٧) .

(٢٥٠٨) يصور جلال الديـن الشيطان ملاعبا لآدم عـلى رقعـة الشطرنج . وقد سبق له التعبير عن هذا المعنى بصورة لطيفـة . (انظر الأبيات ١٢٩ ــ ١٣١) .

(٢٥١٤) انظر الآيـات الكريمـة : (٣٥ : ٤٣) ، (٤ : ٧٩) ، (٤١ : ٤٦) .

(٢٥١٦ ــ ٢٥١٧) أول العلاج معرفة الداء . والشيطان وأمثاله قد أعماهم الغرور ، فأصبحوا غافلين عن حقيقـة أنفسهم . ولو أنهم فطنوا لقبحها ، لكان ذلك بداية لسعيهم الى اصلاحها .

(٢٥١٨ ــ ٢٥٢٠) حين يتألم المرء لسوء حاله يكـون ذلك بشيرا بمولد روحي جديد . فالأم تشعر بالألم قبل ولادة طفلها . والمريد يشعر بالألم لما فرط منه قبل انبثاق وعيه الروحي . لكنـه بحاجة الى المرشد ، ليعاونه على استنباط ذلك الوعي الروحي ، كما تحتـاج الأم الى القابلة في ولادة طفلها . وكل انسان قد انطوى قلبه عـلى « الأمانة » ، وهي القدرة على الايمان والعلم والمحبة . لكـن النفس الحسية ــ بامعانها في الشهوات واللذات ــ تحجب عن الانسان الوعي بهذه الأمانـة . فالألم من سوء حال النفس هو البداية لذلك الوعي . ونصائح المرشد ضرورية لمعاونة المريد .

(٢٥٢١) من لم يحس بالألم كـان طاغيا وتأله ، كما فعل فرعون وأمثاله من الطغاة . وهو أيضا قاطع طريـق لأنه يؤذي الأنبياء ، ويقطع على الناس سبيل الاهتداء بهديهم .

(٢٥٢٤) اذا كان الاعتماد في معرفة المواقيت على أصوات الطير ،

فوجب قطع رأس الطائر الذى يصيح قبل وقته ، حتى يكون هناك تحقق من صدق الاعلام . والطائر الذى يصيح قبل وقته رمز للنفس الحسية التى تدفع صاحبها الى الغرور والاعتداد بذاته ، فيؤكد لها وجودا منفصلا عن خالقه .

(٢٥٢٦ ــ ٢٥٢٧) قتل النفس الحسية في الانسان شبيه باقتلاع الابرة من العقرب ، أو الأنياب من الحية . فقتل النفس الأمارة بالسوء يهيىء للمرء النجاة بروحه . واقتلاع الابرة أو الأنياب يبعد خطر الموت عن العقرب والحية ، وبذلك تتحقق لهما النجاة من القتل .

(٢٥٣٠) كل ما يتجلى في الروح فهو من الهام الخالق .

(٢٥٣٤) سبق للشاعر أن قدم تأويلا صوفيا لبعض آيات هذه السورة (انظر الأبيات ٢٩٥ ــ ٣٠١) .

ويفهم من هذا البيت ــ على ضوء الأبيات السابقة عليه ــ أن الله لا يتخلى عن عبده المؤمن النقى القلب ، مهما طال بالعبد انتظار الهام الخالق .

(٢٥٣٥ ــ ٢٥٤٣) يقدم الشاعر تفسيرا لخلق الشر في هذه الأبيات. فهو يقول ان خلق الله للشر دليل على كمال قدرته . فكأنه بذلك يقول ان الله هو الفنان الأعظم ، الذى يخلق الجميل ، ولا يعجز عن خلق القبيح .

(٢٥٣٧ ــ ٢٥٤١) أراد جلال الدين أن يقرب الى الأذهان معنى تجلى القدرة الكاملة في خلق الخير والشر ؛ فمثل لذلك بالفنان الذى يصور الجمال والقبح على السواء ، ويكون تصويره لهذا وذاك دليلا على كمال فنه . فكأن جلال الدين بذلك قد ذهب الى أن الفن ليس مقصورا على صنع الجمال ، بل هو أيضا في القدرة على تصوير القبح . فالفن اذن هو الخلق ؛ وليس مقصورا على صنع الجمال . وشاعرنا ــ بهذا الرأى ــ قد سبق شاعر الألمان جوته بمئات السنين .. فهذا

الأخير قد قال : الفن قوة مشكلة قبل أن يكون جميلا ... وحين يكون كذلك ، يكون فنا صحيحا عظيما ، أصح وأعظم من الفن الجميل نفسه » . (انظر : كاسيرر : مدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية . الترجمة العربية لاحسان عباس ، ومحمد يوسف نجم ، ص ٢٤٦) .

(٢٥٤٣) انظر : المثنوى ، ١ ، ٢٤٤٦ .

(٢٥٤٤ ـ ٢٥٤٥) كل من المؤمن والكافر يكون خاضعا لله ، لكن المؤمن يخضع عن طواعية ورضى ، وأما الكافر فيخضع مكرها . قال تعالى : «وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها» . (٣ : ٨٣). وقال : « ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها » . (١٣ : ١٥) .

(٢٥٤٦) الكافر قد يعمر الأرض ، ويبذل في ذلك جهده ، ولكن عمله هذا لا يكون في سبيل الله ، بل من أجل نفسه ، وغروره الذاتى . فهو يدعى الامارة على ما هو ملك الخالق .

(٢٥٤٧) يظن الكافر الباغى أنه قد تملك الأرض بطغيانه . ولكن كل شيء يؤول الى الخالق في نهاية الأمر . قال تعالى : « انا نحن نرث الأرض ومن عليها والينا يرجعون » . (١٩ : ٤٠) .

(٢٥٤٩) الكافر القبيح الأفعال يتخذ من الجبر حجة يبرر بها سوء عمله . فهو يعزو ذلك الى ارادة الله ، الذى لو شاء لخلقه من الأخيار الصالحين .

(٢٥٥٠) الصالح الخير ينسب حسن فعله الى الله ، ويشكره على ما وهبه من هداية لتجنب الأخطاء .

(٢٥٥١) استأنف الشاعر من جديد قصة الرسول والصحابى المريض .

(٢٥٥٢) يتضمن هذا البيت نظما لآية كريمة ، كان الرسول قد علم صاحبه المريض أن يدعو بها ربه ، هى قوله تعالى : « ربنا آتنا في الدنيا

حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » . (٢ : ٢٠١) .

انظر نص الحديث في شرحنا للبيت ٢١٤١ .

(٢٥٥٣) « ما دمت أنت مقصدنا ــ أيها الخالق الكريم ــ فهون علينا أهوال الطريق ، واجعل طريقنا اليك لطيفا كالبستان » .

(٢٥٥٤ ــ ٢٥٥٥) قول الشاعر : « ألم تكن النار طريقا مشتركا » يشير الى قوله تعالى : « وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا » . (١٩ : ٧١) .

(٢٥٦٩) في البيت اقتباس من قوله تعالى : « هل جزاء الاحسان الا الاحسان » . (٥٥ : ٦٠) .

(٢٥٧٤ ــ ٢٥٧٥) ان المحبين يحترقون بنار المحبة ، يجذبهم اليها نور وجه الحبيب ، فيندفعون نحوها كما يندفع الفراش نحو الشموع .

(٢٥٧٦) بدأ الشاعر هنا يوجه الخطاب الى المريد ، ويبين فضل المرشد على المريد . فالمرشد نور يغمر المريد ، وهو مجن يقيه محنة العالم الحسى وبلاءه .

(٢٥٧٨) شبّه الشاعرُ المرشدَ بالأفق السماوى ، والمريد بالكوكب الذى يتعلق بهذا الأفق .

(٢٥٧٩) عطارد كاتب الفلك ، فهو الذى يفتح دفتر الفلك ويسجل به الأحداث ، والمرشدون يفتحون لك دفتر القلب ليكشفوا لك خفي الأسرار .

(٢٥٨٠) دعك من الحيرة ، والتحق بذوى قرباك من أهل القلوب . وان كنت قطعة من النور ، فالتحق بالكل الذى أنت منه .

(٢٥٨١) « لماذا يكون اجتنابك للمرشدين العارفين ؟ وما هذا التخلى عنهم والامتزاج بالمخالفين ؟ »

(٢٥٨٢) يعبر هذا البيت عن نظرية الفيض المستمدة من الأفلاطونية المحدثة . يقول اخوان الصفاء : « ان الأشياء كلها بأجمعها صور وأعيان

غيريات أفاضها البارى تعالى عـلى العقل الفعال ... ومن العقل علـى النفس الكلية الفلكية التى هى نفس العالم بأسره .... ومن النفس الكلية فاضت عـلى الهيولى الأولى .... ومن الهيولى عـلى النفس الجزئيـة البشريـة .... فمن أراد أن يعرف صور الأشياء في النفس الكلية قبـل فيضها على الهيولى ، فليعتبر صور مصنوعات البشر ، كيف تكونها في نفوسهم قبل اظهارهم لها في الهيولات الموضوعة لهـم في صناعتهم .... ومن أراد أيضا أن يعرف كيف كانت صور الأشياء في العقل الفعال قبل فيضه على النفس الكلية ، وكيف كـان قبولها تلك الرسوم والصور ، فليعتبر حال رسوم المعلومات التى في أنفس العلماء .... ومن أراد أيضا أن يعرف حال المعلومات في علم البارى عز وجل ، قبل فيضه على العقل، فليعتبر حال العدد كيف كان في الواحد الذى قبل الاثنين » . (رسائل اخوان الصفاء ، ١ ، ٣٩٨ ـ ٣٩٩) .

لقد انتقد الشاعر ـ في البيت السابـق ـ اجتناب الجزء لكله ، واندفاعه الى ما يصرفه عن هذا الكل . ثم بين في هـذا البيت الصلة بين الواحد وبين الكثرة ، وكيف يتوالى الفيض حتى تتحول الأجناس الى أنواع ، وتصير المغيبات الروحية أعيانا حسية ملموسة .

(٢٥٨٣) من خدعه ظاهر الحس ومغرياته عن حقيقة جوهره ، كان كالنساء يخدعهن معسول القول ، وكاذب الثناء .

(٢٥٨٤) هذا المغتر بالكذب والخداع ، يحرص عليهما حرصه على الذهب .

(٢٥٨٥) ان ما قد يلقاه المريد من تعنيف المرشد وقسوته خير له من كذب المدح وزائف الثناء .

(٢٥٩٦) في البيت اشارة الى قوله تعالى : « وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانـوا يعلمـون » . (٢٩ : ٦٤) .

(٢٦٠٤) يبدأ الشاعر هنا قصة عـن معاوية وابليس ، خلاصتها أن ابليس أيقظ معاوية في وقت الصـلاة ، فشك معاوية في اخلاصه ، وظل يحاوره حتى كشف خبث سريرته ، وأنه ما قصد من ذلك الى خير .

وقـد أبدى نيكولسون شيئا مـن العجب ازاء اختيـار الشاعر لشخصية معاوية في هذه القصة ، برغم ما عرف عن الأمويين من اقبـال على الدنيا وبعد عن الزهد ، ثم التمس للشاعر عذرا في ذلـك ، هو أن معاوية كـان مـن صحابة الرسول ، كما أن الرسول أيضا تزوج أخت معاوية .

ورأيي أن اختيار معاوية هنا لم يكن لمكانته في الاسلام فحسب ، وانما لما كان يعرف به معاوية من دهاء وسعة حيلة . فلقد وضع الشاعر ـ في القصة ـ داهية لا يسهل خداعه ، في مواجهـة الشيطان ، فطـال بذلك الحوار بين هذين المتصارعين ، واستطاع الشاعر أن يملأه بكثير من الصور الفنية الرائعة ، والمعاني التي تكشف عن قدرته في تصويـر الصراع ، والتعبير عن وجهات النظر المتعارضة ، حتى ولو كان الشيطان ـ عدو الانسانية الأكبر ـ يمثل أحد الجانبين المتصارعين .

وقد أورد فروزانفر نصوصا تعبر عـن الفكرة الأساسية لهـذه الحكاية ، بايجاز ، وبدون أى تصوير فني ، مما يجعل عمل جلال الدين ابداعا مستقلا لا يكاد يدين بشيء لمثل هذه النصوص . وفيما يلي مثال للصور التي وردت بها هذه القصة :

« يروى أن رجلا كان يلعن ابليس كل يوم ألف مرة . فبينما هو ذات يوم نائم اذ أتـاه شخص فأيقظـه وقـال : قم فان الجدار ها هو يسقط . فقال له : من أنت الذي اشفقت عليّ هذه الشفقة . فقال له : أنا ابليس . فقال : كيف هذا وأنا ألعنك كل يوم ألف مرة . فقال : هذا لما علمت من محل الشهداء عند الله ، فخشيت أن تكون منهم فتنال معهم

ما ينالون » .(عن قصص الأنبياء للثعلبى ، ص ٣٦ . انظر أيضا : فروزانفر: مآخذ قصص ، ٧٢ — ٧٣) .

(٢٦٢٠) « ختن (بضم أوله وفتح ثانيه ، وآخره نون) : بلد وولاية دون كاشغر ، ووراء يوزكند ، وهى معدودة من بلاد تركستان . وهى في واد بين جبال في وسط بلاد الترك ، وبعض يقول بتشديد التاء » . (ياقوت : معجم البلدان ، مادة ختن) .

(٢٦٣٥ — ٢٦٣٧) هذه الأبيات تعبر عن معنى حديث قدسى ينقل عن الرسول أنه روى عن الله قوله : « انما خلقت الخلق ليربحوا علىّ ، ولم أخلقهم لأربح عليهم » .

(٢٦٤٠) يجادل ابليس قائلا : انه لا ينظر الى سبب ضلاله ، وهو عصيان الخالق بالامتناع عن السجود لآدم ، ولا الى الجزاء الذى وقع من جراء هذا العصيان ، وهو غضب الخالق .

(٢٦٤١) الخالق لطيف رحيم ، سبقت رحمته على غضبه . وابليس ينظر الى ذلك اللطف الأزلى ، ولا يصرفه عن ذلك ما أصابه من غضب الله نتيجة لعصيانه . ان العصيان حادث ولا اعتبار للحادث اذا قيس بالأزلىّ .

(٢٦٤٢ — ٢٦٤٤) ساق الشاعر على لسان ابليس حجة أخرى يعتذر بها عن عصيانه ، خلاصتها أن هذا العصيان جاء نتيجة لحبه للخالق ، وحرصه على أن يكون التقديس له وحده ، وغيرته من أن يظفر آدم بمنزلة تفوق ما كان لابليس من منزلة عند الخالق .

(٢٦٤٥) يقول ابليس : « ان الخالق قد قدر على العصيان منذ الأزل، ولهذا لم يكن في وسعى أن أفعل سوى ذلك » . (انظر : المثنوى ، ١ ، ١٤٨٨) .

(٢٦٤٧) يدعى ابليس أنه — برغم ما يقاسيه من قهر وخذلان — ينعم بالمحبة الالهية .

(٢٦٤٨) « الجهـات الست » رمز للحـواس الخمس ، والحس المشترك ، (وهو الحس الذى تدرك به الصورة) . والمراد أن التخلص من سلطان الحواس الست أمر بالغ العسر . وقد شبهت الحواس الست بالأقسام الستة في لوحة النرد ، فالوقـوع تحت سلطان الحواس يحدث الهزيمة ، وكذلك احتباس أحجـار لاعب النرد في « الخانات » الست يؤدى الى هزيمته .

وحاصل المعنى أن المرء لا يستطيـع أن يجرى في ستة اتجاهات في وقت واحد .

وحديث ابليس هنا يبدو وكأنه صادر عن انسان ذى حواس . ولا غرابة في ذلك ، فأسير الحواس عند الصوفية صنو ابليس .

(٢٦٤٩) أعتقـد أن المقصـود « بجزء الستة » هنـا هو الحس المشترك (الذى تدرك به الصور) . فمثل هذا الحس لا يصلح سبيلا الى معرفة روحية ، ما دام يستمد كل مدركاته من الحواس . فلا قـدرة لهذا الحس المشترك على التخلص من سلطان العالم الحسى .

(٢٦٥٠) كل من كان واقعا تحت سلطان الحواس فهو في جحيم لا يخلصه منه سوى الخالق القدير .

(٢٦٥٨) شبه معارف ابليس بالصفير الذي يحدثه الصياد ليوقـع الطيور . فالناس ينخدعون بحديث ابليس ، كما تنخـدع الطيور بصفير الصياد .

(٢٦٦١) ان سيطرة الشيطان على قوم نوح جعلت هؤلاء يعصون نبيهم هذا ، فحل بهم غضب الله وأغرقهم الطوفان .

(٢٦٦٢) انظر : المثنوى ، ١ ، ٨٥٤ ــ ٨٥٥ وشرحهما .

(٢٦٦٣) في البيت اشارة الى قصة قوم لوط ، وكيف هلكوا مـن جراء ما كانوا يتعلقون به من الآثام . قال تعالى : « وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل » (١٥ : ٧٤) . وقـال أيضا : « وأمطرنا عليهم مطرا فساء

مطر المنذرين » . (٢٦ : ١٧٣) . ولقد كان هلاك قـوم لوط بحجارة أمطرتها عليهم السماء . أما وصف الشاعر لقوم لوط بأنهم « غرقـوا في المياه السوداء » ، فلعل ذلك اشارة الى ما أصابهم من عمى ، جاء ذكره في قوله تعالى : « ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم » . (٥٤ : ٣٧).

(٢٦٦٤) انظر المثنوى ، ١ ، ١١٨٩ وشرحه .

(٢٦٦٥) فرعون ، الملك الذكى القادر ، صار عديم الفهم من جراء مكر الشيطان ، فلم يستمع الى رسالة السماء .

(٢٦٦٦) أبو لهب هو عبد العزى بن عبد المطلب ، عم الرسول . كان من أشد أقرباء الرسول عداوة له . يقول البلاذرى : « لما نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم : « وأنذر عشيرتك الأقربين » (٢٦ : ٢١٤) ، اشتد ذلك عليه ، وضاق به ذرعا ، فمكث شهرا أو نحوه جالسا في بيته ، حتى ظن عماته أنه شاك ، فدخلن عليه عائدات . فقال : ما اشتكيـت شيئا ، ولكن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربـين ، فأردت جمع بنى عبد المطلب لأدعوهم الى الله . قلن فادعوهم ، ولا تجعـل عبد العزى فيهم ــ يعنين أبا لهب ــ فانه غير مجيبك الى ما تدعوه اليه » . وتاريخ أبى لهب وامرأته ابان الدعوة حافل بالكيد والعداء المرير لرسول الله . وقد نزلت في ذمهما سورة من القرآن الكريم، وهى سورة المسد ، (١١١)

أما أبو جهل ، فهو أبو الحكم عمرو بن هشام ، وكـان من أشد الكفار عداء للرسول . (انظر : المثنوى ، ١ ، ٢١٥٤ ــ ٢١٦٠ ، والشرح)

(٢٦٧٠) في البيت اشارة الى قوله تعالى (حكاية عن ابن نوح) : « قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم » . (١١ : ٤٣) . العصمة وحدها هى التى تنجى الانسان من مكر الشيطان ، كما كانت رحمة الله هى المنقذ الوحيـد يوم طوفان نوح .

(٢٦٧٣) يدعى ابليس أنه محك لتمييز الخير من الشر . وهو بهذا يجعل نفسه على مستوى الأنبياء . (انظر المثنوى ، ٢ ، ٢٨٤ ــ ٢٨٧) . وابليس ــ من هذه الناحية ــ محك سلبيّ فهو يدعو الى الشر ، وبهذا يتبين الشرير من الخير ، على العكس من الأنبياء ، فهم يدعون الى الخير، فيتميز الخير من الشرير .

(٢٦٧٤) « ليس الشر من صنعى ، بــل هو كامن في النفوس التى تستجيب لى . وقيمة هذه النفوس تظهر عــلى حقيقتها باستجابتها لى ، فكأنما أنا صيرفى حدد قيمتها » .

(٢٦٧٥) الشيطان يظهر السبيــل للطيبين ؛ فهو يجعلهم شهودا لما حاق بالعصاة الهالكين مــن سوء المصير . وهو الذى يقود العصاة الى نهايتهم .

(٢٦٧٦) « ألــوان العلف » ، هى ألوان المغريات التــى يظهرها ابليس للناس .

(٢٦٨٢) الأبتر هو من لا يكون له أثر مــن نسل ولا ذكر حسن . والمقصود هنا أن من عاش حياة حسية ، فلن يكون لحياته أثر ، فكــل ما هو حسى فمآله الى الفناء .

(٢٦٨٤) ان الخير والشر ــ برغم اختلافهما ــ يقومان بعمل واحد، هو التمييز بــين الأخيار والأشرار . فكما يُظهر الانبياء الاخيار مــن الأشرار ، كذلــك يظهر الشيطان الأشرار وهم الذين يلبــون نداءه ، والأخيار وهم الذين لا يستجيبون لاغرائه .

(٢٦٨٦ ــ ٢٦٨٧) في هذين البيتين يتضح الفرق بين فكرة الشيطان في الاسلام وسائر الأديان السماوية من جهة ، وبين تلك الفكرة في الأديان الثنوية من جهة أخرى . فبينما تؤمن الأديان الثنوية بقدرة الشيطان على الخلق ، ومقاومته لارادة الله ، تنفى الأديــان السماوية عــن الشيطان القدرة على الخلق ، وتنفى عنه أية قدرة على مشاركة الله في ملكه .

(٢٦٨٨) اشارة الى حكاية صغيرة وردت بصور متعددة في مصادر أخرى . (انظر : فروزانفر : مآخذ قصص وتمثيلات ، ص ٧٤) . وتعبر احدى الروايات العربية عن هذه القصة كما يلي : « ومر أعرابى بمرآة ملقاة في مزبلة ، فنظر وجهه فيها ، فاذا هو سمج بغيض ، فرمى بها ، وقال : ما طرحك أهلك من خير » .

(٢٦٩٠) هنا يعود ابليس الى ادعاء صفات لنفسه شبيهة بصفات الأنبياء . فالنبى هو الشاهد على الخلق ، وليس ابليس .

(٢٦٩٢) يدعى ابليس أنه يقتلع الفساد من الأرض حتى يسودها الصلاح !

(٢٦٩٣ ــ ٢٦٩٦) الشجرة الذابلة هنا رمز لاستقامة الظاهر وفساد الباطن . فهذه الشجرة تقف مستقيمة كغيرها من الأشجار لكنها في الحقيقة ذابلة جافة . واستقامتها الظاهرية لا تشفع لها في البقاء ، بل ان البستاني يستأصلها . وهكذا حال من استقام ظاهرهم ، وفسد باطنهم .

(٢٧٠٢ ــ ٢٧٠٣) ان ابليس يدور حول الانسان ، متظاهرا بأنه يريد مؤازرته ، على حين أنه لا يريد له الا الهلاك . فهو مثل قاطع الطريق ، يسلب ، ولا يشترى . وان تظاهر بالشراء كان ذلك كيدا وخداعا .

(٢٧٠٦) «ان لم تأخذ بيدى غدوتُ مجللا بسواد الاثم والخطيئة».

(٢٧٠٨) في البيت اشارة الى قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة » . (٢ : ٣١) .

فآدم ــ وهو الذى تعلم من الحق ــ وقع ضحية لخداع ابليس .

(٢٧١٠) في البيت اشارة الى قصة سقوط آدم وندمه . قال تعالى حكاية عن آدم وزوجه : « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . (٧ : ٢٣ » .

(٢٧١٨ ــ ٢٧٢٠) يقول ابليس : « ان النفس الأمارة بالسوء تقود

الانسان الى ارتكاب الخطايا ، حتى يسوء من جراء ذلـك حاله . وهو يلعن ابليس ويعزو اليه ما أصابه ، والواقع أن نفسه هى التى جلبت عليه الوبال ، وهو غافل عن خداعها .

(٢٧٢٢) يشير البيت الى معنى المثل القائل : « ألية في برية ما هى الا لبلية[1] » . فأذنـاب الخراف كانت توضـع في أشراك لاصطيـاد الوحوش الكاسرة .

(٢٧٢٤) في الشطر الأول من هذا البيت نظم لمثل عربـى معروف نصه : « حبك الشيء يعمى ويصم[2] » .

(٢٧٢٦) « انى منتظر أن يكشف الله عنى ما غشينى من ليل الاثم والخطيئة » .

(٢٧٥٨) يقول معاوية لابليس : « هأنذا قد كشفت زيفك وألزمتك الحجة ، فلتقل الصدق ... » .

(٢٧٦٥) قول الشاعر : « فنطق ابليس مـن تحت أسنانه » ، يعنى أن ابليس أرغم على البوح بسره .

(٢٧٧٠) « ان احساس العبـد بالحسرة عـلى فرض فاته أداؤه ، وأساه المنبثق من اخلاص روحـه ، ربما كانا مما يعدل عنـد الله مائة صلاة » .

هـذا هو المعنى الذى عبر عنـه البيت . وهو مرتبط بنصوص صوفية سابقة . ومن أمثلة ذلك ما نقله أبو نعيم الاصفهانى . قال : « ان الشيطان يزين للعبد الذنب حتى يكسبه ، فاذا كسبه تبرأ منه ، ولا يزال العبد يبكى منه ويتضرع الى ربه ، ويستكين ، حتى يغفر له ذلك الذنب وما قبله ، فيندم الشيطان على ذلك الذنب ، حين أكسبه ايـاه ، فغفر له الذنب وما قبله » . (حلية الأولياء ، ٣ ، ٣٣٥) . وقـال أيضا : « ان

---

(١) الميدانى : مجمع الامثال ، جـ١ ، ص ١٢٢ .
(٢) المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٧٣ .

العبد ليعمل الذنب ، فاذا ذكره أحزنه ، فاذا نظر الله عز وجل إليه قد أحزنه ، غفر له ما صنع ، قبل أن يأخذ في كفارته ، بلا صلاة ولا صيام ».

ومما يجب الانتباه اليه هنا أن التقصير الذى يقابل بمثل هذا الغفران هو تقصير غير مقصود ، كالنوم حتى يفوت موعد الصلاة ، كما هو واضح من قصة ابليس ومعاوية ، في رواية الشاعر ، وكما يتضح أيضا من القصة التى يرويها الشاعر في الأبيات التالية (٢٧٧١ ــ ٢٧٧٩).

(٢٧٨٨) « انى روح مؤمنة ، لا يتملكنى سوى الحق ، فأنا كالباز الأبيض ، لا يصيدنى الا المليك ، وليس لصياد الذباب قدرة على اصطيادى » . وصياد الذباب هنا رمز للشيطان ، كما أن تشبيه ضعاف النفوس المتهالكين بالذباب يصور هؤلاء تصويرا رائعا ، يعبر عن ضعفهم وتراميهم ، وتهالكهم على اللذات المهلكة ، وسرعة هلاكهم ، ثم زوالهم الكامل .

(٢٧٩٣ ــ ٢٨٠٧) ساق الشاعر في هذه الأبيات قصة يمثل بها لخداع الشيطان الذى يصرف الانسان من الحقيقة الى الوهم . ففى القصة نرى رجلا يطارد لصا حتى يوشك على الامساك به ، فيناديه لص آخر بطريقة مثيرة ، فيتراخى في القبض على اللص ، ويتجه نحو المنادى، وهناك يخبره اللص الآخر بأنه يريد أن يريه آثار قدمى اللص الهارب . وقد استطرد الشاعر من هذه القصة الى الحديث عن « العلم اليقينى » وهو ــ في نظره ــ العرفان الصوفى ، و « العلم الوهمى » ، ويقصد به علم الكلام وما شاكله .

(٢٨١١) العلم الدنيوى مرتبط بالحس ، أما العلم اليقينى فقد تحرر من الحس .

(٢٨١٢) يشير الشاعر في هذا البيت الى درجات ثلاث من المعرفة . أولاها ادراك الصنع ، وهذا ما تتيحه للانسان معارف الحس . والثانية

معرفة الصفات الالهية ، وتلك هى الأسباب الكامنة وراء الصنع ، فمثل هذه المعرفة تشغل المتكلمين ، الذين يقفون عند حد الأسباب والعلل . وأما الثالثة فهى معرفة الذات ، وهى التى ينشدها الصوفية العارفون . وقد يفهم البيت على أساس ترجمة أخرى يسمح بها النص وهى : « ان المحجوب (عن الذات) يرى أن الصنع (ينبثق) من الصفات ، فمن أضاع الذات ، يتعلق بالصفات » . فالمعنى ـ على أساس هذه الترجمة ـ يشير الى أن هناك نوعين من المعرفة ، أحدهما هو الفكر العقلى القائم على الأسباب والعلل ، وثانيهما هو العرفان الروحي ، المستند الى الذات الالهية وحدها .

(٢٨١٣) « الواصلون الغارقون في الذات » هم الصوفية . وهؤلاء قد ركزوا نظرهم في الذات ، فصرفهم ذلك عن الصفات . فعندهم أن من عرف مسبب الأسباب ، هانت عليه معرفة الأسباب .

(٢٨١٤) من غاص الى أعمق أعماق العرفان لم تعد تهمه القشور ، فهو كمن غاص الى قاع البحر ، فلم يعد بصره متعلقا بلون الماء .

(٢٨١٥) من أدرك العلم اليقيني ، ثم عاد منه الى بحث الأسباب والعلل ، فهو شبيه بمن أخذ ثوبا خشنا لقاء فراء .

(٢٨١٦) كل انسان تكون عبادته على قدر عرفانه وادراكه . فطاعة العوام ـ التى تقتصر على أداء الفروض من غير ادراك لجوهرها ومعناها ـ تعد اثما في نظر الخواص . وما يحسبه العوام كشفا الهيا ، وشهودا روحيا ، فهو عند العارفين حجاب .

(٢٨١٧) ان من وصل الى مقام القرب ، ثم هبط الى منزلة أدنى من ذلك ، يشبه من كان وزيرا ثم جعله الملك محتسبا .

(٢٨١٨) يذكر في تفسير هذا البيت قوله تعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . (١٣ : ١١) .

(٢٨٢١ ـ ٢٨٢٤) في هذه الأبيات تعبير عن قدرة الانسان على

تحديد مصيره بعمله . فيجب على المرء ألا يعزو ما يحيق به من سوء المصير الى ما يسمى عادة « بالقسمة » أو « النصيب » بل عليه أن ينظر الى عمله ، ويلتمس فيه تفسيرا لمصيره .

ويؤيد معنى هذه الأبيات قوله تعالى : « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » . (٤ : ٧٩) .

(٢٨٢٥) يبدأ الشاعر هنا قصة « مسجد الضرار » . وقد أشار اليها القرآن الكريم ، في قوله تعالى : « والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن ان أردنا الا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون . لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » . (٩ : ١٠٧ — ١٠٨) .

وقصة مسجد الضرار مشهورة . وقد وردت في كافة كتب التفسير بصور متقاربة . وننقل فيما يلي نصا لهذه القصة عن ابن فضل الله العمري في كتابه مسالك الأبصار (ج ١ ، ص ١٢٩ — ١٣٠) :

« روى أن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء — وكان يأتيهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويصلي فيه — حسدهم اخوتهم بنو غنم بن عوف . وقالوا : نبني مسجدا ونرسل الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يصلي فيه ، ويصلي فيه أبو عامر الراهب ، اذا قدم من الشام ، ليثبت لهم الفضل والزيادة على اخوتهم . زعموا . وأبو عامر هو الذي سماه النبي (صلى الله عليه وسلم) الفاسق . وقال لرسول الله : لا أجد قوما يقاتلونك الا قاتلتك معهم . فلم يزل يقاتله الى يوم حنين . فلما انهزمت هوازن خرج هاربا الى الشام . وأرسل الى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح ، فاني ذاهب الى قيصر ، وآت بجنود ، ومخرج محمدا وأصحابه من المدينة » .

أما القسم الذي صوره جلال الدين من هذه القصة فهو ما يلي :

« فبنوا مسجد الضرار الى جانب مسجد قباء ، وقالوا للنبى : بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية . ونحن نحب أن تصلى لنا فيه ، وتدعو لنا بالبركة » . فقال (صلى الله عليه وسلم) : « انى على جناح سفر وحال شغل . واذا قدمنا ان شاء الله صلينا فيه » . فلما قفل من غزوة تبوك ، سألوه اتيان المسجد ، فنزل قوله (تعالى) : « والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا » الى قوله : « لا تقم فيه أبدا » . فدعا بمالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن السكن ووحشى قاتل حمزة ، فقال لهم : « انطلقوا الى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدموه واحرقوه » . ففعلوا . وأمر أن يُجعل مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة » .

(٢٨٢٩) قول الشاعر : « وزينوا أرضه وسقفه وقبته .. » ، يجب ألا يؤخذ على معناه الحرفى ، ففن انشاء القباب لم يكن قد انتقل الى الحجاز في عهد الرسول .

(٢٨٣١ ــ ٢٨٣٣) جاء في قصة « مسجد الضرار » أن المنافقين خاطبوا الرسول قائلين : « بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة ، والليلة المطيرة والشاتية ، ونحن نحب أن تصلى لنا فيه وتدعو لنا بالبركة » . (انظر القصة في شرح البيت ٢٨٢٥ من هذا الكتاب) » .

(٢٨٣٥) قول الشاعر : « وان صحبة الاخوان لتجعل المر حلوا » ، قد بدا لبعض الشراح محتاجا الى التأويل ، لأنهم فهموا من قوله « تجعل المر حلوا » أن الجماعة تخفف مرارة العبادة . والواقع أنه لا داعى لهذا التأويل ، وينبغى أن يفهم هذا القول على معناه الحرفى بدون تأويل ، فتزول بذلك الصعوبة في فهمه . وما دامت صحبة الاخوان تجعل المر حلوا ، فمن الطبيعى أنها تزيد الحلو حلاوة . فالعبادة تزداد بالجماعة حلاوة وتأثيرا في النفس .

(٢٨٤٠ ــ ٢٨٤٣) من الصور الرائعة في هذه الأبيات تشبيه اللطف الذي ينطق به اللسان ــ بدون اخلاص من القلب ــ بالخضرة فوق رماد المواقد ، وكذلك تصوير اللطف الزائف بأنـه جسر مهدم ، لا يمكـن الركون اليه .

(٢٨٥٤ ــ ٢٨٥٦) تعبر هذه الأبيات عن معنى الحديث الذي يروى عن الرسول قوله : « انما مثلي ومثل أمتي كرجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش تقعن فيهـا وأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمـون » . (انظر : المنهج القوى ، ٢ ، ٥٥٧) .

(٢٨٦٠) قول الشاعر : « لقـد بنوا مسجدا عـلى جسر النار » ، مقتبس بمعناه من قوله تعالى : « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين » . (٩ : ١٠٩) .

(٢٨٦١) جاء في مسالك الأبصار للعمرى (ص ١٣٠) نص يروى عن عطاء قوله : « لما فتح الله الأمصار على عمر أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأن لا يتخذوا في مدينة مسجدين يضارّ أحدهما صاحبه » .

(٢٨٦٢) المقصود باليهودى في هذا البيت هو أبو عامر الراهب . (انظر قصة مسجد الضرار ، شرح البيت ٢٨٢٥ من هذا الكتاب) .

(٢٨٦٣ ــ ٢٨٦٤) انظر نص قول الرسول في قصة مسجد الضرار. شرح البيت ٢٨٢٥ .

(٢٨٧٢) قـال تعالى : « اتخذوا أيمانهم جنـة » . (٥٨ : ١٦) ، (٦٣ : ٢) . والجُنَّة هى الوقاية . فهؤلاء المنافقون قد احتموا بالأيمان الكاذبة ، واستتروا وراءها .

(٢٨٨٣ ــ ٢٨٨٤) اشارة الى قوله تعالى : « فلما أتاها نودى من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى انى أنا الله رب العالمين » . (٢٨ : ٣٠) .

(٢٩٠٣) يشير الشاعر هنا الى « القليس » وهي كنيسة بناها أبرهة، القائد الحبشي الذى فتح اليمن ، قبل ظهور الاسلام بفترة وجيزة . يقول ياقوت : « وكان أبرهة قد استذل أهل اليمن في بنيان هذه الكنيسة ، وجشمهم فيها أنواعا من السخرة ، وكان ينقل اليها آلات البناء كالرخام المجزع ، والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس ، صاحبة سليمان ، عليه السلام ، وكان من موضع هذه الكنيسة على فراسخ .... ونصب فيها صلبانا من الذهب والفضة ومنابر من العاج والأبنوس .... ولما استتم أبرهة بنيان القليس كتب الى النجاشي : انى قد بنيت لك ــ أيها الملك ــ كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف اليها حج العرب » . (معجم البلدان ، ٤ ، ٣٩٤ ــ ٣٩٥) .

ويقال ان رجلا من العرب غضب ــ حين سمع بذلك ــ وتوجه الى الكنيسة ، ودخلها ولوثها . فلما علم بذلك أبرهة ، جهز جيشا وسار لهدم الكعبة ، فكانت قصة الفيل التى رواها القرآن الكريم . (انظر : المصدر السابق) .

(٢٩١١) الجمل الضال في القصة رمز للحكمة الروحية التى ينشدها المريد ، فالحكمة ضالة المؤمن .

(٢٩١٥ ــ ٢٩٢٢) ان ملتمس الحكمة عند علماء الدنيا شبيه بمن أضاع جملا ، ثم أخذ يسأل عنه العوام ، فكان كل منهم يدله عليه ، بأسلوب يخالف أسلوب الآخرين ، طمعا في مكافأته . فهذا التناقض في الارشاد الى الجمل الضائع ، شبيه بتناقض الباحثين في الارشاد الى الحقيقة ، وبخاصة حين يكون هؤلاء من علماء الحس . ويتبين مغزى هذه الصورة في أبيات تالية . (٢٩٢٣ ــ ٢٩٢٦) .

(٢٩٢٦) « كل منهم يشير الى الحقيقة بأقوال توهم أنه عارف بها ، عليم بجوانبها » .

(٢٩٢٧) هؤلاء الباحثون الضالون يطلبون الحق ، فيهتدون الى باطل يحسبونه حقا .

(٢٩٢٨) لا أحد يطلب الباطل لذاته . فالذين يقبلون النقد الزائف، يكون قبولهم له على أساس أنه نقد صحيح .

(٢٩٣١) المستقيم السوىّ يسوغ للأعوج وجوده . فالجاهل يتقبل الأعوج ، على أنه مستقيم ، والجهل هو الذى يجعل الأعوج مستقيما في نظره . ان الأمل في الصالح يسوغ قبول الطالح ، كما يجعل السكرُ السم سائغا لمن يجهل حقيقته .

(٢٩٣٥) لقد احتجبت الحقيقة بين الأباطيل ، كما احتجبت ليلة القدر بين الليالى . واحتجاب الحقيقة بين الأباطيل يلقى على الروح مسؤولية اكتشافها ، وكذلك الحال بالنسبة لليلة القدر . فمن المعروف أنها احدى الليالى العشر الأخيرة من شهر رمضان . فالروح التى تطمح الى اكتشافها قمينة بأن تسهر الليالى لعلها تصادفها .

وقد ذكرت ليلة القدر في القرآن الكريم على أنها الليلة التى بدأ فيها نزول القرآن الكريم . قال تعالى : « انا أنزلناه في ليلة القدر » . (٩٧ : ١) .

(٢٩٣٧) بين المتظاهرين بالزهد يكون هناك زاهد صادق . والبحث الدائب هو الذى يهدى الى حقيقة مثل هذا الزاهد .

(٢٩٣٩) من مزايا وجود الباطل أنه محك لقدرة الروح على اكتشاف الحق . فلو لم توجد في هذه الدنيا سلع معيبة لكان من الميسور لجميع البله أن يصبحوا تجارا .

(٢٩٤٣) تجارة الأنبياء ذات طبيعة روحية ، وهى تحقق ربحا جوهريا . أما تجارة الحس فلا تجيء بربح حقيقي . وقول الشاعر : « تجار الألوان والروائح » يرمز للمتعلقين بالمادة ، المنصرفين الى لذات الحس .

(٢٩٤٦ ــ ٢٩٤٧) بدأ الشاعر هنا يتحدث عن وجوب امتحان كل شيء حتى يظهر ما فيه من خير ومن شر . فما دامت الحقيقة قد اختلطت بالباطل ، فهذا البحث واجب على كل روح يطمح الى اليقين .

وقد ضرب ــ في هذين البيتين ــ مثلا بالسموات التى يتجلى فيها كمال خلق الله ، وبرغم ذلك ، أمرنا الخالق أن ننظر اليهـا فاحصين . قال تعالى : « الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير » . (٦٧ : ٣ ــ ٤) .

فهذه الدعوة الى النظر والتأمل في السموات لادراك ما فيها مـن احكام الخلق ، تبين لنا مدى ما نحتاج اليه من نظر ثاقب لاجتلاء حقيقة ما نلاقيه في هذا العالم الحسى .

(٢٩٥١ ــ ٢٩٦٤) اتخذ الشاعر من الأرض ، وما تمتحن به من عوارض ، مثلا للانسان . فالأرض تنطوى على كثير من ألوان الجمال : انها تبدو في ظاهرها ترابية كالحة ، لكن معدنها ينبت الأزهار والرياحين وطيب الثمار . ولا بد من الربيـع والخريف ، والحرّ والبرد ، والبرق والرعد ، لكى يستخلص من هذه الأرض الترابية ما تنطوى عليه مـن ألوان الجمال . وهكذا الحـال بالنسبة للانسان . فهو يتعرض لألوان متعددة من البلاء تظهر حقيقة جوهره ، وتبين ما كمن في ذاته من صفات الكمال .

(٢٩٥٧) « مخاطبة الأرض بقـول لطيف كالسكر » كناية عـن الربيع ، والاعتدال ، أما « تعليقها في الهواء » فكنايـة عن الرياح التى تعصف بها ، فتثير غبارها ، وتجعله معلقا بالهواء .

(٢٩٦٣ ــ ٢٩٦٤) يعبر الشاعر هنا عـن معنى قـوله تعـالى : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين » . (٢ : ١٥٥) .

(٢٩٦٥) أطلق الله الوعد والوعيد ليفصل بين الخير والشر اللذين امتزجا باذنه .

(٢٩٦٩ ـ ٢٩٧٢) صور الشاعر المحك الصادق لاختبار الحقائق ـ وهو العرفان الحق ـ فاتخذ من قصة موسى في طفولته مثالا لذلك . فموسى كان قد عرف حليب أمه ، فلم يتقبل سواه . وكل مـن شربت روحه من حليب اليقين يوم حشد الله الأرواح قبل خلق هذا العالم بقى لها مذاق اليقين ، ورزقت القدرة على ادراكه . فمن كـان حريصا على سلامة ادراكه فليغذ قلبه باليقين ليعرف مذاقـه ، كما غذت أم موسى طفلها موسى بالحليب ، فعرفها ، ورفض سواها من المراضع .

(٢٩٦٩) من تلقى العرفان الحقيقى من مرشد صادق ، خاض غمار هذه الحياة ، بدون أن يتعرض لمخاطرها ، كما كان من أمر موسى حين ألقى في اليم وهو طفل ، ومع ذلك سلم من أخطاره .

(٢٩٧٠) من أتيح له أن يتذوق العرفان الحق ـ يوم أخذ الله مـن بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ـ قبل خلق هذا العـالم ، فهو يستطيـع تمييز العرفان الصادق ابان وجوده في هذه الحياة ، لأنـه يتذكّره بما سبق أن تذوقته روحه قبل خلق العالم .

(٢٩٧٢) من تلقى الارشاد من مرشد عارف ، أدرك منـذ البداية مذاق العرفان الصادق ، ولم يكن عرضة لالتماس معارف الحس ، عند أصحابها من علماء الحس المغرورين الجهلاء .

(٢٩٧٣) عاد الشاعر هنا الى مثال الرجل الذى أضاع جملا . (انظر الأبيات ٢٩١٥ ـ ٢٩٢٢ ، وشرحها) .

(٢٩٧٥) عالِم الحس يمـاري ويجـادل ، ويتظاهر بالبحث عـن الحقيقة ، في حين أنه لا يبحث عن شيء .

(٢٩٧٦) أسلوب هـذا العالِم الحسيّ هو التقليـد . فهو يردد ما يقوله العارفون المخلصون من طلاب الحقيقة .

(٢٩٨٢) قول الشاعر : « يغــدو جسدك نفسا ، ونفسك روحا » ، يعني أن من تلقى الالهام الروحي تسمو حواسه من مستواها المادي الى مستوى معنوي هو مستوى النفس ، كما تسمو نفسه مــن مستواهــا الانفعالي الى مستوى الروح في تساميها وتجردها .

(٢٩٨٣) «الأمين» هو العارف الذي يكشف الحقيقة لطالب العرفان.

(٢٩٨٥ ــ ٢٩٨٦) طالب العرفان لا يطول به الوقت حتى يكتشف صدق المرشد ، واحاطته بجوهر الحقيقة ، وسرعان ما يقتفي أثره ، ملتمسا تحقيق العرفان لروحه ، بمعونة هذا المرشد العارف .

(٢٩٨٧ ــ ٢٩٩٨) قد يتحقق للمقلد وصــول الى جوهر الحقيقة ، اذا اقتفى أثر المحققين ، واستعار قبسا من حرارة صدقهم . فهو في بداية أمره يدعي أنه مثلهم طالب للحقيقة ، لكنه سرعــان ما يدرك اخلاصهم في الطلب ، واذ ذاك يفطن الى أنه أيضا يبحث مثلهم عن ضالة ، هي الحكمة الحقيقية . وبجده واخلاصه يصل هو أيضا الى الحقيقة ، فيلتقي حينذاك مع العارفين .

(٢٩٨٨) المقلّد لا يفيد من تقليد المحقق الا بمقدار ما يعتقده مــن صدق هذا المحقق .

(٢٩٨٩) اخلاص المحقق ، وحرارة يقينه ، ينبهان المقلد ، فيفطن الى طريق الحقيقة .

(٢٩٩٠) الفطنة الى طريق الحقيقة ــ التي يقتبسها المقلد من العارف ــ تنبهه أيضا الى أن له ضالة ينشدها ، شبيهة بما ينشده هذا العارف .

(٢٩٩١) « الطمع في جمل الغير » رمز الى الطمع في الوصول الــى الحقيقة من غير طريقها . فالمقلد يظن أنه قادر على كشف الحقيقة عن طريق التقليد .

(٢٩٩٢) قد يؤدي تقليد المقلد للمحقق الى أن يصبح هــذا شريكا لذاك في عناء الطلب والبحث والتحري .

(٢٩٩٣) اقتفاء المقلد للمحقق قد ينتهى بالمقلد الى أن يصبح هو أيضا من أهل التحقيق . وتلك حال شبيهة بحال الكاذب الذى يصحب صادقا ، ويقتفى أثره ، فيصبح كذبه ــ من جراء ذلك ــ صدقا .

(٢٩٩٤) عثر المقلّد ــ بعد أن جعله الاجتهاد من أهل التحقيق ــ على الحقيقة ، وسط متاهات الخيال والأوهام .

(٢٩٩٥) حينما اهتدى هذا المقلد الى الحقيقة ، بعد ان سلك سبيل أهل التحقيق ، أدرك أنها هى الهدف الذى كان يسعى لادراكه ، واطمأنت روحه اليها ، وبرئت من المراء والجدال والطمع .

(٢٩٩٦) كانت المجاهدة سبيل شهود الحقيقة . وبشهودها أصبح المقلد محقّقا .

(٢٩٩٧) شهود الحقيقة جعل السالك المقلّد طالبا لها .

(٢٩٩٨) شهود الحقيقة فتح عين السالك المقلد على نور جديد ، ترك كل ما عداه ، وتوجه نحوه .

(٢٩٩٩) يتساءل المحقق في هذا البيت عما دعا السالك المقلّد الى تركه ، وكان من قبل يقتفى أثره .

(٣٠٠٠) يكشف المقلّد عن الدافع الذى دفعه الى اقتفاء أثر المحقق . ولم يكن هذا سوى الطمع ، اذ لم يكن في بداية أمره قد عرف الاخلاص في الطلب ، والصدق في المجاهدة .

(٣٠٠١) وحدة السلوك الروحى توحد بين السالكين وان تفرقت الأجساد ، وذلك على العكس من التقاء الناس بأجسادهم ، فمثل هذا اللقاء لا يترتب عليه وحدة هدف ولا غاية .

(٣٠٠٢) يذكر المقلد أن معرفته التقليدية كانت أوهاما مستقاة من عرفان الغير ، أما شهود الحقيقة فقد ملأ عليه نفسه .

(٣٠٠٤) تبين للسالك المقلد أن هذا العرفان الذى تكشف له ، أسمى وأنبل بكثير مما كان يطلب . انه شىء لم يكن يخطر له على بال . كان

طلبه على مستوى نفسه ذات المعدن الخسيس ، لكن هـذه النفس قـد أصبح معدنها كالذهب بفضل اكسير العرفان .

(٣٠٠٦ ــ ٣٠٠٧) « المجاهـدة والسعى توصل المقلد الـى الصدق واليقين اللذين يتحلى بهما المحقق . لكن الطلب لا ينتهى عند بلوغ مرتبة التحقيق . فاليقـين موقف يقتضي دوام الطلب ، طلب الروح لخالقهـا ، وسعيها اليه » .

في رأيى أنه يجب التمييز بين طلب السالك المقلد ، ليصل الى منزلة التحقيق ، وبين طلب المحقق ، الذى أشرقت روحه باليقين .

وقـد نقل نيكولسون عـن الهجويرى نصا يفهم منـه أن الصدق والطلب مقترنـان ، فـلا صدق الا ويقترن بطلب ، ولا طلب الا ويقترن بالصدق . وأعتقد أن هذا النص يتعلـق بالعارف المحقّق وحده ، وليس بالسالك الساعى الى التحقيق .

(٣٠٠٨ ــ ٣٠٠٩) يشبه السالك مجاهدة النفس ، وما لاقاه فيها من عناء ، بشق الأرض وزراعتها . وكان ــ لشدة عنائه ــ يظن ذلك العمل من قبيل السخرة التى لن يؤجر عليها ، فاذا به يحقق له أعظم الكسب ، واذا بكل حبة قد أنبتت مائة حبة .

(٣٠١٠) « اللص » رمز للمقلد الذى كان يسرق لغة العارفين . وهو الذى اقتفى أثر العارفين ، فأصبح عارفا . فكان اليقين الذى اطمأنت اليه نفسه ــ على غير توقع منهـا لذلك ــ شبيها بمنزل تسلل اليـه أحـد اللصوص ، ثم تبين له أن المنزل منزله .

(٣٠١١) في هـذا البيـت دعوة للمقلـد الى أن يستشعر حرارة اليقين ، فلعلها تخلصه من برودة تقليده ، والى أن يصبر على عناء السعى والمجاهدة ، فلعل ذلك العناء ينتهى به الى راحة اليقين .

(٣٠١٢) الحقيقة واحدة ، وان اختلفت سبل السالكـين ، الساعين اليهـا .

(٣٠١٣) اشارة الى حديث يروى عن الرسول قوله : « من عرف الله كلّ لسانه » .

(٣٠١٤) ان الحديث عن المعانى الروحية لا يعبر الا عن لمحات قليلة من حقيقتها ، فهو كالاصطرلاب فيما ينبيء به من معلومات عن الفلك والشمس .

(٣٠١٥) سبر أغوار هذا الفلك وشمسه لا يعد شيئا بالقياس الى سبر أغوار فلك الروح وشمسها . فهذا الفلك ــ بالقياس الى فلك الروح ــ كالفراشة ، وشمسه ــ بالقياس الى شمس الروح ــ كأنها ذرة .

(٣٠١٧) مما روى من أخبار مسجد الضرار أن الرسول أمر بأن يهدم ، ويجعل مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة . (انظر القصة في تعليقنا على البيت ٢٨٢٥) .

(٣٠١٨) المقصود « بصاحب المسجد » أبو عامر الراهب . (انظر شرح البيتين ٢٨٢٥ ، ٢٨٢٦) .

(٣٠٢٢) لكل شيء ظاهر وحقيقة . والأصل في تقدير الأشياء حقيقتها . وفي عالم الحقائق توجد فروق وفصول شبيهة بما يكون في عالم الظاهر من فروق وفصول ، لكن الفروق في عالم الحقائق تكون أصدق ، وأكثر اقترانا بالصواب . وينطبق هذا على حقائق الناس التى قد لا تكون متفقة مع ظواهرهم .

(٣٠٢٥) « بناء مسجد الضرار » رمز للنفاق .

(٣٠٣٥) الانسان مزيج من الحس والروح ، والحس ينتمى لعالم العيب والخطايا ، وأما الروح فتنتمى لعالم الغيب .

(٣٠٣٩) في البيت اشارة الى قوله تعالى : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » . (٤١ : ٣٠) .

فما دام المؤمنون من أهل الاستقامة بحاجة الى أن يطمئنهم الملائكة،

فيجب ألا يغتر الانسان بعمله ، ويحسب أنه قد خلا من العيوب ، وتحقق له حسن الجزاء . سئل الجنيد عن الخوف فقال : « هو توقع العقوبة على مجاري الأنفاس » .

(٣٠٤٢) على الانسان ألا يصاب بالغرور لقيامه بعمل صالح ، يرجو من ورائه الشهرة والتظاهر ، بل ان عليه أن يكون خائفا حذرا من ارتكاب الاثم .

(٣٠٤٦) الأتراك الغز شعب من شعوب آسيا الوسطى ، بدؤوا غاراتهم على خراسان منذ أوائل القرن الخامس الهجرى . وقد اشتهرت من بينهم قبيلة قوية هى قبيلة السلاجقة التى استطاعت أن تقيم في القرن الخامس الهجري دولة اسلامية عظيمة سيطرت على غرب آسيا .

(٣٠٥٥ ـ ٣٠٥٨) عالج الشاعر هذه الفكرة من قبل في قصة « الأسد والذئب والثعلب » . (انظر : مثنوى ، ١ ، ٣١١٧ ـ ٣١٢٣) .

(٣٠٧٧) يشير الشاعر الى تساؤل ابراهيم عن الخالق ، واهتدائه اليه . (انظر : سورة الأنعام ، ٦ : ٧٦ ـ ٧٩) .

(٣٠٧٨ ـ ٣٠٨٠) المؤمن الحق لا يستطيع أن يستمتع بشىء من لذات الحياة ، من غير أن يقترن ذلك بتأمل صنع الخالق ، وذكر فضله .

(٣٠٨٢) من كان من أهل الضلال المخادعين ، فلا بد أن يتضح أمره ، مهما حاول أن يخفيه وراء ستار كثيف من الدهاء والمكر . فأعماله تنبىء عن خبث سريرته ، كما تنبىء الرائحة النتنة عن قذارة صاحبها .

(٣٠٨٣) قول الشاعر : « ولقد عاش برهة قصيرة ثم انقضى يومه »، يعنى أن المنافق المنصرف الى لذات الحس يستمتع بأيام قليلة تنقضى بانقضاء هذه الحياة الدنيا ، وبعد ذلك يلاقى سوء المصير .

(٣٠٨٦) النفس اللئيمة تخدع صاحبها المنافق ، فتسهل له ارتكاب الآثام ، على أساس أن الله غفور رحيم .

(٣٠٨٧) لو كان المنافق مؤمنا بالله حقا ، معتقدا برحمته وغفرانه ،

فلماذا يقتله الغم لو خلت يداه من الخبز ، ولماذا يرهقه الخوف ما دام الله غفورا رحيما .

(٣٠٨٨ ـ ٣١٠١) في هذه الأبيات حكاية صغيرة تصور الشيخوخة الحسية ، بما تجلبه من ضعف وآلام ، وتبين كيف أن الأخلاق تتأثر أيضا بعوارض الوهن ، لكن الشاعر يعقب على القصة بقوله : ان الشيخ الذى هو ثمل بالحق يكون في الظاهر شيخا ، لكنه في الباطن فتيّ . ومعنى ذلك أن حياة الروح هى الحياة الخالدة التى لا تتأثر بشيخوخة الجسد ، ولا يذهب بنضرتها كرّ الأعوام .

(٣١٠٢) لو لم تكن حقيقة الأنبياء والأولياء وفضائلهم معروفة للأخيار والأشرار على السواء ، فعلى أى شيء يحسدهم الأشرار ؟

(٣١٠٣) ان كان الأشرار يعرفون الأنبياء معرفة يقينية ، ويدركون حقيقتهم ، فلماذا اذن يناصبونهم العداء على تلك الصور المريرة .

(٣١٠٤) يعجب الشاعر من الأشرار ، يعرفون البعث والقيامة ، ومع ذلك يحاربون الأنبياء والأولياء ؟ فكيف يُعرّضون أنفسهم لانتقام يوم الحساب .

وقد رمز الشاعر الى عقاب الآخرة « بالسيف الحاد » .

(٣١٠٥) ان ظاهر النبى أو الولى يخدع الناس عن حقيقته . فهو في ظاهره وديع رقيق ، يبدو لهم ضعيفا ، على حين أنه يمتلك من القوة ما يقيم مائة قيامة ، لأنه يكون مؤيدا بالله .

(٣١٠٦) يتضمن هذا البيت لمحة من فكرة « الانسان الكامل » عند الصوفية .

يقول الجيلى : « واعلم أن الانسان الكامل مقابل لجميع الحقائق الوجودية بنفسه ، فيقابل الحقائق العلوية بلطافته ، ويقابل الحقائق السفلية بكثافته ... » . (انظر : الانسان الكامل ، ج ٢ ، ٥٠ ـ ٥٢) .

(٣١٠٨) كيف يتهجم السفهاء على الأنبياء والأولياء ، وهم يعلمون

أن قوتهم مستمدة من قوة الله وتأييده ؟

(٣١٠٩) يسخر الشاعر من أدعياء الايمان الذين يتقربون الى الله بتعظيم المسجد ، في حين أنهم يوقعون الأذى بقلوب العارفين من رجال الله .

(٣١١٠) المسجد بيت الله ، على سبيل المجاز ، وأما قلب العارف فهو ــ على التحقيق ــ بيت الله .

(٣١١٦ ــ ٣١٢٧) حكى الشاعر في هذه الأبيات قصة عن جحى . وهذه القصة ذات أصل عربى ، رويت في مصادر متعددة ، لكنها لا تدور حول جحى . فمن صورها العربية تلك التى وردت في كتاب الأغانى ، على النحو التالي :

« قال ابن دراج الطفيلى : مرت بى جنازة ومعى ابن ومع الجنازة امرأة تبكى وتقول : بك يذهبون الى بيت لا فراش فيه ولا وطاء ولا ضيافة ولا غطاء ، ولا خبز ولا ماء . فقال لى ابنى : يا أبت الى بيتنا والله يذهبون بهذه الجنازة . فقلت : كيف ويلك . قال : لأن هذه صفة بيتنا ». انظر : (فروزانفر : مآخذ قصص وتمثيلات ، ٧٧ ــ ٧٨) ، (تعليقات نيكولسون) .

(٣١٢٨) الطغاة لا يستطيعون أن يروا من الأمور سوى ظاهرها . فابصار هؤلاء شبيه بابصار الطفل ، في القصة السابقة .

(٣١٢٩ ــ ٣١٣١) القلب الذى لم يتلق نور الهداية ، ولا شعاع الالهام ، يكون مظلما ، لا قدرة له على الادراك السليم .

(٣١٣٢) من كان قلبه مظلما فهو دفين ظلمة الجهل . وبعض الموتى أحسن حالا من الأحياء الذين يعيشون في ظلام الجهل . أما قول الشاعر : « فلتنهض الآن من ضريح قلبك » فمعناه : « حطم سجن الجهالة الذى يغشاك بظلمة شبيهة بظلام القبر ، وانطلق الى بعث روحى جديد مشرق بنور العرفان » .

(٣١٣٣) من كان سليل آدم ــ الذى علمه الله الأسماء كلها ــ كيف يستريح الى الجهل ، ولا تضيق به أنفاسه ؟

(٣١٣٤) الروح الانسانى الذى أحاطت به الظلمة شبيه بيوسف في قرارة الجب ، أو بشمس السماء وسط الظلمات . والجب لا يليق بيوسف، وكذلك الظلمات لا تناسب الشمس .

(٣١٣٥) يشير هذا البيت الى قصة يونس حين ابتلعه الحوت ، ثم انقذه الله .

لقد ذكر القرآن الكريم قصة يونس في قوله تعالى : « وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين » . (٢١ : ٨٧ ــ ٨٨) .

وقد وردت قصة يونس فيتفسير هذه الآيات . وخلاصة القصة أن يونس كان رجلا صالحا يتعبد في جبل . وكان من أهل نينوى فبعثه الله اليهم ليدعوهم الى الايمان بالله ، وترك عبادة الأصنام . وكان قليل الصبر على قومه والمداراة لهم ، فتعجل الأمر وخرج مغاضبا ، وأتى البحر . قال الثعلبى : « فلما أتى يونس البحر اذا قوم يركبون سفينة فحملوه بغير أجرة ، فلما دخلها احتبست السفينة ووقفت ، والسفن تسير يمينا وشمالا فقال الملاحون : ان فيها عبدا آبقا من سيده ، وهذا رسم السفينة اذا كان فيها آبق لم تجر . فاقترعوا فوقعت القرعة على يونس . فقال أنا الآبق . فقالوا تلقى في الماء . فاقترعوا ثانيا وثالثا فخرجت القرعة على يونس ، فزج نفسه في الماء ، فذلك قوله تعالى : « فساهم فكان من المدحضين » (٣٧ : ١٤١) . فلما وقع في الماء وكل الله به حوتا فابتلعه ، وأوحى الله تعالى الى الحوت انى لم أجعله لك رزقا بل جعلناك له حرزا ومسكنا ، فخذه ولا تكسر له عظما ولا تخدش له لحما » . (قصص الأنبياء ، ٤٦٢ ــ ٤٦٣) .

وبينما يونس في جوف الحوت تاب الى ربه وسبح وهو في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه . وشفعت له الملائكة فأمر الله الحوت فقذفه الى ساحل نينوى . وكان ضعيفا من جراء ما مر به فأنبت الله عليه شجرة من يقطين .

وقد ذكر القرآن الكريم قصة ابتلاع الحوت ليونس ، ونجاته منه بقوله تعالى : « وان يونس لمن المرسلين . اذ أبق الى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا أنه كان من المسبحين . للبث في بطنه الى يوم يبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرة من يقطين . وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم الى حين » . (٣٧ : ١٣٩ ــ ١٤٨) .

(٣١٣٦) يشير هذا البيت الى قوله تعالى : « فلولا أنه كان من المسبحين . للبث في بطنه الى يوم يبعثون » . (٣٧ : ١٤٣ ــ ١٤٤) .

(٣١٣٧) قول الشاعر : « فماذا يكون التسبيح ؟ انه آية يوم (ألست) » يعني أن التسبيح الحق هو ذلك المنبثق من ايمان الروح بالخالق ، من قبل أن يخلق العالم . ويوم « ألست » يقصد به ما جاء في قوله تعالى : « واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » . (٧ : ١٧٢) .

(٣١٣٨) « ان كانت روحك قد نسيت تسبيحها الذى عرفته قبل خلق هذا العالم ، فاستمع الى تسبيح أهل الكمال ، فانه يذكرك بما كانت روحك قد عرفته » . والحيتان هنا رمز للعارفين ، وكثيرا ما يشبههم جلال الدين بالحيتان ، كما يشبه عالم الروح بالبحر .

(٣١٣٩) قول الشاعر : « وكل من شهد هذا البحر فهو ذلك الحوت » ، يعني كل من شهد بحر الروح فهو صوفى عارف .

(٣١٤٠) بدأ الشاعر هنا يستخدم البحر والحوت للتصوير البيانى ، وليس للرمز ، كما فعل في البيتين السابقين .

(٣١٤١) الروح قد انطوى في الجسد ، كما انطوى يونس في جوف الحوت . ولـولا تسبيح الروح لقضى عليـه الجسد ، ومحا وجوده ، فالتسبيح هو الذى يمكن الروح من أن يطرح عنه أغـلال الجسد ، كما استطاع يونس بالتسبيح أن يخلص نفسه مـن جوف الحوت . (انظر : سورة الصافات ، ٣٧ : ١٤٣ ــ ١٤٤) .

(٣١٤٢) هذه الدنيـا لا تخلو من صوفية عارفين ، ولكن أهل الحس ، الغارقين في اللذات ، لا ينتبهون الى هؤلاء .

(٣١٤٣) ليس احتجاب العارفين عن أهل الحس ناشئا مـن حرص هؤلاء على الابتعاد عنهم ، بل الحقيقة أن العارفين كثيرا ما يسعـون الى ارشاد أهل الحس ، لكن هؤلاء لا يفطنون الى هذا السعى الكريم .

(٣١٤٤) ان كنت قد اخفقت في ملاقاة الرجال العارفين ، فلا بد أن أذنك قد استمعت الى تسبيحهم .

(٣١٤٥) يكثر الصوفية من الثناء علـى الصبر . ويروون في الصبر أقوالا كثيرة ، منها قول على بن أبى طالب : « الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد » . والصبر ــ عند الصوفية ــ محمود في كل المواقف، الا الصبر عن الله ، ومن ذلك قول الشاعر :

الصبر يجمل في المواقف كلها ... الا عليك فانه لا يجمل

(انظر : رسالة القشيرى ، باب الصبر ، ٨٤ ــ ٨٧) .

(٣١٤٧) « الصبر » هو الطريق الموصل الى السعادة . انه كالصراط الذى يعبره المؤمن الى الجنة .

(٣١٤٩) جكل Chegel بلدة وراء نهـر سيحون من بـلاد تركـستان (ياقوت : معجم البلدان) . وقد اشتهرت هذه البلدة بجمـال نسائها . وقد ذكر جلال الدين هذا المعنى مرارا في شعره . قـال في ديوان شمس تبريز .

كـفت له ايـن خانه دل برهمه نقشست جرا
كـفتم كين عكس تواست اى رخ توشمع جكـل
(قال : لماذا قد حفل منزل القلب هذا بالصور
قلت ان هذه خيالات محياك يا من وجهك شمع جكـل) .

والمراد بالصبر هنا الصبر عن الجمال الأسمى ، وهو ما لا تكـون للمحب العارف طاقة به .

(٣١٥٠) عاد الشاعر هنا الى استخدام الصبر بمعنى القوة على مقاومة البلاء ، ومعاناة الشدة . وهذا ما يكـون من الفضائل التـى يتحلى بها الرجال . ومثل هذا الصبر في مجاهدة الحياة يعتبر درجة أدنى من الصبر في مجاهدة النفس ، فهو أيضا يحتاج الـى قوة وجلد ، هما مـن صفات الصوفى العارف .

(٣١٥٤) هنـاك فرق بين رايـات ترفع للجهـاد ، ورايـات يرفعها المتسولـون ملتمسين كسر الخبز . وليست العبرة بالارتفـاع وانما هى بجوهر هذا الارتفاع .

(٣١٥٩) يشير البيت الى مثل الثعلب والطبل ، وهو من أمثال كليلة ودمنة ، ونصه كما يلى :

« زعموا أن ثعلبا أتى أجمة فيها طبل معلق على شجرة ، وكلما هبت الريح على قضبان تلك الشجرة حركتها فضربت الطبـل فسُمع له صوت عظيم باهر . فتوجه الثعلب نحوه لأجل ما سمع من عظيم صوته . فلما أتاه وجده ضخما ، فأيقن في نفسه بكثرة الشحم واللحم ، فعالجه حتى شقه . فلما رآه أجوف لا شيء فيه قال : لا أدرى لعـل أفشل الأشياء أجهرها صوتا وأعظمها جثة » . (كليلة ودمنة ، ١٣٢) .

أما قول الشاعر : « فيا من تشبه بضخامتك قوم عاد » ، فيشير الى ما اشتهر به هؤلاء من ضخامة الأجساد . وقد أخبر القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى : « واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في

الخلق بسطة » . (٧ : ٦٩) .

(٣١٦٣ ــ ٣١٧٥) نقل فروزانفر أصلا لهذه القصة عن « مقالات شمس » . انظر : مآخذ قصص وتمثيلات ، ٧٨ ــ ٧٩ .

(٣١٧٦ ــ ٣١٨٣) لهذه القصة أصل عربى جاء في عيون الأخبار لابن قتيبة .

قال : « مر رجل من العباد وعلى عنقه عصا في طرفيها زنبيلان قد كادا يحطمانه ، في أحدهما برّ وفي الآخر تراب . فقيل له : ما هذا ؟ قال : عدلت البرّ بهذا التراب لأنه كان قد أمالنى في أحد جانبى . فأخذ الرجل زنبيل التراب فقلبه ، وجعل البرّ نصفين في الزنبيلين ، وقال له : احمل الآن ، فحمله ، فلما رآه خفيفا قال : ما أعقلك من شيخ » . (فروزانفر : مآخذ قصص وتمثيلات ، ٧٩) .

(٣٢٠١) الصوفية لا يؤمنون بالفلسفة العقلية ، ويرون أنها لا توصل الى علم يقينى ، وأن حاصلها الشقاء والحيرة .

(٣٢٠٧) « الفكر الحق هو الذى يفتح طريقا للهداية الروحية » . أما « الملك » هنا فهو رمز للمرشد الكامل .

(٣٢٠٨) العارف يكون ملكا بذاته ، لا بخزائنه وجيشه .

(٣٢١٠) بدأ الشاعر هنا قصة صغيرة عن ابراهيم بن أدهم .. وقد وردت هذه القصة في تذكرة الأولياء للعطار (جـ ١ ، ص ١٥٥) . وترجمة القصة كما يلى :

« يروى أنه كان ذات يوم جالسا على شاطىء دجلة ، وكان يرقع خرقته الممزقة ، فوقعت ابرته في النهر . فسأله أحد الرجال : لقد تخليت عن مثل هذا الملك ، فماذا وجدت (عوضا عنه) . فأشار الى البحر ليرجع اليه ابرته . فخرجت من النهر ألف سمكة ، وقد أمسكت كل منها بابرة ذهبية في فمها . فقال ابراهيم : أريد ابرتى ! فخرجت سمكة صغيرة ضعيفة ، وقد أمسكت بفمها ابرته . فقال ابراهيم : هذا أهون شيء وجدته

لقـاء تركي ملك بلخ ، أما مـا سوى ذلـك فانك لن تدركـه » . انظر (فروزانفر : مآخذ قصص وتمثيلات ، ٨٠) ، (تعليقات نيكولسون) .

وقد روى السلمي أن ابراهيم بن أدهم كان ابن أحد ملوك خراسان، وأنه خرج ذات يوم الى الصيد ، وبينما هو يطـارد صيده هتف به هاتف دعاه الى ترك ما كان فيه ، فاستجاب له ، وتخلى عن جواده ومتاعه لأحد رعـاة أبيه ، وأخذ جبته الصوف فلبسها وتوجه الى مكة . (طبقـات الصوفية ، ٣٠) .

(٣٢٢١) « العميان » هنا رمز لمن حرموا نور البصيرة الروحية .

(٣٢٢٢) « المبصرون » هنا رمز للعارفين الذين أشرقت قلوبهم بنور العرفان .

(٣٢٣٠) ربما أتيح للمتعلق بعالم الظاهر أن يتلقى نفحة من الغيب . لكنه لا يكون مثل أهل العرفان الذين يطلعون على عالم الروح الخفى .

(٣٢٣١) « الحديقة » رمز لعالم الروح .

(٣٢٣٢) « ان لم تكن من السالكين الى حديقـة الروح ، فالتمس شيئا من المقدرة على تنسم شذاها ، وادفع عنك تلك الروابط الماديـة ، التى تحول بينك وبينها » .

(٣٢٣٤) قميص يوسف الذى ألقى علـى وجه يعقوب فارتد بصيرا رمز لنفحات الروح التى تنير ظلام الحس ، وتكشف سبيل الابصار الحق.

(٣٢٣٥) قول الرسول : « جعلت قرة عينى في الصلاة » يشير الـى ما كان يتلقاه في صلاته من نفحات روحية .

(٣٢٣٦) يقـول الغزالى ان المدركات الحسية تلتقى جميعا لتقـدم الصورة للحس المشترك ، فهو القوة التى تكوّن الصورة العامة مما تتلقاه الحواس المختلفة . « تلك القوة مجمـع المتماثلات والمختلفات فسميناها الحس المشترك ، اذ لا تكون النفس مدركة الا بهـذه القوة ، وسميناها اللوح اذ لا تجتمع المحسوسات الا في هذه القوة ، وليس لها الا الادراك

فقط » . (الغزالى : معارج القدس ، ٤٧ ــ ٤٨) .

وجلال الدين يرى ارتباط الحواس بعضها بالبعض الآخر لأنها جميعا تنبع من أصل واحد . وسياق الأبيات يبين ان جلال الدين يرى أنه لو تخطت احدى الحواس نطاق حسيتها الى ما وراء الحس ، فان ذلك يقود الحواس الأخرى الى تخطى نطاق الحس .

(٣٢٤٠) « ان انطلاق احدى الحواس من قيد المادة ، واستنارتها بالاحساس الروحى ، يعين بقية الحواس على تحقيق استنارة مماثلة » .

(٣٢٤٢) الشاعر يشبه الحواس بقطيع من الخراف ، فلو أن واحدا من القطيع قفز من فوق القناة الى الجانب الآخر تبعته بقية الخراف . والقناة هنا رمز للحد الفاصل بين عالم الادراك الحسى ، وعالم الادراك الروحى .

(٣٢٤٣) ان حواسك ــ التي تشبه الخراف في حسيتها ــ غافلة عن ذلك المرعى ، وهو عالم الروح الكامن وراء عالم الحس . فسق هذه الخراف الى ذلك المرعى حتى تنعم هناك بغذاء يختلف عما عهدته في عالم الحس .

(٣٢٤٥) لو اطلع كل حس من حواسك على عالم الروح ، أصبح بمثابة النبى الذى يقود حواس الآخرين الى ذلك العالم ، كما يقود النبى أتباعه الى الجنة .

(٣٢٤٦) عندما تصبح الحواس كلها مطلعة على الأسرار، تزداد الحاجة الى التعبير عنها ، والاشارة اليها بالألفاظ والعبارات .

(٣٢٤٧) الحقيقة ــ حينما لا تكون مشهودة ــ تتقبل الكثير من التأويلات ، وتنشأ حولها الخيالات والأوهام .

(٣٢٤٨)حقيقة الشهود لا تتقبل أى تأويل ، ما دامت مبنية على العيان ، والمشاهدة .

(٣٢٤٩) من تجلى له الغيب ، وأصبح مرشدا لسواه الى ذلك

الشهود ، فقد تحقق له سلطان على الأفلاك .

(٣٢٥٠) الأفلاك وغيرها من مظاهر العالم المادى ليست سوى مظهر يخفى وراءه جوهر الحقيقة ، فمن ملك هـذا الجوهر ، فهو ـ نتيجة لذلك ـ مالك لما يحيط به من قشور .

(٣٢٥٣) الروح المشار اليه في هذا البيت هو الروح (الحيواني) . وقد عرفه الغزالى بقوله : « أما الروح فيطلق ، ويراد به البخار اللطيف الذى يصعد من منبع القلب ، ويتصاعد الى الدماغ بواسطة العروق ، ومن الدماغ يسرى بواسطة العروق أيضا الى جميع البدن ، فيعمل في كل موضع بحسب مزاجه واستعداده عملا ، وهو مركب الحياة ، فهذا البخار كالسراج ، والحياة التى قامت بـه كالضوء ، وكيفية تأثيره في البدن ككيفية تنوير السراج أجزاء البيت » . (معارج القدس ، ١٤) .

(٣٢٥٤) قول الشاعر : « فالحس أكثر سرعـة في سلوكه سبيل الروح » ، يعنى أن الحس أكثر استجابة لدواعى الحياة المتحركة ، وأوضح من العقل تعبيرا عنها .

(٣٢٥٦) الحركة لا قيمة لها في ذاتها ، فهى تظهر من الحيوان ومن الانسان ، ولكن العقل حين يخلع على الحركة اتزانا يجعل لها قيمة ذاتية . فهذا التغيير في قيمة الحركة شبيه بفعل الاكسير الذى يجعل المعدن الخسيس ذهبا .

(٣٢٥٨) « الروح الملهم » هو الروح الانسانى الكامل ، وهذا عند الصوفية أسمى بكثير من العقل . وهو ينتمى الى عالم أسمى من هـذا العالم . وادراك أسرار العقل أيسر من ادراك أسرار هذا الروح الملهم . يقول الغزالى : « هو الروح الانسانى المتحمل لأمانة الله ، المتحلى بالمعرفة ، المركوز فيه العلم بالفطرة بالتوحيد بقوله (بلى) ، فهو أصل الآدمى ، ونهاية الكائنات في عالم المعاد » . (معارج القدس ، ١٣ ـ ١٤)

(٣٢٥٩) كـان مـن الميسور لكل انسان أن يدرك مقدار عقل

الرسول ، أما ادراك أسرار روحه الملهم فهذا قد امتنع على كثير من الناس .

(٣٢٦٠) للروح الملهم أفعال متناسبة متزنة ولكن العقل يعجز عن ادراكها . ومن هنا كان عجز علماء الدنيا عن فهم الصوفية العارفين .

(٣٢٦١) لا سبيل للعقل الى فهم الروح الملهم ، الا اذا أصبح العقل ذاته روحا . ويبدأ ذلك بايمان العقل بسموّ هذا الروح ، وصدق الهامه . وبدون هذا الايمان تبدو تجليات الروح جنونا ، في نظر العقل .

(٣٢٦٢ ـ ٣٢٦٣) من أمثلة الصعوبة التي يلاقيها العقل في فهم الروح ما أبداه موسى من انكار لأعمال الخضر ، وذلك حين خرق السفينة وقتل الغلام . (انظر : سورة الكهف ، ١٨ : ٧١ ـ ٧٥) .

(٣٢٦٥) العلم التقليديّ يكون ذا رونق ورواء حينما يجد المشترى ، لأنه يقوم على التظاهر ، وطلب المنفعة .

(٣٢٦٦) العلم الروحى لا يخبو رونقه ، ولا يتأثر بالمنافع الموقوتة ، كالعلم التقليدى ، بل هو دائم الرونق ، لأنه من الهام الله ، ولا يراد به سوى وجه الله .

(٣٢٦٨) الملائكة كانوا هم المشترين لدرس العلم الالهى الذى تلقاه آدم عن خالقه . أما ابليس فلم يتقبل هذا العلم ، لأنه لم يكن أهلا لتلقيه .

(٣٢٦٩) اشارة الى قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم » . (٢ : ٣١ ـ ٣٣) .

(٣٢٧١) سبق للشاعر أن صور قصير النظر بأن له عقلا كعقل الفأر (البيت ٣٢٦٤) . وهو هنا يشير الى هذا البيت بقوله : « قد دعوته فأرا » . أما قول الشاعر : « لأن مقره التراب » فيعنى أن نفسه

غارقة في ماديتها ، لا تستطيع الخلاص منها .

(٣٢٧٦) انظر الآيات (١٦ : ١٥) ، (٧٨ : ٧) .

(٣٢٩١) قدرة الله هي التى ألقت في العين الحسية نور البصر ، وجعلت عظام الأذن قادرة على السمع .

(٣٢٩٤) قول الشاعر : « فان كنت لا ترى الماء بين الطين ... » يعني : « فان كنت لا تدرك وجود الروح في جسدك ، فما هذه الآثار الدالة عليها ، كما تدل الأعشاب السابحة فوق الماء على وجود الماء » .

(٣٢٩٥ ـ ٣٢٩٦) ان الصور المنعكسة على صفحة الفكر تدل على وجود عالم معنوى ، خارج العالم الحسي ، ينعكس على الفكر بصورة جميلة أو قبيحة ، على مقتضى ما تكون عليه نفس الانسان من جمال أو قبح .

(٣٢٩٧) الالهام الذى يقبل الى النفوس من عالم الغيب يقوم دليلا على وجود هذا العالم . والأرواح تحمل آثارا منه ، كما يحمل ماء النهر قشورا من ثمار بستان بعيد .

(٣٢٩٨) هذه اللمحات التى تقبل من عالم الغيب ليست الا ظلالا للحقيقة ، وعلى الانسان أن يبحث عن الحقيقة ذاتها . فقشور الثمار التى تسبح فوق صفحة النهر ليست هى الثمار ، وانما هى دليل على وجود تلك الثمار .

(٣٢٩٩) تحرك الأفكار والخواطر دليل على حياة الروح ، فهذه تحملها الى الفكر من عالم الغيب ، كما يحمل النهر قشور الثمار من بستان بعيد . وحركة القشور توضح حركة الماء .

(٣٣٠٢) اذا ازدادت قوة الروح لم يبق للجسد وجود الى جانبه .

(٣٣٠٩) في رأى الشافعى أن الماء اذا بلغ قلتين لا تقدر القطرة من النجاسة على أن تخرجه عن طهارته . (انظر : المنهج القوى ، ٢ ، ٦٢١ ، وكذلك تعليقات نيكولسون) . وفي هذا تعبير رمزى عما يبلغه العارف من طهارة روحية لا ينتقص منها ما قد يبدو عليه من ظاهر على خلاف ذلك .

(٣٣١٠) انظر : المثنوي ، ١ ، البيت ٥٤٧ وشرحه .

(٣٣١١) الأدلة العقلية والبراهين الجدلية من مطالب النفس ، أما الروح فمستقرها عين الحقيقة .

(٣٣١٢ ـ ٣٣١٣) السالك في البيداء هو الذى يكون بحاجة الى الدليل ، لأنه يكون في كل لحظة عرضة للضلال ، أما الواصل فلا حاجة به الى عناء البحث ، وحسبه نعمة الشهود .

(٣٣١٤ ـ ٣٣١٥) لو أن أحد العارفين لجأ الى بسط الأدلة الجدلية ، فهو يفعل ذلك ليفهم من لم تتح له نعمة الشهود ، فكأنما هو أب يصطنع أصوات الطفولة لوليده الجديد .

(٣٣٢٠ ـ ٣٣٢١) الذنوب والنقائص الانسانية كلها فانية ، فهى تنتهى بانتهاء صاحبها ، أما نور العارف فهو نور خالد ، لأنه مستمد من نور الله .

(٣٣٢٢ ـ ٣٣٢٣) ايمان العارف مستمد من عرفانه بجوهر الحقيقة ، وليس حاله كحال العوام في ايمانهم أو كفرهم ، فهم يتعلقون بأمور نسبية لا تقاس بجوهر الحقيقة ، بل إنها هى التي تحجب الحقيقة.

(٣٣٢٤) رأس الجسد ـ بما ينطوى عليه من غرور ، وإنكار لعالم الروح ـ كافر منكر .

(٣٣٢٥) الكافر المنكر هو الغافل عن حقيقة ايمان العارف . فما دامت هذه الحقيقة منبثقة من محبة الخالق والفناء فيه ، فهى أسمى درجات التوحيد .

(٣٣٢٦) بقاء الروح ـ بعد تحققها بالفناء ـ ليس سوى خبر يروى ، بالنسبة لغير العارف . فاذا ما عانى المرء هذه التجربة قويت روحه ، وتأصل عرفانه .

(٣٣٣٠ ـ ٣٣٣١) انظر : المثنوي ، ١ : ١٢٣٤ ، ٢٦٥٩ ـ ٢٦٦٣ ، والشرح .

(٣٣٤٠) الشاعر في هذا البيت يسفه الذين يسيئون الى الشيوخ العارفين ، ويضمرون لهم الحسد والبغضاء ، في حين أن هؤلاء المسيئين لا يحسنون غسل وجوههم .

(٣٣٤١) قول الشاعر : « انك تشن غارة على الملائكة » ، يعنى أن المسيء الى العارف الكامل يسيء الى الملائكة الذين عرفوا لهذا العارف قدره ، وسجدوا له ، حينما شهدوا صفاته في شخص آدم .

(٣٣٤٤) اذا تأبى المتعلق بالحس على المرشد العارف ، فلم ينتفع بارشاده ، فذلك لا يسيء الى عرفان العارف .

(٣٣٤٥ ـ ٣٣٤٩) يوازن الشاعر في هذه الأبيات بين المرشد العارف وبين عدوّه الحسى العنيد ، ثم يقدم للحاسد صورا تبين استحالة النيل من العارف أو انتقاص فضله وكماله .

(٣٣٥٠) من عاب الصوفى العارف ، ولم يطق مواجهته ، شبيه بخفاش يعيب الشمس ويطلب احتجابها .

(٣٣٥١) قول الشاعر : « والغيوب قد أضحت ـ بغيرتهم عليها ـ غيوبا » يعنى أن هؤلاء الصوفية يحرصون على اخفاء الأسرار الغيبية عمن لا يكونون أهلا لتلقيها .

(٣٣٥٥) الروح التى هبطت من عالمها الى هذا العالم الحسى ، ينبغى لها ألا تصبح غريقة عالم الحس . فالحمار ـ وهو من الحيوانات التي اشتهرت بالغباء ـ لو انزلق في الوحل فانه يتحرك على الدوام لكى ينهض من كبوته .

(٣٣٥٨) « ها أنت ذا تتأول رخصة لتعلقك بالمادة وحرصك عليها ، لأنك لا تريد أن تخلص قلبك من سلطانها » .

(٣٣٥٩) « انك تبرر تعلقك بالمادة ، فتدعى أنك مجبر على ذلك ، وأن الله لا يعاقب المجبر على عمل لا حيلة له فيه » .

(٣٣٦٠) من اقترف الاثم وحسب أن الله لن يأخذه باثمه فهو في

الحقيقة مغرور أعماه الغرور . وهذا العجز عن ابصار الخطأ هو في ذاته عقوبة الهية . يقـول ابن الجوزى في هـذا المعنى : « واياكم والاغترار بحلمه وكرمه فكم استدرج » . (صيد الخاطر ، ص ١٣٣) .

(٣٣٦١ ــ ٣٣٦٣) اشتهر الضبع عند العرب بالحمق ، حتى ضربوا به المثل ، فقالوا : « أحمقُ من الضبع » .

يقول الدميرى : « الضبع أحمق الحيوان ... ومن حمقه أنه يغفل عما يجب التيقظ له . ولذلك قال على بن أبى طالب : لا أكون كالضبع تسمع اللدم فتخرج حتى تصاد ، واللدم الضرب الخفيف .... والصيـاد اذا أراد أن يصيدها رمى في جحرها بحجـر ، فتحسبه شيئـا تصيـده فتخرج لتأخذه فتصاد عند ذلك » .

وذكر الدميرى كلاما يقال على باب جحرها ، « فلا يزال يقال لها حتى يدخل عليها الصائد فيربط يديها ورجليها ، ثـم يجرها » . (حياة الحيـوان ، جـ ١ ، ص ٣٦٥ ، جـ ٢ ، ص ٨٢) . وذكر النويرى كـلاما شبيها بهذا عن الضبـع . (انظر : نهـاية الأرب ، جـ٩ ، ٢٧٤ ــ ٢٧٦ ، « ذكر ما قيل في الضبع ») . والنويرى يستبعد ما يقال عـن استسلام الضبع لصائديه فيقول : « وهذا القـول ــ فيما أظن ــ مـن خرافات العرب » .

(٣٣٦٤ ــ ٣٣٦٩) أوردت المصادر العربية قصة شبيهـة بمـا رواه الشاعر في هذه الأبيات .

انظر : (حليـة الأوليـاء ، ١٠ : ١٦٨) ، (محاضرات الأدباء ، ٢ : ٢٧٧) . وقد نقلها عنهما فروزانفر . (مآخذ قصص ، ٨٠) . ونص هذه القصة كما يلى : « قيل : وكان في بني اسرائيل حبر قال في دعائه : يـا رب . كم أعصيك وأنت لا تعاقبنى ! فأوحى الله تعالى الى نبـى ذلـك الزمان ، قل لعبدى : كم أعاقبك ولا تدرى ، أسلبك حلاوة مناجاتى » .

(٣٣٧٠) « ان الآثام الكثيرة التى ارتكبتها قد جعلت باطنك أسود ،

فلم تعد لديك قدرة على معرفة الخير من الشر » .

(٣٣٧١) قلب الانسان كالمرآة ، والآثام التي يرتكبها شبيهة بالصدأ . فكلما ازداد ارتكاب الآثام ، زادت ظلمة القلب ، فيصبح كالمرآة التي تراكمت فوقها طبقات من الصدأ .

(٣٣٧٢) من كان نقي القلب ، أحس بوقوعه في أدنى خطأ . فالقدر الجديدة يظهر أثر الدخان فوقها ، مهما قل هذا الدخان .

(٣٣٧٣) الأثم يكون غريبا على القلب النقي ، فسرعان ما يتكشف لهذا القلب قبحه ، كما تتميز الأشياء بضدها ، أو كما يتضح السواد فوق البياض .

(٣٣٧٤) اذا أصبح القلب أسود لفرط ما ران عليه من الاثم ، فكيف يتضح فيه ما يغشاه من اثم جديد ؟ انه يكون كالقدر السوداء ، لا يظهر فوقها أثر الدخان .

(٣٣٧٥) « الحداد الزنجي » رمز للقلب الأسود . فهذا الحداد الأسود الوجه لا يبين في وجهه أثر الدخان . وهكذا القلب المظلم بأخطائه وآثامه .

(٣٣٧٦) « الحداد الرومي » رمز للقلب النقي . فمثل هذا يتبين له أثر الدخان في وجهه .

(٣٣٩٤) انظر شرح الأبيات ٣٣٦٤ ــ ٣٣٦٧ .

(٣٤١٦) قال تعالى : « انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم » . (٢ : ١٧٣) . وانظر أيضا : (٦ : ١٤٥) ، (١٦ : ١١٥) .

(٣٤٣٠) العارف لو تذوق متاع الدنيا فانه يتقوى به على التأمل الروحي ، على حين أن الرجل الحسي يتذوق الشهد فينقلب في كيانه سما ، لأنه يزيد من حرصه على الشهوات ، ومتع الحس .

(٣٤٣٢ ــ ٣٤٣٣) في البيتين اشارة الى قصة أصحاب الفيل الذين

أرادوا هدم الكعبة فأهلكهم الله . قال تعالى : « وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول » . (١٠٥ : ٣ ـ ٥) .

(٣٤٣٦) يبدأ الشاعر هنا حكاية ترمز الى أن المريد لا يليق به أن يجترىء على العارف . وهذه الحكاية مرتبطة بالبيت السابق (رقم ٣٤٣٥).

(٣٤٥٣) « ما دمت لست من العارفين فلا بد لك من السير في طريقهم ، وبذل الجهد ، لعلك تصبح واحدا منهم ، فتخلص من بئر الشهوات الى حيث يتحقق لك الجاه والمجد » .

(٣٤٥٤) « ما دمت لم تصل بعد الى مقام العارفين فلا بد لك من مرشد » .

(٣٤٥٦) السالك بحاجة الى الانصات لكي يتعلم . وقد أمر الله بالانصات في قوله تعالى : « واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » . (٧ : ٢٠٤) .

(٣٤٦٤) من كانت روحه مفعمة بالكمال ، لم يكن للجاه الدنيوى قيمة عنده ، ولا أثر عليه . أما المتعلق بالحس فالرياسة تدفعه الى الغرور والتعالى وتزيد نفسه قبحا .

وفي هذا البيت هدم لمبدأ اعتزال الحياة ، والانصراف عن الدنيا ، وهو ما قال به بعض الصوفية الذين يصرون على مواجهة هذا العالم بموقف سلبى .

(٣٤٦٥) في اعتقادى أن « الجبل المليء بالثعابين » يرمز هنا للحياة الدنيوية الحافلة بالمغريات . فالشاعر يدعو الانسان الى مواجهة هذه الحياة بقوة ، وعليه ألا يخافها ما دام في الامكان أن تنطوى هذه الحياة على مضمون روحى ، يحول بين الانسان وبين المهلكات الحسية ، من لذات وشهوات .

(٣٤٦٦) قول الشاعر : «فاذا ما أصبحت الرئاسة نديما لدماغك...»

يعنى : « فاذا ما تولاك الغرور من جراء جاهك وسلطانك ... » .

(٣٤٦٧ - ٣٤٦٩) يصور الشاعر هنا موقف العناد الذى يقفه بعض الأفراد من آراء المخالفين ، وكيف أنهم يتصورون أن كل مخالفة لآرائهم انما هى محاولة للقضاء على كيانهم الذاتى . وهـذا - في نظر الشاعر - ينشأ من رسوخ الأخلاق السيئة في نفس صاحبها .

(٣٤٧١) ينشأ الانسان وعنده قدر محدود من الشهوة . لكن بعض الناس يترك لشهواته مجال النموّ حتى تتحكم فيه . « ان الشهوة تكون - في بداية أمرها - نملة ، لكنها سرعان ما تعظم ، وتصير مثل الثعبان » .

(٣٤٧٣ - ٣٤٧٤) أسير الشهوات لا يفطن الى ما يعانيـه من اسار الشهوة ، ولا بد له من مرشد يعينه على ادراك حقيقة حاله . وحين يتحقق لمثل هذا خلاص من سيطرة اللذات الحسية ، فانـه يتسنى له اذ ذاك أن يدرك ما كانت عليه نفسه من سوء الحال .

(٣٤٧٥) لكى تتحول النفس الخسيسة المعدن ، الـى نفس كريمـة المعدن ، لا بد لها من الصبر على مشقة هذا التحول . فالنحاس لا بد لـه من الصبر على الاكسير . والقلب لا بد له من الصبر على ما يفرضه عليه من تَملكه .

(٣٤٧٦) قول الشاعر : « وان هؤلاء ليهربـون من الدنيا كالنهـار والليل » يعنى : « أن الصوفية العارفين يهربون من سلطان الدنيا كالنهار والليل ، اللذين يمران بها ، ويعملان عملهما ، ومع ذلك لا يستقران فيها ، ولا يخضعان لسلطانها » .

(٣٤٧٨ - ٣٤٩٥) يروى الشاعر في هذه الأبيات حكاية عن كرامات فقير اتهم بالسرقة . وكرامات الأولياء كانت موضوعا لحكايات كثيرة تملأ كتب التصوف ، وبخاصة تلك التى تهتم بتراجم الصوفية .

والقصة المذكورة هنا وردت في مصادر متعددة ، وأشار اليهـا فروزانفر ، كما نقل نصا فارسيا لها من « كشف المحجوب » للهجويرى .

(انظر : مآخذ قصص وتمثيلات ، ٨١ ـ ٨٢) . وفيما يلـي ترجمة لنص كشف المحجوب :

« وبلغت منزلته (مالك بن دينار) أنه كـان ذات يوم راكبـا فى سفينة ، وكـان أن فقدت جوهرة في هذه السفينة ، فاتهموه بأنـه أخذها لأنه بدا أقل القوم حظا من ظهور الحـال ، فرفع رأسه الى السماء ، وفي الحال صعد الى سطح الماء كل ما كان في البحر من الأسماك ، وقد أمسكت كل سمكة بجوهرة في فمها . فأخذ جوهرة مـن جملة هـذه الجواهر ، وأعطاها للرجل ، ثم وضع قدمه فوق الماء ، وسار فوقه برفق حتى خرج الى الساحل » .

(٣٤٧٨) قول الشاعر : « وقد اتخذ لنفسه من بضـاعة الرجـولة ظهيرا » ، يعنى أن ذلك الصوفى لم يكن يمتلك بضاعة كغيره من الناس ، اذ لم تكن له بضاعة سوى الرجولة والشرف .

(٣٥٠٠) قول الشاعر : « ان النفس سوفسطائية ... » يعنى أنها تميل الى المغالطة ، والمجادلة بالباطل .

(٣٥٠٣) الشهود الروحى لا يتسنى الا لعين طهرت من أهواء الحس.

(٣٥٠٤) الشهود الروحى يتسامى فوق ملكات الحس. فهو كالطاووس، لا يستقر في حفرة ضيقة . واستخدام « الطاووس » هنا رمزا للشهـود الروحى يشير الى ما ينطوى عليه هذا الشهود من الجمال والبهجة .

(٣٥١٢ ـ ٣٥١٣) الأخـلاط في جسد الانسان أربعـة ، هى المرة السوداء ، وهى مسكن اليبوسة ، والمرة الصفراء وفيها الحرارة ، والدم وفيه الرطوبة ، والبلغم وفيـه البرودة . « فأيما جسد اعتدلت فيه هـذه الأربعة الأخلاط ... وكانت كل واحدة منهن ربعا لا تزيـد ولا تنقص ، كملت صحته واعتدلت بنيتـه . وان زادت واحـدة منهن عـلى أخواتها وقهرتهن ومالت بهن ، دخل السقم على الجسد من ناحيتها ، بقدر ما زادت. واذا كانت ناقصة ضعفت طاقتها عن مقاومتهن فغلبنها ، ودخل السقم على

الجسد من نواحيهن بقدر قلتها عنهن ، وضعف طاقتها عن مقاومتهن » . (رسائل اخوان الصفا ، ١ : ٣٠٠) .

وكان يعتقد أن هذه الأخلاط ذات تأثير على أخلاق الانسان ، « فان مالت به اليبوسة وأفرطت ، كانت عزمته قساوة وفظاظة ، وان مالت بـه الرطوبة ، كان لينه توانيا ومهانة ، وان مالت به الحرارة ، كانت حدتـه طيشا وسفاهة ، وان مالت به البرودة ، كـانت أناته ريثا وبلادة ، وان اعتدلت وكن سواء ، اعتدلت أخلاقه واستقام أمره ، وكان عازما في أناته ، لينا في عزمه ، هادئا في لينه ، متأنيا في حدته ، لا يغلبه خلق من أخلاقـه ، ولا تميل به طبيعةمنأخلاطه عـن المقدار المعتدل » . (المصدر السابق ، ١ : ٣٠١) .

(٣٥١٥ ــ ٣٥١٦) في البيتين اشارة الى قصة موسى والعبد الصالح الذى ذكر المفسرون أنه الخضر . وقد وردت هذه القصة في القرآن الكريم (١٨ : ٦٥ ــ ٨٢) . وكـان افراط موسى في سؤال الخضر سببا في أن الخضر تخلى عـن صحبة موسى . انظر أيضا : المثنوى ، ج ١ ، ٢٩٦٩ ، ٢٩٧١ وشرحهما) .

(٣٥١٧ ــ ٣٥١٨) « موسى » هنا رمز للمريد . والمرشد يدعوه الى الصمت ، حتى لا يضطر الى الابتعاد عنه ، كما اضطر الخضر الى مفارقة موسى .

(٣٥٢٢) أهل الغفلة يكونون بحاجة الى مـن يحميهم . ويكـون حاميهم أحد الذين تحققت لهم يقظة روحية . أما الصوفية العارفون فهؤلاء قد تحقق لهم الأمان ، بعد وصولهم الى عالمهم الروحى ، ولم تعد بهم حاجة الى حارس .

(٣٥٢٣) « ان الذين يتطلعون الى حيـاة الحس هم بحاجة الى من يصونهم عن الضلال . فالجسد كالثوب ، يكـون بحاجة الى من ينظفه . أما الروح الذى تحرر من سلطان الجسد ، فيكـون ذا رونق حين يتعرى

من رداء البدن .

(٣٥٢٤) من أراد صحبة العارفين فليكن مثلهم متحررا من رداء البدن . ومعنى « التحرر من رداء البدن » أن يكون الروح هو المسيطر على الانسان ، المتحكم في أفعاله .

(٣٥٢٥) « ان لم تستطع أن تسيطر على البدن سيطرة كاملة فعليك أن تبذل جهدك حتى لا يطغى على روحك ، وليكن لك موقف وسط بين الروح والبدن » .

(٣٥٢٧ ــ ٣٥٢٨) أنظر : سورة الكهف ، ١٨ : ٦٥ ــ ٨٢ .

(٣٥٣٠) كان هذا الدرويش من أهل الكمال ، وهؤلاء ــ في رأى الصوفية ــ يظهرون في كل زمان . والقائلون بوحدة الوجود يرون أن أهل الكمال مرتبطون بالحقيقة المحمدية . (انظر : الجيلى : الانسان الكامل ، جـ ٢ ، ٥٠) .

(٣٥٤٥) في البيت اشارة الى قوله تعالى « ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم » . (٣١ : ٢٧) .

(٣٥٤٧) يرد الدرويش هنا على ما اتهمه به أصحابه من شدة استغراقه في النوم . (البيت ٣٥١٠) .

(٣٥٥٠) بدأ الدرويش ــ في هذا البيت ــ يسفه رأى من اتهمه بطول استغراقه في النوم . ويوالى الدرويش الدفاع عن نفسه في الأبيات التالية .

(٣٥٥١) « حس القلب » هو الحس الكونى الذى يشهد به العارف ما لا تشهده الحواس .

(٣٥٥٢) « لقد خدعك ظاهرى فلم تفطن الى حقيقة حالى . لقد نظرت الى من خلال ضعفك ، فظننتنى على شاكلتك ، في حين أن ما يخفى عليك من الأمور ، يبدو أمامي واضحا كالضحى » .

(٣٥٥٤) « انك مقيد بقيود الحس وأغلاله ، وأما أنا فقد أصبح الحس عندى مشرقا بنور الروح . وأنت من حياتك المادية في هم مقيم ، على حين أننى في فرحة وهناء » .

(٣٥٥٥) ان العارف يقيم مع أهل الغفلة في مكان واحد ، لكنه كثيرا ما تنطلق روحه من اسار الحس فتبلغ السماء السابعة .

(٣٥٥٦) مهما تجاور العارف والغافل ، فان تجاورهما لا يعنى أنهما في منزلة واحدة . فالعارف يجاور الغافل بجسده ، على حين أن روحه تحلق في سمائها التى لا يرقى اليها فكر الغافل .

(٣٥٥٨) الأفكار تكون رهن ارادة العارف يتحكم فيها كما يتحكم البانى في البناء . أما الغافل فالأفكار تسيطر عليه وتحكمه .

(٣٥٦٢) ربما ينزل الرجل العارف الى مستوى ضعاف الناس ، ذوى الطاقة الروحية الواهية ، وذلك ليمكنهم من أن يأخذوا عنه الهداية ، ويقتبسوا منه العرفان .

(٣٥٦٣) في البيت اشارة الى قوله تعالى : « أو لم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن انه بكل شيء بصير » . (٦٧ : ١٩) .

فالعارف يذكر هنا مقدرته على الانطلاق الى الآفاق العالية .

(٣٥٦٤) « ان قدرتى على الانطلاق نابعة من الذات التى صفت ، والروح الملهم ، وليس أساسها علما زائفا ولا وهما باطلا » .

(٣٥٦٥) يطلق لقب جعفر الطيار على جعفر بن أبى طالب ، وهو ابن عم الرسول الذى استشهد في غزوة مؤتة ، وقد قام بها المسلمون عام ٨ هـ = ٦٢٩ م . وكانت موجهة الى الروم . قال ابن هشام : « وحدثنى من أثق به من أهل العلم : أن جعفر بن أبى طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل رضى الله عنه وهو ابن ثلاث وستين سنة ، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير

بهما حيث شاء » . (سيرة ابن هشام ، جـ٤ ، ٢٠) . أما جعفر الطيار فهو من يتسمى بجعفر ، برغم أنه يكون نقيض جعفر بن أبى طالب، في ايمانه وصدقه.

(٣٥٦٦) من لم يجرب ذوق الروح يجد أن هذا الكلام مجرد دعوى أما من ذاق لذة الشهود فهو وحده يدرك معناه .

(٣٥٦٧) يُعرف الغراب عند العرب بأنه من أخس الطيور . قال الجاحظ : « قال صاحب منطق الطير : الغراب من لئام الطير وليس من كرامها ولا من أحرارها ، ومن شأنه أكل الجيف والقمامات ». (الدميرى : حياة الحيوان ، جـ ٢ ، ١٧٣) .

وقد اتخذ الشاعر الغراب رمزا للجاهل الخبيث النفس ، المتعلق بالحس .

أما الذباب فهو رمز لقصير النظر الذى يعجز عن ادراك معنى الابصار الروحى ، كما تعجز الذبابة عن ادراك حقيقة المرئيات . (انظر : المثنوى ، ١ ، ١٠٨٢ — ١٠٩٠) .

(٣٥٦٨) اذا كان الغذاء الحسيّ يزيد من قوتك وطاقتك الروحية فلا ضير منه . فالعارف الحق يأكل ليعيش ، ويحيى حياة روحية ، متحررة من سلطان الحس . والأكل في هذه الحال لا يُطلب لذاته ، وانما لأثره في تقوية الانسان . يقول الغزالى : « اعلم أن طيب المطعم له خاصية عظيمة في تصفية القلب وتنويره ، وتأكيد استعداده لقبول أنوار المعرفة » . (الأربعون في أصول الدين ، ٦٣) .

(٣٥٦٩ — ٣٥٧٠) يروى الشاعر هنا معجزة لأحد الصوفية ، هى أنه تقيأ جوهرا أمام بعض من أساؤوا به الظن ، فكانت هذه كرامة ، اذ تحول الجوهر المعقول ، وهو جوهر العرفان ، الى جوهر محسوس أمام هؤلاء المنكرين . واعتقاد الصوفية بوقوع الكرامات يسمح بأمثال هذه القصة .

(٣٥٨٨) قول الشاعر : « أصغ اليه ، واجعله قرطا في أذنك » ، يعنى : « أصغ اليه ، وأحسن الاصغاء حتى يستقر الكلام في أذنك ، كأنه

قرط معلق بها » .

(٣٥٨٩) قول الشاعر : « يكــون هذا الكلام ــ بالنسبة اليــك ــ معجزة جديدة ، وذهبا قديما » ، يعنى أن هذا الكلام الذى سبق لك أن سمعته في نومك تسمعه في يقظتك ، فيبدو لك معجزة جديــدة ، وذهبا قديما ، لا يذهب القدم بقيمته ، بل يبقى كما هو معدنا نفيسا . فما تلقيته في منامك مــن حديث روحى لا يذهب بقيمتــه التكرار ، كما هو شأن الحديث المعاد .

(٣٦٠١) الروح الغريبة في عــالم الحس تسمع صوت النبى الذى يكون في هذا العالم مغتربا عن عالمه الروحى ، فيكون ما تسمعه الروح من النبى مقربا لها من خالقها . وفي البيت اشارة الى قوله تعالى : « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان » . (٢ : ١٨٦).

(٣٦٠٢ ــ ٣٦٠٦) يروى الشاعر هنا حكاية لها أصولها العربية عن يحيى والمسيح . وقد أورد الثعلبى هذه الحكاية على الوجه التالى :

« يحيى أول من آمن بعيسى وصدقه ، وذلك أن أمــه كانت حاملة به ، فاستقبلتها مريم وقد حملت بعيسى ، فقالت لها أم يحيى : يا مريم ! أحامل أنت ؟ فقالت : لماذا تقولين هذا ؟ قالت : انى أرى ما في بطنى يسجد لما في بطنك ، فذلك تصديقه له ، وايمانه به » . (قصص الأنبياء ، ٤٢٣). انظر أيضا : (فروزانفر ، مآخذ قصص ، ٨٢) ، (تعليقات نيكولسون) .

(٣٦١٧) يبدأ الشاعر هنا اشارات الــى بعض قصص كليلة ودمنة . ويشير الشاعر في هذا البيت والأبيات الثلاثة التى تليه الى قصة « الأسد والثور » .

(٣٦٢٠) قول الشاعر : « وكيف صار الفيل وجلا من خيال القمر » يشير الى قصة « الأرنب وملك الفيلة » . (كليلة ودمنة ، الباب الثامن ، ص ٢٧٢ . طبعة دار الحياة ، بيروت) .

(٣٦٢٤) شعراء الغزل مــن الفرس كثيرا ما يتغنــون بحب البلبل

للوردة ، ويديرون بينهما الحوار في غزلياتهم . ومن أشهر من فعل ذلك حافظ الشيرازي .

(٣٦٧١) جوهر المعرفة الروحية واحد مهما اختلفت تجلياته وآثاره .

(٣٦٧٧) الأسماء المتعددة تشتت الفكر وتصرفه عن ادراك جوهر الصفات .

(٣٦٨٧) « الرجل المتعدد اللغات » هو العارف القادر على ادراك الجوهر الواحد ، الكامن وراء اختلاف الألفاظ والأسماء .

(٣٦٩٥ ــ ٣٦٩٦) نقل ابن البيطار عن الرازي أنه قال : « الخل بارد مطفيء ، ويطفيء حرق النار أسرع من كل شيء » . (مفردات ، ج ١ ، ٦٦) . و « الخل » هنا رمز الى العلم التقليدى ، وهذا يكون بدون حرارة مهما اتخذ طابع الاخلاص .

(٣٦٩٧) « الدبس » رمز للعرفان الروحي ، فهو الذى ينطوى على حرارة حقيقية ، مهما ظهر على خلاف ذلك .

(٣٧٠٥) من سعى وراء المادة أهلكه مسعاه ، وأما من سلك سبيل الروح ظفر بالروح والمادة معا .

(٣٧٠٧ ــ ٣٧٠٨) « في زماننا هذا ــ وفي كل زمان ــ عارف روحي يقر الوئام بين النفوس المتصارعة ، لو أنها استمعت اليه ، وآمنت بجوهر عرفانه » .

(٣٧١٦) في البيت اشارة الى قوله تعالى : « انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم » . (٤٩ : ١٠) .

(٣٧١٨) « العنب الناضج » رمز للمؤمن ، وأما « العنب الفجّ » فهو رمز للكافر .

(٣٧٢٥) النضج الروحي يؤدى الى التحرر من الأنانية الذاتية ، ويمهد سبيل الوحدة بين الناس .

(٣٧٢٧) المحبة الالهية هى وحدها السبيل التى تجمع بين البشر في

وجود حقيقي واحد .

(٣٧٢٩) الوحدة التي يصنعها الله من الأرواح ليست شبيهة بخلق الأجساد من الماء والطين . فوحدة الجسد قابلة للتفكك ، كما يحدث عند الموت ، لكن اتحاد الأرواح لا يكون عرضة لذلك .

(٣٧٣١) في اعتقادي أن « سليمان » هنا رمز للمحبة الالهية التي توحد القلوب والأرواح . فالشاعر يقول ان هذه قريبة من الروح ، ومع ذلك نجد طلاب العلم التقليدي يتركون الحل القريب ، وينظرون الى أمور بعيدة معقدة ، تعميهم عن حقيقة أرواحهم ، وتصرفهم الى ألوان من البحث العقيم .

(٣٧٣٢) نظر الانسان الى ما بعد عنه يعميه عما هو قريب منه . يسعى الانسان الى معرفة الله بالعقل والأدلة العقلية ، مع أن القلب هو خير وسيلة لمعرفة الله ، وأقرب طريق اليه . فمن الناس من يترك السبيل القريب (سبيل القلب)، ويلجأ الى السبيل البعيد (سبيل العقل والأدلة العقلية). وهذه الغفلة عن القلب وجلاله وجماله شبيهة بغفلة انسان ينام في قصر ، فلا يشعر بما حوله من رونق وبهاء .

(٣٧٣٣) أوضح الشاعر هنا ما كان يقصده بالنظر الى البعيد . ويتجلى ذلك عنده في الولع بدقيق الكلام ، والتعشق لحل المشكلات الكلامية ، عن طريق الجدل والبحث النظري .

(٣٧٣٤ ـ ٣٧٣٥) هذا النظر العقلي ، المجرد من الشعور والاحساس الروحي ، يزيد الأمور تعقيدا ، ويزيد الانسان سعيا الى الايضاح ، فلا يكاد يدركه ، ويأخذ في وضع القواعد التي يظنها موصلة الى الحل المنشود ، فكأنما هو طائر يشغل نفسه بشباك تأسره ، يحل عقدها ، ثم يعود الى ربطها ، ظانا أنه بذلك يصبح مكتمل البراعة .

(٣٧٣٦ ـ ٣٧٣٧) من شغل نفسه بالجدل العقلي العقيم ، وحرم نفسه من جمال الروح ، وتأمل مباهجها ، شبيه بذلك الطائر الذي شغل

نفسه بحل عقــد الشباك ، واعادة ربطهــا ، فحرّم بذلك مــن الفياض والمروج ، وضاع عمره في معالجة العقد . فمثل هذا الطائر العنيد يتكسر جناحاه من معاناة العقد ، وهو في حقيقــة الأمر لا يصل الى شيء مــن مراده ، لأن الشباك تبقى موجودة برغم جهوده . وهكذا حال من أضاع حياته في الجدل والنظر الخاوي من الشعور ، فهو يعيش أسير الجدل ؛ ولا يتحقق له حل المعضلات .

(٣٧٣٨ ــ ٣٧٣٩) أقلل من هــذا الصراع الذى لا جدوى منــه ، واضاعة الجهد في أمور لا يتحقق مــن ورائها شيء سوى العنــاء . فهذا الصراع المرير ، المبنى على الحيلة والذكاء ، لم يق الانسان مما يخشاه من العوارض والمحذورات . ولقــد أقعده انشغاله بمثل هــذا الصراع عن التحليق في آفاق الروح الفساح .

(٣٧٤٠) ان الدهاء والحذر والعمل على مغالبة القضاء ، كلها لا تمكن المرء من الخلاص مما قدر له . ويستشهد الشاعر على ذلك بقوله تعالى : « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص » . (٥٠ : ٣٦) .

ومما هو جدير بالاتتبــاه هنا أن الشاعر لا يدعــو الى الاستسلام وترك الجهــد ، وانما هو يدعو الــى احساس الروح بسلطان الخالق ، وابتعاد الانسان عن الظن بأن في وسعه أن يصنع لنفسه شيئا لا يريده له الله . وهذا هو التوكل بمعناه الروحي ، الذى عبر عنه ابن عربى بقوله : « انه اعتماد القلب عــلى الله ، مــع عدم الاضطراب عنــد فقد الأسباب الموضوعة في العالم . (الفتوحات المكية ، ج ٢ ، ٢٦٤) .

(٣٧٤٣) « أيها المتنازعون المتصارعون كالطيور التى تصطرع علــى القوت . ليتكم استمعتم الى نداء الله بأرواحكم ، كما يستمع الباز الــى دعاء المليك حين يقرع له الطبل ، اذن لاستجبتم جميعا لهذا النداء ، وزال كل ما بينكم من أسباب الفرقة والصراع » .

(٣٧٤٦) غفلة الروح عـن المحبة الالهية تجعلها عمياء بعيـدة عـن النضج ، حالها كحال الطير التى غفلت عن معرفة سليمان .

(٣٧٤٧) الغفلة عن المحبة الالهية تجعل أصحابها علـى خلاف مـع العارفين . يعيش هؤلاء بأرواحهم في عالم الروح ، علـى حين أن الغافلين من أسارى الحس يتعلقون بعالم مآله الى الخراب . وهؤلاء الحسيون في عداوتهم للعارفين شبيهون بالبـوم التى تتعلـق بالخراب ، وتظهر العداء للبيزان المحلقة في آفاق السماء .

(٣٧٤٨) في هذا البيت ايضاح للرمز في الأبيات السابقة عليه .

(٣٧٤٩) جماعة العارفين الذيـن استناروا بالمحبة الالهيـة ، كيف يقترفون اساءة الى مخلوق ؟

(٣٧٥١) قصـة سليمـان وبلقيس والهدهد مذكـورة في القرآن الكريم . (سورة النمل ، ٢٧ : ٢٠ ــ ٢٣) . والهدهد هو الذى جاء الى سليمان بنبأ بلقيس .

وقد أصبح الهدهد رمزا للعارف في الشعر الصوفى . ويتجلى ذلك في الدور الذى أسنده اليـه الشاعر فريـد الدين العطار في منظومتـه الصوفية « منطق الطير » ، حيث جعله قائد الطير في بحثها عن العنقاء .

(٣٧٥٢) ان أدنى أهل العرفان منزلة ــ وهو من يكون بينهم كالغراب بين الطير ــ يكون بريئا من الزيغ والضلال .

(٣٧٥٥) من هؤلاء العارفين من هو سعيد كالبلبل في الحديقة ، لكن سعادته تكون مستمدة مـن حديقـة باطنه التى تفتحت فيهـا الورود . فحديثه المبتهج افصاح عن الباطن ، وليس انفعالا بالظاهر .

(٣٧٥٦) « الببغاء » في الشعر الصوفى كثيرا ما تستخدم رمزا لمعنى رفيـع ، هو الروح الذى أفنى ذاته في الخالـق ، فأصبح صدى للارادة الالهية ، يفصح عنهـا افصاحا أمينا ، كما تفعـل الببغاء بما تسمعه مـن الأصوات . والعارف الذى وصل الى تلك المكانة ينطلق في التعبير عـن

احساسه الباطنى ، بدون حاجة الى ما يغريه بذلك ، كما يكون من اغراء الببغاء بالسكر . فمثل ذلك الروح يكون مفعما باللذة والبهجة الخالدة .

(٣٧٥٧) سيقان الطواويس تعد مثالا للقبح . ومع ذلك فسيقان هذه الطواويس التى تنتمى الى العرفان ، أبهى من أجنحة طواويس الدنيا . ومعنى ذلك أن أدنى ما عند العارفين يفوق في بهائه أسمى ما عند أهل الحس .

(٣٧٥٨) منطق الطيور الدنيوية ليس الا صدى ومحاكاة ، أما منطق طيور سليمان فمن نوع فريد ، لأنه من الهام الله . و « الطيور الملكية » رمز للمدللين من أصحاب القول والبيان ، كشعراء المديح . أما « طيور سليمان » فرمز للعارفين .

(٣٧٥٩) أنى لك أن تعرف نداء الروح ، اذا كنت لم تنعم بلحظة واحدة من الأنس بالخالق .

(٣٧٦٠) ان العارف تتجاوز دعوته حدود المكان ، ولا تبقى أسيرة لمشرق ولا لمغرب . وأسمى لون من العرفان رسالات الأنبياء .

(٣٧٦١) مثل هذا العارف لا تحجبه آدميته عن الوصول الى الخالق . فهو بين الخلق ، وروحه مع الخالق ، في الوقت ذاته .

(٣٧٦٢) « سبيل سليمان » رمز لسبيل الله . وما دام سبيل الله هو الطريق الى النور واليقين ، فمن تخلى عن هذا الطريق فهو عاشق للكفر والجهل والضلال ، وهو في عشق الظلمة شبيه بالخفاش .

(٣٧٦٤) « لو خطوت نحو الله خطوة واحدة لغدا سلوكك هو السلوك المثالى الذى يقاس عليه » .

(٣٧٦٦ — ٣٧٨٧) في هذه الأبيات تمثيل رمزى للأصل الروحى للانسان ، والكيان المادى الذى يحجب عنه ادراك حقيقة هذا الأصل . وقد رمز الشاعر للعالم الروحي بالبحر ، ولعالم الدنيا بالبر . والانسان طائر بحرى ، تربى في البر فنسى أصله . والشاعر يدعو الانسان الى

التسامي الى أصله ، بعد التعرف على حقيقة ذاته .

(٣٧٦٧) « انك من أصل روحي ، لكن واقعك المادي يربطك بالمادة، ويجعلك متعلقا بها » .

(٣٧٦٨ ـ ٣٧٦٩) النزعة الروحية في الانسان مصدرها أصله الروحي . أما النزعة المادية فمصدرها ذلك العالم الحسيّ الذي غذاه وربى جسده .

(٣٧٧١) يريد « بالأم » هنا المربية ، وهي الأم الحسية ، التي تصرف الانسان عن التطلع الى أصله الروحي .

(٣٧٧٢) الانسان في حقيقته قادر على الوصول الى عالم الروح ، برغم ارتباطه الجسدي بعالم الحس .

(٣٧٧٣ ـ ٣٧٧٤) فسر الشاعر قوله تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر » (الاسراء ، ١٧ : ٧٠) ، على أنه رمز الى أن الله كرّم الانسان بأن جعله منتميا الى عالمي الروح والحس في وقت واحد.

(٣٧٧٥) الجمع بين الروح والحس هو السرّ في تفضيل الانسان على كل من الملائكة ، وهي كائنات روحية ، والحيوانات ، وهي كائنات حسية.

(٣٧٧٧ ـ ٣٧٧٨) الأنبياء والرسل هم المثل العليا للكمال الانساني : وهؤلاء يعيشون في الأرض بهيكل ترابيّ، وتدور أرواحهم في فلك روحي.

(٣٧٧٩) قال جلال الدين في ديوان شمس تبريز :

خلق جو مرغابيان زاده زدرياى جان

كى كند اينجا مقام مرغ كزين بحر خاست

(الخلق طيور مائية ، ولدت من بحر الروح ، فكيف يقيم هنا طائر انطلق من ذلك البحر) .

(٣٧٨٢) ان الله حاضر أمام الجميع ، لكن غيرته تحجب بصيرة من يتعلقون بسواه . فالله لا يتجلى الا لمن وهب القلب كله للخالق .

(٣٧٨٣ ـ ٣٧٨٦) الجهل والغفلة والفضول ، كلها صفات تصرف

الانسان عن الله ، وتجعله يغفل عـن لبع الوجود كلـه ، ويتعلق ببعض الأسباب ، غافلا عن مسبب الأسباب .

(٣٧٨٤) العقل الذى لا يستطيع أن يتخطى الظاهر المحسوس يبقى متعلقا بهذا الظاهر ، غافلا عما استتر وراءه من المعنى .

(٣٧٨٥) المتعلق بالحس لا يستطيع تصور لذة خارج العالم الحسي. ولهذا فان نفسه تبقى متعلقة بما يحيط به ، عاجزة عن التحرر منه .

(٣٧٨٨) بدأ الشاعر هنا رواية قصة زاهد رآه الحجاج في الصحراء ، يصلى غير عابىء بالقيظ ، فلما عجبوا من أمره وجدوا الماء يقطر من يديه . ولما سألوه عـن سرّ ذلك دعا ربه فأمطرت السماء مطرا غزيـرا ، وشرب الحجاج وملؤوا قـربهم . ومثل هذا النوع مـن الكرامات يرد في تراجم أقطاب الصوفية . ومن أمثلـة ذلك ما يُروى عـن ابراهيم بن أدهم في وصف انصرافه عن الدنيا . قال : « توجهت الى مكة ، فبينا أنا في البادية ، اذا برجل يسير ، وليس معه اناء ولا زاد ، فلما أمسى وصلى المغرب ، حرك شفتيه بكلام لم أفهمه ، فاذا أنا باناء فيه طعام ، واناء فيه شراب ، فأكلت وشربت ، وكنت معه على هذا أياما ، وعلمنى (اسم الله الأعظم) ثم غاب عني وبقيت وحدي[1] ... »

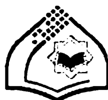
أما قول الشاعر : « وكان مستغرقا في العبادة كأهل عبادان » فيشير الى ما يروى عن عبادان (الجزيرة الواقعة في دلتا شط العرب) مـن أنها كانت موضعا « فيه قوم مقيمون للعبادة والانقطاع ، وكانوا قديما في وجه الثغـر ، ويسمى الموضع بذلـك » . (ياقوت : معجم البلدان ، مـادة عبادان ، ج ٤ ، ص ٧٤) .

تمت شروح الكتاب الثاني من المثنوي

(١) السلمى : طبقات الصوفية ، ص ٣٠ .



فهارس الكتاب



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

كشاف الأعلام والجماعات والأماكن

تشير الارقام في هذا الكشاف الى صفحات الكتاب .

أ

ب

ت

ش

ص

ط

ن

كشّافُ المَوضُوعات

١ ـ يضم هذا الكشاف الموضوعات والمصطلحات الواردة في ترجمة الكتاب وشروحه .

٢ ـ الارقام في الكشاف تشير الى ارقام الابيات في الترجمة .

٣ ـ الارقام المسبوقة بحرف ش تشير الى ارقام الشروح والدراسات الملحقة بالترجمة .

ب

ت

خ

ز

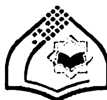
س

غ

ن

ى

تم الكتاب



THE MATHNAWI OF JALAL-UD-DIN RUMI

BOOK TWO

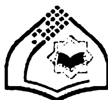
TRANSLATED WITH AN INTRODUCTION & COMMENTARY

BY

MUHAMMAD A. KAFAFI, PH. D.

Professor of Islamic Literatures, Cairo University
Dean, Faculty of Arts, Beirut Arab University

AL-MAKTABAH AL. ASRIYYAH
Sidon . Beirut
1967



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

THE MATHNAWI

OF

JALAL-UD-DIN RUMI

BOOK TWO